

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الثامن / ١٤٢٨ هـ - ٢٠١٦ م

رئيس التحرير

د. إسراء محمد البشير مفرّح

سكرتير التحرير

د. شمس الدين الفكي محمد الحسن

أعضاء هيئة التحرير

د. جعفر محمد العبيد منصور

د. محمد مصطفى محمد صالح

أ. سفيان علي آدم

أ. أميمة التجاني عبد الرحمن

أ. ريباز يحيى محمد إبراهيم

أ. هبة محمد حسين

رقم الايداع : ٢٠١٠/٣٥

الترقيم الدولي : ردمد ISSN 1585-5884

الناشرون :

قسم الدراسات الإسلامية وقسم الثقافة الإسلامية – جامعة الخرطوم

الطابعون :

مطبعة جامعة الخرطوم للطباعة والنشر

الإشراف الفني

مجاهد الأمين عبد الرحمن فتح العليم

محمد محي الدين طه درار

المصحح والمراجع اللغوي

د. محمد مصطفى محمد صالح

د. جعفر محمد العبيد منصور

تصميم الغلاف

Media & Technology Solution

قسم الدراسات الإسلامية ، جامعة الخرطوم

الخرطوم - السودان ، ص. ب ٣٣١/١٨ ، هاتف : ٠٩١٢٢٤٥٦١٤ - ٠٩١٢٢٧٩٠٩٦

E. mail: isjurnal321@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الثامن / ١٤٢٨ هـ - ٢٠١٦ م

محتويات العدد

افتتاحية العدد

- ٥ رئيس التحرير
- تعدد معاني التطرف ومفاهيمه بين الذات والآخر في السياقات المختلفة**
- د.مبارك حسين نجم الدين
- ٧ د/ حربية محمد أحمد عثمان
- الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين**
- ٣٥ د. أنس إبراهيم محمد عبد الباقي
- الغلو والتطرف الفقهي "جدلية النص والاجتهاد"**
- ٥٩ أ.د. عامر عباس حمد

التطرف الديني : في التوصيف والتصنيف والنماذج

- د. قيصر موسى الزين ١٠١
- بعض مظاهر التطرف في الدراسات الاستشراقية للإسلام ونقدها**
” نموذج دراسة جوزيف شاخت للفقهاء الإسلامي “
- د. محمد مصطفى محمد صالح ١٢٣
- منابع التطرف وأسبابه ” دراسة في الحالة الإفريقية “**
- د. الصادق محمد آدم سليمان ١٤٥
- التطرف والغلو ” الأسباب والآثار والعلاج “**
- د. عبد الحي القاسم عبد المؤمن عمر ١٧٣
- التطرف ما بين الأسباب الكامنة والحلول الممكنة ” رؤية نفسية “**
- أ. تهاني هاشم خليل عابدين ٢٠٣
- صياغة رؤية إسلامية وسطية للحوار والتعايش الديني مع الأقليات غير المسلمة**
- د. هويدا صلاح الدين العتباني ٢٢٧
- العنصرية والقومية السلبية السمات والحلول**
من خلال كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي
- أ.د. فيروز عثمان صالح ٢٥٣
- دور الإعلام الجديد في التصدي لظاهرة التطرف وتعزيز الوسطية**
- د. محمد خليفة صديق ٢٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة
للعالمين ، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

القراء الكرام ، ، ، ، ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، نضع بين أيديكم العدد التاسع من مجلتكم
﴿الْبَيْتُ الْإِسْلَامِيُّ﴾ ، الذي تتناول موضوعاته قضية شغلت الرأي العام ، وأثرت في
مجريات الأحداث محلياً وإقليمياً وعالمياً ؛ ألا وهي قضية ” التطرف ” وما يرتبط بها
ويكتنفها من دلالات سالبة وأحكام يوصم بها الخصوم والمخالفون في الرأي تارة ،
وتبرر بها التدابير التي تنتقص من حرية وكرامة الإنسان تارة أخرى ، هذا من جهة
ومن جهة أخرى تُربط بأنماط من الفعل مجانبة لحد الاعتدال في الاعتقاد والسلوك ،
الذي ينتج عنه تهديد الأمن والسلم الشخصي والمجتمعي محلياً وعالمياً .

استوفت موضوعات العدد بعض قضايا التطرف المعاصر ” المفاهيم ،
الواقع ، الحلول ” ، فبيّنت دلالات اللفظ ” التطرف ” واستخداماته ومرادفاته
اللغوية وتطوره التاريخي وارتباطه بالمعتقدات الدينية والفكرية ؛ وأستعرضت
وصُنفت نماذج من صور التطرف الديني والفكري التاريخي والمعاصر وانعكاساتها
على الواقع ، مع محاولات لتشخيص الأسباب المؤدية للتطرف التي تتراوح بين
التطرف في تأويلات النصوص الدينية ، والمتغيرات السياسية والاجتماعية ،
والاستعدادات النفسية. كما اقترحت الحلول وسبل المعالجة ، مع إبراز أهمية
الاستفادة من وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي الحديثة في التصدي للتطرف
ونشر قيم الوسطية والتعايش السلمي .

والله ولي التوفيق

رئيس التحرير

مستشارو هيئة التحرير

- | | |
|------------------------------|-------------------------------|
| أ.د عبد الباقي دفع الله أحمد | أ.د حسن الحاج علي |
| أ.د حسن مكّي محمد أحمد | أ.د فيروز عثمان صالح |
| أ.د تاج السر حران | أ.د إبراهيم أحمد الحارذلو |
| أ.د حسن الساعوري | أ.د على أحمد بابكر |
| أ.د الطيب زين العابدين | أ.د الطاهر ساتي |
| أ.د زكريا بشير إمام | أ.د محمد سر الختم محمد أحمد |
| أ.د سليمان كرم | أ.د أحمد الياس حسين |
| أ.د أبشر عوض محمد إدريس | أ.د إسماعيل محمد حنفي |
| أ.د حسن أبو عشة | أ.د جلال الدين الطيب محمد علي |
| أ.د الشريف مدثر القطبي | أ.د زهير عثمان على نور |
| أ.د محمد زين الهادي العرمابي | أ.د إبراهيم نورين إبراهيم |
| أ.د رقية السيد الطيب | أ.د محمد عثمان أبو ساق |
| د. الخبر يوسف نور الدائم | د. إبراهيم صباحي |
| د. عبد الله حسن زروق | د. حسن علي الشايقي |
| د. عبد الرحمن الصديق | د. تاج السر عبد الباري |
| د. الطيب أحمد شمو | د. عثمان محمد عثمان |
| د. محمدين الطيب البدوي | د. عبد الله حمدنا الله |
| د. قسم الله علي المريود | د. قيصر موسى الزين |



تعدد معاني التطرف ومفاهيمه بين الذات والآخر في السياقات المختلفة

د. مبارك حسين نجم الدين

قسم اللغة العربية ، كلية اللغات ، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

د/ حربية محمد أحمد عثمان

كلية التربية ، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

المستخلص :

تناول هذا البحث مفهوم التطرف ومعانيه المتعددة في السياقات المختلفة بين الذات والآخر ، وفيه جرى بيان الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والمعاني المغايرة له ، كما تم بيان المفاهيم التي ارتبطت بهذا المصطلح في واقعنا المعاصر ؛ نتيجة لعوامل الترجمة من الإنجليزية والفرنسية ، ومن العربية إلى الإنجليزية والفرنسية. وكذلك الإعلام بوسائطه المتعددة ، وتعتمد خلط المفاهيم ؛ لإيجاد الذرائع والحجج لضرب الإسلام في عمقه الفكري والثقافي ، ولتبرير الحرب والغزو.

ومن أهم أهداف هذا البحث : شرح مفهوم التطرف وتحديد معانيه ، وبيان الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملابسة إياه ، ثم إمطة الغموض والالتباس الذي سحب على مفهوم التطرف والإرهاب. والمنهج الذي اتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي مع الإفادة من المنهج التاريخي.

ومن أهم النتائج التي أسفر عنها البحث : لم يستخدم التطرف بمفهومه المعاصر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وإنما استعملت مرادفاته كالغلو والتنطع والتعصب ، كذلك لم يكن التطرف ومرادفه الإرهاب دالا على الترويع والرعب والهول والفرع والإبادة والتهديد والإكراه في سياق الحضارة الإسلامية.

المقدمة :

الحمد لله الذي علم القرآن وخلق الإنسان ، فعلمه البيان والصلاة والسلام على الذي أوتي جوامع الكلم فأفصح وأبان وعلى آله وصحبه السادة الأعيان وبعد ، فإن اللغة بألفاظها وأعرافها ورموزها ومصطلحاتها ، هي الخصيصة الإنسانية والإفصاح كان من ضرورات الفهم والإفهام ، والتواصل والتعليم والتعلم والإعلام ، التواضع والتعارف على دلالات الألفاظ ومفاهيمها ومعانيها وضعيا في الحقيقة وعرفيا في المجاز والاصطلاح والاتساع ، وقد كان ضبط الاصطلاح وربط الألفاظ بدلالاتها وضعيا وعرفيا ، من دواعي الإبانة والتعليم والإفهام ونفي الغموض والإلباس ولهذا وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه مبين كما علم نبيه ﷺ الفصاحة والإبانة.

ولما كانت الإبانة والإفصاح والوضوح ضرورية لنفي الإلباس والغموض ودرء الوهم وسوء المقاصد فإن علماء الإسلام قد عنوا بشرح المصطلحات وحدها وقد بلغ علماء الفقه والمحدثون في ذلك شأوا عظيما ، فكان بيان المصطلح ووضوح دلالاته هما يضطلع به العلماء واللغويون إلى أن أقصيت العربية عن الاستعمال في الإدارة والتعليم والإعلام وحلت الإنجليزية والفرنسية مكانها ، وكثرت الترجمة غير الآمنة ؛ فألبست كثير من ألفاظ العربية ومصطلحاتها دلالات ومفاهيم غريبة قصداً للإلباس والإرباك ، وضربا للتصورات والأفهام ؛ لتسود الفوضى المفاهيمية وفي غمار هذه اللهجة المضطربة ، أشربت ألفاظ كثيرة معاني من سياقات الثقافة الغربية ومن تلك الألفاظ ، ألفاظ التطرف والغلو والإرهاب والأصولية ، التي أصبحت بمفاهيمها الملتبسة غطاء قانونيا وأخلاقيا لضرب الإسلام في عمقه الثقافي والاجتماعي والحضاري ، ولاغتيال نهضته باسم مطاردة الإرهاب والقضاء على الأصولية والتطرف وغيرها ، من النعوت التي صارت تلصق بالمسلمين. ونسبة لهذه العوامل والاعتبارات ؛ عنيت هذه الدراسة ببيان معاني مصطلح الغلو والتطرف ورديفها مصطلح الإرهاب في سياق مسيرة هذه الألفاظ تاريخياً عبر حقب الحضارة الإسلامية ، وفي الواقع المعاصر بين الذات المسلمة ، وما فيها من جدل واصطراع من جانب والآخر المناوئ ، وهو الحضارة الغربية بما فيها من مخيلة عدائية تجاه الإسلام من جانب آخر ، وللوصول لتجلية مفاهيم تلك الألفاظ كان لا بد من توجيه السؤالات التالية :

سؤالات البحث :

- (١) ما معاني التطرف ومفاهيمه ؟.
 - (٢) ما الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملابسة له ؟.
 - (٣) ماتجليات معاني التطرف والغلو في سياقات الحضارة الإسلامية ؟.
 - (٤) ما المعاني المتضادة والمشاركة ” المترادفة “ لمصطلح التطرف في واقعنا المعاصر ؟.
 - (٥) كيف كانت انعكاسات معاني مصطلح التطرف بين الذات والآخر ؟.
- وقد سعى هذا البحث لتحقيق الأهداف التالية :

أهداف البحث :

- (١) شرح مفهوم مصطلح التطرف ومعانيه.
- (٢) بيان الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملازمة له.
- (٣) إماطة الغموض والإلباس الذي سحب على مفهوم التطرف والإرهاب قصداً.
- (٤) إبراز المفاهيم والدلالات الخفية التي نقل إليها مصطلح التطرف وأنه ويؤرى به عن الإسلام.
- (٥) توضيح أن التطرف والإرهاب يقصد به الإسلام عموماً ، وأن الألفاظ استعملت لتبرير ضرب الإسلام والمسلمين.

منهج البحث :

اتبع الباحثان في هذه الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التاريخي لملاءمة كل منهما لطبيعة المادة اللغوية وتقلبها في السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية.

مخطط البحث :

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ومباحث أربعة هي :

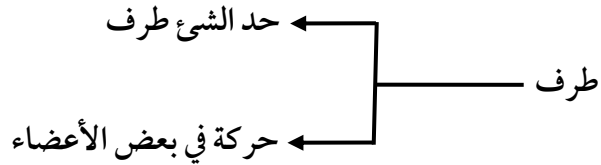
- ◆ مفهوم التطرف ودلالاته.
- ◆ الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملتبسة به.
- ◆ مفاهيم التطرف والغلو في واقع حضارة الإسلام.
- ◆ مفاهيم مصطلح التطرف ومرادفاته بين الذات والآخر.

مفهوم التطرف ودلالته :

لفظ التَطَرُّف على وزن التَفَعُّل مصدر يرجع إلى الأصل اللغوي ” الطاء ، والراء ، والفاء “ هذه المادة اللغوية يرى ابن فارس أنها أصلاً : يدل الأول على حد الشيء وحرفه ، ويدل الثاني على حركة في أحد الأعضاء.^(١)

^(١) ابن فارس ، المقاييس في اللغة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ ، مادة (طرف) ص ٣٢٥ .

(مخطط (١) يوضح أصل مفهوم التطرف)

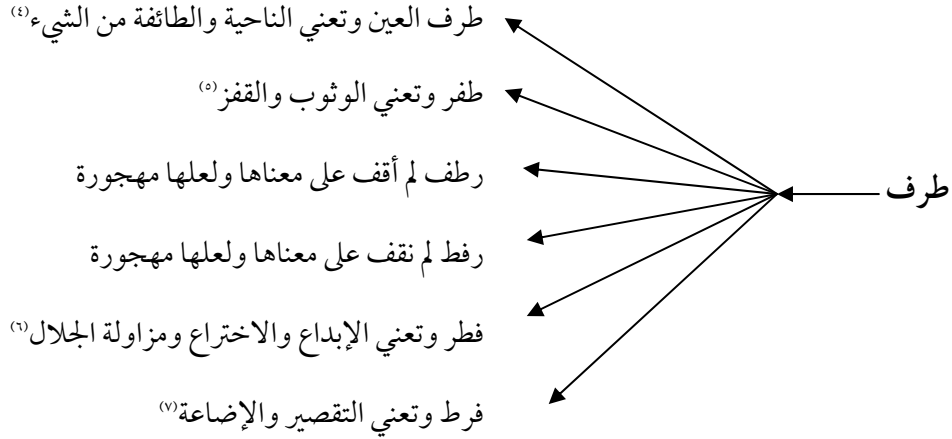


المرجع: "من إبداع الباحثين" ٢٠١٥م

وطرف الشيء جانبه ، ويستعمل في الأجسام مثل طرف الثوب ، وطرف الحائط ، كما يستعمل في الأوقات وغيرها كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ [هود : ١١٤] ومنه استعير قولهم هو كريم الطرفين ، أي الأب والأم ، وقيل الذكر واللسان إشارة للعفة^(١) ، والطريف هو المستحدث ، والطراف ما يؤخذ من أطراف الزرع ، وناقاة طرفة ترعى من أطراف المرعى ولا تختلط بالنوق ، وهذا على دلالة الأصل الأول ، ومن الأصل الثاني طرف العين أي تحرك جفنها ويعبر به عن النظر ؛ لأن تحريك الجفن لازمه النظر^(٢) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] وإذا أديرت هذه المادة اللغوية "الطاء ، والراء ، والفاء" على حروفها الأصول وفق تقاليد الخليل - رحمه الله - تولدت عنها ستة أصول هي : طرف ، وطر ، ورفط ، ورفط ، وطرط ، وطرط ، ورفط ، ونجد لكل أصل معنى فرعي يرجع إلى المعنى الأصلي والبيان التالي يوضح ذلك :

(١) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، لبنان ، ط ١ ٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ ، مادة (طرف) ص ٣٢٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، مادة طرف ، ص ٣٢٠ .

(مخطط ٢) يوضح تقاليد لفظ (طرف) ومعانيها)



المرجع "من إبداع الباحثين" ٢٠١٥ م

وجماع معاني هذه المادة اللغوية هي التنحي والحركة ، تلك هي المعاني الوضعية لمادة "الطاء ، والراء ، والفاء" وتلك هي استعمالاتها في لسان العرب ومن اللفظ اللغوي الأصلي اشتق مصطلح التطرف وبناء عليه فإن معانيه ودلالاته اللغوية منها : لزوم الطرف ، والوثوب ، والتنحي ، والابتداء ، والتقصير ، والإضاعة ، وجماع هذه المعاني هو التنحي والاضطراب ، وعن المعنى اللغوي جاز المعنى الاصطلاحي. والتطرف في الاصطلاح هو إتيان الطرف والتنحي أي مجاوزة حد الاعتدال وهو نقيض التوسط^(٨) ، والناظر في الدلالة الصرفية لفعل التطرف يجد من معانيها التكلف مثل التحلم والتصبر والتشجع أي تكلف الحلم والصبر والشجاعة ، فدلالة التطرف من هذا القبيل تكون هي : إدخال الشخص نفسه

(٤) حمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح دار التوفيقية للتراث ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، د.ت ، ص ٢٥١ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٣ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٥ .

(٨) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، دار المعارف ، القاهرة - مصر ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، مادة (طرف) ، ص ٥٨١ .

في طرف من أمر ما ليكون من أهله أي يكون متكلفا فيما يأتي به^(٩) وأيضا من دلالة وزنه الصرفي الاتخاذ نحو توسد التراب أي اتخذه وسادة ، وتطرف الرجل أي اتخذ الطرف جانبا وملاذا^(١٠) وقال صاحب أساس البلاغة : تطرفه إذا أخذه من أطرافه^(١١) وتحيفه. ذلك مفهوم التطرف في نظر القدامى من أهل اللغة العربية مسلمين وعربا وكان مصطلح الغلو والرفض هو الأكثر استخداما لديهم ويعبر عما يعبر عنه التطرف اليوم ، أما مفهوم التطرف عند المعاصرين من متكلمي اللغة العربية فقد أصبح مفهوما يصعب تحديده أو إطلاق تعميمات بشأنه ؛ نظرا لما يشير إليه المعنى اللغوي للفظ التطرف من تجاوز لحد الاعتدال ، وحد الاعتدال نسبي يختلف من مجتمع لآخر وفقا لنسق القيم السائدة في المجتمع ، وقد ذكر بعض الباحثين عددا من التعريفات تحدد مفهوم التطرف^(١٢) نذكر منها :

- (١) اتخاذ الفرد موقفا متشددا يتسم بالقطعية والحتمية في استجاباته للمواقف الاجتماعية التي تمهه والموجودة في بيئته ، وقد يكون إيجابيا في القبول التام أو سلبيا في اتجاه الرفض التام ويقع حد الاعتدال في منتصف المسافة بين الموقفين.
- (٢) الخروج عن القواعد الفكرية ، والقيم والمعايير والأساليب السلوكية الشائعة في المجتمع معبرا عن ذلك بالعزلة والسلبية والانسحاب ، أو تبني قيم ومعايير مختلفة قد يصل الدفاع عنها حد العنف في صورة فردية أو سلوك جماعي منظم بهدف إحداث تغيير أو فرض رأي بالقوة على الآخرين.
- (٣) استخدام العنف وسيلة لتحقيق المبادئ التي تؤمن بها فئة أو فرد مع اللجوء إلى الإرهاب النفسي والمادي والفكري.

ومن المصطلحات التي لا بست مفهوم التطرف والتأثت به في سياقات الترجمة من الإنجليزية إلى العربية مصطلح الرجماطيقية ويعني في سياقه الثقافي في اللغة الإنجليزية الانتساب ونقص المبررات والأدلة أو الجزم على الرأي وتوكيده والقطع به مع الغطرسة

^(٩) زين كامل الخويسكي ، فصول في دلالة الألفاظ ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

^(١٠) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠٩ .

^(١١) الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، د.ت مادة (طرف) ص ٣٨٨ .

^(١٢) www.moqat1.com - 15/10/2015 مساء الخميس الساعة ١٠ : ٤٤ .

ونقص المبررات والأدلة ، أو الجزم والقطع بالرأي بناء على مقدمات غير مخصصة تمحيصا وافيا^(١٣) وتعني أيضا الجمود والانغلاق العقلي ويتسم هذا المفهوم في سياقه الثقافي بنظرة إلى المعتقد أو الرأي أو الفهم تقوم على أن المعتقد صادق صدقا أبديا ومطلقا. ولا مجال للمناقشة ولا البحث عن أدلة تنفي هذا الرأي أو المبدأ أو تؤكد. والاستعداد لمواجهة المخالفين في الرأي بالعنف وإدانة كل ما يخالف هذا الرأي أو الفهم وقد بدا لنا هذا من معاني اللفظ [dogma] وما اشتق منه [dogmatism] التي تعني الجزمية أو القطعية مع الغطرسة التي تعني التناول والتكبر وعدم الإذعان للحق والاعتساف^(١٤) ومصطلح التطرف بهذا المفهوم لم يعرف في مسيرة الحضارة الإسلامية حتى عند الخوارج الذين عرفوا بالغلو والتطرف لأنهم قبلوا أن يناظروا ابن عباس رضي الله عنهما والإمام علي عليه السلام ورجع منهم إلى عسكر علي ألفان^(١٥) وأيضا من الألفاظ الملائمة لمصطلح التطرف لفظ الإرهاب الذي أصبح مصطلحا مرادفا للتطرف في الاستعمال المعاصر للغة العربية ، والناظر في جذره اللغوي يجده دالا على على الإخافة والرهبنة^(١٦) وهي دلالة يدخل فيها الخشوع والتخشع كما في الرهبانية والردع الذي يسبب الرهبة للأعداء بسبب الجاهزية والاستعداد ، وهو مفهوم محمود ، لكن الاستخدام الإعلامي المعاصر قد ألبس هذا اللفظ مفهوما جديدا بغرض الإلباس والتلبيس والخلط ؛ إذ أصبح يفهم من خلال الاستعمال المعاصر في الإعلام أن الإرهاب هو العمل الإجرامي المصحوب بالرعب أو العنف أو الفزع ، وهذا المفهوم الملبس مفهوم مقصود وفيه خلط متعمد تدخل في توجيهه المصالح الخاصة. وقد وردت هذه المفاهيم الملائمة للفظ الإرهاب في سياق الترجمة عن اللغة الفرنسية والإنجليزية إذ وضعت كلمة الإرهاب العربية ذات الجذور القرآنية في مقابل المصطلح الإنجليزي ورصيفه الفرنسي [terrorism] الذي يدل في سياقاته على الرعب والذعر والهول ، وكل ما يوقع الرعب في النفوس كما يدل على

(١٣) منير البعلبكي ، المورد [قاموس إنجليزي عربي] دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط ٤٠ ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٨٧ مادة dogma

(١٤) إبراهيم أنيس و آخرون ، المعجم الوسيط ، مادة ” غطرس “ ص ٦٨٧ .

(١٥) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة و الأدب ، مؤسسة المعارف ، بيروت لبنان ، ط ١ ، د.ت ، ج.خ ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(١٦) الرازي ، مختار الصحاح ، مادة ” رهب “ ص ١٣٥ .

الإكراه ، وقد تولد هذا المصطلح في أوروبا نتاجاً لتيارات الثورة الفرنسية والثورات الدينية بما فيها من احتجاج وخروج وحرمان كنسي ، والمطلوب اليوم من أصحاب الأقلام والإعلام وجوب الحذر مما ينشأ من هذا الخلط والتلبس بين معاني كلمة إرهاب ودلالاتها القديمة في العربية والقرآن والدلالات المعاصرة التي لاتزال مفتقرة للضبط والتمحيص حفاظاً على سلامة اللغة العربية والهوية الإسلامية.^(١٧)

وقد ارتبطت بمصطلح التطرف ألقاظ تفسر معناه بالمغايرة والترجمة ” الترادف “ وتفسير المغايرة هو تفسير اللفظ بذكر ضده كقولك التطرف خلاف التوسط والاعتدال فالألقاظ المغايرة التي يستدعيها مصطلح التطرف هي التوسط والاعتدال والوسطية والرفق واللين. أما التفسير بالترجمة وما يستدعيه من ألقاظ ترتبط بمصطلح التطرف فيكون بذكر الألقاظ المرادفة مثل الإفراط والغلو والتنطع والرفض والشدة والعنف والتعصب والتشدد. وهكذا يمكن ملاحظة نمو دلالات مصطلح التطرف من معانيه اللغوية الدالة على لزوم الطرف والتنحي والاضطراب إلى معانٍ سياقية جرّها الاستعمال واستدعاها اختلاف السياقات ليكون غلواً وعنفاً وتعصبا وتزمتاً وإرهاباً وأصولية تتربص بالمدينة والحضارة كما يصوره الإعلام الغربي.

والإعلام الغربي في سياقاته السياسية والثقافية والعسكرية ، وفي سياقات الترجمة من الإنجليزية والفرنسية ارتبط مصطلح التطرف عنده بمعانٍ كثيرة لم تكن من أصله ولا جذوره مثل الأصولية ، في مقابل **Fundamentalism** وقد ولد هذا المصطلح الإنجليزي الذي يعني الأصولية أو مذهب العصمة في سياق حركات الاحتجاج الديني في أوروبا العصور الوسطى إبان عصر الثورات وكانت تلك الاحتجاجات خروجاً على الكاثوليكية ، وقد تولد هذا المصطلح داخل المذهب البروتستانتي للدلالة على عصمة الكتاب المقدس ، وقد عرفت في سياق هذا المذهب ” البروتستانتي “ حركة حرفية في القرن العشرين تؤكد أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ ، ثم صار المصطلح يطلق على التعصب والتشدد والتزمت^(١٨) في السياقات الدينية الأوروبية وانتقل إلى الإعلام ليسحب على الحركات التي تنشأ التحرر

^(١٧) موقع الإسلام <http://www.al-islam.com> ، تاريخ الزيارة في يوم الخميس ١٥ /

١٠ / ٢٠١٥م

^(١٨) منير البعلبكي ، المورد ، ص ٣٧٣.

والاستقلال وتدافع عن حقوق المسلمين وحررياتهم فأصبحت هذه الحركات أصولية ومتمتة ومتعصبة ومتشددة كما صورها الإعلام الغربي. وهكذا نرى أن مصطلح التطرف قد حمل دلالات جديدة لم تكن من أصله وأصبح مرادفاً للتزمت والإرهاب والانغلاق الفكري وادعاء العصمة.

والناظر في السياقات التاريخية والثقافية للألفاظ المغايرة للفظ التطرف والغلو يجدها تدل على أن الإسلام دين سماحة ورفق ولين ورحمة وحرية، ومما ورد منها في الحديث قوله ﷺ: "عليك بالرفق يا عائشة فإنه ما كان في شيء إلا زانه وما نزع عن شيء إلا شانه" (١٩) ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [النمل: ٤٤] وقوله ﷺ: "بارك الله في رجل سمح إذا باع وإذا اقتضى". (٢٠) فكل تلك الألفاظ دالة على الرفق وأمرة به وحاضرة عليه في التعامل والتقاضي والدعوة والتربية والتعليم داخل المجتمع الإسلامي وخارجه لأنه من المقاصد الكبرى للإسلام إلحاق الرحمة بالناس قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

الألفاظ المرادفة للتطرف والمتبسة به :

اتضح من المبحث السابق أن مصطلح التطرف في العربية مشتق من الأصل اللغوي "ط، ر، ف" وهو أصل يدل على معنيين أساسيين هما: حرف الشيء وحده، وحركة في عضو ما (٢١)، وتولدت عن هذين المعنيين الأساسيين معانٍ متعددة جرى بها الاستعمال في العربية اتكاء على التجوز والاتساع والأعراف الطارئة مثل الأب والأم كما في قولهم: هو كريم الطرفين (٢٢)، ومثل النظر كما في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦].

(١٩) مسلم، صحيح مسلم.

(٢٠) البخاري، صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب البيوع، باب السهولة والسباحة ج ص ٩٠٧٦.

(٢١) ابن فارس، المقاييس في اللغة، مرجع سابق مادة (طرف) ص ٦٣٤.

(٢٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، مادة (طرف)، ص ٣٢٠.

ومثل التنحي كما في قولهم : تفرقوا في الأطراف ؛ أي في النواحي^(٢٣) ، ومثل الملل كما في قولهم : وإنه لذو ملة طَرَف أي لا يثبت على إخاء واحد ومنه قولهم امرأة طرفة أي لا تثبت على زوج وإنما تستطرف الرجال.^(٢٤)

والمدقق في دلالات لفظ التطرف ومعانيه ومشتقاته وسياقات استخدامها في لسان العرب طوال أزمنة الحضارة الإسلامية ، لا يجده قد استخدم في مفهوم الغلو والتعصب والتشدد وإنما الذي كان مستعملا من المصطلحات الدالة على تلك المعاني من مفاهيم تجاوز حد الاعتدال فهي الغلو وقد وردت في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ [النساء : ١٧١] كما ورد لفظ التنطع في السنة المطهرة دالا على المبالغة والمغالاة والتعمق وتجاوز الحد في الأفعال والأقوال كما في قوله ﷺ : ” هلك المنتطعون “^(٢٥) قالها رسول الله ﷺ ثلاثا أي ثلاث مرات ، كما ورد في السنة المطهرة لفظ المشادة دالا على المبالغة والتجاوز ، قال ﷺ : ” إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا و استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة “^(٢٦).

وكثرة الاستعمال تزيل الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ فيعمل متكلمو اللغة لجعلها مترادفة ثم يستعملونها في الشرح وقد سمي هذا بالتفسير بالترجمة ؛ أي تفسير كلمة بكلمة مرادفة^(٢٧) لها وقد وقع هذا في سياق الاستعمال لمصطلح التطرف إذ فسر بالغللو والتعصب وبالترجمة والتشدد فالتبس بدلالات تلك الألفاظ خاصة في استعمال المعاصرين ثم كانت الترجمة عن الإنجليزية للعربية فوضع مصطلح التطرف مقابلا للفظ الدجماطيقية [dogmatism] الذي يدل في الإنجليزية على النسبة للعقيدة والارتباط بها ، هذا في أصل المعنى ثم صار يدل على الجزمية وهي توكيد الرأي والقطع به بغطرسة أو من غير مبرر كاف وكل ذلك عندهم مستمد من علم اللاهوت أو العقديات [dogma tics] وهو علم معني بتفسير دين ما.^(٢٨)

(٢٣) الزمخشري ، أساس البلاغة ، مرجع سابق ، مادة (طرف) ، ص ٣٨٨.

(٢٤) المرجع السابق نفسه.

(٢٥) مسلم ، صحيح مسلم.

(٢٦) البخاري ، صحيح البخاري (٣٩).

(٢٧) مصطفى محمد عبد المجيد ، الألفاظ والدلالة ، مؤسسة حورس الدولية الإسكندرية –

مصر ، ط ١ ، ٢٠١٠م ، ص ٢٦.

(٢٨) منير البعلبكي ، المورد ، مصدر سابق ، ص ٢٨٧.

وهنا نلاحظ أن مصطلح الدقماطيقية [dogmatism] مستمد من سياقات دينية في البروتستانتية التي ورثت مقولة اليهود أنهم الشعب المختار وهي مقولة تحمل في جذورها التفوق العرقي والديني وكل هذا التراكم الدلالي في استعمال مصطلح الدقماطيقية قد سحب في عصرنا الحالي على مصطلح التطرف وقد كان هذا خلطا متعمدا للمفاهيم خاصة في الخطاب السياسي الأمريكي^(٣٠) الذي استجر الصورة القائمة التي رسمها الباباوات في أوروبا الكاثوليكية في العصور الوسطى وهي صورة مشحونة بالكراهية والتصور الخرافي والخوف الممزوج بالاحتقار للإسلام^(٣١) وفي سياق الاستعمال لدى أهل الإعلام والقلم نجد أن لفظ التطرف لا بسه لفظ آخر أصبح مصطلحا متداولاً وهو لفظ الإرهاب وهو لفظ يدل في أصله العربي على التخشع والخوف والإخافة والردع، ولا يدل على الترويع ولا الإكراه ولا الرعب ولا الهول ولك أن تنظر لهذه المادة اللغوية ”رهب“ في سياقاتها القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقوله تعالى ﴿أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ [الحشر: ١٣] وقوله تعالى ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقوله تعالى ﴿وَاسْتَزْهَبُواهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦] وقوله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، فجماع معاني هذه المادة اللغوية ”رهب“ كما رأيناها في بعض آي القرآن الكريم تدل على المخافة مع التحرز والاضطراب وهو معنى لا علاقة له بالهول والفرع كما يلاحظ ثم جرى استعمال لفظ الإرهاب في عصرنا الحاضر ليكون مقابلاً للفظ الإنجليزي [terror] وما اشتق منه مثل [terrorism] مع أن هذا اللفظ الإنجليزي يدل في سياقاته المختلفة على الرعب والهول والذعر والفضاعة، وكل ما يوقع الرعب في النفوس كما يدل على القلق والإكراه^(٣٢) ثم تطور اللفظ ليصبح [terrorism] ويدل على كل تلك المعاني المرتبطة بالهول والفرع والفضاعة والإكراه، وجاءت الترجمة من الإنجليزية إلى العربية لتضع لفظ الإرهاب العربي في مقابل لفظ الهول والفضاعة والترويع الإنجليزي [terrorism] وهكذا التبتت دلالات الهول والإكراه والفضاعة والرعب بلفظ الإرهاب وهو لفظ قرآني لم يرد في سياقاته العربية قديماً، والقرآنية قديماً وراهنا بتلك المعاني.

(٣٠) محمود إسماعيل، آراء ورؤى في الفكر والتاريخ والفن والأدب، دار رؤية للنشر، القاهرة - مصر، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٥٣.

(٣١) المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.

(٣٢) منير البعلبكي، المورد، مرجع سابق، ص ٩٦٠.

وعند تحليل تغيير دلالات ألفاظ التطرف والإرهاب لتكون دالة على معان ودلالات ومفاهيم لم تكن من أصولها ولم ترد في سياقاتها التاريخية والثقافية ، نجد أن الإعلام الغربي قد وظف اللغة لتكون سلاحا يضرب به العمق الثقافي والديني للمسلمين وليجزم الإسلام على اعتبار أن لفظ الإرهاب قد وردت مشتقاته في القرآن الكريم ، هذا الأمر مدروس ومدبر لأن الحرب والسلم إنما كانت كل واحدة منهما فكرة في الأذهان ولأن الفكرة لا تولد خارج اللغة فإن تراث الصراعات البشرية على مر العصور يدل على أن هناك اهتماما مستمرا باختيار الخطاب تمهيد السبيل أمام الفعل ، وعلى الدوام كان هناك من يصوغون لغة الخطاب لتكون الأفكار مقبولة قبل تنفيذها.^(٣٣)

والشاهد على ما سلف ، ما كان في الحروب الصليبية إذ استخدم الصليبيون والباباوات والقساوسة اللغة وكان الخطاب المستخدم آنذاك يناسب العقل الأوروبي الغربي وخلطوا السياسة بالدين فكانت المفاهيم تصف المسلمين بأنهم الكفار وتصف النبي ﷺ أنه المسيح الدجال. والناظر في حويلات ومدونات الحروب الصليبية يجد لغتها ممزوجة بقدر كبير من الشتائم والإهانات التي تحط من قدر المسلمين ، وفي الجانب الآخر يجد ألفاظها تمجد الصليبيين أنهم شعب الله المختار وأنهم جنود الرب ، وجيش المسيح والحجاج وغيرها.^(٣٤) تلك الصور الكريمة للمسلمين والإسلام في المخيلة الأوروبية نشأت في دائرة الكنيسة ، وتعود في صكها وصياغتها للخطاب اللاهوتي المسيحي في القرون الوسطى ، وقد اعتمد ذلك الخطاب على اللغة في الإثارة والتحميس ضد الإسلام والمسلمين ، وهي الصورة التي جرت إعادتها في مطلع القرن الحالي مصورة الإسلام على أنه دين إرهاب وأن المسلمين خطر على الحضارة الغربية^(٣٥) وخلط المفاهيم وإلباس الألفاظ دلالات غير دلالاتها واضح جدا ؛ لتخدم الأغراض التوسيعية والمصالح الذاتية للغرب الأوروبي الأمريكي ، وذلك كله مستمد من تراث اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويهدون إلى استخدام الملاحن من تورية واستعارة لتحقيق أهداف خفية ، وقد أشار القرآن لذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعْرِفْنَهُمْ فِي

^(٣٣) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، كتاب العربي ، وزارة الإعلام الكويتية ، الكويت ، ط ١ ، ٢٠٠٩م ، ص ٥١ .

^(٣٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣ .

^(٣٥) محمود إسماعيل ، آراء ورؤى ، مرجع سابق ، ص ١١ .

لَحْنُ الْقَوْلِ ﴿ محمد : ٣٠ ﴾ والمقصود به الكلام المورى به المزال عن جهة الاستقامة والظهور.^(٣٦)

وإذا كان أمر اللحن الذي يدل على التورية والإلغاز والاستعارة والرمز محمودا في البلاغة والأدب لما فيه من الطرافة ، فإنه غير محمود في الخطاب العلمي والإعلامي ؛ لما فيه من التلبيس والإيهام ويكون عندئذ تحريفا ، وتحريف الكلام أن يجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على وجهين^(٣٧) قال تعالى في شأن اليهود : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [النساء : ٤٦] وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥].

مفاهيم التطرف والغلو في واقع حضارة الإسلام :

اتضح في المبحث الأول من هذا البحث معاني التطرف اللغوية ودلالاته السياقية في الاستعمال وضعا وعرفا كما جرى بيان الألفاظ المغايرة له في المعنى والمرادفة كذلك ، وفي المبحث الثاني جرى توضيح المعاني والدلالات الملازمة له من سياق الترجمة في الإعلام والكتابة ، أما في هذا المبحث فيجري بيان مفاهيم التطرف في واقع الحضارة الإسلامية من لدن عهد النبوة والخلافة الراشدة إلى عهد السلطنة العثمانية. ففي هذه الأحقاب المتوالية تعاقبت الأجيال وازدهرت المدنية وارتقت الأذواق ونفقت أسواق العلم واستحكمت الصنائع ، ونضجت الثقافة واتسع مجال القول والفعل ، وفي مثل هذا الواقع الحضاري ذي المشارب المتعددة تكتسب الألفاظ معانيها الوضعية والعرفية ، وقد فطن علماء الإسلام لهذا فضبطوا الألفاظ وضعا ” لغة “ وعرفا ” اصطلاحا “ لتسهيل الفهم والتفهم^(٣٨) ولإزالة الإلباس والإيهام فازدهرت صناعة المعاجم اللغوية والاصطلاحية.

في مثل هذا الجو العلمي الثقافي الحضاري وجد لفظ التطرف ورديفه لفظ الغلو ، وقد رأينا في المبحث الأول مشتقات مادة ” طرف “ ودلالاتها في القرآن الكريم وقد اتضح لنا أنها تجري على معاني الناحية والجانب والنظر والاضطراب ، كما وجدنا أن مادة ” غلا “ تدور في الاستعمال على معاني عدة جماعها تجاوز الحد والمباغته والارتفاع.^(٣٩)

^(٣٦) ابن فارس ، المقاييس في اللغة ، مرجع سابق ، مادة (لحن) ص ٩٥٠.

^(٣٧) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، مصدر سابق ، مادة (حرف) ص ٢٨.

^(٣٨) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الجليل ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، د.ت ، ص ٦٠٧ ، ٦٠٨.

^(٣٩) ابن فارس ، المقاييس في اللغة ، مادة (غلو) ص ٨٠٢.

أما في سياق النصوص الدينية قرآنا وحديثا فإن الذي جرى استعماله ، وتعرف عليه هو لفظ الغلو وقد جاء في القرآن الكريم مخاطبا به أهل الكتاب كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [النساء : ١٧١] والمقصود به هنا المبالغة وتجاوز حد الاعتدال. وقد عبر عن التطرف والغلو في الحديث الشريف بلفظ التنطع ، وهو في اللغة التفصح والتعمق ورمي اللسان إلى نطح الفم.^(٤٠)

وأیضا التحذق وإظهار البراعة ، قال ﷺ : ” هلك المتنتعون “^(٤١) قالها ثلاثا أي ثلاث مرات ، إشارة لخطورة التنطع والغلو والتطرف على الدين والناس. فالتطرف ، والغلو ، والتنطع ، والمشادة ، والقسوة ، والغلظة وما تعلق بها من أنواع المعاملة مفاهيم غير مقبولة في دين الإسلام ؛ لأنها تؤدي إلى سلوك وأقوال وأفعال تفرق الصفوف وتوغر الصدور ، وهي أيضا مفاهيم مجافية لسماحة الإسلام الذي عرف رسوله ومبلغه بحسن الخلق والرفق واللين والشفقة ، قال تعالى في شأن رسوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١٥٩].

وقال تعالى في شأنه أيضا : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى في شأنه ﷺ أيضا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧].

وقد كان النبي ﷺ قدوة وأسوة حسنة للصحابة الكرام وللناس كافة في حسن الخلق واللين والرأفة والشفقة والرحمة والرفق ، عمل بذلك ودعا إليه فكان ﷺ في قوله وفعله وتقديره بعيدا عن الجفاء والغلظة والتعالي ، وإنما كان مثلا في التواضع ولذلك نهى عن تقنيط الناس فقال : ” أن رجلا قال والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : من ذا الذي يأتي علي أن لا أغفر لفلان فإني غفرت لفلان وأحببت عملك “^(٤٢).

(٤٠) الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة ” نطع “ ص ٦٣٩ .

(٤١) المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، عناية محمد بن عيادي مكتبة الصفا ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ص ٣٩٢ باب هلك المتنتعون .

(٤٢) الحافظ المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ص ٣٨٣ .

ويفهم من الحديث عدم تقنيط الناس من رحمة الله وعدم تضيق الواسع ، وقال ﷺ :
 ” إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم “^(٤٣) وفيه دعوة لعدم التئيس ودعوة للتبشير ،
 وكان النبي ﷺ يعمل على ترابط المؤمنين ومؤاخاتهم ويضرب لذلك الأمثال ومن ذلك قوله
 ﷺ : ” المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا “^(٤٤).

وكثرة من المواقف والأمثلة في سيرته المطهرة وأحاديثه المشرفة تدل على الاعتدال
 والتوسط والدعوة للرحمة والسعة والرفق وذلك ليخلو مجتمع الإسلام من الغلو ، والتطرف
 والتنطع لأن هذه الألفاظ تدل مفاهيمها على سلوك وأفعال وأقوال مجافية لوسطية الإسلام
 واعتداله. وقد برزت مثل هذه المفاهيم وتجسدت في سلوك وأقوال لأفراد وجماعات ظهرت
 بعيد جيل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، ومن هؤلاء الخوارج الذين غالوا في تدينهم
 عبارة وقولا وسلوكا ؛ فكفروا بجمهور المسلمين واستباحوا دماء مخالفيهم واغتالوا سيدنا علياً
 ﷺ وظلوا شوكة في خاصرة الدولة الأموية ، وقد سموا أنفسهم المحكممة ؛ أي الداعون
 لتحكيم كتاب الله ، أو القائلون لاحكم إلا الله كما سموها أيضا الشراة^(٤٥) وساهم جمهور
 المسلمين الخوارج وهو مصطلح يدل على رفضهم وتنطعهم وغلوهم ، ومثلهم غلاة الشيعة
 وغلاة المعتزلة وكذلك غلاة أتباع المذاهب.

وإذا استثنينا تلك الفرق والجماعات والأفراد من الخوارج والغلاة ، فإن سواد جمهور
 المسلمين عاشوا على مدار التاريخ في وسطية ، وسماحة ، ورفق في التعامل ، والتعايش ،
 والتعلم ، والتعليم وقد شهدت مجالس العلماء والأدباء في المساجد والقصور والدور ، كثيرا
 من الحوارات والمناظرات التي كان طابعها الرفق والموضوعية ورعاية الحق وبيانه ، وقد دلت
 على ذلك كتب الطبقات وكتب مجالس العلماء وكتب الرد التي من خلالها بان الحق
 والصواب ، وصححت الأخطاء ولا غرابة في ذلك ؛ لأن الطابع الموروث عن رسول الله ﷺ
 هو التواضع والتنزل لإبلاغ الحق ونشر دعوة الله من غير عصبية ولا عنجھية ولا غطرسة ولا
 تعالٍ ، والقرآن الكريم نفسه حافل بالدعوة للحوار والدعوة بالتّي هي أحسن كما في قوله
 تعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
 [النحل : ١٢٥].

(٤٣) الحافظ المنذري ، مصدر سابق نفسه ، ص ٣٨٤.

(٤٤) المصدر السابق نفسه ، ٣٧٩.

(٤٥) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٧٥.

فخلق النبي ﷺ، وسيرته المطهرة وسنته المشرفة وسيرة خلفائه الراشدين وسير علماء الإسلام وأعلامه، كلها تدل على التوسط وطلب الحق والرفق ولهذا انفتح علماء المسلمين على علوم الأولين بعد ما اضطلع بترجمتها حكام المسلمين وتعلموها وهذبوها وأغنوها فأسهموا في رقي الحضارة الإنسانية، لو كان في الإسلام عصبية أو تزمت أو جزمية بإدعاء الحق الأوحد، لما قبل اتباع الإسلام ترجمة علوم الأولين والأخذ بها؛ لأن المتزمت هو من يرى أن الحق في جانبه ولهذا لا يجاور الآخرين، ولا يأخذ عنها لتطرفه وغلوه وتزمته وإدعائه ملكية الحق، كما هو واضح في الرجماطيقية **dogmatism**، ولو كان في الإسلام تزمت أو عصبية أو غلوه أو تطرف لما دعا للحوار، ولما حفل القرآن الكريم بالدعوة للحوار كما في قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وبالدعوة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٥].

وتبرز لنا مسيرة الحضارة الإسلامية عبر حقبها الطويلة أن اختلاف الرأي وارد بين العلماء والقادة وأئمة المذاهب، هذا داخل الجماعة الحضارية التي تدين بدين واحد وتتكلم لغة واحدة وتعيش في وسط ثقافي واحد. وكان من أهم وسائل حسم الخلاف في الحضارة الإسلامية الحوار والتعايش ولم يكن اللجوء للحرب إلا عند استنفاد الفرص والوسائل. وعليه يمكن القول إن انعكاس مفاهيم الغلو والتطرف والإرهاب في سلوك أفراد الحضارة الإسلامية، لم يكن في درجة الغلواء والتطرف والتزمت، ولم يتجسد في أفعال تجاه الأفراد أو الجماعات المخالفة، إلا في حالات نادرة تعد استثناء، وحتى في حالة الخوارج فإنهم قبلوا المناظرات والحوار واقتنع بعضهم لما قام عليه الحق وخاض الباقون الحرب والذي يعد إرهابا وتطرفا في سلوكهم هو ما مثله نافع بن الأزرق في الأهواز من اعتراض الناس وقتل الأطفال^(٤٦)، ومثل هذه النماذج قليلة لا يمكن تعميم حكمها في القياس.

وقد مضت تلك الأحقاب بأجيالها وجاءت العصور الحديثة، وغزا الإنجليز والفرنسيون وغيرهم بلاد المسلمين، وسبقهم الاستشراق لزراع الفتن والمذهبيات والعصبيات والإثنيات، وغز الغزو تلك العصبيات والإثنيات بالأفكار والمال والتربية المغايرة؛ فنشأت الأزمة المعاصرة في بلاد المسلمين، وكثر فيها التزمت والتطرف والتكفير.

(٤٦) أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١٤.

وقد غزت الولايات المتحدة هذه الجماعات في فترة الحرب الباردة ، وزودتها بالمال والسلاح لضرب الاتحاد السوفيتي^(٤٧) ، ولما تم لها ما أرادت انقلبت على هذه الجماعات من الناحية الإعلامية فأطلقت عليهم ألفاظ الأصولية والسلفية وربطتهم بالإرهاب ثم ضخمت هذا في مفاهيم الغربيين والمسلمين واتخذت منه ذريعة لغزو أفغانستان والعراق والصومال .

والآن تعيش بلاد المسلمين - إلا من رحم ربي - تطرفا وتعصبا خلق فرقة وشتاتا وملاً رؤوس الشباب بالتعصب المقيت فجعل منهم نماذج لأعداء الإسلام ، ليلصقوا بهم تهمة تسبب الهول والذعر والفرع وتهديد الحضارة ، ووصمهم بمصطلح الإرهاب بعدما حرف هذا المصطلح وحمل دلالة المصطلح الإنجليزي dogmatism والآخر terrorism ، وربط هذا بمخيال الحروب الصليبية والصورة النمطية الكريهة التي رسمها مخيال الكنيسة الكاثوليكية ضد الإسلام والمسلمين في العصور الوسطى ، واستوحى ذلك كتاب أمريكا النافذون أمثال صمويل هنتجتون صاحب كتاب صراع الحضارات.^(٤٨)

وصفوة القول هي أن مفاهيم التطرف والغلو في واقع الحضارة الإسلامية لم يكن لها تجسد في سلوك الأغلبية الساحقة من الناس العاديين ، ولا العلماء ولا الحكام ، وإنما برز هذا السلوك المغالي والمتطرف عند أفراد قليلين من أتباع المذاهب وعند فئات قليلة من جماعات الخوارج وغلاة الشيعة وغلاة المعتزلة وفي ماعدا ذلك فإن الألفاظ المغايرة لمصطلح التطرف والغلو هي التي سادت مفاهيمها وتجسدت في سلوك المسلمين من انفتاح ، وإخاء ، وتعاون ، وحوار ، وتعايش ، وإعذار ، وتصويب ، ومراجعة ، ومناظرات ، وجدال بالتي هي أحسن ؛ ولذلك ارتقى الفكر الإسلامي وازدهرت العلوم ونبغ النابهون ، وعم الأمن ، وسمت الأذواق وكثرت الصنائع خلافا لما كان سائدا في أوروبا في العصور الوسطى .

مفاهيم مصطلح التطرف ومرادفاته بين الذات والآخر :

في هذا المبحث يجري بيان تجليات مفاهيم التطرف ومرادفاته من الألفاظ كالإرهاب والأصولية في سياقات واقعا المعاصر خاصة لدى أهل القلم والإعلام والسياسة

^(٤٧) بول سوزي وآخرون ، أمريكا اعتزاز بالآثام وتجميل للكذب ، ترجمة مازن الحسيني ، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ، أم درمان ، ط ١ ، ٢٠٠٦م ، ص ١٥٧ .

^(٤٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٠ .

وانعكاسات مفاهيم ومعاني هذا المصطلح في سلوك الأفراد والجماعات والمنظمات وفي أقوال الساسة وردود الأفعال الناتجة عن أقوالهم وتصريحاتهم.

ولا شك أن اللغة هي وعاء الفكر ، وبوتقة الحياة وأداة الإعلام ومعاون العلوم وموجهة السلوك العام لأن كثيرا من الأقوال والأفعال كانت أفكارا ورغبات في النفوس أو القلوب ولم تخرج إلى واقع الحس والعمل إلا مجسدة في ألفاظ تعبر عنها وتدلل عليها ، ولأن الأفكار لا تولد خارج ألفاظ اللغة فإن الاهتمام بالترويج الأيديولوجي والإعلامي لفكرة ما يرتبط بالاختيار الواعي والدقيق للألفاظ والمصطلحات المعبرة عنها والتي تستخدم في الترويج الإعلامي لها.^(٤٩)

وقد وجد مصطلح التطرف ومرادفاته في واقعنا المعاصر رواجاً إعلامياً وأيديولوجياً متعمداً لخدمة أغراض ومصالح ذاتية وأيديولوجية تتعلق بالآخر المناوئ لنا ، ويتبدى هذا الآخر في الصهيونية العالمية والإمبريالية العولمية^(٥٠) كما وجد مرتعاً خصيباً في بلاد المسلمين مجسداً في بعض الجماعات الدينية ذات الصبغة الصفوية التي تدعي أحقية الصواب في التدين قولاً وفعلاً ، وتجزم بخلو الآخرين من أبناء الإسلام من هذا الحق ، كما تزعم خطأ ممارساتهم ، هذا الادعاء بامتلاك الحق وبصواب الممارسة للنفس والجماعة والفتنة ، ونفيه عن الآخرين داخل صف الإسلام خلق نوعاً من الاحتقان والتشكك والتشكيك في إسلام غير المتدين لتلك الجماعات ؛ فبرز في سلوك أفراد تلك الجماعات وكتاباتهم وأقوالهم ، اتهام المخالفين لهم في الرأي والاجتهاد والمبدأ من أبناء الإسلام بالكفر أو الشرك أو الابتداع وغيرها من النعوت ، أو الألفاظ التي يولدها سلوك المغالين والمتطرفين.^(٥١)

إضافة لوجود الجماعات الصفوية النخبوية في صفوف المسلمين الآن ، وادعائهم للحق والصواب في التدين والممارسة ونفيه عن الآخرين من أبناء الإسلام ، وانعكاس الغلو والتطرف في أقوالهم تجاه الآخرين كالتفكير والتبذير والتفسيق^(٥٢) فإن في صفوف المجتمع

(٤٩) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٥٠) بول سويري وآخرون ، أمريكا اعتزاز بالآثام وتجميل للكذب ، مرجع سابق ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٥١) عبد الستار الهيتي ، الحوار ، الذات والآخر ، كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف ، الشئون الإسلامية بدولة قطر ، الدوحة ، ط ١ ، ٢٠٠٤م . ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٥٢) محمد عمارة أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، د.ت ، ص ٦٢ .

المسلم جماعات أخرى صفوية نخبوية غير الجماعات الدينية ، وهي الجماعات العلمانية التي تشربت الثقافة الغربية وتبنت نموذجها في الحكم والحياة. هذه الجماعات العلمانية بعضها تبنى النموذج الاشتراكي وبعضها تبنى النموذج الليبرالي ، ولهذا الجماعات العلمانية منذ أواخر الثلاثينيات طغيان إعلامي كبير بحكم وجودهم في مؤسسات التعليم ومؤسسات الإعلام وبين هذه الجماعات العلمانية والجماعات الدينية سجل طويل عرفته الصحف والمنابر الإعلامية والأدبية وغيرها ، هذه الجماعات العلمانية تكره كل ما يمت للإسلام بصلة من تاريخ ولغة ورابطة ، وعلى رأس مثل هذه الجماعات سلامة موسى^(٥٣) وغيره ، ويمكن ملاحظة التطرف أيضا في سلوك العلمانيين قولا وفعلا فهم ساعون لإقصاء الإسلام ولغة القرآن عن الحياة وهم معادون لكل ما هو ذو صبغة إسلامية ، فهي جماعات ذات روح تعريبية استلابية.

وقد تجلى في سلوكها اللغوي الكثير من التطرف والغلو كما في قول سلامة موسى : عن اللغة العربية لغة القرآن وعن تراثها : ” إنه تراث لغوي يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها... فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأثومبيل والتلفزيون بل لغة القرآن وتقاليد العرب“^(٥٤).

وقد استمر السجال فكريا بين التيارات الإسلامية والتيارات التعريبية وظل قويا وفيه الكثير من السلوك اللغوي المتطرف الذي يسعى لإزاحة الطرف الآخر دون مواربة ، وقد تولد عن هذا السجال الفكري في الثقافة والسياسة والأدب ونظم التعليم تطرف واستقطاب ، يجسد أزمنا المعاصرة بين الحكام والمحكومين وبين التيارات المختلفة إضافة لحال الهزيمة السابغة في كل المناحي. هذا حال الذات المسلمة في مجموعها وتياراتها الفكرية والثقافية والسياسية والدينية تنازع واختلاف وصراع استنزف الطاقات وكان من نتاجه الفكري الوقوف عند السلب أكثر من الإيجاب^(٥٥) ؛ فهنا نلاحظ تجلي مفاهيم التطرف والغلو لدى كل الجماعات والتيارات وانعكاسها في السلوك اللغوي ، فالتيارات والجماعات الدينية تصف العلمانيين والتعريبيين بالكفر والمروق والعمالة والتبعية ، وتيارات التعريب وجماعات

^(٥٣) محمد عمارة ، المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤ - ٦٧ .

^(٥٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٧ .

^(٥٥) المرجع السابق نفسه ، ص ١١١ .

العلمانيين تصف الجماعات الدينية بالجمود والرجعية والتخلف والأصولية والإرهاب ، وتستعدي الغرب عليها خاصة النخب المتنفة والحاكمة ، وترج بعض أفرادها في السجون وتنصب لهم المحاكم والمشائق ، وبعض الجماعات الدينية في الجانب المقابل تحمل السلاح وتخرج على السلطان وتستعدي الجماهير عليه.^(٥٦)

وفي الجانب المقابل نجد الإيديولوجيا الغربية بإرثها المسيحي الكاثوليكي والإمبريالي العالمي ، تسعى لخلق الفتن والقلاقل في بلاد المسلمين بإفريقيا وآسيا تحت مسميات حقوق الأقليات ، وحماية المضطهدين ومطاردة الإرهاب ومحاصرة المد الإسلامي^(٥٧) وفي هذا الجانب نلاحظ الآخر المناويء ” الصهيونية والإمبريالية “ يوظف مصطلح التطرف ورديفه الإرهاب لإيجاد السند القانوني والأخلاقي لتدخله وحربه في بلاد المسلمين سواء أكان ذلك في أفغانستان أو الصومال أو السودان. فالألفاظ والمصطلحات في هذا السياق السياسي والعسكري والإعلامي ، أفرغت من دلالاتها الوضعية وألبست دلالات غريبة عنها مثل الترويع والإكراه والرعب وتهديد الحضارة وإبادة الأقليات. في هذه الحال أصبح مصطلح التطرف والإرهاب غطاء أخلاقيا لأعمال وسلوك غير أخلاقي كما أصبح سنداً قانونياً لأعمال إجرامية مثل قتل الفلسطينيين في غزة وحصارهم بحجة ملاحقة الإرهاب ، واحتلال أفغانستان بحجة القضاء على الإرهابيين من طالبان والقاعدة ، قال رئيس وزراء إسرائيل إيهود أولمرت : ” إننا نقوم بالعمل في أي مكان نستطيع فيه ضرب البنية التحتية للإرهاب... “^(٥٨) وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م شنت الولايات المتحدة حرباً عسكرية وإعلامية على ما أسمته الإرهاب وكانت هذه الحرب موجهة للدول الإسلامية في آسيا وإفريقيا وشاعت مقولة أمريكا ” من ليس معنا فهو ضدنا “ وقد حرص الرئيس الأمريكي جورج بوش على إبلاغ هذه المقولة - التي أصبحت بمثابة القانون - إلى الرؤساء والملوك العرب.^(٥٩)

^(٥٦) مؤمن المحمدي ، ابن لادن ببيع أمريكا ، كنوز للنشر ، القاهرة مصر ، ط ٢ ، ٢٠٠٩م ، ص ١٧٢-١٧٦ .

^(٥٧) رمزي المنيوي ، الفوضى الخلاقة ، دار الكتاب العربي ، مصر - القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٢م ، ص ١٦٧ .

^(٥٨) المرجع السابق نفسه ص ١٦٨ .

^(٥٩) المرجع السابق نفسه ، ص ١٧٩ .

نلاحظ هنا أن اللغة وألفاظ اللغة أصبحت سلاحا في الحرب ، كما أصبحت غطاء قانونيا يبرر قتل الأبرياء في بلادهم بسيل ووابل من القنابل والصواريخ ، كما أصبحت مبررا أخلاقيا لذلك المدن وهدم المباني واعتقال الأبرياء لمجرد الاشتباه فيهم ، وتصبح مقولة الحرب على الإرهاب ومطاردة المتطرفين أينما كانوا مسوغا لحرب بلا حدود وبلا نهاية تبدو في ظاهرها لشعوب الدول الإمبريالية في أوروبا وأمريكا أنها قانونية وأخلاقية لحماية المدنية ولحماية الحضارة من هجمات المتطرفين والإرهابيين ، لكن الناظرين إليها بعمق من المحللين والاستراتيجيين ، يرون أنها حرب للنهب والتميط الثقافي ومحاصرة المناضلين والمجاهدين من أجل الحريات ، يقول أحد المحللين السياسيين : ” الولايات المتحدة على استعداد لاستخدام صفة إرهابي حسب ما يروق لها دفاعا عن تلك المصالح وهي على استعداد لإلصاقها بجميع حركات المعارضة السياسية...“^(٦٠)

وقد استغلت الولايات المتحدة الخوف والغضب والحزن الذي ولدته أحداث سبتمبر ٢٠٠١م فسارعت لإعلان حرب كونية دائمة وترسيخ مبدأ أمريكي جديد هو حق أمريكا في استخدام القوة كما تشاء^(٦١) ، وقد وظفت آلة الإعلام بكل وسائلها ووسائطها لإقناع الشعوب في كل القارات أن أمريكا وحلف الأطلسي يخوضان حربا أخلاقية قانونية لحماية الأمن والسلام العالميين ولحماية المدنية والحضارة من المتطرفين والهمج والمتوحشين والبرابرة وغيرها من الألفاظ التي تلصق بالمسلمين وهي ألفاظ مرسومة بصورها الذهنية في مخيلة الأوروبي المسيحي الكاثوليكي ، وقد وظفها قبلا البابا إربان لشحذ همم الكاثوليك في أوروبا الغربية ليخرجوا في طوابير طويلة لقتل المسلمين في بلاد الشام ، واحتلال بلادهم ونهب ثرواتهم ، وكانت هذه الحرب الصليبية الظالمة تحت غطاء من الألفاظ التي تبررها قانونيا وأخلاقيا فكانت باسم المسيح ، وجنود الرب ، والحجاج ، والحملة المقدسة ، وحملة الرب ، وفي الجانب المقابل وصف البابا إربان المسلمين بالكفار^(٦٢) وغيرها من النعوت.

(٦٠) بول سويري وآخرون ، أمريكا اعتزاز بالآثام وتجميل للكذب ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

(٦١) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٩ .

(٦٢) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ص ١١٩ .

تلك الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين في المخيلة الغربية ، والتي عبرت عنها الحملات الصليبية إلى بلاد الشام هي نفسها الصورة الموجودة في المخيلة الغربي المسيحي اليهودي ، وقد أعادت نفسها للوجود مرة أخرى بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م إذ أعلن بوش أن الحرب على الإرهاب هي حرب صليبية^(٦٣) ورغم تراجع ظاهرها عن هذه العبارة ، فإنه كان يعني ما يقول لأنه يخاطب العقول الغربية ويخاطب عقلها الجمعي ويستدعي خيلتها بالألفاظ ، وهو مخيلة رسمت فيها صورة الإسلام والمسلمين رسماً شائها ومتعمداً .

فالألفاظ هنا تؤدي دوراً كبيراً في إثارة الرأي العام ضد الإسلام والمسلمين ، ولأزال الإعلام الغربي بكل وسائله ووسائطه يسعى جاهداً للترويج لفكرة الخطر الإسلامي على الحضارة الأوروبية ذات الأصول المسيحية اليهودية والهدف الخفي لهذا الترويج هو احتكار السلاح والبتروول^(٦٤) وكان هنتجتون - الكاتب الأمريكي - من أكبر المروجين لفكرة الصراع الحتمي بين الإسلام والحضارة الغربية في كتابه صراع الحضارات^(٦٥) ولأزال السواد الأعظم من الأكاديميين الغربيين والصحفيين ومعدي البرامج التلفزيونية يروجون الفكرة التي تجسد العالم الإسلامي في صورة إمبراطورية الشر التي تهدد الحضارة الغربية.^(٦٦)

حتى أصبح المعنى الخفي الموري للفظ الإرهاب والتطرف يقصد به الإسلام والمسلمين ، وقد يجاهر به في الكتابات الأكاديمية والتصريحات السياسية والعسكرية ، ويزعم هنتجتون أن الخطر الذي يتهدد الغرب ويطربص بالحضارة الغربية ذات الأصول الكاثوليكية اليهودية هو الإسلام والمسلمين ؛ لأنه في نظره أن الأصولية والتطرف والتهديد بأسلحة الدمار الشامل مرتبطان بالإسلام على نحو أوسع ويقول أيضاً : ” كانت ولا زالت النزعة العدائية الإسلامية المتنامية ضد الغرب توازيها زيادة في القلق الغربي بشأن التهديد الإسلامي الذي يفرضه على وجه الخصوص النهج المتطرف الإسلامي ... “ .

(٦٣) بول سويري وآخرون ، أمريكا اعتزاز بالآثام وتجميل للكذب ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٦٤) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ، ١٢١ .

(٦٥) صمويل هنتجتون ، صراع الحضارات ، ترجمة عباس هلال كاظم ، دار المل للنشر والتوزيع ، إربت - الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٦م / ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٦٦) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

هذا الرأي واضح لا مواربة فيه ، أن الإسلام بالنسبة للغربيين - أوروبيين وأمريكان - هو مصدر الإرهاب وهو الإرهاب بنفسه وهنا يلاحظ أن الاختلاف والمغايرة في الدين والثقافة والقيم خاصة الإسلامية غير مقبولة في النسق الحضاري والثقافي الغربي ، ولأن الغربيين ينظرون للآخر من منطلق الأنا أو الذات ، وفي مفهومهم وعقلهم الجمعي الثقافي والديني واللغوي أن حضارتهم هي الحضارة ، وقيمهم هي القيم ، وما عداها لا يعتد به ؛ ولذلك وجب تنميط الآخرين - خاصة المسلمين - وفق النسق الحضاري الثقافي الغربي وإن رفضوا ذلك ، وتمسكوا بقيمهم ودينهم فهم الإرهابيون ، وهم المتطرفون والأصوليون ، والإسلام مصدر الإرهاب والتطرف والتهديد والنزاعات ، وقد أكد ذلك هنتجتون في كتابه صراع الحضارات .

الخاتمة :

وفي خلاصة التحليل اللغوي الفكري لدلالات التطرف والغلو والإرهاب ، وما رادفها من الألفاظ وغيرها ، نجد أن لفظ التطرف ورديفه الغلو قد جرى استخدامه على طول حقب الحضارة الإسلامية والاعتقاد ، ولم يكن مرهونا ولا مرتبطا بالترويع والعنف والغاء الاخر المختلف ولا الإكراه والقتل إلا في حالات نادرة لا يقاس عليها مثل حالة جماعة الخوارج الأزارقة ، وحادثة خلق القرآن التي تسبب فيها غلاة المعتزلة ، إضافة لبعض حوادث متفرقة ارتبطت بالعصبية للمذاهب الفقهية. أما لفظ الإرهاب الذي عد رديفاً للفظ التطرف والغلو والأصولية والسلفية وغيرها من الألفاظ ، فإنه لفظ بريء مما نسب إليه لأنه ورد في السياقات القرآنية دالاً على التخشع والورع والانقطاع لعبادة الله ، وردع الأعداء لدفع الضرر والضرار عن أمة الإسلام ، ولم يكن يعني أو يدل على العنف والإبادة والترويع والإكراه والإلغاء ، كما يصوره الغربيون اليوم ، وكما استخدمه في سياقاته المختلفة لغويا وعرفيا وثقافيا ودينيا داخل محيط الذات ” الأنا “ المسلمة وخارجها في سياقات الآخر المناوى ” الحضارة الغربية “ عبر الترجمة من العربية إلى الإنجليزية والفرنسية ، ومن الإنجليزية والفرنسية إلى العربية ، أن الإرهاب والتطرف والأصولية قد ألبست معاني ودلالات لم تكن من جذورها ولا من سياقات استعمالها في لسان العرب ، بل أريحت إليها من مصطلحات إنجليزية مثل *d0gmatism* و *Terrorism* و *fundamentalism* ، تلك المصطلحات الإنجليزية ذات سياقات مرتبطة بالعقيدة الكاثوليكية ، وما نبع منها من

احتجاجات وثورات ، فهي مصطلحات دالة على الجزم والتعصب والاستعلاء والغطرسة والإكراه والترويع وإدعاء الحق المطلق ، ولها سياقات في عصر الثورات الأوروبية .
وفي محيطنا الإسلامي استغلت جماعات النخب النافذة في السلطة والإعلام هذه المفاهيم الجديدة التي ربطت بالألفاظ العربية كالإرهاب والتطرف والسلفية والأصولية ، ووصمت بها الجماعات الدينية الحركية وأخافت الغرب بها ، واستعدته عليها . ويلاحظ هنا خلط المفاهيم وتعويم الألفاظ ، واللعب على دلالاتها الملتبسة مما خلق نوعا من القلق والاضطراب في الداخل الإسلامي ، وأيضا في محيط الذات المسلمة قامت جماعات مناوئة للغرب وهي عبارة عن ردة فعل لأفعال الغرب وسياساته في البلاد الإسلامية ، تلك الجماعات استخدمت الإعلام والوسائط المتعددة لنقل صورة مشوهة عن الإسلام فيها الذبح والنسف والعنف كما هو عند القاعدة وطالبان وداعش ، وقد استغل الإعلام الغربي تلك التصرفات والأقوال التي صدرت من الجماعات الإسلامية الحركية ، وجعلها دليلا على أن الإسلام دين إكراه ودين عنف ودين قتل وليس فيه تسامح ، إنما هو بربرية وتعصب . هذه الصورة أنعشت الصورة الشائنة للإسلام في المخيلة الغربية الموروثة عن الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا العصور الوسطى . وفي كل الأحوال والسياقات من الحرب والسلام ، اتخذت الألفاظ والمصطلحات غطاء أخلاقيا وقانونيا يبرر غزو بلاد المسلمين وقتلهم وسفك دمائهم وإمطارهم بوابل من الرصاص والقنابل والقذائف ؛ يحرق الأرض ويهلك الحرث والنسل وكل هذا في ظلال معاني مصطلحات التطرف والغلو والإرهاب والعنف .

وفي نهاية هذه الخاتمة يخلص البحث إلى النتائج التالية :

- (١) لم يستخدم التطرف بمفاهيمه المعاصرة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وإنما استعملت مرادفاته كالغلو والتنطع والتعصب .
- (٢) كان الغلو والتنطع والتعصب في سياقات الحضارة الإسلامية ، دالا على حال من تجاوز حد التوسط إلى المغالاة في العبادات والمعاملات وبعض الأقوال التي تنسب المخالف داخل الذات المسلمة إلى المروق أو الابتداع أو الجهل .
- (٣) لم يكن التطرف ومرادفه الإرهاب في سياق الحضارة الإسلامية ، دالا على الترويع والرعب والهول والفرع والإبادة والتهديد والإكراه والإلغاء ، إلا عند جماعة الخوارج

- الأزارقة ، وغلاة المعتزلة في حادثة خلق القرآن ، وبعض الحالات المرتبطة بالتعصب المذهبي الفقهي ، وهي في مجموعها حالات نادرة لا يمكن القياس عليها.
- (٤) الألفاظ المغايرة لمصطلح التطرف ومرادفاته ، هي السماحة واللين والرفق والحوار والمجادلة والتي هي أحسن والعفو والإصلاح والرحمة ، وهي ألفاظ حكمت سلوك المسلمين وتصرفاتهم ومعاملاتهم وعباداتهم على طول أحقاب الحضارة الإسلامية ؛ فانبسط الأمن والأمان وشاع السلم وعلى جسرها من الخلق والسلوك انتشر دين الإسلام.
- (٥) التبس مفهوم التطرف ومرادفه الإرهاب في عصرنا الحالي لدى الذات والآخر ، بدلالات الرعب والفظاعة والقسوة والإكراه والإلغاء والتهديد ، وكان هذا الالتباس خلطاً متعمداً وقع في سياقات الترجمة لإيجاد غطاء قانوني وأخلاقي ، يبرر غزو بلاد المسلمين وقتلهم وإكراههم على التنازل عن قيمهم بحجة الإرهاب ، وهذا من صناعة اليهود وحلفائهم الكاثوليك والبروتستانت ؛ لأن صناعة تحريف الكلم صناعة يجيدها اليهود.
- (٦) إذا أطلق لفظ الإرهاب والتطرف والأصولية في محيط الحضارة الغربية المسيحية اليهودية ، فإن القصد الخفي هو الإسلام ، وإذا قالت أميركا ، وحلف الناتو أنهم يجاربون الإرهاب أو إمبراطورية الشر ، فإنهم يقصدون الإسلام.
- (٧) وكانت ألفاظ اللغة ولا زالت تستخدم عمداً بالتحريف وخلط المفاهيم وإلباس الدلالات ، لتكون غطاء يبرر الاستغلال والغزو والقتل والإكراه والاستتباع ، بحجة مطاردة الإرهاب وحماية الحضارة وتنفيذ إرادة الله.

مصادر البحث ومراجعته :

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، صحيح البخاري ، تقديم أحمد محمد شاكر ، الفا للنشر والتوزيع ، القاهرة-مصر ، ط ١ ، ١٤٣٠هـ-٢٠١٠م .
- (١) حافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، عناية محمد بن عيادي بن عبد الحلیم ، مكتبة الصفا ، القاهرة-مصر ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م .
- (٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، المقاييس في اللغة ، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت-لبنان ، ط ١ ، ١٤١٤هـ .
- (٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح دار التوفيقية ، للتراث ، القاهرة ، مصر ، ط ١ ، ١٤١٤هـ .
- (٤) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، منشورات مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر ، ط ١ ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .
- (٥) السيد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات ، تحقيق عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة-مصر ، ط ١ ، د.ت .
- (٦) أبو البقاء الحسيني الكفوي ، الكليات ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت-لبنان ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .
- (٧) محمد عبد الرؤوف المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر بيروت-لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٠م .
- (٨) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت-لبنان ، ط ١ ، د.ت .
- (٩) روجي البعلبكي ، المورد الميسر ، قاموس عربي إنجليزي ، دار العلم للملايين ، بيروت-لبنان ، ط ٦ ، ٢٠٠٦م .
- (١٠) منير البعلبكي ، المورد ، قاموس عربي إنجليزي ، دار العلم للملايين ، بيروت-لبنان ، ط ٤٠٦ ، ٢٠٠٦م .
- (١١) مصطفى محمد عبد المجيد خضر ، الألفاظ والدلالة في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مؤسسة حورس الدولية ، الاسكندرية-مصر ، ط ١ ، ٢٠١٠م .

- (١٢) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، دار الجبل ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، د.ت.
- (١٣) م.م. لويس ، اللغة في المجتمع ، ترجمة تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- (١٤) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعارف ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، د.ت.
- (١٥) أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، تحقيق إيهاب محمد إبراهيم ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ٢٠١٣م.
- (١٦) بول سويزي وآخرون ، أمريكا إعتزاز بالآثام وتجميل الكذب ، ترجمة مازن الحسيني ، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ، أمدرمان - السودان ، ط ١ ، ٢٠٠٦.
- (١٧) محمود إسماعيل ، آراء وروى في الفن والفكر و التاريخ والأدب ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ٢٠٠٨.
- (١٨) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، كتاب العربي ٨٧ ، وزارة الإعلام الكويتية ، الكويت ، ط ١ ، ٢٠٠٩.
- (١٩) رمزي الميناوي ، الفوضى الخلاقة - الربيع العربي بين الثورة والفوضى ، دار الكتاب العربي ، دمشق القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٢.
- (٢٠) محمد مورد ، الحرب الصليبية من البابا إريان إلى البابا بوش ، مكتبة جزيرة الورد ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- (٢١) صمويل منتجتون ، صراع الحضارات وإعادة النظام الدولي ، ترجمة عباس هلال كاظم ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، إربد - الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٦.
- (٢٢) محمد عمارة ، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، د.ت.
- (٢٣) عبد الستار الهيني ، الحوار ، الذات والآخر ، كتاب الأمة العدد ٩٩ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الروحة ، قطر ، ط ١ ، ٢٠٠٤م.
- (٢٤) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، مراجعة نجيب الماجدي ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٩م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الثامن / ١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين

د. أنس إبراهيم محمد عبد الباقي

جامعة الإمام المهدي ، كلية الآداب ، قسم الدراسات الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرموم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرموم

(٥٨-٣٥)

المستخلص :

هدف هذا البحث إلى بيان أثر الجهل بالدين في ظهور الفرق والبدع في تاريخ المسلمين. وقد أوضح البحث معنى الجهل بالدين ، الذي يتمثل في الأخذ بظواهر النصوص دون اعتبار للنصوص الأخرى ، وفي الاقتصار على القرآن الكريم دون الرجوع إلى السنة المطهرة.

ثم أوضح البحث أيضا معنى لفظ ”الخوارج“ و ”الخروج“ والأسباب التاريخية له المتمثلة في : الخلافة ، التأويل ، والعصية.

ثم أشار البحث إلى منهج الخوارج في فهم النصوص ، وأنهم يأخذون الأحكام من القرآن الكريم دون الرجوع إلى سنة النبي ﷺ ، مما أوقعهم في أخطاء شنيعة. ثم ختم البحث بتأثير هذا المنهج الخارجي على الحياة المعاصرة في ظهور بعض الجماعات التي تبنت منهج الخوارج مثل : جماعة التكفير والهجرة وجماعة عبدالرحمن الخليلي ثم أخيرا تنظيم ”داعش“.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن الخروج ظاهرة عامة وُجِدَتْ في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده وفي كل العصور.

وأن هذه الظاهرة قديمة متجددة ، تظهر متى ما توفرت ظروف معينة تتعلق بالمجتمعات المسلمة ، وظروف أخرى تتعلق بتلك الجماعات المتطرفة من الأخذ بظواهر النصوص ودون التفقه في سنة النبي ﷺ.

ومن ثم توصي الدراسة العلماء والدعاة والمؤسسات والجامعات بنشر العلم الشرعي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وبالله التوفيق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله صاحب الشرع المتين ، الذي بعثه ربه ليقرر الوفاق ، ويرفع الاختلاف والفرقة ، وعلى آله وصحبه الكرام ، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين . أما بعد ، ، ،

فإن الدين الإسلامي قد نهى عن الفرقة والاختلاف في كثير من الآيات القرآنية ، كما نهى النبي ﷺ عن ذلك ؛ لأن الاختلاف سبب لذهاب الريح والقوة.

لقد ظهرت فرق وبدع في تاريخ المسلمين ، ومن أوائل الفرق التي ظهرت فرقة الخوارج ثم فرقة الشيعة ، وعلى الرغم من أن ظهور فرقة الخوارج قد ارتبط بحادثة التحكيم المشهورة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، إلا أن هنالك أفراداً مثلوا ظاهرة الخروج في عهد النبي ﷺ مثل : عبد الله بن ذي الخويصرة ، الذي يعتبر أول خارجي في الإسلام عندما اعترض على قسمة النبي ﷺ للغنائم ، ولذلك نجد أن بعض كتّاب الفرق والمقالات كالإمام الشهرستاني اعتبر الخروج ظاهرة عامة وأن لفظ الخوارج يطلق على كل من خرج على الإمام الذي ارتضته الجماعة سواء أكان هذا الخروج على عهد النبي ﷺ أو على عهد الخلفاء الراشدين أو على الأئمة في كل زمان.

ولخطورة هذه الظاهرة ، ظاهرة الخروج كتبتُ هذا البحث بعنوان : ” الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين “. ولقد قسمت البحث إلى مبحثين اثنين على النحو الآتي :

المبحث الأول : الجهل بالدين وأثره في ظهور الفرق والبدع.

المبحث الثاني : أثر منهج وعقائد الخوارج على الأمة في هذا العصر.

البحث الأول

الجهل بالدين وأثره في ظهور الفرق والبدع

إن الجهل وضعف البصيرة بحقيقة الدين من الأسباب التي أدت وتؤدي إلى ظهور بعض الفرق والبدع في هذا العصر ، صحيح أن فرق الخوارج المختلفة قد انقرضت ، وأصبحت مقالاتها جزءاً من كتب الفرق والمقالات ، ولم يبق من الخوارج سوى الاباضية ، الذين لا تزال لهم بقايا حتى الآن ، ولكن الذي لم ينقرض هو الغلو ، والغلو الخارجي بالذات ذلك الذي يتصاعد به أصحابه حتى ليستبدلوا الكفر بالخطأ ، فلقد اختلف الزمان ، وتغيرت الملابس ، وتبدلت الأسماء والرايات ، لكن هذا الغلو الخارجي ما يزال حياً ، تبرزه الأزمات والمحن التي تمر بها الأمة^(١) ؛ لذلك فإن بدعة الخوارج من البدع البارزة والمشهورة ، التي لازالت أثارها تتردد بين أنحاء العالم الإسلامي إلى الآن ، وقد أخبر الرسول ﷺ عن شرها ، وحذر من الأخذ بها ، وطالب بالقضاء عليها ومحاربتها.^(٢)

ومن الجهل بالدين الأخذ بظواهر النصوص من غير اعتبار للنصوص الأخرى ، فلقد تجرأ البعض على إصدار الأحكام في الأمور الاعتقادية وذلك من ظواهر بعض الآيات أو الأحاديث دون علم بباقي النصوص ولا بحكم الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل تجاوزوا وزعموا أن كتب الفقه لا تصلح لهذا العصر الذي نعيش فيه^(٣) ؛ لذلك لم يأخذوا بأقوال الصحابة وأقوال الفقهاء وعدوا كل من يأخذ بهذه الأقوال غير مسلم أي كافر ، وقالوا : "نحن جماعة الحق ، ومن عدانا فليس بمسلم"^(٤).

(١) تيارات الفكر الإسلامي د. محمد عمارة مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ، ص ٤٥-٤٦ .

(٢) الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الإسكندرية ، طبعه أولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ، ص ٣٦-٣٧ .

(٣) الحكم وقضية تكفير المسلم ، سالم البهنساوي ، دار البحوث العلمية - الكويت ، طبعة ثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٨٠-٨١ .

(٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، محمد الغزالي ، دار الشروق - القاهرة ، طبعة أولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ ، ص ١٧٧ .

ونتيجة لما سبق فقد وقع هؤلاء الناس في أخطاءٍ شنيعة وجسيمة ، ومن ذلك قولهم : إن المسلم إذا ارتكب معصية صغيرة أو كبيرة فيلزمه التوبة فوراً وإلا صار كافراً. واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٧]. ولو كان ما لدينا من القرآن هذا النص فقط لكان الحكم كما يقولون ولكن الله تعالى في الآية التي تليها يقول : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٨]. فإذا جمعنا الآيتين يكون معنى ” قريب “ هو حضور الموت.^(٦)

ومن الجهل بالدين أيضا أن بعض الناس أعلنوا أنه ينبغي الأخذ من القرآن مباشرة. وهذا الأمر صعبٌ في زماننا هذا ، خصوصاً على أولئك الذين قلّ زادهم من اللغة والسنة ، ومعرفتهم بأسباب النزول^(٧) ؛ لذلك لا معنى لقولهم : ” إن العربي إنما كان يسمع الآية من آيات القرآن الكريم ليعمل بمقتضاها ببساطة ، ويقوم بتنفيذها على الفور وإن علينا أن نفعل مثله. وقال البعض : إن الأحكام الشرعية التي قال بها الفقهاء إما أنهم قالوا بها لتكون مناسبة في الظروف التي أحاطت بها. وإن منهم خضع لتوجيهات الساسة أصحاب السلطان ممن كانوا في عصرهم ، وأن الظروف التي تمر بها دعوة الإسلام في الوقت الحاضر لم يسبق أن مرّت بها ، وإنه لذلك يجب علينا أن نطرح ذلك الفقه القديم جانباً وأن نتعامل مباشرة مع القرآن الكريم ونستمد منه أحكاماً تلائم الظروف التي نعيش فيها ، والملابسات التي تمر بها دعوة الإسلام في عصرنا هذا“.^(٨)

إن الدعوة إلى التعامل مباشرة مع القرآن الكريم و الاقتصار عليه^(٩) ، وطرح أحكام السنة النبوية قد كان سبباً أدى إلى ظهور فرق الخوارج وأهل البدع قديماً ، وقد قال فيهم

(٦) التكفير جذوره وأسبابه ومبرراته ، د. نعمان عبد الرازق السامرائي ، المنارة للطباعة والنشر طبعة أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٥٨.

(٧) المرجع نفسه ، ص ٥٧.

(٨) دعاة لا قضاة ، الأستاذ / حسن الهضيبي ، دار التوزيع للنشر - القاهرة - بدون تاريخ طبع ، ص ٢١٩.

(٩) هنالك بعض الجماعات اليوم في باكستان والنيجر ونيجريا أطلق عليهم اسم ” القرآنيين “ وجماعة بوكوحرام وهم ينادون بالتعامل مباشرة مع القرآن دون الرجوع إلى السنة.

الإمام الشاطبي: ”إن الاختصار على الكتاب – أي القرآن الكريم – رأي قوم لا خلاق لهم ، خارجين عن السنة إذ عولوا على أن الكتاب فيه بيان كل شيء ، فاطرحوا أحكام السنة ، فأداهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة ، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله... فضلوا وأضلوا“^(٩) ولقد ذكر الإمام السيوطي ” أن من غالية الرافضة من ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة ، والاختصار بالقرآن ، لأنهم يعتقدون أن النبوة لعلي وأن جبريل أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين ﷺ“^(١٠)

وفي القديم جاء رجل إلى الإمام الشافعي وأثار قضية الاختصار على القرآن ، مينا للشافعي أنه عربي وأن القرآن نزل بلغة العرب ، وقد قال الله عز وجل في القرآن ﴿... تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، إذن ليس هنالك حاجة إلى الاحتجاج بالسنة ، ويقتصر على القرآن فقط. فأجاب الإمام الشافعي على هذا الرجل مفندا دعواه هذه فقال : قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢]. قال الرجل فقد علمنا أن الكتاب كتاب الله ، فما الحكمة ؟ قال الإمام الشافعي : ”سنة رسول الله ﷺ“ ثم ذكر الإمام الشافعي : ” أن الله تعالى فرض اتباع رسوله ﷺ وهو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ“^(١١)

هكذا رأيت أن هنالك من أنكر حجية السنة في القديم ، وفي عصورنا هذه تصدى بعض الذين لا علم لهم بهذا الفن إلى إنكار حجية السنة ، وقد نشرت مجلة ”المنار“ للمرحوم رشيد رضا في العدد السابع والثاني من السنة التاسعة مقالين للدكتور توفيق صدقي يعلن فيها هذا الرأي تحت عنوان ”الإسلام هو القرآن وحده“ ، مستدلاً بنفس الآيات التي أستدل بها منكر حجية السنة قديماً ، ثم أثار عدة شبهات منها :

أولاً : قول الله تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ،

(٩) الموافقات ، الإمام الشاطبي ، ج ٤ ، ص ١٧-١٨ .

(١٠) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، الإمام السيوطي ، طبعة مصر ، بدون تاريخ طبع ، ص ٣ .

(١١) كتاب الأم ، الإمام الشافعي ، دار الفكر – بيروت ، طبعة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، ج ٦ ، ص ٢١٩ .

يدل على أن الكتاب قد حوي كل شيء من أمور الدين ، وكل حكم من أحكامه ، وأنه بينه وفصله بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر كالسنة ، ولا كان الكتاب مفرداً فيه ، ولما كان تبياناً لكل شيء ، فيلزم الخلق في خبره تعالى وهو محال.
ثانياً : قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]. يدل على أن الله تكفل بحفظ القرآن دون السنة ، ولو كانت السنة دليلاً وحجة كالقرآن لتكفل بحفظها.

تلك هي خلاصة ما أورده الدكتور توفيق صدقي من بعض الشبه التي أثارها حول حجية السنة ، ولا يتردد طالب العلم عن الجزم بتهافتها وضعفها ، ولكننا سنورد ما يتبين به ذلك إن شاء الله تعالى.^(١٢)

الجواب عن الشبهة الأولى :

إن القرآن الكريم قد حوى أصول الدين وقواعد الأحكام العامة ، ونص على بعضها بصراحة ، وترك بيان الأحكام الأخرى لرسول ﷺ ، مادام الله قد أرسل رسوله ليعين للناس أحكام الدين ، وأوجب عليهم إتباعه ، كان بيانه للأحكام بياناً للقرآن ، ومن هنا كانت أحكام الشريعة من كتاب وسنة وما يتفرع عنها من إجماع وقياس ، أحكام من كتاب الله عز وجل. إما نصاً وإما دلالة ، فلا منافاة بين حجية السنة وبين أن القرآن جاء تبياناً لكل شيء.^(١٣)

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : ” فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها “. قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١]. وقال : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤]. وقال : ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩]. والبيان اسم جامع لمعانٍ مجتمعة الأصول متشعبة الفروع ،

^(١٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، د. مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي - بيروت طبعة الثالثة ، ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

^(١٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

فجماع ما أبان الله خلقه في كتابه مما تعبدتم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه : فمنها ما أبان لخلق نصاً مثل جعل فرائضه في أن عليهم صلاةً وزكاةً وصوماً وحجاً ، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وبين لهم كيف فرض الوضوء ، مع غير ذلك مما بين نصاً. ومنه ما أحكم فرضه بكتابه ، وبين كيف هو على لسان نبيه ﷺ. مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها ، وغير ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه. ومنه ما سنَّ رسول الله ﷺ والانتهاه إلى حكمه. فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل.

ومنه ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه ، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد في طلبه ، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم. فإنه يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ [محمد : ٣١].^(١٤)

ثم قال الإمام الشافعي : ” فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله سننه ، بفرض الله طاعة رسوله على خلقه ، وأن ينتهوا إلى حكمه. ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل ، لما افترض الله من طاعته. فيجمع القبول لما في كتاب الله ولسنة رسول الله : القبول لكل واحد منهما عن الله ، وإن تفرقت فروع الأسباب التي قبل بها عنهما ، كما أحلَّ وحرَّم ، وفرض وحدَّ بأسباب متفرقة كما شاء ، جلَّ ثناؤه ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣].“^(١٥)

(١٤) الرسالة ، الإمام الشافعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ طبع ، ص ٢٠-٢٢.

(١٥) الرسالة ، الإمام الشافعي ، ص ٣٣.

الجواب عن الشبهة الثانية :

وبناءً على ما سبق فقد ذهب العلماء والمحققون - دون اعتبار لقول من شدَّ من المرجفين في دين الله تعالى ، العاملين على هدم السنة إلى أنه يتحتم شرعاً وعقلاً الرجوع إلى السنة لتفصيل ما ورد مجملاً في القرآن وبيان كيفية أدائه ، لوضع الصورة العلمية والتطبيقية لتوجيهاته.^(١٧)

ومما يُستعان به في تأييد ذلك ما يلي :

رُوي أن رجلاً قال لعمران بن حصين^(١٨): لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال له عمران : ” إنَّكَ امرؤٌ أحقُّ ، أتجد في كتاب الله الظهر أربعاً لا تجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدَّد عليه الصلاة والزكاة. ونحو هذا ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله مفسراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، وإن السنة تفسَّر ذلك“.^(١٩)

وفي هذا المعنى قال الأوزاعي : ” الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب“.^(٢٠) وهكذا نجد أن أسلاف الخوارج كما يقول ابن حزم : ” كانوا أعراباً قرأوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول ﷺ ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء ، لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب عمر... ولهذا نجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها“.^(٢١)

^(١٧) منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية ، محمد سعيد منصور ، مكتبة وهبة - القاهرة ، طبعة أولى ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، ص ١١٩ .

^(١٨) عمران بن حصين : أبو نجيد عمران بن حصين بن عبيد الخزاعي ، من علماء الصحابة - أسلم عام خبير السنة السابعة للهجرة ، بعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقه أهلها ، وولاه زياد قضاءها ، وكان مجاب الدعوة. له في كتب الحديث ثلاثة عشر حديثاً ، وتوفي سنة [٥٢هـ] بالبصرة. انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير على بن محمد الجزري دار الفكر - بيروت طبعة ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ج ٣ ، ص ٧٧٨ - ٧٧٩ وانظر أيضاً صفة الصفوة ، ابن الجوزي ، ج ١ ، ص ٦٨١ .

^(١٩) أخرجه ابن عبد البر في ” جامع بيان العلم وفضله“ باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ .

^(٢٠) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد ، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدري ، دار الفكر - بيروت - طبعة أولى ، ١٤١٢هـ - ص ٩٦ .

^(٢١) انظر دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، د. أحمد محمد أحمد جلي ، ص ٦٥ .

ولاشك أن هذا المنهج الذي سلكه الخوارج في فهم القرآن الكريم قد أدى بهم إلى الوقوع في أخطاء شنيعة ، فكفروا المجتمع ، وأسقطوا بعض الحدود كحد الزاني المحصن وحد الخمر ، وكفروا أرباب الذنوب وأخرجوهم من الملة ، وحكموا بتخليدهم في النار. وغير ذلك من الشنائع والأخطاء التي وقع فيها هؤلاء.

ولا شك أيضاً أن كل من يسلك منهج الخوارج في اطراح السنة وعدم الاعتماد عليها في أي زمان ؛ سوف ينتهي إلى نفس النتائج التي انتهى إليها الخوارج ويقول بنفس الأحكام التي قالوا بها من تكفير للمجتمع ولمرتكب الكبيرة وغيرها.

لقد انقرضت فرق الخوارج وذابت في لجة التاريخ ، ولكن الذي بقي هو التطرف والغلو ومنهج الخوارج في فهم القرآن الكريم ، هذا المنهج الذي سوف يؤدي إلى ظهور فرق وبدع جديدة متى ما تم الاعتماد عليه و اتخاذه سبيلاً لفهم القرآن الكريم من قبل أولئك الجهال الذين جهلوا مقاصد الشريعة الإسلامية ، وقل فقهم في الدين.

إن الجهل وقلة الفقه في الدين هو الذي أوقع جماعة التكفير والهجرة - أتباع شكري مصطفى - في أخطاء شنيعة ، حيث ذهبت هذه الجماعة ، كما ذهب الخوارج من قبل إلى إن ارتكاب الكبائر يخرج من الملة ، ويحكم على فاعلها بالكفر ، وقالوا إن كلمة كفر في الشريعة استخدمت للدلالة على نقيض الإيمان ، وهي تشتمل على كلمات الفسق والظلم والعصيان ، وأن هذه الكلمات الثلاث تدل على معنى واحد وهو الكفر الملي ، والاختلاف بينها يعود إلى الاختلاف في مداخل الكفر لا في حقيقته.

وساوت جماعة التكفير والهجرة - كما فعل الخوارج - بين الخطأ في الاعتقاد والخطأ في العمل ، وأنكروا التفرقة بينهما. وقالوا : لم يحدث أن فرقت الشريعة بين الكفر العملي والكفر القلبي ، ولا أن جاء نص واحد يدل أو يشير أدنى إشارة إلى أن الذين كفروا بسلوكهم غير الذين كفروا بقلوبهم واعتقادهم ، بل كل النصوص تدل على أن عصيان الله عملاً والكفر به سلوكاً وواقعاً هو بمفرده سبب العذاب في النار والحرمات من الجنة.^(٣٣)

ولعل الذي أوقع هذه الجماعة في مثل هذه الأخطاء في الفهم والاستنتاج وفي العمل والممارسات خطأهم المنهجي الذي اتبعوه في معالجة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام

^(٣٣) انظر دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، ص ١٢٢ .

منها ، حيث زعمت هذه الجماعة أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير ، ومن ثم يمكن أن تؤخذ الأحكام منه ومن السنة مباشرة. وقالوا في ذلك : من اعتقد أن كلام الله ورسوله يحتاج إلى شرح فقد كفر ، لأنه اعتقد بأن كلام البشر أبين و أوضح من كلام الله ” واستدلوا على رأيهم هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤] . كما احتجوا أيضاً بقولهم : ” هل كلام الله ورسوله ﷺ أبين أم كلام غيرهما ؟ فإن قالوا كلام الله أبين وجب عليهم اتباعه وكفونا مؤونة الرد عليهم ، وإن قالوا العكس فقد كفروا وصادموا النصوص “ .^(٢٣)

أما جماعة محمد عبد الرحمن الخلفي الصغيرة التي فجرت أحداث مسجد الثورة في عام ١٩٩٤م بالسودان ، فقد أوقعهم الجهل في أخطاء وممارسات فادحة ، حيث أنهم أنكروا الإجماع والقياس والاجتهاد ، وكفروا أهل السودان جميعاً – كما فعل الخوارج من قبل – وقالوا بأن السودان دار حرب وهم لا يؤدون صلاة الجماعة مع المسلمين ، ومرتكب الكبيرة عندهم كافر والمذاهب الإسلامية سبب تمزق المسلمين وخلافهم . وهم يقتلون المسلمين . وقد قتلوا ستة عشر مصلياً في مسجد الثورة . وهذا قليل من بدعهم من واقع محضر المحاكمة .^(٢٤) هكذا رأينا عاقبة ومصير كل من لم يهتد بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . فكل آفة جاءت في الإسلام ، وكل بلاء شمل المسلمين فإنما هو من ترك الاعتصام بهما ، فصار أهل الملة الإسلامية اليوم يضلل بعضهم بعضاً ، ويبدع أحدهم الآخر ويكفر بعضهم بعضاً من غير دليل وبرهان من قرآن أو سنة .^(٢٥)

^(٢٣) الحكم بغير ما أنزل الله ، ص ١٢٨ ، نقلاً عن دراسة عن الفرق في تاريخ ، ص ١٣٩ .

^(٢٤) انظر مواعظ من قضية مجزرة مسجد الثورة ، عبد الرحمن شرفي طبعة أولى عام ١٩٩٤م ، ص ١٦٧ .

^(٢٥) الدين الخالص ، السيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري ، صححه محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية – بيروت طبعة أولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، ج ٣ ، ص ٤ .

البحث الثاني

أثر منهج وعقائد الخوارج على الأمة في هذا العصر

لقد كانت لعقائد الخوارج آثار واضحة على الأمة ، تمثل ذلك في الخروج على الإمام الشرعي ، وتكفير المجتمع واستباحة دماء أفرادها ، وهذه الظاهرة تطل من جديد من فترة إلى فترة عندما تتوفر بعض الظروف. لذلك سوف نتحدث عن ظاهرة الخروج في هذا العصر باعتبارها أثر من آثار عقائد الخوارج ومنهجهم في فهم النصوص.

وقبل أن نتحدث عن ظاهرة الخروج في هذا العصر لابد أن نتحدث عن الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة الخروج بشيء من الإيجاز. أو بمعنى آخر الأسباب العامة أو التاريخية لظاهرة الخروج ، وبذلك يمكن أن نقارن بين الأسباب العامة للخروج والأسباب الحالية للخروج في هذا العصر ، وقطعاً سوف نجد أن هنالك قدراً مشتركاً بين هذه وتلك في الأسباب والدوافع والغايات ، ونجد اختلافاً أيضاً اقتضته الظروف والأحوال الخاصة بكل جماعة وعصر. وسوف نتحدث أيضاً عن مصطلح أو لفظ ” خارجي “ ، و ” خوارج “ ، ونبين معنى ودلالة هذين اللفظين ، وعلى من يطلق لفظ ” خارجي “ ، و ” خوارج “ ، وبهذا نبدأ الحديث.

لفظ ” الخوارج “ بهذا المعنى الذي يشير إلى الانشقاق ومفارقة الجماعة ، قد وجد أفراداً في عهد النبي ﷺ مثلوا هذه الظاهرة ، أي ظاهرة الخروج على الإمام الشرعي الذي ارتضته الجماعة^(٢٦) وينطبق هذا المعنى على كل من خرج على الإمام الشرعي من لدن سيدنا محمد ﷺ والصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين إلى عصرنا هذا ، وفي كل زمان.^(٢٧)

ولقد وردت العديد من الأحاديث الصحيحة التي تتحدث عن هؤلاء الخوارج وأوصافهم وذمهم والأمر بقتالهم. منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري أنه قال : ” بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهبة في أديم مقروظ لم تُحصل من ترابها ، قال : فقسّمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة بن علاثة وإما عامر بن الطفيل . فقال رجل من أصحابه : كنا

(٢٦) الملل والنحل ، الشهرستاني ، ص ١١٤ .

(٢٧) الشريعة ، الأجرى ، ص ٢٢ .

نحن أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ”ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار. فقال يا رسول الله اتق الله. فقال: ويلك، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله قال: ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه. فقال: لا لعله أن يكون يصلى قال خالد: وكم من مُصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله ﷺ: إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم. قال: ثم نظر إليه وهو مُقف قال: إنه يخرج من ضئضى^(٢٨) هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. قال: أظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود“^(٢٩).

وذلك الرجل الذي خاطب النبي ﷺ هو عبد الله بن ذي الخويصرة و ذو الخويصرة هذا هو حرقوص بن زهير السعدي الذي كان مع عليّ في حروبه ثم صار مع الخوارج فقتل معهم.^(٣٠)

وبذلك يُعتبر ذو الخويصرة أول من مثل ظاهرة الخروج والاتجاه الخارجي، ولكن اسم الخوارج لم يطلق على جماعة ما إلا بعد فترة من الزمن، فأطلق على أولئك النفر الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب عندما قبل التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. إذ اعتبر هؤلاء أن التحكيم ذنب تجب التوبة منه. وإنه لا حكم إلا لله. ثم انحازوا إلى قرية ”حروراء“ وعيّنوا شيبث بن ربعي التميمي أميراً للقتال. وعبد الله بن الكواء اليشكري إماماً للصلاة.^(٣١)

(٢٨) الضئضى: هو الأصل. قال الكمي

وجدتك في الضنء من ضئضى

انظر: تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت - طبعة ثالثة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ج ١، ص ٦٠.

(٢٩) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ج ٤، ص ١٧٤ وانظر صحيح البخاري كتاب الأنبياء، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ج ٤، ص ١٧٤ وانظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء باب قوله تعالى { وإلى عادٍ أخاهم هودا }، ج ٤، ص ١٠٨ وانظر الشريعة للأجري، ص ٢٢.

(٣٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٤، ص ١٧٤.

(٣١) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين د. أحمد محمد أحمد جلي، ص ٥٥.

وإذا تتبعنا سيرة هؤلاء الخوارج نجد أن هنالك أسباباً دفعتهم إلى الخروج هي :

أولاً : الخلافة :

كان للفرق التي نشأت خلال القرن الأول الهجري نصيب كبير من موضوع الخلافة أو الإمامة ، ولعل بعضها لم ينشأ إلا لأنه كان ذا نظرة خاصة في موضوع الإمامة أو بعبارة أخرى أن نشأتها كانت نتيجة لعوامل سياسية محضة ، وهنالك ما يشبه الإجماع بين المؤرخين قديماً وحديثاً على أن الدوافع التي دفعت بالخوارج إلى الظهور في تاريخ المسلمين كانت في أول أمرها وجهة نظر سياسية ، ثم تطوّرت فتحوّلت من الجانب السياسي إلى الجانب الفكري العقائدي. ومن هنا يذهب معظم كتّاب الفرق إلى أن مسألة الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين وتشعبت حولها آراؤهم ، وتكون حولها أهم الفرق في العصر الإسلامي الأول الخوارج والشيعة.^(٣٢)

لذلك لا بدّ من الاعتصام بالكتاب والسنة لتجنب الزيغ والضلال و الاختلاف والفرقة و لا بدّ من التفقه في الدين ومعرفة الأحكام الشرعية التي وردت في كتاب الله تعالى ، والتفقه في السنن المروية عن رسول الله ﷺ ، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدرا التشريع الإسلامي ، وإن الإجماع والقياس يبنى عليهما. وإن السنة النبوية ترد من القرآن الكريم موارد عدة فهي التي تفصل ما جاء مجملاً في القرآن ، وتقيد مطلقه وتخصص عامه وتنسخ بعض أحكامه. فإن الله تعالى أعطى رسوله ﷺ حق التشريع لهذه الأمة والنبي ﷺ عندما يشرع فبوحى من الله تعالى.

ومن الجهل وضعف البصيرة بالدين اطراح وإهمال أحكام السنة والاكتفاء بالقرآن الكريم فقط ، فإن ذلك سبب للهلاك والخسران والبوار. نسأل الله تعالى الهداية والنجاة.

ثانياً : التأويل :

لا يرتاب عاقل في أن جميع المصائب التي جرت في صدر الإسلام ووقوع الفتن وظهور الفرق كلها متفرعة عن التأويل الباطل ، الذي لا ينتج إلا شراً ، وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق الموصلة إلى ذلك فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهي التي أمر الله ورسوله ﷺ بها ومدح أهلها.

^(٣٢) الخوارج د. عبد القادر البجراوي ، ص ٥٥.

إذن فالتأويل الصحيح يعود إلى فهم مراد الله ورسوله والى العمل بالخير ، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ، أي الخروج بالنصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله إلى البدع والضلال.^(٣٣)

وهذا التأويل الباطل هو ما فعلته الرافضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية ، والشفاعة ، وكذلك القدرية في نصوص القدر ، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهم.^(٣٤)

ثالثاً : العصبية :

يقسم المؤرخون العرب قسامين عظيمين : ” قسم عدناني مضري وهم عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر ، وقسم قحطاني ينحدر من قحطان ، وموطنهم بلاد اليمن من أشهر قبائلهم : جُرْهُم وَيَعْرِب وغيرهما“.^(٣٥)

لقد كانت القبائل العربية في تناحرٍ شديد فيما بينها وتقاتل مستمر. فلما جاء الإسلام حرم النداء بالعصبية ؛ لأنه قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة والمساواة بين الأجناس والأعراق ، لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي فالإسلام يخاطب الإنسان بما هو إنسان لا بما هو عضو في قبيلة أو أمة.

يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البيّنات ، فلقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]. وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١]. وما أثر عن الرسول ﷺ حيث قال : ” إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم وآدم خلقت من

(٣٣) الخوارج د. عبد القادر البجراوي ، ص ٨ - ٨١ .

(٣٤) إعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٣٥) السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام - أبو محمد عبد الملك بن هشام تحقيق جمال ثابت ومحمد محمود - دار الحديث - القاهرة - بدون رقم طبعة وتاريخ ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٧ .

تراب و لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى“^(٣٦) وبالتالي اختفت العصبية تماماً ، ولكنها سرعان ما أطلت برأسها إبان حروب الردة. فيروي أن مسيلمة الكذاب حينما تنبأ في بني حنيفة اتبعه الناس على العصبية. وكان منهم من يقول : ” إنا لنعلم أن محمداً صادق ومسيلمة كاذب ولكن ربيعة أحب إلينا من صادق مضر“^(٣٧).

ولقد كانت العصبية من الأسباب المباشرة في ظهور الخوارج وكثرتهم^(٣٨) ، وهنالك أيضاً سبب ساعد في زيادة عدد الخوارج ، وهو أن الدولة الأموية وقد كانت عربية ، كانت شديدة التعصب للعرب ولم تعط الموالي حقهم الكامل في الإسلام وأرادت الإسلام عربياً ، ولم تفهم أنه دين الكافة لأن الله بعث محمداً بشيراً ونذيراً للكافة ؛ لا لقوم دون قوم ، وأن الإسلام سوى بين الناس في الشرف ، ولا تفاضل فيه بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى كما صرح القرآن الكريم وكما قرر النبي الأمين ﷺ^(٣٩).

هذه الأسباب التي سقناها وتحدثنا عنها هي الأسباب العامة أو الأسباب التاريخية التي أدت إلى ظهور الخوارج قديماً ، وهذه الظاهرة مازالت مستمرة ، فإن ظاهرة الخروج بما تحمله من مبادئ ومنهج لم تنته بنهاية الخوارج الذين ظهوروا في تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام فيلي جانب الإباضية الذين يعيشون في مرحلة الكتمان ويعتبرون أنفسهم امتداداً لمن عرفوا بالمحكمة ، ظهرت في هذا العصر جماعات وأفراد تبناوا منهج الخوارج وأسلوبهم واعتنقوا كثيراً من أفكارهم ومبادئهم ، ومن أشهر هذه الجماعات كما أسلفنا جماعة المسلمين أو ” جماعة التكفير والهجرة“ كما أطلقت عليهم أجهزة الإعلام التي لاحظ معظم من كتبوا عنها الارتباط الوثيق بين أفرادها وبين الخوارج رغم اختلاف الدوافع والغايات بين الفريقين.^(٤٠)

^(٣٦) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ مسند أبي هريرة.

^(٣٧) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٧٧.

^(٣٨) الخوارج د. عبد القادر البحراوي ، ص ٨٨.

^(٣٩) الوحدة الإسلامية الإمام محمد أبو زهرة - دار الرائد العربي - بيروت - طبعة ١٩٧٨ م ، ص ١٦٤.

^(٤٠) الحكم وقضية تكفير المسلم ، سالم البهنساوي - دار البحوث العلمية - الكويت - طبعة ثالثة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ١٦ - ١٧.

كما أنه قد ظهر أفراد قلائل في السودان في العام ١٩٩٤م تبناوا منهج الخوارج في تكفير أفراد المجتمع واستباحة قتلهم ، وكان على رأسهم محمد عبد الله عبد الرحمن الخليفي ، الذي قدم من السعودية ، ولقد وصفت المحكمة التي نظرت في قضية هؤلاء الأفراد بأنهم خوارج وأزارقه هذا العصر.^(٤١)

والجدير بالذكر أن العلماء قد ذكروا أسباباً تؤدي إلى استيقاظ تلك الظاهرة القديمة المتجددة ، أي ظاهرة الخروج وتكفير المسلمين ويمكن إجمالها فيما يلي :

(١) انتشار الفساد والفسق والإلحاد في المجتمعات الإسلامية دونها محاسبة من أحد ، ولا من قبل الحكام ، ولا من قبل المجتمعات الإسلامية. فأثر ذلك على بعض الشباب ، فكان لا بد أن تتعقد أحاسيسه ومشاعره فينقم على كل ما حوله من أوضاع متردية.^(٤٢)

(٢) ضعف البصيرة بحقيقة الدين وضعف المعرفة بالتاريخ والواقع وسنن الكون والحياة ، ومنهج أهل السنة والجماعة.

(٣) محاربة الحركات الإسلامية الإصلاحية من قبل حكام المسلمين وامتلاء السجون بدعاة الإسلام^(٤٣) ؛ مما أدى إلى ظهور بعض الجماعات الإسلامية المتشددة في منهجها وفكرها بسبب ما أصابهم من التعذيب والإرهاق في تلك السجون.^(٤٤)

ولا شك أن هذه الأسباب تدفع بتلك الجماعات والأفراد إلى اتخاذ ذلك الموقف المتطرف والغلو وتكفير المجتمع واستباحة دماء أفرادهم. وفي تقديري إذا استثنينا الطرف التاريخي الذي أدى إلى ظهور الخوارج الأول وأفكارهم ومعتقداتهم - وهو الفتنة الكبرى وقضية الإمامة - فإن الأسباب التي تؤدي إلى الخروج في هذا العصر وتبني آراء الخوارج وأفكارهم التي يمكن إضافتها لما سبق ، هو التأويل ، الذي يخرج بالنصوص الشرعية عن

(٤١) مواعظ من قضية مجزرة مسجد الثورة ، عبد الرحمن شرفي - دار جامعة أفريقيا العالمية - الخرطوم - طبعة أولى ، ١٩٩٤ ، ص ١٢٤ .

(٤٢) الخوارج والأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم د. مصطفى حلمي - دار الأنصار - القاهرة - طبعة أولى ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - المقدمة ، ص ط .

(٤٣) الموسوعة الميسرة ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣١٠ .

(٤٤) الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د. سعد الدين السيد صالح - دار الأرقم للطباعة والنشر - الزقازيق - طبعة ثانية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، ص ٣٠١ .

المعاني المرادة التي قصدها الشارع إلى معانٍ أخرى يكون أساسها الابتداع والهوى. والسبب الثاني هو الأخذ بظواهر النصوص وعدم الاعتماد على السنة النبوية وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير القرآن الكريم ، ولقد عُلم من الدين بالضرورة أن السنة النبوية هي مصدر التشريع الثاني ، وان السنة هي التي فصلت ما ورد مجملًا في القرآن ، وخصصت فيه ما ورد عاماً ، وقيدت مطلقه ، وغير ذلك من الموارد التي تردها السنة من القرآن الكريم. والسبب الثالث يعود إلى البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه أولئك الأفراد والأوضاع الدينية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية لذلك المجتمع.

تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" :

يسمى هذا التنظيم بـ "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام" الذي يعرف اختصاراً بـ "تنظيم داعش". وكلمة "داعش" هي الحروف الأولى من عبارة "الدولة الإسلامية في العراق والشام" ، فالدال الحرف الأول من كلمة "الدولة" والألف من كلمة "الإسلامية" والعين من كلمة "العراق" والشين من كلمة "الشام". ثم جمعت هذه الحروف فصارت كلمة "داعش". وينسب إلى هذه الكلمة فيقال "داعشي" والجمع فيقال لهم "الدواعش". وأتباع هذا التنظيم يرفضون هذه التسمية ، ويعاقبون بالجلد كل من يستخدم هذا الاسم في المناطق التي يسيطرون عليها.

وتنظيم داعش هو تنظيم مسلح يهدف أتباعه - حسب اعتقادهم - إلى إعادة الخلافة الإسلامية ، وتطبيق الشريعة ، و ينتشر نفوذه بشكل رئيس في العراق وسوريا ، مع وجوده في مناطق أخرى مثل : جنوب اليمن ، وليبيا ، وسيناء ، والصومال ، وشمال شرق نيجيريا ، وباكستان. وزعيم هذا التنظيم هو ابو بكر البغدادي.

أعلنت داعش بتاريخ ٢٩/٦/٢٠١٤م عن الخلافة الإسلامية ، ومبايعة أبي بكر البغدادي خليفة للمسلمين ، وقال الناطق الرسمي باسم الدولة أبو محمد العدناني ، انه تم إلغاء اسمي العراق والشام من مسمى الدولة ، وأن مقاتليها أزالوا الحدود التي وصفها بالصنم ، وأن الاسم الحالي سيلغى ليحل بدلا عنه اسم الدولة الإسلامية فقط.

تأسيس التنظيم وأفكاره :

لقد انبثق تنظيم داعش من تنظيم القاعدة في العراق ، الذي أسسه أبو مصعب الزرقاوي في عام ٢٠٠٤م ، عندما كان مشاركا في العمليات العسكرية ضد القوات التي كانت تقودها الولايات المتحدة والحكومات العراقية المتعاقبة بعد غزو العراق .

وفي أكتوبر من العام ٢٠٠٤م أعلن الزرقاوي البيعة لزعيم تنظيم القاعدة اسامة بن لادن ، وقام بتغيير اسم جماعته إلى ” تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين “ ، وعرفت باسم تنظيم القاعدة في العراق ، رغم أن التنظيم لم يستخدم هذا الاسم ، إلا أن هذا الاسم ظل متداولاً بين الناس .

وفي العام ٢٠٠٦م اندمج التنظيم مع مجموعة من التنظيمات الأخرى وشكلوا مجلس شورى المجاهدين في العراق . وفي العام ٢٠١٤م أعلن التنظيم عن تغيير اسمه إلى الدولة الإسلامية فقط . معلنا عن نيته إقامة ” خلافة عالمية “ .

انتقدت العديد من المؤسسات والمجموعات الإسلامية اختيار هذا الاسم ، ورفضت استخدامه ، ويشاع الآن إطلاق اسم ” داعش “ على التنظيم ، كما يطلق على المنتمين له اسم ” دواعش “ .

كان لتنظيم داعش صلات وثيقة مع تنظيم القاعدة حتى فبراير ٢٠١٤م ، إلا أن تنظيم القاعدة قطع كل العلاقات مع تنظيم داعش . حيث تعتبر القاعدة داعش تنظيماً وحشياً يقوم بقتل الأبرياء المدنيين .

والحق أن تنظيم داعش يحارب كل من يخالف آراءه وتفسيراته الشاذة من المدنيين والعسكريين ، ويصفهم بالردة والشرك والنفاق ، ويستحل دماءهم ، ففي عام ٢٠١٥م قام التنظيم بخمس عمليات انتحارية في مناطق متفرقة من الكويت والطائف والدمام والعراق ، وقد نتج عن هذه العمليات مقتل ما يزيد عن ١٩٠ مدنياً .

كما قامت حركة أنصار الشريعة الموالية لداعش بتفجير ٦ مساجد في اليمن أثناء أداء صلاة الجمعة شهري مارس وأبريل ٢٠١٥م ، ونتج عنها مقتل ما يزيد عن ١٧٠ مصلياً .

وهكذا رأيت أن تنظيم داعش يتبع تفسيراً متشدداً للإسلام ، ويشجع على القتل والعنف باسم الدين – على الرغم من زعم التنظيم أنه يتبع التيار السلفي وكما يعتبر التنظيم الذين يخالفونه في معتقداته وتفسيراته للإسلام كفاراً ومرتدين .

كما يعتبر التنظيم أيضا الشيعة مرتدين لابد من قتلهم. ويقوم مقاتلو داعش بالتفريق بين أتباع المذاهب المختلفة بسؤال عدة أسئلة منها: الاسم ومحل السكن، وكيفية الصلاة، ونوع الأناشيد التي يستمع إليها. وهذه العملية أشبه بعملية الاستعراض التي كان يمارسها الخوارج القدامى مع الذين يخالفونهم في المعتقدات. ولذلك فإن العديد من الشيوخ أمثال مفتي السعودية عبد العزيز آل الشيخ وعدنان العرعور وصفوا المنتمين لداعش "بالخوارج".

معاملة تنظيم داعش للمدنيين :

خلال الصراع العراقي في عام ٢٠١٤م أصدرت داعش عشرات من أشرطة الفيديو تظهر سوء معاملة المدنيين، وكثير منهم قد استهدفوا على أساس ديني أو عرقي وحذرت نافي بيلاي المفوضة السامية لحقوق الانسان في الأمم المتحدة من جرائم الحرب التي ارتكبت وأفادت الأمم المتحدة انه في الأيام من ١٧ أيار ولغاية ٢٢ حزيران، قتل داعش أكثر من ١٠٠٠٠ مدني عراقي وأصابة أكثر من ١٠٠٠٠.

يوم ٢٩ مايو ٢٠١٤م داهمت داعش قرية في سوريا وقتلت ١٥ مدنيا على الأقل ووفقا لمنظمة هيومنرايتسووتش فإن من بينهم ستة أطفال على الأقل. وأكدت مستشفى في المنطقة أنها تلقت ١٥ جثة في نفس اليوم، ووفقا لوكالة رويترز فإن داعش قتلت ١٨٧٨ شخصا في سوريا خلال الأشهر الستة الأخيرة من عام ٢٠١٥م معظمهم من المدنيين.

وفي مدينة الموصل، قامت داعش بتطبيق مناهج دراسية في المدارس تحظر تدريس الفن والموسيقى والتاريخ الوطني والأدب والمسيحية، وقد اعلنت أن الأغاني الوطنية كفر وأعطت الأوامر لإزالة بعض الصور من الكتب المدرسية.

وبعد الاستيلاء على مدن عراقية أصدرت داعش مبادئ توجيهية وتعليمات في كيفية ارتداء الملابس والحجاب وحذرت النساء في مدينة الموصل من مغبة مخالفتها وخيرتهن بين ارتداء النقاب أو مواجهة عقوبات صارمة. وقال رجل دين لوكالة رويترز في الموصل إن مسلحي داعش أمره أن يتلو التحذير في مسجده عند تجمع المصلين. وفي مدينة الرقة تم استخدام كتيبتين من النساء في المدينة لفرض تطبيق الأوامر من قبل النساء.

وأصدر داعش وثيقة تحوي مجموعة من القواعد التي تستهدف المدنيين في محافظة نينوى ومن بين قواعدها أن المرأة يجب أن تبقى في المنزل ولا تخرج في الشارع ما لم يكن

ضرورياً. وقال بند آخر إن عقوبة السرقة تكون قطع اليد وبالإضافة إلى العرف الإسلامي الذي يحظر بيع وتعاطي الخمر والكحول فإن داعش حظرت بيع واستخدام السجائر والشيشة وحظرت أيضاً الموسيقى والأغاني في السيارات والمحلات التجارية، وأمام الملاء، وكذلك صور الأشخاص في واجهات المحال التجارية.

ووفقاً لمجلة الإيكونوميست فإن داعش عين في الرقة ١٢ من القضاة وهم سعوديون وتشمل مهامهم إنشاء الشرطة الدينية وفرض الحضور في الصلاة واستخدام واسع لعقوبة الاعدام، وتدمير الكنائس والمساجد غير السننية أو تحويلها إلى استخدامات أخرى.

ولقد قامت داعش بتنفيذ عمليات إعدام على كل من الرجال والنساء الذين كانوا متهمين بأعمال مختلفة، وأدين بارتكاب جرائم ضد الإسلام مثل الشذوذ الجنسي، والزنا، ومشاهدة المواد الاباحية، واستخدام وحيازة الممنوعات والاعتصاب والتجديف ونبد الإسلام والقتل. وقبل ان يتم تنفيذ العقوبات بحق المتهمين تتم قراءة التهم الموجهة إليهم وبحضور مجموعة من المشاهدين، وأما عقوبة الإعدام فتتخذ أشكالا مختلفة بما في ذلك الرجم حتى الموت، والصلب وقطع الرؤوس، وحرق الناس أحياء، ورمي الناس من البنايات الشاهقة.^(٤٥)

الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الذي وفقني لكتابة هذا البحث، الذي هو بعنوان: الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين. وقد تناولت في هذا البحث أثر الجهل بالدين وعدم معرفة السنة المطهرة في ظهور الفرق والبدع قديماً وحديثاً، كبدعة الخروج على الإمام الشرعي الذي ارتضته الجماعة، ثم تحدثت عن الأسباب العامة للخروج مثل: الخلافة - والتأويل - والعصبية. تم ختمت البحث بالحديث عن أثر منهج الخوارج وعقائدهم على الأمة في هذا العصر.

ومن خلال معالجة هذا الموضوع توصلت إلى النتائج الآتية :

(١) إن ظاهرة الخروج هي ظاهرة عامة حدثت في زمن النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده، وتظهر في كل زمان متى ما توافرت أسباب كالجهد بالدين والتأويل ونحوه.

^(٤٥) الموسوعة الحرة.

(٢) إن الأخذ بظواهر النصوص من غير اعتبار للنصوص الأخرى ومن غير معرفة بالسنن الراتبه عن النبي ﷺ هو الذي أوقع الخوارج الأول في أخطاء شنيعة في العمل والممارسات ، وأن هذا الأمر - أي عدم الاعتماد على السنة - إذا كان منهجاً لأي فرقة أو جماعة فإنها سوف تقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها الخوارج ، كما حدث لجماعة التكفير والهجرة وغيرها.

التوصيات :

- (١) أوصي العلماء والمؤسسات التعليمية كالجوامع والمعاهد بنشر العلم الشرعي من مصدريه القرآن الكريم والسنة النبوية.
 - (٢) كما أوصي الجميع حكاماً ومحكومين بتطبيق شرع الله تعالى في مجالات الحياة كلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.
- والله نسأله التوفيق والسداد ، ، ، ،

قائمة المصادر والمراجع

- (١) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد ، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدري ، دار الفكر - بيروت ، طبعة أولى ١٤١٢هـ.
- (٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن قيم الجوزية ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل - بيروت.
- (٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير الجزري ، دار الفكر - بيروت ، ١٤٠٤ - ١٩٨٩م.
- (٤) الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، د- سعد الدين السيد صالح ، دار الأرقم ، الزقازيق طبعة ثانية [١٤١٣هـ - ١٩٩٣م].
- (٥) التكفير جذوره وأسبابه ومبرراته ، د. نعمان السامرائي ، المنارة للطباعة والنشر - طبعة أولى [١٤٠٤هـ - ١٩٨٤].
- (٦) الحد الفاصل بين الكفر والإيمان - جمعة أمين عبد العزيز - دار الدعوة - الإسكندرية - طبعة أولى [١٤١٣هـ].

- (٧) الحكم وقضية تكفير المسلم ، سالم البهنساوي ، دار البحوث العلمية - الكويت - طبعة ثالثة [١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م].
- (٨) الخوارج د. عبد القادر البحراوي دار المعرفة الجامعية - القاهرة طبعة عشرة [١٩٩٧م].
- (٩) الخوارج والأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم د. مصطفى حلمي دار الأنصار - القاهرة - طبعة أولى [١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م].
- (١٠) الدين الخالص ، السيد محمد صديق حسن - دار الكتب العلمية - بيروت طبعة أولى [١٤١٥هـ - ١٩٩٥م].
- (١١) الرسالة ، الإمام الشافعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ طبع.
- (١٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي - د. مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي - بيروت طبعة ثالثة [١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م].
- (١٣) السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام - أبو محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق جمال ثابت ومحمد محمود - دار الحديث - القاهرة - بدون تاريخ طبع.
- (١٤) الشريعة ، أبوبكر الأجرى تحقيق محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة [١٣٦٩هـ].
- (١٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم الظاهري دار الجليل - بيروت - طبعة [١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م].
- (١٦) الموافقات في أصول الشريعة ، الإمام الشاطبي ، تحقيق محمد عبد الله دراز - دار المعرفة - بيروت.
- (١٧) الملل والنحل ، الإمام الشهرستاني ، تحقيق عبد العزيز الوكيل ، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- (١٨) الوحدة الإسلامية - الإمام محمد أبو زهرة - دار الرائد العربي - بيروت [١٩٧٨م].
- (١٩) تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - طبعة ثالثة [١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م].
- (٢٠) تيارات الفكر الإسلامي د. محمد عمارة ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

- (٢١) جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر النمري - دار الفكر - بيروت.
- (٢٢) حجية السنة ، عبد الغني عبد الخالق ، الدار العلمية للكتاب الإسلامي - الرياض [١٤١٥هـ].
- (٢٣) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، د. أحمد محمد أحمد جلي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض - طبعة ثانية [١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م].
- (٢٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، محمد الغزالي ، دار الشروق - القاهرة طبعة أولى [١٤١٨هـ - ١٩٩٧م].
- (٢٥) دعاة لاقضاة ، الأستاذ الهضبي ، دار التوزيع للنشر - القاهرة بدون تاريخ طبع.
- (٢٦) صحيح الإمام البخاري ، مركز الدراسات والإعلام - الرياض.
- (٢٧) صحيح الإمام مسلم ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- (٢٨) صفة الصفوة ، عبد الرحمن بن الجوزي ، دار الجبل - بيروت - طبعة [١٤١٠هـ - ١٩٩٠م].
- (٢٩) كتاب الأم ، الإمام الشافعي ، دار الفكر - بيروت - طبعة [١٤١٠هـ - ١٩٨٩م].
- (٣٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، دار الفكر - بيروت طبعة [١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م].
- (٣١) مفتاح اللجنة في الاحتجاج بالسنة ، الإمام السيوطي ، مصر - بدون تاريخ طبع.
- (٣٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- (٣٣) منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية ، محمد سعيد منصور ، مكتبة وهبة - القاهرة - طبعة أولى [١٤١٣هـ - ١٩٩٣م].
- (٣٤) مواعظ في قضية مجزرة الثورة ، عبد الرحمن شرفي ، دار جامعة أفريقيا العالمية - الخرطوم - طبعة أولى [١٩٩٤م].



الغلو والتطرف الفقي ”جدلية النص والاجتهاد“

أ.د. عامر عباس حمد

باحث في الفلسفة والدراسات الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٠٠-٥٩)

المستخلص :

تناقش هذه الورقة بعض مظاهر فساد الواقع الاجتماعي والسياسي ، وبعض أشكال فساد التحليل الفكري لهذا الواقع عند النظر إليه من زاوية تطبيق الحدود الشرعية. مع أخذ بعض النماذج الدالة على ذلك من الفكر المعاصر كمحمد الجابري في دفعه بتغير الواقع وفرج فودة في قوله بإستحالة الإثبات ومحمد أبوريان في أخذه بملاسات العصر .

كما تركز الورقة على أهمية إستخدام العقل وضرورة فتح باب الاجتهاد للكافة ، والتأكيد على الإستقلالية ونبد التبعية والدعوة للنظر إلى ذلك بإعتباره فريضة دينية لا سيما عند الأخذ في الإعتبار حقيقة جدلية ثبات النص وتغير وقائع الإجتماع البشري ، والذي يقود حتماً لاعادة تعريف الاجتهاد بإعتباره يمثل عين الظن وليس عين الحق ، ويعضد ذلك وجود الاجتهاد في حياة الرسول ﷺ.

وأخيراً تحاول الورقة تقديم مناقشة علمية على قدر من الموضوعية حول مفهوم الاجتهاد كروية تواجه رؤي علمية أخرى .. بعيداً عن التخوين أو التسفيه أو التكفير ، وكلها رؤي تدخل ضمن "الأجر أو الأجرين" إن شاء الله تعالى .. وتنتهي الورقة لطرح جملة من التساؤلات حول ما الذي نحتاج إليه عند التطرق لهذه المواضيع. وبجملة من القيم والتوصيات تتمحور حول كيف أن مبادئ الشريعة الإسلامية ومقاصدها غائبة ومغيبية ، حيث تطبق بعض التشريعات العقابية فقط دون روح وجوهر مبادئ الشريعة الكلية ، التي تحمي الفرد بوقاية المجتمع من شيوخ الفواحش. وتوصي الورقة بضرورة الحوار الحضاري في مواجهة الأفكار ، وفي حوار العلماء والباحثين .

المقدمة :

لقد تعقدت الحياة المعاصرة للإنسان وتعددت جوانبها وتشعبت مسالكها بالنسبة للفرد الواحد ، وكذا الأمر بالنسبة للمجتمعات والدول.. فتقاطع المصالح وقبح الممارسات السياسية قد أفرز واقعاً مضطرباً تكاد أن تسوده الفوضى.. وحتى هذه الأخيرة أصبحت هدفاً بحد ذاته لبعض الدول تحت مسمى الفوضى الخلاقة ! وكل هذا قد أدى لخلق واقع شديد الغموض متنافر الإتجاهات ومتضاد الأهداف وهو وإن اختلف في ذلك إلا أنه قد إتفق في الوسائل التي يمكن أن تُجمل كلها تحت مسمى العنف والعنف المضاد ، بل الغلو والتطرف في العنف نفسه لأبعد وأبشع ما يمكن أن يتصوره عقل أو تقبله فطرة سوية سواء أكان في هذا الإتجاه أو ذاك الإتجاه.. وفيما يتعلق بواقعنا الإسلامي فإن أغلب هذه الممارسات تتم بإسم الدين وتحت راية الاجتهاد والذي هو أمر محمود في ذاته ومأجور من يقوم به كفعل عقلي يستهدف فهم القرآن وفقاً لتغيرات الزمان والمكان.. ولكن من المحمود أيضاً مناقشة ما يُطرح وما يتم تداوله لتوضيح صوابه من خطئه... وهذا هو الدافع الذي حدا بالباحث إلى تناول هذا المبحث بالتركيز على جدلية النص والاجتهاد وذلك عبر تناول عدة قضايا من قبيل المقاصد والمصالح في الشريعة الإسلامية وتهافت إختزال الأمر كله في قضية الحدود في معظم الكتابات الفقهية القديمة والمعاصرة على السواء أو إستخدام العقل وفتح باب الاجتهاد أو قضية الاجتهاد نفسها فضلاً عن إرتباط السياسي بالديني فيما يتعلق بهذا الجانب.. وكلها قضايا من الأهمية بمكان.

فعلى سبيل المثال نجد أن الدعوة للاجتهاد في أمر تطبيق الحدود دون التطرق لواقع المجتمعات المسلمة - وخاصة العربية - التي ترزح في الإستبداد والعسف السياسي^(١) وتغرق في الفساد المنظم الذي تمارسه غالب الأنظمة الحاكمة بحيث يمكن القول بأن ظاهرة الفساد

^(١) يذكر الدكتور / فؤاد زكريا في كتابه "الصحة الإسلامية في ضوء العقل" في معرض تقييمه للحركات الإسلامية المعاصرة وأسباب نشأتها: "إن الطرق جميعها مسدودة أمام المجتمعات الإسلامية ، والقهر هو الوسيلة الوحيدة لضمان بقاء الأنظمة القائمة".
أنظر في ذلك : الإسلام المعاصر "نظرات في الحاضر والمستقبل" : د. رضوان السيد - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م - دار العلوم العربية - بيروت - لبنان - ص. ١٧٦.

قد غدت مكوناً أساسياً من مكونات النظام السياسي العربي والنظام الإقتصادي ، بل وأصبحت مثلباً من مثالب البنية الأخلاقية للمجتمع العربي^(١) ، إن تجاهل ذلك مع الإلحاح بضرورة تجديد النظر في الأحكام الشرعية هو- في تقدير الباحث - من الأمور التي يجانبها الصواب ، فعلى سبيل المثال إن القول بضرورة إعادة النظر في حد السرقة - قطع اليد من مفصل الكف - وذلك على أساس أن قطع يد السارق تدبير معقول تماماً في مجتمع بدوي صحراوي يعيش أهله على الحل والترحال^(٢) ، إستناداً على أن قطع يد السارق كان معمولاً به قبل الإسلام في جزيرة العرب^(٣) ، إضافة إلى القول بأن الشروط التي وضعها الفقهاء في إثبات فعل الزنى كان من الممكن توفرها في مجتمع كل شيء فيه بادٍ ، فلا جدران ولا أسوار ولا غرف الخ.. ، وبالتالي يمكن للشاهد أن يشاهد فعلاً تفاصيل العملية^(٤) ، ويتبع ذلك تساءل الكاتب محمد عابد الجابري : هل من المعقول إشتراط مثل تلك الشروط في وضعية المدنية المعاصرة ؟ ويجب بأن ذلك يعنى إستحالة إثبات الجريمة^(٥) ، كما يتساءل فرج فودة عن إمكانية إثبات جرائم الحدود والزنا على وجه خاص فهو يقول : أعطوني قضية واحدة شهد فيها أربعة.. ورأى فيها الأربعة الميل في المكحلة ، أو الرشاء في البئر... ولا ضير في مزيد من التحدى الهادئ.. أجيبوني بعد الدرس والمراجعة والبحث عن سؤال أكثر بساطة وهو : ألا تعاقب القوانين الوضعية على ما لا تطوله الشريعة في هذا المجال في ظل شروطها القاسية بل والمستحيلة^(٦) ؟ ، ويضع محمد على أبو ريان ملابسات العصر كأحد الأسباب التي يمكن بناءاً

(١) ظاهرة الفساد : د. ناصر عبيد الناصر - كتاب المدى [٥] رئيس التحرير فخرى كريم - دار

المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٢م - دمشق - سوريا - التقديم - ص. ٧.

(٢) الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : د. محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة

العربية - سلسلة الثقافة القومية [٢٩] - قضايا الفكر العربي - ص. ١٧٥.

(٣) نفس المرجع : ص. ١٧٥.

(٤) نفس المرجع : ص. ١٧٦.

(٥) نفس المرجع : ص. ١٧٦.

(٦) الحقيقة الغائبة : د. فرج فودة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - كتاب الفكر [١٠]

- الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٨م - القاهرة - مصر - ص. ١٢٢.

عليها إيقاف تنفيذ الحدود وذلك حين يقول: ”إن نظام الحدود لا يشكل إلا جزءاً ضئيلاً من أركان الشريعة الإسلامية ويمكن اجتهاداً التعزير فيه أو إستغلال الظروف المصاحبة لكل حدث على حدة والإستناد إليها في إيقاف تنفيذ الحدود سواء بالنسبة لظروف الفرد أو ملابسات العصر“^(٨).

إن التساؤلات أعلاه في تقدير الباحث في غير محلها إذ من المطلوب أن تكون المقاصد والمصالح هي هدف الحكم - الحد أو العقوبة - وتحقق هذه المقاصد والمصالح بالردع والزجر وليس فقط بمحض تطبيق العقوبة.. وهو ما سنحاول في هذه الورقة إلقاء بعض الضوء عليه فإن أصبنا الحق فمن الله وحده ، وإن كان غير ذلك فمننا ومن الشيطان ولنا على كل أجر المجتهد وفي تصويب الآخرين مندوحةً.. وذلك وفقاً للمباحث التالية :

المبحث الأول : الحدود ”المقاصد والمصالح“.

المبحث الثاني : الدعوة لإستخدام العقل وفتح باب الاجتهاد.

المبحث الثالث : حول مفهوم الاجتهاد ”رؤية ورؤية“.

المبحث الرابع : الإسلام والسياسة ”التقاطعات والتباينات“.

الخاتمة والتوصيات.

^(٨) الإسلام السياسى في الميزان والبديل : ”الإسلام المتكامل وملحق به بحث عن : نحو إيديولوجية عربية إسلامية“ : د. محمد على أبو ريان - دار المعرفة الجامعية - ١٩٩٧ - دون تحديد لعدد الطبعات - ص. ١٦.

البحث الأول

الحدود "المقاصد والمصالح"

عطفاً على ما ورد في مقدمة هذه الورقة فإننا نسأل : هل من الثابت أن قطع يد السارق لا يلبي مصلحة المجتمع المدني المتطور حالياً ؟ وهل نفي جلد الزاني يخدم هذا المجتمع عن طريق إزدياد أطفال الشوارع واللقطاء وتدمير نسيج المجتمع ؟ كما أن إستحالة إثبات بعض أنواع الجرائم في التشريعات الإسلامية ليس بالأمر المثير للتساؤل إذ أن الشارع - الله عز وجل - من حيث أنه غني عن العالمين فإن العقوبة لا تعنى له شيئاً - لا تصلحه ولا تضره - وإنما يهدف سبحانه وتعالى للحفاظ على الطهارة العامة للمجتمع من الجرائم كافة ، والحفاظ على سلامة النسيج الإجتماعي عبر عدم شيوع الفاحشة ، فليس المقصود من الحدود أو العقوبات الشرعية محض تطبيقها - محض إيقاع الأذى بالجاني - وهو على أي حال أمر لا غبار عليه إن ثبت الجرم حقاً بالإعتراف أو بأدلة وبينات كافية ولكن الهدف النهائي والأصيل لها هو حماية المجتمع من شيوع الجرائم.. من أن تصبح هذه الفواحش والجرائم محض عادة ، وليس هدفها - كما قد يتصور الكثيرون - منع الجريمة من حيث هي فعل ملازم للطبيعة البشرية التي تحتوي على الشر كما تحتوي على الخير فذلك أمر كان الشارع عز وجل أقدر على فعله إن شاء.. ولكن لأن الأمر في بدئه ومنتهاه مناط بالتكليف وبحرية الإرادة فقد ترك الأمر على هذه الشاكلة من حرية الإرادة.. فأنت مسئول عن أفعالك^(٩) إن شئت سلم الناس من لسانك ويدك وأنت في رضي الله ، وإن شئت فلك غير ذلك.. ولكن إن كان ذلك الفعل في إستتار وخفاء فما لأحد عليك من سبيل ومردك إلى الله إن شاء عاقبك وإن شاء غفر لك ما لم تجهر به ! لأن في الإعلان - سن الفعل - تحريض على

^(٩) يمكن القول أن الإنسان مكلف بشكل مطلق بالحفاظ على سلامة الآخرين من الأذى أو القتل وهي شرعة الأديان السهاوية جميعاً.

الرديلة ودعوة إليها^(١٠) كما أن التخويف بإستعمال القوة كما هو معروف سلفاً أفضل كثيراً من إستخدامها فعلياً ! وفي هذا الإطار النظري لم تجانب النظرية النفعية في العقوبة Utilitarianism Theory الصواب ولكن حادت عنه ببعدها عن تحرى العدالة وإستعدادها لتجاوز القيم الأخلاقية في سبيل تحقيق هذا الهدف وهو أمر سلّمَت منه وجهة النظر الإسلامية.. هذه بديهية لا يختلف حولها أحد والعبرة كل العبرة بتوافر الشروط والحد..^(١١)، إن ما غاب عن ذهن فرج فودة أن الإعتراف نفسه ليس مطلوباً في ظل التشريع الإسلامى على الرغم من وضوح وعدالة القاعدة المعمول بها في هذا المقام كما ورد في : الفقه : ” إذا أقر المكلف الحر الرشيد الصحيح المختار بحق أخذ به “^(١٢) ، فمع وجود الإعتراف – المشمول بكل هذه الشروط – يتوجب إلتماس الشبهات لدرء الحد عن المعترف ما وسعت الحيلة لذلك ، فهو إذن – أى التشريع الإسلامى – لا يحرص أبداً على إثبات الجرم أو تطبيق الحد^(١٣)! بل يحرص أشد الحرص على الوقاية من موجباته وعدم إقترافها أولاً ، وعدم الجهر بها إن وقعت بالفعل حتى لا تُتخذ قدوة وتكون سبباً في شيوع الفاحشة بين من لم يواقعها ثانياً ، ومن ثم تنفيذ العقوبة إن فشلت التدابير أعلاه وتوافرت شروط الإثبات المنصوص عليها ثالثاً.

(١٠) المجتمع الإنسانى في ظل الإسلام : الإمام / محمد أبو زهرة - دار الفكر - دون تحديد لعدد الطبعات أو تاريخ النشر - ص. ٤٧.

(١١) الحقيقة الغائبة : مرجع سابق ، ص. (١٢١-١٢٢).

(١٢) ” العدة “ شرح العُمدة في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيبانى رضى الله عنه : تأليف بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسى - دون تحديد لعدد الطبعات أو دار وسنة النشر - ص. ٦٦١.

(١٣) لعل من الجدير هنا الإشارة إلى أن الدكتور / محمد سليم العوا قد أشار - وبحق - إلى أن التعزير هو أوسع أنواع العقوبات نطاقاً في الفقه الجنائي الإسلامى ، وهو لمرونة قواعده من أصدق الأدلة على صلاحية الجانب الجنائي في الشريعة الإسلامية للتطبيق في عصرنا هذا ، وفي كل العصور.

إن هذا الحرص على عدم تطبيق العقوبة عبر التشدد في الإثبات أولاً وعبر إتاحة فرص واسعة لدرء العقوبة ثانياً هو أمر يعود إلى طبيعة الإسلام ونظرتة إلى الفرد والمجتمع ، فالإنسان مُعترف له بالخطأ بل هو "خطاء" بصيغة التشديد كناية عن كثرة إقترافه للأخطاء كما أخبرنا أنس رضي الله عنه عن الرسول الكريم ﷺ : " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " (١٤) ، وبناءً عليه فلا محل للجوء إلى ملابسات العصر كظرف مانع لتنفيذ الحدود كما يقول بذلك أبو ريان ، فملابسات العصر لا تمنع مطلقاً - ولا ينبغي لها - تنفيذ الحدود إن هي إستوفت شروطها ، وإنما الذي يمنع تنفيذها وحده هو إمتناع شرط من شروط تطبيقها التي أقرتها الشريعة السمحاء قبل أكثر من أربعة عشر قرناً مضت ، فملابسات العصر إن كان يعنى بها أبو ريان التقدم والتطور "الحضارى" للحضارة المعاصرة - كما فهمنا نحن ذلك - فإن ذلك ليس مانعاً لما جاءت به الشريعة إذ أنها أنزلت إبتداءً لتكون سياجاً حامياً لأرقى تطور وأعمق تقدم يمكن أن يبلغه الإنسان على الإطلاق !.

البحث الثاني

الدعوة لإستخدام العقل وفتح باب الاجتهاد

إن التأكيد على إستقلالية الفرد المسلم ونبذ التبعية العمياء وإستهجانها هو دعوة صريحة " من ضمن دعوات أخرى عديدة يذخر بها التوجيه القرآنى " لإستخدام العقل وإعمال الفكر في حرية تامة بغرض الوصول إلى الحقائق وتحقيق أفضل المصالح للإنسان الفرد وللبشرية جمعاء ، وذلك يدخل ضمن ما دعى إليه الإسلام إبتداءً عند توضيحه للغرض الأساسى لخلق الإنسان ؛ فعبادة الله وإعمار الأرض لخير الإنسان الفرد وخير مجموع البشر هما هدفان لا ينفصلان في رؤية المسلم لعقيدته وحياته ، ولما كان الأمر كذلك فإن هذا يؤدى حتماً للتساؤل حول إمكانية التوفيق بين ثبات " النص " وجدلية الواقع المتغير والمتبدل حسب تبدل طبيعة الإجتماع البشرى وما يطرأ عليه من تحولات وتبدلات في أشكال الحياة

(١٤) سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي - تحقيق أحمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - دون إشارة لعدد الطبعات - ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م - الجزء الرابع - ص. ٤٥٩ . وقد صححه مسلم وأبو داود وأحمد الدارمي عن قتادة عن أنس عن الرسول ﷺ.

ونظمها ووسائله هو في التعامل مع هذه التغيرات ، وهو ما يقود مباشرة لتناول مفهوم الاجتهاد والدعوة لإعادة فتح ما إنغلق من أبوابه وتجديد ما تجاوزه الزمن بتغيراته وتبدل أحواله .

الاجتهاد : في اللغة والإصطلاح :

الاجتهاد في اللغة : من الجَهْدُ و الجَهْدُ : الطاقة . قال الفراء : الجُهْدُ بالضم الطاقةُ . والجُهْدُ بالفتح من قولك أَجْهَدُ جَهْدَكَ في هذا الأمر ، أى أبلغ غايتك . الجُهْدُ : المشقة . والاجتهاد والتجَاهُدُ : بذل الوُسْعِ والمجْهودِ^(١٥) . وفي اللغة أيضاً يعني : بذل الجهد وإستفراغ الوسع في أى فعل كان . بمعنى أن يبذل الإنسان جهده وطاقته ، وكل ما في وسعه من أجل القيام بهذا الفعل وتنفيذه^(١٦) .

والاجتهاد عرفاً : ذلك من الفقيه في تحصيل حكم شرعى . قال في التلويح : ومعنى بذل الطاقة أن يحس من نفسه العجز عن المزيد عليه ، وشرطه الإسلام والعقل والبلوغ ، وكونه فقيه النفس : أى شديد الفهم بالطبع ، وعلمه باللغة العربية وكونه حاوياً لكتاب الله تعالى فيما يتعلق بالأحكام ، وعالماً بالحديث متناً وسنداً وناسخاً ومنسوخاً ، وبالقياس . وهذه الشرائط في المجتهد المطلق الذى يفتى في جميع الأحكام . وأما المجتهد في حكم دون حكم فعليه معرفة ما يتعلق بذلك الحكم^(١٧) .

(١٥) الصِّحَاحُ ” تاج اللُّغة وصحاح العَرَبِيَّةِ “ : تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار - المجلد الثاني - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م [١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م] على نفقة المحسن معالي السيد / حسن عباس الشربتلي - القاهرة - جمهورية مصر العربية - ص. (٤٦٠ - ٤٦١) مادة ” جهد “ .

(١٦) أصول الأحكام الشرعية : د. يوسف قاسم - دار النهضة العربية - مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي - الطبعة الثانية ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر - ص. ٣٧٠ .

(١٧) أنظر في ذلك : رد المحتار على الدر المختار : حاشية ابن عابدين على شرح الشيخ علاء الدين محمد بن على المصنفكى لمتنه ” تنوير الأبصار “ للشيخ شمس الدين التمرتاشى ومعه تقريرات الرافعى وضعت في الهامش زيادة في المنفعة - تحقيق عبد المجيد طعمة حلبى - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م - بيروت - لبنان - الجزء الثامن - ص. ٤٦ الهامش .

وإبن حزم يرى إن : حقيقة بناء لفظة " الاجتهاد " أنه إفتعال من الجهد ، وحقيقة معناها أنه إستنفاد الجهد في طلب الشيء المرغوب إدراكه ، حيث يرجى وجوده فيه ، أو حيث يوقن بوجوده فيه .

وفي الشريعة هو : إستنفاد الطاقة في طلب حكم النازلة حيث يوجد ذلك الحكم . هذا ما لا خلاف بين أحد من أهل العلم بالديانة فيه.^(١٨)

والإمام الشوكاني يقول : الاجتهاد في اللغة مأخوذ من الجهد وهو المشقة والطاقة فيختص بما فيه مشقة ليخرج عنه ما مشقة فيه ، قال في المحصول وهو في اللغة عبارة عن إستفراغ الوسع في أى فعل كان يقال إستفراغ وسعه في حمل الثقل ولا يقال استفراغ وسعه في حمل النواة وأما في عرف الفقهاء فهو إستفراغ الوسع في النظر فيما لا يلحقني فيه لوم مع استفراغ الوسع فيه وهو سبيل مسائل الفروع ولهذا تسمى هذه المسائل مسائل الاجتهاد والناظر فيها مجتهداً وليس هكذا حال الأصول.

وقيل هو في الإصطلاح : بذل الوسع في نيل حكم شرعى عملي بطريق الإستنباط.^(١٩) والاجتهاد هو إستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الكلية ، وهو جهد يخضع لقدرة الإنسان وطاقته . فكل من مارس أسباب العلم حتى تَعَلَّمَ ، وعكف على وسائل الإستنباط والاجتهاد حتى قامت عنده ملكة فيها ، فإنه يستطيع أن يستخدم هذه الملكة في البحث والإستنباط دون أن يصطدم في طريقه بأى باب موصد.^(٢٠)

^(١٨) الإحكام في أصول الأحكام : " تصنيف الإمام الجليل المحدث الفقيه فخر الأندلس أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ - " قدم له الأستاذ الدكتور / إحسان عباس - المجلد الثاني [٥ - ٨] - الطبعة الأولى ١٤٩٩هـ / ١٩٨٠م - الجزء السابع - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان - الجزء الثامن - ص. ١٣٣ .

^(١٩) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : تأليف محمد بن على بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥هـ وبهامشه شرح الشيخ أحمد بن قاسم العبادى الشافعى على : شرح جلال الدين محمد بن أحمد المحلى الشافعى على : " الورقات في الأصول " لإمام الحرمين عبد الملك بن عبدالله الجوينى الشافعى المتوفي سنة ٤٧٨هـ - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م - مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده القاهرة - مصر - ص. ٢٥٠ .

^(٢٠) محاضرات في الفقه المقارن " مع مقدمة في بيان أسباب إختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن " : د. محمد سعيد رمضان البوطى ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، ص. ٧ من التمهيد.

والاجتهاد هو خصيصة الأمة الإسلامية ! فمن الثابت أن المولى عز وجل لم يأذن لنبي قبل سيدنا محمد ﷺ بالاجتهاد في أمر التشريع ، فكان الأنبياء جميعاً يبلغون الحكم كما أنزله الله تعالى ؛ ولكن الأمر في الرسالة الخاتمة كان غير ذلك إذ أذن الله تعالى لرسوله الكريم بالتشريع في بعض الأمور : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧٦٢] ، ويقول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : ” دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فأجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما أستطعتم “^(٢١) ، وقد إنتقل شرف الاجتهاد ” ليس بمعنى تعديل أو تغيير الأحكام الشرعية القطعية ، ولكن بمعنى الكشف عن مختلف جوانب الأحكام المتضمنة في التشريعات الإلهية “ إلى أمة محمد ﷺ فأستحقت بذلك أن تكون خير أمة أخرجت للناس من حيث أمرها بالمعروف ونهياها عن المنكر وهو ما يقتضى ضرورة إستمرارية فعل الاجتهاد وعدم جواز إنقطاعه ، فالاجتهاد من فروض الكفايات وقد ذهب جمع إلى أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد قائم بحجج الله يبين للناس ما نزل إليهم قال بعضهم ولا بد أن يكون في كل قطر من تقوم به الكفاية لأن الاجتهاد من فروض الكفايات^(٢٢) ، بل إننا نجد ما هو أبعد من ذلك إذ يميز الأكثرون الاجتهاد حتى في عصر النبي ﷺ ! فحول الإجابة على سؤال يدور حول جواز الاجتهاد في عصر النبي ﷺ يقول الإمام الشوكاني : ” ذهب الأكثرون إلى جوازه ووقوعه واختاره جماعة من المحققين منهم القاضي ومنهم من منع ذلك كما روى عن أبي علي وأبي هاشم ومنهم من فصل بين الغائب والحاضر فأجازه لمن غاب عن حضرته ﷺ كما وقع في حديث معاذ دون من كان في حضرته الشريفة ﷺ واختاره الغزالي وابن الصباغ. ونقله الكبا عن أكثر الفقهاء والمتكلمين ومال إليه إمام الحرمين. قال القاضي عبد الوهاب إنه الأقوى على أصول أصحابهم قال ابن فورك بشرط تقريره عليه. وقال ابن حزم إن كان اجتهاد الصحابي في عصره صلى الله عليه وآله وسلم في الأحكام

^(٢١) صحيح أبي عبد الله البخارى ” بحاشية السندى “ : للعلامة المدقق أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى - مطبعة دار إحياء الكتب العربية ” عيسى البابى الحلبي وشركاه “ - دار التراث العربى ، ميدان المشهد الحسينى ، - القاهرة - مصر - المجلد الثانى - الجزء الرابع - باب ” ما يكره من السؤال “ - ص . ٢٥٨ .

^(٢٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : مرجع سابق - ص . ٢٥٣ .

كأيجاب شئٍ وتحريمه فلا يجوز.؟ وإن كان في غير ذلك فيجوز“^(٢٣)، والاجتهاد تحكمه قاعدة من أروع ما يمكن أن يُشار إليه في الدلالة على إطلاق حرية الفكر وإزالة الحرج والخوف من النفوس وهي عن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: ” إذا حكم الحاكم واجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم الحاكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر الاجتهاد“^(٢٤)، هذا فضلاً عن أن الإسلام هو دين العقل والفطرة السليمة يُحث عليها ويدعو للأخذ بأحكامها وفي هذا يقول المفكر الباكستاني محمد إقبال في معرض تناوله لقضية ”ختم النبوة“ والمغزى من ذلك: ”إن النبوة في الإسلام لتبلغ كما لها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على وقود يُضاء منه وأن الإنسان لكي يُحصّل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو“^(٢٥).

ولما كان الواقع الإسلامي ”منذ آمامد بعيدة“ شديد النزعة للتقليد^(٢٦) بفعل عوامل عديدة داخلية ”التسلط والطغيان السياسي وإضطهاد المجددين من الفقهاء المستنيرين من جهة وتحريم الفكر والإشتغال بالفلسفة ”رياضة العقل“ من جهة أخرى ”وخارجية“ إنهيار الدولة الإسلامية بفعل الغزوات المتكررة عليها من الخارج والخوف من فقدان الهوية والذوبان في الآخر“ فقد أدت هذه النزعة الشديدة نحو التقليد إلى جمود الفكر الإسلامي وتخلفه عن مواكبة ما يستجد من أحوال حركة البشر فترة طويلة من الزمن، وصولاً إلى

^(٢٣) نفس المرجع - ص. (٢٥٦-٢٥٧) بتصرف.

^(٢٤) المسند: أحمد بن محمد بن حنبل - تحقيق عيسى الفلندي - مؤسسة الرسالة - دون تحديد لبلد الطبع - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م - الجزء التاسع والعشرون - ص. ٣٥١.

^(٢٥) رسالة الخلود أو ”جاويد نامه“ للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال: ترجمها وشرحها وعلق عليها د. محمد السعيد جمال الدين - مؤسسة سجل العرب، القاهرة - مصر [١٩٧٤] بدون تحديد لعدد الطباعات - ص. ٢١١ - وهذه الفقرة - حسب المترجم - مقتبسة من كتاب محمد إقبال ”تجديد التفكير الديني في الإسلام“ - ص. ١٤٤.

^(٢٦) في ذلك يقول سلطان العلماء: ”ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ومع هذا يقلده فيه ويترك من الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جموداً على تقليد إمامه، بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده“.

العصر الحديث والذي تشعبت فيه الأمور وتشابكت فيه المصالح خاصة بعد إصطدام الأمة الإسلامية بالحضارة الغربية المتفوقة مادياً وتقنياً منذ حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٩م والتي لم تروّع المسلمين بانتصارها العسكري وحسب ؛ بل كان طعم الهزيمة الحضارية هو الأقسى والأفدح !.

وقد أدت الهزيمة الحضارية للعالم الإسلامي أمام الحضارة الغربية وما تلاها من تداعيات شملت إحتلال معظم بلاد المسلمين ، أدت إلى تصاعد الدعوات إلى ضرورة فتح باب الاجتهاد لتجديد وتطوير التراث الفقهي للإسلام حتى يتمكن من النهوض ومسايرة العصر بما يجعله نداً للحركات الإستعمارية ؛ وقد مثّلت حركة السيد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده في القرن التاسع عشر أوضح بداية لذلك في العصر الحديث ثم تلاهم آخرون.

ولا يعنى ذلك أن الاجتهاد قد أُغلق بواسطة تشريع أو قانون أو بفعل قصدى من العلماء كما يذهب إلى ذلك بعض من الكُتّاب والمفكرين^(٢٧) ، وإنما هو قد إنغلق من تلقاء نفسه بفعل الفقهاء المقلدين^(٢٨) والذين إبتعدوا عن إستخدام العقل في كشف الجوانب المتضمنة في الأحكام الشرعية والتي تتوافق مع المصالح العامة في كل عصر ؛ فليس بالضرورة أن يكون ما هو صالح في فترة ما أو في بلد ما هو عينه ما يصلح في مكان آخر بغض النظر عن الفوارق الموجودة في كليهما ، وبهذا يكون ما نهدف إلى قوله هنا هو الدعوة لوضع المبادئ العامة والتي تكفل لنا الحق في نقد التراث الفقهي أولاً ومن ثمّ الدعوة لفقه جديد بما يتواءم مع مقتضيات الحال ثانياً.

إن الحق في الدعوة لنقد التراث الفقهي وإعمال الاجتهاد تؤيدها شواهد عديدة من صلب مبادئ الإسلام تنحو كلها باتجاه عدم جواز تقييد الاجتهاد وحصره في فئة محددة وفقاً لشروط توافق عليها بعض الفقهاء ثم جعلوها حكماً لتحديد من له الحق في الاجتهاد ومن لا

(٢٧) أحمد فتحى بهنسى على سبيل المثال في كتابه : موقف الشريعة من نظرية الدفاع الإجتماعي : د. أحمد فتحى بهنسى - دار الشروق - الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - بيروت - لبنان - ص. (١٠٩-١١٠).

(٢٨) يعرف التقليد في إصطلاح الأصوليين بأنه : العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة بمعنى أن المقلد يعمل بقول فقيه معين دون النظر في أدلة هذا القول.

حق له ! وقد أرسى الأئمة الكبار المبادئ التي تكفل عدم التقليد والجمود ؛ فقد حذروا كل التحذير : ” من أن يتعصب تلاميذهم لأقوالهم. فقد روى عن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يقول : ” لا ينبغي لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى “. وكان رضى الله عنه إذا أفتى يقول : ” هذا رأى النعمان بن ثابت - يعنى نفسه - وهو أحسن ما قدرنا عليه. فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب “ وكان الإمام مالك رضى الله عنه يقول : ” ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ “ وروى الحاكم والبيهقى عن الشافعى رضى الله عنه أنه كان يقول : ” إذا صح الحديث فهو مذهبى. وفي رواية إذا رايتم كلامى يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامى عرض الحائط “ وعن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قوله : ” هذا كلام الله وهذا كلام رسوله ، ولا مقال لأحد بعد الله ورسوله “^(٢٩).

وقد أصبحت الدعوات تتعالى فى الوقت الراهن للأخذ بهذه القيم والمفاهيم المناهضة للتقليد والجمود والداعية لإعمال العقل والتجديد ؛ فعلى سبيل المثال يرى الإمام الأكبر محمود شلتوت فى مؤلفه الإسلام عقيدة وشريعة أن : ” ليس فى الإسلام من يجب الأخذ برأيه الخليفة والإمام والقاضى فالخليفة أو الإمام ليس معصوماً من الخطأ ولا هو مهبط وحى ولا أثره له بالنظر والفهم وليس له سوى النصيح والإرشاد وإقامة الحدود والأحكام فى دائرة ما رسم الله وهو نائب فى وظيفته عن الأمة توليه وتبقيه وتطيعه ما دام قائماً بمهمته وقائماً على حدود الله وتعزله إذا انحرف عن الحدود واقتحم حدود الله وكذلك وضع القاضى وشيخ الإسلام “^(٣٠) ، وحسن الترابى يرى أن : ” الاجتهاد مصطلحاً ، إشتد خصومه تبديلاً لكلمة عربية تعنى اجتهاد الرأى من كل أحد بقدر وسعه وثقة الناس فى رأيه ، وقد طُمس معنى كلمات التذكر والفكر والتدبر والتفقه التى خاطب بها القرآن كل الناس “^(٣١) ، ويرى بعض المفكرين المعاصرين ” جمال البنا وحسن الترابى ورضوان السيد على سبيل المثال “ أن

^(٢٩) نفس المرجع - ص. (٤٢٣ - ٤٢٤).

^(٣٠) العقوبة البدنية فى الفقه الإسلامى ” دستوريتها وعلاقتها بالدفاع الشرعى “ : د. الحسينى سليمان جاد - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر - ص. ١٧٧.

^(٣١) أنظر فى ذلك : السياسة والحكم ” النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع “ : د. حسن عبدالله الترابى - دار الساقى - الطبعة الأولى ٢٠٠٣ - بيروت - لبنان - ص. ٢٤٧ - ٢٤٨.

الشروط التي وضعها الفقهاء المتأخرين والتي يجب توافرها في من يتصدى لقضية الاجتهاد - كما هو مشار إليه أعلاه في رد المحتار على الدر المختار ، وهناك غيرها كما يذكر الإمام الشوكاني على سبيل المثال والذي يضع أصول الفقه والعلم بالإجماع^(٣١) - إنما قصد منها قفل الباب أمام حركة التجديد وإحتكار الأمر في أيدي بعض الفقهاء وحرمان المسلم العادي من التفكير في أمر دينه وهو ما يتنافى مع رسالة الإسلام الأساسية والتي تحث على التفكير والتدبر وإعمال العقل لكل أحد دونها تخصيص لفرد أو فئة دون أخرى وأن الاجتهاد مع احتمال الخطأ أفضل بكثير من الإمتناع عنه وتفضيل الجمود وعدم مواكبة مستجدات العصر ، وهذا أمر - في تقدير الباحث - لا غبار عليه البتة وهو يحيى موات الساحة الفكرية الإسلامية ، فلو أخذنا جمال البناء على سبيل المثال فإننا نجد أنه يذكر ذلك بوضوح شديد حين يقول تحت عنوان ”إيثار المنهج التقليدي النقلى على المنهج التحررى القرآنى“ : ”لم يقتصر افتيات الفقهاء على ما وضعوه من غشاوات التفسير التي أشرنا إليها في الفصل السابق. بل إمتد أيضا إلى السنة التي هي عدتهم وعمادهم. لأن السنة وإن كانت من القرآن بمثابة التطبيق من المثال ، وبالتالي تكون محكومة بمقتضيات الواقع ، إلا أنها ما كانت لتخالف روح القرآن ولهذا اتسمت بقدر من العقلانية والتحررية. ولكن لما كانت قوى التحول التي أشرنا إليها والتي قضت على الخلافة الراشدة وجاءت بالملك العضوض والحكم الإستبدادى قد ضيقت السبل على الفقهاء ، فإنهم أبدعوا منهجا يتفق مع الأوضاع التي كانت تضيق بكل تحررية ، وترفض إعمال العقل ولا تسمح إلا بالعمل في إطار الوضع القائم لهذا فإن الفقهاء إفتاتوا على السنة أيضا ، ولا جدال أن هذا كان وراء وضع أحاديث عديدة لتتلاءم مع الأوضاع السائدة ، فإذا ظهرت الحاجة ابتدعت الوسيلة. وقد يكون هذا المنهج أكثر وضوحا وصراحة في قسره وتطويعهم لأحاديث لتتفق معهم ، فالحديث النبوى المشهور عن معاذ عندما أجاب الرسول عن سؤاله بم يقض فيما لم يأت في القرآن أو السنة أجتهد رأى ولا الو“ أصبح في أيدي الفقهاء مخالفا لنصه وروحه إذ إعتبر الفقهاء أن الاجتهاد ليس إلا قياسا فإذا إتحدت العلة في قضية جديدة ، مع قضية قديمة جاء فيها قرآن أو سنة ، حكم فيها بما حكم في الأولى ، وبهذه

^(٣١) الشروط الواجب توافرها في المجتهد خمسة هي العلم ب: القرآن والسنة ، الإجماع ، لسان العرب ، أصول الفقه ، الناسخ والمنسوخ.

الطريقة أصبح الاجتهاد قياساً " كما صرح بذلك الشافعي " وقياساً محدوداً مبنياً على حالة واحدة هي اتحاد العلة ، وأين هذا من كلمة معاذ الطليقة الحرة " أجتهد رأي ولا الو.. ". وكان هذا المنهج أى الإبتعاد عن إعمال العقل أو تقبل الحرية وراء تفضيلهم للحديث الضعيف على القياس ، وهو مبدأ أخذ به معظم الأئمة كما أثبتنا ذلك في الجزء الثانى من كتاب " نحو فقه جديد " وهو الخاص بالسنة إذ هو في حقيقة الحال لا يعد إعمالاً للسنة قدر ما يعد فراراً من استخدام العقل أو إبداء الرأى. وأكثر صراحة من هذا كله إغلاقهم باب الاجتهاد بالكلية ، وكان السبب الذى أبداه بعضهم أقبح من الذنب. ذلك أنهم رأوا أنه لا يمكن أن يظهر مجتهد في مثل منزلة الأئمة الأربعة. فكانهم تألوا على الله وتحكموا في المصائر.. وأعجب شئ في هذه المأساة ، وما يدل على قوة وتغلغل روح التقليد أن أئمة المذاهب الأربعة أنفسهم وجهوا الناس لعدم الالتزام - ضرورة - بهم وأن آراءهم صواب يحتمل الخطأ.. كان العصر عصر انغلاق.. وكان لابد أن يكون المذهب مذهب انغلاق فعجزوا عن التكيف السليم للسنة. (٣٣)

ويقول حسن الترابى : " لكن عظة تاريخ المسلمين ، أن سوادهم الأعظم عطّلوا طاقتهم ، ما كانوا يجتهدون في تبصّر واقع الوجود ، ولا يجتهدون في تحكيم الشريعة. بل ساد فيهم الوهم بأن الاجتهاد خصيصة لا تحق إلا لمن استوفى شروطاً معلومة من حد عال في تحصيل علوم وأصول ، والحق أن المؤمنين بشر تتفاضل مكاسبهم علماً وفقهاً بحق الدين وحقائق الواقع ، بدرجات من الفطنة المطبوعة فيهم وحظوظ من الأسباب والظروف المقدره لهم ، لكنهم مبتلون بذلك لعلهم على تفاضلهم يتحدون بالمساعى ، كل يعطى قدره لا يتفرقون فيتواكلون ، منهم من يبخل بجهده ويتعطل ، أو يتخاصمون كل ناسخ كسب الآخر. لم يعرف الإسلام في سنته الأولى طبقة علماء أو مجتهدين متميزة ، بل كان كل المؤمنين يتعلمون ويجتهدون تفقهاً هدى الشريعة ، الأجهل يستفز الأعلم بالسؤال عما لا يعلم فيتجاوب أخوه بالعطاء ، والفقيه بقدر اجتهاده يحرك الأفقه بالحوار والجدال إلى اجتهاد أبلغ ونتاج فكر جديد. فالاجتهاد حركة واحدة في المجتمع تثمر رأياً غزيراً بقدر التساؤل والتدافع

(٣٣) أنظر في ذلك : تثوير القرآن : جمال البنا - "الإحياء" دار الفكر الإسلامى - دون إشارة لعدد الطبعات أو تاريخ النشر - القاهرة - مصر - ص. ٦٥-٦٦.

الحى وتكثف البلاءات ، ولا تتوافر ثروة من مادة التشريع إلا بذلك التوحيد. إن زاد المسلمون حصيلة نظرهم واجتهادهم ، لابد من أن تتوحد فيهم الرؤى الواقعية الزمانية في الدنيا لكنها لا تترهن عندها ، والأزلية الغيبية التى تصوّب نحو الآخرة لكنها لا تنصرف عن الإعداد لها من مادة الوجود المشهود. وانفلات ذلك التوحيد هو الذى عطلّ كسب المسلمين مثل غير المسلمين من غنى الرأى المنتزّل واقعاً ، إذ جنح بعض أهل الدين إلى العكوف على قصد الغيب وآجاله ، هجرّاً لعالم الدنيا ومقاصده وأسبابه في الزمان ، لا يعدون زادهم للآخرة استثماراً للعمل الآجل ، ولا يمدّون شريعتهم الموحدة بتشريع وتشريح يواكبان ويسابقان تجدد بلاءات الواقع المتواترة. لابد من أن يتوحد باطن الإنسان المؤمن نيات ومشاعر وظاهره أقوالاً وأفعالاً وعظة السير ، أن المسلمين تفرّقوا فقهاء ظاهر بالغ وقفوا عند حروف الألفاظ وفروع المسائل ، وعشوا عن المعانى والمغازى الكلية التى تغذى مادة التشريع المستنبط من تلك اصولاً ، ومتصوفة باطن همّهم إحياء شعاب الإيمان في الوجدان يعمون عن تصديقها تعبيراً يتنزّل تكاليف الشريعة ومضاعفة غيبتها النازل تشريعاً. إن التوحيد هو الحق ، لأن الباطن إنما هو دوافع وضوابط للظاهر الذى يخرج منه“^(٣٤).

ورضوان السيد يقول : ” إستندت الدعوة للتجديد في الإسلام إلى أساس فقهي معروف تقليدياً هو القياس. لكنّ هذا الإستناد بحدّ ذاته كان يحمل معه بذور محدوديته ولا شموليته. فالقياس كما يعرفه الأصوليون تبعاً للإمام الشافعى : ” الحاق فرع بأصل لاتحاد العلة“ . ويعنى هذا من ضمن ما يعنيه أنّ ما يجرى بحثه ليس جديداً يتضمّن تخطيطاً للمستقبل وتشبيهاً بل هو أمر وقع أو نازلة نزلت والجهد البشريّ لمواجهتها يأتى في نطاق ردّ الفعل ، وإيجاد الحلّ الممكن. ثم إنّ هذا الحلّ لا ينبغى أن يكون جديداً تماماً ، رغم أنّ الواقعة ” لا نصّ فيها“ . إنّ ذلك كلّه ينبغى أن يتأسس على أصل هو القرآن والسنة بحيث يكون غيرهما - أيّاً كانت علاقته بهما - فرعاً عليهما ، فهما موطن القياس وان انقطعت العلائق. لذلك فإنّ الحديث عن الاجتهاد هو حديث في غير محلّه ، لأن الاجتهاد كما فهمه السلف الصالح هو بحث عن الجديد وليس ردّاً على واقع كان. ثم إنه ليس فرعاً على أصل ، بل هو

^(٣٤) أنظر في ذلك : السياسة والحكم ” النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع “ : مرجع سابق - ص. ٢٤٧-٢٤٨.

جديد مطلق غرضه "بذل الجهد في موافقة مراد الله تعالى". صحيح أن مراد الله تعالى يبقى أصلاً ، لكنه ليس أصلاً محدداً لغيره بأنه فرع عليه ، رغم عدم معرفته أو تحده. لقد تحدد الاجتهاد بالرأى ، ثم تحدد الرأى بالقياس على يد الإمام الشافعى [٢٠٤هـ] في الرسالة في حركة مضادة للراديكالية الإعترالية التي كانت سائدة أيامه. بيد أن زوال الإعترال وتضاؤل تأثيره بعد القرن الخامس الهجرى ، لم يعد الأمور إلى نصابها رغم رؤى ابن تيمية في القرن الثامن الهجرى ، وجذرية الشوكاني في القرن الثاني عشر الهجرى. ومن هنا فإن نظرات المجددين المسلمين التي قيدها تعريفات الاجتهاد ، والقياس ، وخشية الخروج على المؤلف المتوارث ، لم تستطع أن تتحرك في غير مجالات الجزئيات ، ودائماً بعد طروء الأمور وتفاقمها. هكذا كانت فتاوى محمد عبده. وهكذا مضت نظرات أبى الكلام آزاد والمراعى ومحمود شلتوت^(٣٥).

والشيخ محمد الغزالي يقول مدافعاً عن حرية الرأى : " في أوج الحضارة الإسلامية كانت حرية الرأى مكفولة إلى حد بعيد ، وكان البحث عن الحقيقة وتعرف وجه الصواب ، ميسورا لكل من واته الوسائل الصحيحة. وحيث لم يوجد في مسألة علمية نص يعلو على الشبهة ، ويثبت أمام التأويل ، فإن المجال رحيب أمام عقول الرجال.. أجل حيث تتكاثر الأدلة ، وتتلون أساليب الفهم - في حدود قواعد اللغة - وتختلف الأنظار ، ويختلف وزن المصلحة العامة ، ويتسع الأفق أو يضيق أمام مبتغى الحق ، الساعى لكشف النقاب عنه ؛ ففي الأمر مندوحة ، ولا حرج على المسلم أن يعتقد أى مذهب ، ويجنح إلى أى رأى. ولم يكن هناك موضع لتعصب ذميم ، أو جمود بليد.. فإن هذه الآفات العقلية لا تصيب إلا قصار الباع ، ولا تعترى إلا كل مغموز في فضله ، مطعون في عقله.. بل إن المجتهد الحر ، ما كان يزيد على أن يقول : رأى صواب يحتتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتتمل الصواب"^(٣٦).

^(٣٥) أنظر في ذلك : الإسلام المعاصر "نظرات في الحاضر والمستقبل" : مرجع سابق - ص. ٩٠-٩١.

^(٣٦) الإسلام والرأى الآخر " تجربة الإمام علي نموذجاً " : حسن السعيد - قضايا إسلامية معاصرة - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م - مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد بالتعاون مع دار الهادى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص. ٣٣.

إن فتح باب الاجتهاد هو أمر ضروري ومُلحّ ومحمود ولكن ليس بالضرورة أن يُعبّر عن الاجتهاد بضرورة تغيير كل حكم ونسخ كل تشريع بحجة التطور والتقدم الذي وصل إليه الإنسان في العصر الحالي ، إن هذا التقدم والتطور لم يكن حدوثه غائباً عن المشرع جلّ وعلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] . إن هذا الكلام ينطبق على القانون الوضعي بسبب من نسبة المشرع ومحدودية علمه وقدراته على إستشراف المستقبل ومعرفة ما سيؤول إليه الوضع في كذا من السنين وهو ما يجعل القوانين الوضعية دائماً في حاجة مستمرة للتعديل والتنقيح لتواكب المستجدات ، هذا لا يعنى البتة الدعوة للجمود أو عدم الاجتهاد بل لعلّ أكون من أشدّ المؤيدين لقضية الدعوة للاجتهاد وتحرير العقل المسلم مما كَبَلَّ به نفسه وما كَبَلَّ به من قيود من قبل غير قليل من فقهاء التقليد ” أى الحفاظ والشراح وكتّاب الحواشى والذين يسرون على خطى من سبقهم حذو النعل بالنعل لا يحددون ولا يبدلون “^(٣٧) وفيهم يقول القاضى النعمان بن محمد في كتابه ” إختلاف أصول المذاهب “ : ” أجمع المنسوبون إلى الفقه من العامة ، إذا ما كان من الأحكام ، وعلم الحلال والحرام ظاهراً في نص القرآن ، وجب الحكم والعمل به ، وإنّ ما لم يوجد ” بزعمهم “ من ذلك في القرآن ، التمس في سنة الرسول ، فإذا وجد في السنة أخذ به ، ولم يتعد إلى غيره . وقال كثير منهم ؛ وما لم يكن من ذلك في كتاب الله جل ذكره ، ولا في سنة رسوله ، نظر في قول الصحابة ، فإن أصبناهم قد قالوه وأجمعوا عليه أخذنا به ، وإن أصبناهم اختلفوا فيه تخيرنا قول من شئنا منهم ، فقلنا به . وقال بعضهم :

^(٣٧) من المؤكد أن لهؤلاء المقلدين بعض الفضل - إذ الأمر لا يخلو كله من الفائدة - في حفظ التراث الفقهى عن السابقين وذلك عن طريق حفظهم له وشروحهم المتكررة على متون هذا التراث ، بيد أن اللافت للنظر هو أن من تم تقليدهم من السلف الصالح قد كانوا من المجددين على الرغم من قربهم من عهد النبوة وقد تمثّل ذلك في العديد مما قاموا به كما يذكر ذلك الأستاذ / رضوان السيد : ” لا بدّ أن يفتتح النقاش الحرّ في مجال الإسلام في كلّ شئ بعيداً عن مخاوف البدعة وبعيداً عن نزعة الحلال والحرام . وهذه هى أليات اجترار الجديد ، بل هذه هى أليات الاجتهاد كما فهمه رجالات السلف الصالح . لقد فعلوا جديداً كثيراً : جمعوا القرآن ، وبنوا الدولة ، وابتدعوا نظام الخلافة ، ومهروا بخاتمهم مسألة الجماعة والإجماع . وهذه المسائل هى كبرى مسائل الإسلام حتى اليوم . فالإحتجاج بالسلف الصالح في مجال التقليد هو احتجاج ضدّ أصحابه ، بسبب الصورة المزوّرة التى يملكونها عن رجالات السلف وزمانهم “ .

ومن أصبناه قال به منهم لم نخرج عن قوله ، وما لم نجده في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ، ولا في قول أحد من الصحابة ، نظرنا فإن كان أجمع العلماء عليه قلنا به ، ولم نخرج عن إجماعهم فيه ، وسنذكر قول كل فريق منهم في هذا الكتاب عند ذكر مقاتلهم والرد عليهم . ثم اختلفوا فيما ليس في كتاب الله "بزعمهم" ، ولا في سنة نبيهم ، بقولهم ذلك بتقليد أسلافهم وطاعة ساداتهم وكبرائهم وقالوا : هم أعلم منا بوجه الحق ، فما قالوا به قلنا به ، واتبعناهم فيه ولم نخالفهم ، وقلدناهم ما تقلدوه ، وسلمنا لهم فيما هم قالوه ، واختلفوا فيمن قلدوه ، فذهب كل فريق منهم إلى قول قائل ممن تقدمهم ، فقالوا بقوله ، وأحلوا ما أحله لهم ، وحرّموا ما حرّمه عليهم ، وأقاموا قوله حجة عندهم ، وأعرضوا عن قول من خالفه ممن قلده وإتبعه غيرهم ، وخطأ بعضهم بعضاً ، وكفّر قوم منهم قوماً ممن خالفهم وفارقهم ، وآخرون أنكروا التقليد ، وذهبوا فيما جهلوا مذاهب الذين قلدهم الآخرون في الإستنباط ، وقال بعضهم بالقياس ، وقال آخرون بالنظر ، وقال آخرون بالإستدلال ، وهذه الألقاب لقبوا بها مذاهبهم ، ليسبوا إلى الحق "بزعمهم" ، وكلها يرجع إلى أصل واحد ويجمعها معنى فاسد ، وهو إتباع الهوى والظن ، اللذين حذر الله منهما وعاب من اتبعهما...".^(٣٨)

ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن نرفض كل قديم بإعتبار وضعه الزمني بدعوى التحديث ومواكبة التطور ، إذ أن الثوابت في الإسلام تتمثل في العقيدة التي لا تتبدل ولا تتغير مطلقاً بتغير الزمان والمكان وهي محدّدة في الإيذان بالله وملائكته ورسله والإيمان باليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، وهي تمثّل العمود الفقري للإسلام ولكافة الأديان السماوية الأخرى السابقة عليه ، أما الشريعة فهي ثابتة فيما ورد فيه نصّ قطعي الثبوت قطعي الدلالة في القرآن أو السنة وما عدا ذلك فهو خاضع للمصلحة العامة لجماع المسلمين في كل عصر حسب تغير الواقع وإختلاف الزمان ، وما يخضع للمصلحة العامة هنا ليس حكماً جديداً وإنما هو فهم جديد لأحد أوجه الحكم ربما غاب إدراكه عن من سبقنا من السلف .

(٣٨) إختلاف أصول المذاهب : مرجع سابق - ص ٣٦ - ٣٨ .

البحث الثالث

حول مفهوم الاجتهاد "رؤية ورؤية"

بناءً على ما سبق فإن الاجتهاد ليس بالضرورة في تقدير الباحث أن يعنى الإتيان بالجديد في كل آن وحين بل ربما كان قمة الاجتهاد يتمثل أحياناً في إزالة اللبس الذى يكتنف قضية ما ! بحيث تؤدي هذه الإزالة لتعديل دفة الحوار فبدلاً عن المطالبة بإلغاء أمر ما يصبح المناذرة بإبقائه وتطبيقه هو المطلوب الأهم من قبل نفس الفئة المطالبة سابقاً بإلغائه عن عدم دراية أو سوء فهم ، وكما يقول محمد أبو زهرة : " قال النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد : " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يجد لها أمر دينها " وتجديد أمر الدين ليس بتلقيح ما فيه من أحكام بآراء من غيره ، فإن ذلك هو الفهم السقيم ، لأنه يؤدي إلى التغيير والتبديل ، وليس إلى التجديد ، وردة إلى أصله ، وإنما التجديد هو إزالة ما يعلق به من أوهام وخرافات هي الغبار الذى يعلو سطحه ، ويظنه الناس منه ، وما هو منه " (٣٩) ، يقول ﷺ : " إياكم ومحدثات الأمور " أى باعدوا أنفسكم وأحذروا الأخذ بالأمور المحدثه في الدين (٤٠) ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (٤١) ، والإمام الشافعى يقول في رسالته في الأصول " فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها " وقال " كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم ، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة " (٤٢) ، وفي كثير من الأحيان تحتاج لأن تغير نفسك أكثر من حاجتك لتغيير العالم المحيط بك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١].

(٣٩) المجتمع الإنسانى في ظل الإسلام : مرجع سابق - ص. ٢٠.

(٤٠) منهل الواردين - شرح رياض الصالحين للإمام النووى الحافظ محى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف [المتوفى سنة ٦٧٦هـ] : ضبط الأصل - ووضع الشرح - ووضع الفهارس الدكتور. صبحي الصالح أستاذ الإسلاميات وفقه اللغة في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الرابعة - كانون الثانى (يناير) ١٩٧٧ - ص. ١٥٢.

(٤١) نفس المرجع : ص. ١٦٤.

(٤٢) في أصول النظام الجنائى الإسلامى " دراسة مقارنة " : مرجع سابق - ص. ٤٨.

إن التخوف الذى ظل ملازماً للفكر الإسلامى ولمفكره طيلة فترات الضعف والهزال الفكرى والذى يُعتبر أحد أهم العوامل المؤدية إلى إنغلاق باب الاجتهاد بحجة سد الذرائع خشية إتاحة الفرصة "للمفسدين" للعقيدة الإسلامية للتسلل من هذا الباب كما قيل: "إن الاجتهاد الذى إذا فتح بابه دخل فيه مع الرجل الواحد الصالح عشرون من الرجال المفسدين ، جدير ببابه أن يظل مقفلاً لا يفتح" (٤٣) ، لهو تخوف في غير محله من جهة إذ يدحض ذلك أن الإسلام ليس بالضعف والهشاشة التى يمكن أن تبرر مثل هذا المنحى في التفكير ! بل على العكس من ذلك فهو دين قوى يقوم على الفطرة وإعتماد العقل والحوار والإعتراف بالآخر وتقبّل ما هو على خلاف ما جاء به من أفكار وآراء وعدم نفيها أو إضطهادها بل طرحها للجدل والتمحيص وصولاً للإقناع بالبرهان ومن ثم فإن الزيد يذهب جفاءً أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ! ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الدعوات فيها إستباق للأحداث وتفتيش في النوايا وهو أمر لا يجوز القول به من عوام الناس فضلاً عن علمائهم ، وفوق هذا وذاك فهو يضاد القاعدة الموضوعية للاجتهاد ويصادر عليها فيعاقب من يخطئ بمصادرة حقه في إبداء الرأى إبتداءً! عوضاً عن أن يعترف له بأجر المحاولة.

الناسخ والمنسوخ في اللغة والإصطلاح :

وقد يثور إعتراض هنا من قبل بعض الذين يتناولون موضوع النسخ والمنسوخ في القرآن الكريم - وهو أمر ورد بنص القرآن نفسه - : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦]. والنسخ من مادة "نسخ" : وَنَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ وَانْتَسَخَتْهُ : أزالته. وَنَسَخَتِ الرِّيحُ أَثَارَ الدَّارِ : غَيَّرَتْهَا. وَنَسَخْتُ الكِتَابَ ، وَانْتَسَخْتُهُ ، وَاسْتَنْسَخْتُهُ كُلُّهُ بِمَعْنَى . وَنَسَخُ الآيَةِ بِالْآيَةِ : إِزَالَةُ مِثْلِ حُكْمِهَا ، فَالثَّانِيَةُ نَاسِخَةٌ وَالْأُولَى مَنسُوخَةٌ. (٤٤)

(٤٣) محاضرات في الفقه المقارن "مع مقدمة في بيان أسباب إختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن" : مرجع سابق - ص. ٨ من التمهيد.

(٤٤) الصِّحَاحُ "تاج اللُّغة وصحاح العَرَبِيَّةِ" : مرجع سابق - المجلد الأول - ص. ٤٣٣ مادة "نسخ".

أما الإستنساخ فهو نقل المكتوب من نسخة إلى نسخة. قال الله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩].^(٤٥)

وكما يقول عبد الوهاب خلاف : ” لا نسخ لحكم شرعي في القرآن أو السنة بعد وفاة الرسول ﷺ. وأما في حياته ، فقد إقتضت سنة التدرج بالتشريع ، ومسائره المصالح نسخ بعض الأحكام التي وردت فيهما ببعض نصوصها نسخاً كلياً ، أو نسخاً جزئياً“.^(٤٦)

والنسخ في إصطلاح الأصوليين هو إبطال العمل بالحكم الشرعي بدليل متراخ عنه ، يدل على إبطاله صراحة أو ضمناً ، إبطالاً كلياً أو إبطالاً جزئياً لمصلحة إقتضته ، او هو إظهار دليل لاحق نسخ ضمناً العمل بدليل سابق.^(٤٧)

وهذا الإختلاف بين القائلين بالنسخ والرافضين لوجوده بين مفكرى المسلمين من جهة ، وإحتجاج المستشرقين به وأخذه كدلالة على تعارض القرآن وعدم إتساق أحكامه من جهة أخرى هو ما يوجب الإشارة إليه من زاوية توضيح أن ”النسخ“ لا يكون أبداً بمعنى الإلغاء أو الإزالة لكامل التشريع وإحلال آخر جديد مكانه وإنما هو إما تخفيف لتكليفات يشق على الإنسان أداؤها ، أو تشديد في حكم للنهي أو التحريم جاء على سبيل التدرج في أول أمره وكلاهما كما هو واضح من السياق يوجد لهما ”تقرير سابق“ أو مادة يجرى فيها التعديل تخفيفاً أو تشديداً.

هذا ما يراه الباحث ويطمئن للأخذ به ”وهو يوافق ما أورده الإمام الشاطبي كما سيتم توضيحه لاحقاً“ ، نقول هذا لأن موضوع ”النسخ“ في القرآن مُتخَلَفٌ عليه - لا من حيث دلالة اللفظ أو فهم موضوع النسخ فحسب ، بل من حيث الإقرار بوجوده من حيث هو - وهذا ما سنشير إليه كالاتي :

ففي زبدة التفسير من فتح القدير ورد فيما يختص بالنسخ : ”والنسخ هو الإبطال والإزالة ، كل شيء خلف شيئاً فقد إنتسخه ، يقال نسخت الشمس الظل ، ونسخ الشيب الشباب وذلك أن يحول الله الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً ،

^(٤٥) أصول الأحكام الشرعية : د. يوسف قاسم - مرجع سابق - ص. ٣٧٠.

^(٤٦) علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف - دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثانية عشرة ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧م - الكويت - ص. ٢٢٢.

^(٤٧) نفس المرجع : ص. ٢٢٢.

ولا يكون ذلك إلا في الحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة إلى أخرى ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله إلى غيره. وسواء نسخ حكم الآية ، أو خطها. وقد إتفق علماء الإسلام سلفاً وخلفاً على ثبوت النسخ في كتاب الله تعالى ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه. وقد إشتهر عن اليهود إنكاره " ليتوصلوا بذلك إلى إنكار نبوة محمد ﷺ قالوا لأنه نسخ بعض ما في التوراة فلا يكون نبياً" وهم محجوجون بما في التوراة نفسها أن آدم كان يزوج الأخ باخته وقد حرّم الله ذلك على موسى عليه السلام وقومه " أو ننسها" أي : ننسيكم إياها حتى لا تُقرأ أو لا تُذكر " نأت بخير منها أو مثلها" نأت بما هو أنفع للناس منها في العاجل والآجل ، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة ، فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم في العاجل ، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع لهم في الآجل " ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير" فالنسخ من مقدوراته سبحانه وتعالى " (٤٨)

ويذكر الإمام الشاطبي في معنى النسخ : " إن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين : فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً ، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً ، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً ، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخاً ؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد ، وهو أن النسخ في الإصطلاح المتأخر إقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف ، وإنما المراد ما جرى به آخراً ، فالأول غير معمول به ، والثاني هو المعمول به " (٤٩)

ومن المعاصرين يذكر جمال البنا عن النسخ : " وتعد دعوى النسخ من أكبر ما نسب إلى القرآن واعتبر معرفته من أهم ما يجب لمفسر وجرت قالتهم لمن لم يعرف الناسخ والمنسوخ

(٤٨) أنظر في ذلك : القرآن الكريم " وبالهامش زبدة التفسير من فتح القدير " : " وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكاني المسمى فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير " : محمد سليمان عبد الله الأشقر - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م - دولة الكويت - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - ص. ٢١ .

(٤٩) أنظر في ذلك : الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحق الشاطبي : تحقيق محمد عبد القادر الفاضل - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - الجزء الأول ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م - بدون تحديد لعدد الطباعات - صيدا - بيروت - ص. ٧١ [من الجزء الثالث].

” هلكت وأهلكت “ ! وما من مفارقة تثير الدهول كهذه ، فبدعوى خدمة القرآن أعمل هؤلاء المفسرون سكين النسخ وبتروا مئات الآيات.. فهل يختلف عملهم هذا من عمل ” جزار اليهود بالبقر.. “ كما رأى شوقي ” برأها من العيوب.. وعقر !! “ لا أدرى كيف وابت هؤلاء المفسرين الجرأة على هذا الجرم العظيم.. وأغرب من ذلك وأعجب أنهم رأوا في المفسر الوحيد الذى أنكر النسخ أنه ” جاهل بهذه الشريعة جهلاً فظيلاً كما قال الشوكاني في إرشاد الفحول “ أو أن قوله ضعيف مردود مردول ” كما قال ابن كثير. وجاء في ” فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت “ وأجمع أهل الشرائع على وقوعه سمعاً خلافاً لأبي مسلم الأصفهاني الجاحظ من شياطين المعتزلة وهو لا يصح من مسلم ممن يدعى إسلامه إلا بتأويل “. وقال السيوطى ” والناس في هذا بين طرفي نقيض فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الأحاد العدول ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد والصواب خلافها“ (٥٠).

وهو يرفض للسنة أن تكون ناسخة للقرآن وهو يستشهد بإنكار الشافعى لذلك وكيف أن الفقهاء المتأخرين أنكروا عليه ذلك ورأوا فيه سقطة كبيرة ، ويذهب للقول بأن المفسرين قد ذهبوا مذاهب شتى في عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزى أنها [٢٤٧] آية. وذهب أبو عبد الله بن حزم ” وهو غير أبو محمد بن حزم الأندلسى الظاهرى المشهور “ إلى أنها [٢٠٨] آية. وعند أبي القاسم هبة الله بن سلامة [٢١٢] آية. وعند أبي جعفر النحاس [١٣٤]. وعند عبد القادر البغدادي [٦٦] آية. والقرآن عند الأستاذ جمال البنا لا يستخدم كلمة آية كما نستخدمها نحن بمعنى [نص] ولكن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة ومن هنا فإنه يرى أن بناء النسخ على ما جاء في سورة البقرة ﴿ مَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ... ﴾ الآية لا يجوز الإستدلال به فضلاً عن أن القرآن إستخدام كلمة نسخ بمعنى إثبات أو كتابة فالدعوى ساقطة تماماً^(٥١) وهو هنا محق تماماً.

وقد ذهب فريق من الفقهاء للقول بأن البداء على الله مستحيل ، والبداء هو أن يُبدأ أمر ما ثم يتضح لاحقاً حاجته للتعديل لأن جديداً قد طرأ لم يشملها ما قد قُرر من قبل ، وهذا

(٥٠) أنظر في ذلك : تثوير القرآن : مرجع سابق - ص. ٥٦.

(٥١) نفس المرجع : ص. ٥٨. بتصرف.

الإعتراض صحيح ومقبول تماماً فيما يختص بهذه الجزئية ، ولكن نفي التعديل بالكلية يشوبه بعض القصور ، وذلك بالنظر إلى أن الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم - كما أوضحنا - يختص فقط "بالتكليفات" ولا يتناول العقائد أو الإخبار من الله مطلقاً فهي مما لا يجوز فيه النسخ ؛ إذ العقائد واحدة وثابتة منذ الأزل وعلى لسان كافة الرسل دون إستثناء ، والقصاص التي أوردها المولى عزّ وجلّ تتناول أموراً قد سبق وقوعها فلا يصح فيها التعديل وإلا فقدت صدقيتها ، وأما "التكليفات" فهي أمور قررها المولى عزّ وجلّ في فترة ما ثم طالها التعديل في بعض أحكامها أو تم إلغاؤها وإستبدالها بأخرى مثلها في الجزاء والثواب - وإن اختلفت عنها في حجم التكليف - أو خيراً منها ، ولكن ما الفرق بين التعديل هنا والتعديل الذي يتعلق بالبداة ؟ إن الفرق ولاشك كبير إذ أن التعديل فيما يختص بأمر الله لا يكون طارئاً أبداً إذ أنه في سابق علم الله - وهو العليم الخبير - أن الأمر سيكون على هذا النحو في فترة ما ثم يعدّل فيما بعد لحكمة الله تعالى التي أجراها في هذا التعديل من تدرج أو تخفيف أو غير ذلك ، بينما الأمر في البداء - أو التعديلات الوضعية عموماً - فالأمر يسير على غير هذا النحو ، فالقوانين تُوضع بإعتبارها تُمثّل منتهي ما توصل إليه اجتهاد العقل البشري القانوني في هذا المجال ويُفترض فيها أنها قد شملت كل ما له صلة بالظاهرة موضع القانون المُحدد لها ، ثم يظهر لاحقاً ما لم يكن في الحسبان وما هو غير داخل في حسابات من وضع ذلك القانون مما لا يكون معه بدٌ من إجراء التعديل في بعض الأحيان أو إلغاء التشريع بالكلية وإستبداله بآخر يُدخل ما إستجد من أوضاع ضمن نطاقه ، وتتضح لنا هذه الأمور بأوضح صورة بالنظر إلى أن المنسوخ من "التكليفات" دائماً ما تكون فيه إشارة إلى أن هناك أمراً ما سيطرأ في المستقبل بحيث يُعتبر ما هو موجود تمهيداً لما سوف يأتي لاحقاً.

ويذكر الإمام الشاطبي في تفسير ذلك ما يتحتم إيراده هنا لمزيد من التوضيح إذ يقول :
 "القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً ، والذي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة ، ثم تبعها أشياء بالمدينة ، كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة... ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وإتسعت خطة الإسلام كملت هنالك الأصول الكلية على تدرج ، كإصلاح ذات البين والوفاء بالعقود ، وتحريم المسكرات ، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية وما يكملها ويحسنها ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص ، وما أشبه ذلك ، كله تكميل للأصول الكلية. فالنسخ إنما وقع معظمه بالمدينة ، لما إقتضته الحكمة الإلهية في تمهيد الأحكام ، وتأمل

كيف تجد معظم النسخ إنما هو لما كان فيه تأنيس أولاً لقريب العهد بالإسلام وإستتلاف لهم ، مثل كون الصلاة كانت صلاتين ثم صارت خمساً ، وكون إنفاق المال مطلقاً بحسب الخيرة في الجملة ثم صار محدوداً مقدراً ، وأن القبلة كانت بالمدينة بيت المقدس ثم صارت الكعبة ، كحل نكاح المتعة ثم تحريمه ، وكون الطلاق كان إلى غير نهاية على قول طائفة ثم صار ثلاثاً ، والظهار كان طلاقاً ثم صار غير طلاق ، إلى غير ذلك مما كان أصل الحكم فيه باقياً على حاله قبل الإسلام ثم أزيل ، أو كان أصل مشروعيته قريباً خفيفاً ثم أحكم... ويمضى فيقول : الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات ، وجميع ذلك لم ينسخ منه شئ. لكن إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويحكمها ويحصنها ؛ وإذا كان كذلك لم يثبت نسخ لكلى البتة ، ومن إستحرق كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى ؛ فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها ، والجزئيات المكية قليلة“ (٥١)

وبناء على ما سبق فإن إتخاذ النسخ دليلاً على تعارض أحكام القرآن عند بعض المستشرقين من جهة أو رفض وجوده وإستبعاده تماماً من قبل البعض من المسلمين (٥٢) ، أو القول بوجود وجه شبه بينه وبين ما يحدث من تعديلات في القوانين والتشريعات الوضعية (٥٣) كله قول يجانبه الصواب في تقدير الباحث ! فالأحكام في التشريع الإلهي لا تتعارض مطلقاً ولا يصادم بعضها بعضاً : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ولكنها ومن بنية تركيبها الفريدة بإعتبارها التشريع الخاتم لكل الأديان والقانون الذي سيسود كل البشرية على إختلاف ألوانها وتباين أعراقها وألسنتها وما جُبلت عليه من عادات وطبائع وإختلاف في الزمان والمكان وهو ما أكسبها صفة الصلاحية لكل زمان ومكان ؛ لكل ذلك فإنها تراعى شيئين هامين : طبيعة النفس البشرية من جهة ، والتدرج في أحكامها من جهة أخرى وذلك بحسب ما تتطلبه هذه الطبيعة البشرية من ملاينة وتلطف وصولاً بها إلى أعلى مراقى التطور الأخلاقي وهو ما لا يتأتى بالشدّة والصرامة في التشريع أو التطبيق من أول وهلة ومعاملة الناس على حد سواء خاصة وأن

(٥١) الموافقات في أصول الشريعة : مرجع سابق - ص. (٦٨ - ٦٩) من الجزء الثالث بتصرف.

(٥٢) كما عند أبي مسلم الأصفهاني قديماً ، أو الأستاذ / جمال البنا من المحدثين مثلاً.

(٥٣) علم أصول الفقه : مرجع سابق - ص. ٢٢٢.

صلاحية الأحكام الإلهية لكل زمان ومكان تلفت نظرنا إلى حقيقة هامة جداً تتمثل في أنها لم تُشرع لزمان واحد ولم تُوضع لجماعة بعينها حتى يمكن أن يُقاس عليها بحكم واحد ونهاى ، إذ أنه ولما كان من بدهيات الأمور فهم أن حقيقة التطور والتقدم في مسيرة البشرية لا يسيران في خط رأسى صاعد نحو الأفضل دوماً ؛ بل ربما كان المتأخر زمانياً هو الأفضل من النواحي العقلية والروحية والأخلاقية والتقنية أيضاً من اللاحق ” وكثيراً ما حدث هذا في التاريخ “! ، وبالنظر إلى أن من نعتبرهم أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ وهم الصحابة الأجلاء عليهم رضوان الله تعالى قد تدرّجت بهم الأحكام - والرسول الكريم بين أظهرهم - من يسيرها إلى ما هو أشدّ ومن الأخفّ إلى ما هو أكثر إحكاماً في تهذيب وتشذيب للطبيعة الإنسانية حتى وصلوا إلى المكانة الرفيعة التى إحتازوها فإن ذلك يسمح بالقول بأن التدرج سنة باقية إلى يوم الدين تكتسب صلاحيتها من تشابه الظرف المكاني والزمانى وتشابه الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان ومما يشهد على ذلك إختلاف العلماء في أحكام كثير من الآيات التى يقول البعض منهم بنسخ أحكامها وبذهب البعض إلى بقائه في حق حالات بعينها ، إضافة إلى ما أوضحنه سابقاً من أن الجهل بالحكم الشرعي ” كإعتقاد حل ما هو محرّم “ مما يصلح أخذه كشبهة مانعة للحد ” العقوبة “ عند كثير من العلماء وذلك في داخل المجتمع المسلم الذى كُمل إسلامه وهذا على خلاف ما هو معمول به في القانون الوضعى إذ القاعدة فيه تنصّ على أن الجهل بالقانون لا يُعفي من المسؤولية وبالتالى إستحقاق العقوبة كاملة ! ، وذلك أحد أوجه التمايز بين الأحكام الإلهية والوضعية إذ أن محض تطبيق العقوبة ليس هدفاً أصيلاً لها كما أوضحنه ذلك ، ولكنها تُعنى بتنمية الإنسان أخلاقياً وتعمل على ترقية ضميره الشخصى وصولاً به إلى درجة أن يكون رقيباً بنفسه على نفسه وهو ما يسمح لنا بفهم الظاهرة الغريبة - على التراث البشرى والمثلة في سعي المذنب لإستحقاق العقوبة رغم عدم شهود الجرم ، وعزوف القاضى عن تطبيق نصّ الحكم بإلتماس كافة ما يمكن أن يُكذب هذا الإعتراف والإقرار الصريح المصحوب بالإصرار والإلحاح الشديدين ! وقد لا نعدم وجود أحد طرفي المعادلة هنا أو هناك طيلة مسيرة البشرية ، ولكن إجتماعهما معاً هو محل الدهشة والإستغراب.

وهذا يصح القول بوجود وبقاء التدرج في الأحكام وصولاً للأخذ بالحكم النهائي في كل قضية من القضايا فيمن كُمل إسلامه من المجتمعات^(٥٥) بحيث أصبح الرأى العام السائد فيها لا يسمح بغياب أحكام الإسلام عن متناول فرد من أفرادها ، وإنتفائه فيمن سواها ممن يُرجى تدرّجها في مراقى التطور والكمال الأخلاقي والإياني وصولاً إلى حال من سبقها من المجتمعات الإسلامية الأخرى المشار إليها آنفاً.

إن الصيغة الإعتذارية التي غالباً ما تطبع كل حديث يدور حول القضايا الإسلامية عامة - والتشريعات الحدودية خاصة - إنما تنبع في تقدير الباحث من قصور في فهم ذات المقاصد والمصالح التي ينادى أغلب الكتاب بجعلها هدفاً لفهم التشريعات في الإسلام هذا من جهة ومن جهة أخرى هو شعور بالدونية وإحساس بالعجز بإزاء الحضارة الغربية وإعلامها الذى يصور الإسلام والمسلمين بالتخلف.. وهو إن صدق إلى حد بعيد في تصويره لمسلمى اليوم فإنه قد غاب عليه المعرفة الحقة بالإسلام كدين.. وهو معذور في جمعه وخلطه بين النظرية والتطبيق ” النصّ والواقع “ ، بين الإسلام والمسلمين ! لقد فشل المسلمون منذ أمد بعيد في التطبيق.. هذا أمر لا جدال فيه البتة ، ولكن النظرية العامة والمبادئ الكلية التي إحتواها التصور الإسلامى فإنها تظل نقية وفي غاية الكمال.. وهل عجزنا إلا بسبب من كمالها الذى يتابى على الضعفاء ؟ على من تمتلى قلوبهم بالنفاق !.. هذا الكمال الذى يرفض التجزئة ويستعصى على كل من يحاول توظيفه لغير ما أنزل له والمتمثل في إقامة العدالة الشاملة لكل جوانب الحياة - السياسية والإجتماعية والقانونية والفكرية - وما من آفة ألمت بالإسلام

^(٥٥) قد لا نعدم وجود أحد طرفي المعادلة هنا أو هناك طيلة مسيرة البشرية ، ولكن إجتماعها معاً هو محل الدهشة والإستغراب ، فمن المؤكد أن المجتمعات لا تسير دوماً في خط واحد بإتجاه التقدم فهناك دائماً منحنيات قد تعود بمجتمع ما إلى مرحلة غاية في التخلف وهو أمر لا صلة له بالضرورة الزمانية... وكما يقول على حرب فقد : تزعزت الثقة بمقولة ” التقدم “ ، التي استخدمها الماركسيون بشكل خاص كمبدأ للتفسير والعمل في آن. فالمجتمع لا يسير على خط صاعد متصل نحو رقيه وكماله. بل هناك دوماً اختلالات وتراجعات وانقطاعات. هناك سيرورة تتم على أكثر من مستوى ولها أكثر من سرعة. وهى تجرى دوماً نحو مزيد من التعقيد والتأزم ، وتفتح على اللامعقول واللامتوقع ، فتوسع بذلك رقعة الإمكان وتضاعف حساب الاحتمالات.

وقعدت به أشد إيداءاً "في تقدير الباحث" من غياب قيمة العدالة منها ، فالهدف واضح .. إن كثرة العدد وضخامة البنيان وكثرة الأموال لم تكن في يوم من الأيام هي هدف الإسلام أو ما يسعى إليه .. بل صياغة الإنسان المسلم صياغة تؤهله لتطبيق النظرية أو المبادئ بشكل صحيح لا نفاق فيه ولا رياء .. وهل نحن الآن إلا غثاء كغثاء السيل ..

صحيح لقد اجتهد الكثيرون - وسيدنا عمر بن الخطاب يعد من أبرزهم - كما يذكر محمد عابد الجابري^(٥٦) ، ولكن كان اجتهادهم ناشئاً عن التطور الذي حدث في بنية المجتمع المسلم من داخله "والذي كانت الشريعة مطبقة فيه بالكامل" وليس التطور الذي فرض عليه من الخارج من بيئة مغايرة وثقافة تختلف في نظرتها للإمور وللإنسان عن نظرة التصور الإسلامي في نقائه الأول ، إن الاجتهادات سألقة الذكر قد راعت المصلحة العامة وفقاً للظروف الإستثنائية في حينها "عام الرمادة مثلاً أو عام المجاعة أو ما ورد في المؤلفلة قلوبهم" ، وكل محنة هي عام رمادة جديد .. إن المجتهد هنا بنص ما ذكر الكاتب لم يعطل النص وإنما رجع إلى إعتبار ما يمكن وصفه "بالمصلحة الأصل" في الزكاة مثلاً وهي التخفيف من حاجة الفقراء والمساكين وأهمل "المصلحة الفرع" أي إستمالة المؤلفلة قلوبهم وهي مصلحة كانت مؤقتة ولم تعد قائمة ، إن هذا لا يمكن أخذه حجة على إمكانية وقف العمل بالحدود في العصر الحالى ، إذ أن الحضارة الحالية وما وصل إليه الإنسان من "تطور" ليس أمراً إستثنائياً إذ أن الجرائم لم تختف بل زادت وتنوعت كما وكيفاً وزادت شرستها وخطورتها ؛ إذ وبينما كان الإنسان قبل هذا يتمتع بحماية الأسرة أو القبيلة أو الطبقة الإجتماعية فإن ما آل إليه الأمر الآن من كون الفرد أصبح هو قوام المجتمع بما يجعله أعزلاً في مواجهة الجريمة إلا من قوانين

^(٥٦) الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : مرجع سابق ، ص. ٤٠ وما بعدها من المقدمة ، وأيضاً أنظر في ذلك : "الحقيقة الغائبة" : مرجع سابق ، قراءة في أوراق الراشدين ص. ٢٠ . وقد كان من المشهور عن عمر بن الخطاب موافقته لبعض ما ينزل من القرآن الكريم مما أصبح يُعرف عند المحدثين بإسم موافقات عمر ، وفي البخاري يقول أنس قال عمر : " وافقت ربي في ثلاث فقلت يا رسول الله لو إتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت وإتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وآية الحجاب قلت يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجن فإنه يكلمهن البرّ والفاجر فنزلت آية الحجاب واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لمن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك فنزلت هذه الآية " .

رادعة تحميه وتصون كرامته بإزاء المجرمين وهذا يحيلنا مباشرة لسؤال يحتاج لنقاش جاد حول من تهدف القوانين لحمايتهم؟.. الأفراد أم المجتمع ”أو الكل“ أم جماعة معينة أو نظاماً محدداً..! إن ما نحتاج إليه حقاً ليس هو تعطيل تطبيق الحدود وإنما هو إصلاح حال المجتمعات الإسلامية أولاً وإعلاء القيم الإنسانية والدينية العليا فيها وتطبيق ذلك فعلاً لا قولاً ، ومن ثم إعمال النصوص بأدق معانيها في محاولة للوصول إلى أفضل ” فهم “ لها يتماشى مع ما وصلت إليه المدنية المعاصرة من تطور وتقدم علمي وتقني وتعدد وتشابك في أساليب التعامل وتبادل المصالح والمنافع.

إن هذا الوضع يجعل الحاجة للتشريعات الحديثة في الإسلام أكثر إلحاحاً عما سبق إذ ليس من المصلحة في شيء - ولا يقول بذلك عاقل - أن يسرق المجرم ثم لا يبالي بما فعل إذ هو مدرك بأن ما يترتب على ذلك من عقوبة هو مما لا يؤبه لخطورته عليه وسرعان ما يخرج ويعاود الكرة تلو الأخرى ، وليس من المصلحة أن يزني الزاني - ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج المعروفة - ثم يمضى لا يبالي بما حدث إذ أن التكييف القانوني لهذا الفعل في جُل القوانين الوضعية هو أنه أمر لا غبار عليه إن لم يتم بالقسر والإكراه.. كيف لا يكون عليه غبار وهو في تقدير الباحث وكل ذى عقل أمر أفدح من القتل.. إذ أن القتل يعني إهدار نفس واحدة بينما الزنى يهدر نفوساً عدة ويولد جرائم شتى فهو يدمر المرأة ومستقبلها ويهدم الأطفال الذين ينتجون عن هذه الجريمة النكرة وذلك بالقائهم في الشوارع دون رعاية أو تنشئة سليمة فضلاً عن قتلهم في كثير من الأحيان.. وما يُنتظر من أطفال الشوارع هؤلاء؟ ليس إلا القتل والسرقه والفاحش من القول والفعل وهو تدمير للمجتمع ككل.

إن القول بأن الاجتهاد يجب أن يطال جدوى تطبيق الحدود لتواكب ما إستجد من تطور لهو من الأمور الخادعة جداً.. كيف؟ أولاً إن الحديث عن التطور هنا يمثل أول أوجه الخداع إذ ما المقصود بالتطور؟ إذا كان المقصود هو التطور التقني والعلمي فهو حقيقة واقعة لا سبيل - ولا داعي - لإنكارها ولكنها لا تلزمننا هنا! إذ لا نتحدث هاهنا عن الآلات أو ما شابه من وسائل الحضارة المعاصرة.. وإن كان المقصود بالتطور هنا هو تطور الإنسان في معارفه بالبيئة والكون من حوله فهو كسابقه ونحن نؤمن عليه ، أما إن إنصرف القول إلى الأخلاق والسلوك فهنا تكمن المفارقة.. إذ لم يتطور الإنسان البتة بل تردى إلى أسفل وأوغل في الغريزة ومطالب الجسد وتطّرف في الوحشية في نظره لكثير من الأمور التي من

ضمنها نظرتة للإنسان نفسه ، وما الشعور بالإغتراب والقلق الذى يحيا فيه الإنسان المعاصر في ظل الحضارة الغربية إلا شكلاً من أشكال هذا التردى مضافاً إليه تفكك الأسرة والتي تمثل نواة المجتمع وشيوع الجريمة وما يدور حول العالم من صراعات وحروب تحتشد بالقسوة وتحصد الملايين بما تستخدمه من الأسلحة المدمرة على كافة أشكالها ، كما سبق وأن أوضحنا أوجهاً من ذلك فيما سبق^(٥٧) ، وهي وإن كانت لا تزال قضية جدالية إلا أن ما أشرنا إليه وما هو مُشاهد على أرض الواقع يدعم ما ذهبنا إليه من آراء ، ولا تخلو الحضارة الغربية نفسها من بعض الأصوات التي تذهب إلى ذات ما أوردناه وتنادى بضرورة تصحيح الوضع تفادياً للإنهيار المحتمل إن سارت الأمور على ما هي عليه.

وثانياً إن المطالبة بإرجاء تطبيق الحدود في المجتمعات الإسلامية في أحسن الأحوال أو صرف النظر عنها في كثير من الأحيان إنما يجعل مدخله إلى ذلك عبر ما هو حادث الآن في الساحة السياسية العربية والتي يغلب عليها توظيف الدين من أجل الكسب السياسى في برامجية واضحة لا يختلف عليها إثنان ، يقول محمد عابد الجابرى : "إن التطرف في الإسلام كان دائماً نوعاً من التعبير عن موقف سياسى معين.. كانت الحركات الغالية المتطرفة القديمة تمارس التطرف والغلو على مستوى العقيدة ، أما الحركات المتطرفة المعاصرة فهي تمارسه على مستوى الشريعة ، لم يكن الخوارج ولا الحركات الباطنية بمختلف تياراتها وأصنافها تطرح مسألة "تطبيق الشريعة" ولا كانت تتخذ منها شعاراً لها ، بل لقد كانت جميع شعاراتها تقع على مستوى "العقيدة" العلاقة بين ذات الله وصفاته ، الجبر والإختيار ، العدل الإلهي ، كيفية الخلق ، الخ .. فالسياسة تمارس اليوم في الدين على مستوى الشريعة ، لا على مستوى العقيدة. ويكفي أن نذكر هنا بالشعار الذى ترفعه هذه الحركات ، شعار "تطبيق الشريعة الإسلامية" لندرك المجال الذى تمارس فيه السياسة. وهكذا ، فبدلاً من قضايا الجبر والإختيار والإيمان والكفر والتنزيه والتشبيه... الخ. ، التي كان يدور حولها النقاش قديماً وينقسم المتكلمون بشأنها إلى معتدلين ومتطرفين ، نجد اليوم قضايا أخرى تتصل بالشريعة والفقهاء ، مثل قطع يد

^(٥٧) لقد صدق جمال الدين الأفغاني حين عدّ ذلك النوع من التمدن والرقى جهلاً محضاً ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش فالإنسان في ذلك أحط من الحيوان.

أنظر في ذلك : زعماء الإصلاح في القرن الحديث : تأليف أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد وأولاده - الطبعة الخامسة - ١٩٨٩م - ص. ١١٩ .

السارق والربا والحجاب... الخ. ، هي التي يدور النقاش فيها ويختلف الناس حول كيفية تطبيق الشريعة فيها ، وهذا يعنى أن السياسة تمارس اليوم ، إسلامياً ، على مستوى الشريعة ، وليس على مستوى العقيدة ، كما كان الشأن في الماضي“^(٥٨).

إن الإختلاف هنا ينتج عن السياسة وليس الدين ، ولذلك يوصف هذا التيار بإسم الإسلام السياسى Political Islam تمييزاً له عن غيره من التيارات الأخرى التى يحتوئها الإسلام ”السنى“ على وجه الخصوص كالتصوف والإسلام التقليدى.

البحث الرابع

الإسلام والسياسة ”التقاطعات والتباينات“

إن الدعوة لتحكيم الإسلام في غالب المجتمعات العربية تظل شعارات فضفاضة لا تحتوى على برامج محددة يمكن الإحتكام إليها ، وبينما نجد أن الدعوات النظرية تحمل كثيراً من التوهج في الإلتزام بها شرّعه الله ”العدل والإحسان“ إلا أن واقع الممارسة العملية يقف على النقيض من ذلك ، ولو أخذنا دولة السودان كنموذج فإن من السهل إثبات ذلك كما نجد مثلاً في قول حسن الترابى^(٥٩): ”ففي سبيل التوبة إلى رشد الإسلام المتكامل وتغيير الواقع المنقوص الدين تجب الدعوة ، فيها تذكير بأن الإيمان التوحيدى تمامه إسلام السلطان لله..“^(٦٠).

ومن المؤكد أن هذا الحديث لو تم الإلتزام به في الواقع العملى لعنى الكثير بالنسبة للإسلام والمسلمين ولغير المسلمين أيضاً ؛ إذ هو سيبرز الوجه الحقيقى لعدالة الإسلام الحققة مع الملتزمين به ومن هم على خلاف معتقده أيضاً ! ولكن ما أوسع الفجوة بين القول والفعل.

^(٥٨) أنظر في ذلك : الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : مرجع سابق - ص ١٥٢-١٥٣ بتصرف.

^(٥٩) وهو عراب ومؤسس إنقلاب ١٩٨٩م الحاكم في السودان حتى الآن ” بكل تجاوزاته التى ما فتئ يذكر بعضاً منها ويعترف بها طوعاً لا كرهاً“.

^(٦٠) السياسة والحكم ”النظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع“ : مرجع سابق - ص ٧٦-٧٧.

والكاتب نفسه على أي حال يقرر فشل الشعارات الفضاضة "كشعار الإسلام وحسب" والتي لا تحتوى على مذهب ومنهاج وسياسة للأمر العام.^(٦١) وهو أمر سبق وأن ناقشه وتحدث فيه كتاب ومفكرون كثر في العالم العربي "أنظر فرج فودة على سبيل المثال في "قبل السقوط" وفي "الحقيقة الغائبة" وفي كثير من كتاباته الأخرى" غير أن صدر المنادين بهذه الشعارات آنذاك لم يتسع لقبول الأمر! وتناوله أيضاً رضوان السيد في معرض تساؤله حول الخلاف بين الوطنيين "الحركة الوطنية" والإسلاميين وهل هو يدور حول إنشاء "الدولة الحديثة"؟ ويجب بنعم ولا: "صحيح أن الإسلاميين يملكون تصوراً مختلفاً عن الدولة والحدثة، لكن وصورهم للسلطة كان سيرغمهم على مواجهة مسألة مشروع الدولة في العالم المعاصر. المسألة كانت في نظري صراعاً على السلطة أو بعبارة أدق على من ينشئ هذه الدولة بعد الإستقلال. وكان طبعياً أن ينتصر "الوطنيون" على الإسلاميين، لأن "الكونية الغربية" السائدة في العالم لا تسمح تحت أي ظرف بتصوير آخر لمنظومة مخالفة. بل إن هذه المنظومة التي عرضها الإسلاميون بدت وهماً من الأوهام. كانوا يدعون وما يزالون لتطبيق الشريعة، لكن ما هي الشريعة التي يريدون تطبيقها؟.. هل هي الحدود؟ إذا كان الأمر كذلك فقد طبقتها دول إسلامية كثيرة وما يزال شبانها ساخطين. إنهم يقولون إن التصور ينبغي أن يكون إسلامياً من ألفه إلى يائه. لكن عندما ارتفعت مطالبة الوطنيين للإسلاميين بإيضاح برنامجهم التطبيقي أو العملي ردّ عليهم سيد قطب بأن هذا فحٌ لا ينبغي أن يقع الإسلاميون فيه. إن تصورهم إلهي، فإذا إستلموا السلطة بدت معاملة. أما قبل ذلك فالمطالبة به لا تتعدى الإحراج ونصب الشباك. ثم إن الوطنيين لم يفعلوا غير نقل ترائيع من هنا وهناك في صورة برنامج استعاروه غالباً بعد وصولهم إلى السلطة - فلماذا يطالب الإسلاميون بما لم يطالب به الوطنيون أنفسهم؟ لكن يمكن الردّ على هذه الحجة بأن الإسلاميين يقولون إنهم يملكون نظاماً كاملاً لا يدّعيه حتى الوطنيون - والكهال يقتضى الظهور والتحدّد".^(٦٢)

(٦١) السياسة والحكم "النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع"، ص. ٢١٢.

(٦٢) الإسلام المعاصر "نظرات في الحاضر والمستقبل": مرجع سابق - ص. ٢٧.

ولكن هل هذا المدخل وحده كافٍ لتبرير هذه الدعوة.. إن قولة الحق إذا أريد بها باطلاً فإنها تظل حقاً على الدوام ولا يصيبها من الباطل شيء وإنما يصيب من تكسب بها وإرتق.. إن الأوفق في تقدير الباحث هو التسليم والتأكيد على ضرورة وإلحاح الحاجة لتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية من زاوية صلاحها وكمالها لكل زمان ومكان مع الفصل بينها وبين من يتكسب بها من واقع التطبيق المشوه الذي نتج عن ذلك ، ومناهضة وفضح أنظمة الحكم الفاسدة التي تهيمن على العالم الإسلامي بشكل عام - والعربي منه على وجه الخصوص - إن لجوء كثير من الأنظمة والجماعات لرفع لافتة تطبيق الشريعة الإسلامية إنما ينبع من إدراكها لحاجة المجتمع إليها أكثر من القوانين الوضعية والتي لا تحفظ حقاً ولا تردع مجرماً إلا لماماً ، وهو في الآن نفسه يدل على فقدان الثقة في الأوضاع القائمة من جميع النواحي السياسية والقانونية من قبل غالبية المجتمع ، وفي كل الحالات فإن هذه الدعوة لا تُعبّر في الغالب عن الرغبة الحقيقية من قبل الداعين إليها في تطبيقها فهي لا تعدو أن تكون وسيلة لغاية سياسية^(٦٣) ، إذ أنها وفي حال تطبيقها على الوجه السليم فإنها ستطال أول ما تطال هؤلاء المفسدين أنفسهم سواء كان هذا الفساد سياسياً أو إجتماعياً أو إقتصادياً.

إن الخلاف بين الفقهاء المشهود لهم بصدق التوجه في تخريج وإستنباط الأحكام من النصوص الشرعية هو من أكبر الدلائل - في تقدير الباحث - على ضرورة إعتبار المقاصد والمصالح الكلية أساساً للحكم وهذا الخلاف قديم منشؤه الخلاف في فهمهم للنصوص وإستنباط الأحكام منها متأثرين في ذلك بعوامل مختلفة أحاطت بهم ، وهذا ما يجعل الشريعة صالحة لكل زمان ومكان.^(٦٤)

(٦٣) الحقيقة الغائبة : مرجع سابق - ص. ١٤ بتصرف يشير إلى المضمون.

(٦٤) أنظر في ذلك : الجرائم في الفقه الإسلامي "دراسة فقهية مقارنة" : د. أحمد فتحى بهنسي - دار الشروق - الطبعة الخامسة "مزيدة" - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - بيروت - لبنان - ص. ٢١٩ بتصرف.

وحيث أن لكل أمر في الإسلام غاية ومقصد فقد لخص فقهاء الشريعة الإسلامية المعاصرون ذلك في تعريفهم لمقاصد الشريعة بقولهم هي : " الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها " ، وهي أيضاً " المعانى والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها ". وتتمثل محاسن الشريعة الإسلامية في مقاصدها فقاعدة المقاصد هي " سر الأوامر والنواهي " في الإسلام. والأصل في التشريع هو مقاصده ، ولذلك ينبغي أن تأتي النصوص تابعة لمقاصدها.^(٦٥)

إن المثير حقاً ليس قطع يد السارق وإنما شيوع السرقة في المجتمع بما يؤدي إلى تقويض أسسه ، وليس المثير في نظرنا رجم الزاني وإنما شيوع الفاحشة والتهتك ونمو ظاهرة الأطفال مجهولى الأبوين أو أحدهما على الأقل في مجتمع يوصف " بالتطور " إن القصاص من الجاني ليس فعلاً وحشياً كما يدعى ذلك الرافضون لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بل غاية الوحشية تكمن في إغفال حق الضحية والمجتمع في العيش بسلام وأمان وهو مقصد الشارع في الحدود.

إن التجديد ليس مطلباً في حد ذاته... بل ما يلبي حاجة المجتمع للإستقرار والأمن هو المطلب الأول والأخير وإن تحقق هذا المطلب بوسائل حتى وإن لم تكن في صلب التشريعات الإسلامية ابتداءً - قول الكاتب في قطع اليد - أو في الرجم لدى اليهود هو من أكبر الدلائل على أن الهدف هو ما يحقق صالح الجماعة أو المجتمع ككل ويحفظ له أمنه وإستقراره أيّاً كان مصدر التشريع فالرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم مأمور بإباحة كل ما لم يحرم حلالاً أو يجل حراماً : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

(٦٥) أنظر في ذلك : المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام " بيان المقاصد وتطبيقاتها وآثارها والشبهات التي أثيرت حولها ومقارنتها بمقاصد القوانين الوضعية قبل الإسلام وبعده " : د. حسنى الجندى - دار النهضة العربية - الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م - القاهرة - مصر - ص. ٧٦.

خاتمة وتوصيات :

نحن نحيا الآن ومنذ أمد بعيد في ظل قوانين وتشريعات ومفاهيم لا تُمت للإسلام بصلة في غالب الأحيان^(٦٦) فهل أكّدت التجربة المعاشة على إمكان تحقيق السلم والأمان عبر هذه التشريعات والقوانين؟ إن تفشى المظالم وازدياد الجرائم وإنعدام الإحساس بالأمن والعدالة وغياب قيم الحريات والمشاركة السياسية هو الشعور السائد الآن وهو واقع يفرض اللجوء للأخذ بخيار تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية - بما فيها العقوبات الحدية - كأمر لا مناص عنه، إن الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية بالنسبة للمسلم فرض في حد ذاته ولا يحتاج لأن يُعزّد بأي فرضية أخرى، ولكن التعبير هنا مجازي للدلالة على أنه إذا قُصّر فهم المسلمين اليوم عن إدراك هذا الأمر فإن إلحاح الواقع كفيل بفرضه قسراً، إن الله غنى عن العالمين فلا ينفعه تطبيق أحد للشريعة ولا يضره غير ذلك ولكن أحكام التشريع تهدف لحفظ سلامة كيان الفرد عبر وقاية المجتمع من شيوخ الفواحش والبغي؛ ولا يكون ذلك إلا بإجتناّب محارم الله فإن حمى الله في أرضه محارمه.^(٦٧)

لقد عرضنا لقضية "الاجتهاد" من عدة زوايا إستعرضنا فيها آراء لمفكرين وكتّاب من مدارس عدة وتوجهات متباينة.. وعرضنا فيها آراء خاصة بنا وكلنا مجتهد يستهدف الصالح العام فلا تخوين هنا ولا تكفير هناك ولا تفتيش عن الضمائر.. بل حجج وأدلة وبرهان في كلا الطرفين وهذا هو الحوار الحر المنفتح الحضاري ولا بدّ أن يخرج من مثل هذا

^(٦٦) لا يعنى هذا بالطبع أن كل القوانين مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ومثل هذا القول هو محض إستغلال سياسى لشعار الإسلام وهو ما لا يلزمنا في هذا المقام ابتداءً، ولكننا نعنى تحديداً أن أحكام الشريعة الإسلامية غير مطبقة بالكامل في معظم الدول الإسلامية، وما هو مطبّق منها في البقية لا يعنى سوى بالجوانب العقابية فقط ويهمل ما عداه، وليس ثمة شئ - إلى جانب تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كاملة - يمنع الإبقاء على كل التشريعات الوضعية التي لا تحالف نصوص الشريعة الإسلامية أو روح ما تنطوى عليه من مصالح تهدف لحفظ إستقرار المجتمع وإستتباب أمنه فما يستجد من أمور الإجتماع المدنى في غير ما نصت عليه أحكام الشريعة الإسلامية يلزمه وضع ما يناسبه من تشريعات.

^(٦٧) صحيح أبي عبد الله البخاري "بحاشية السندي" : مرجع سابق - المجلد الأول - الجزء الأول - ص. ١٩.

- النقاش ما يفيد الناس وفي النهاية فالحكم لهم قبولاً أو رفضاً.. إستحساناً أو إستهجاناً ونسأل الله التوفيق والسداد لنا ولسوانا ومن ثمّ يمكن أن نخلُص جملة من التوصيات أهمها :
- ◆ إعادة التأكيد على الثوابت " ما هو قطعي الثبوت ما هو قطعي الدلالة " بعد تحديدها بشكل دقيق وهو ما لا يلزم فيه رأي أو اجتهاد ، والثوابت قليلة غير كثيرة.
 - ◆ ضرورة تسليط الضوء على كثير من المفاهيم والمصطلحات الواردة في التراث الفقهي وإعادة تفكيكها لإستخراج رؤى جديدة... على سبيل المثال ماذا نعني بمصطلحات من قبيل " النص ، الجهاد ، الاجتهاد ، الشريعة ، الحدود ، المعلوم من الدين بالضرورة ، الإسلام دين ودولة... إلخ ".
 - ◆ ترسيخ مفهوم أن الاختلاف في الفروع لا يعد مدخلاً للتكفير وإنما هو من باب الاجتهاد ، والأجر لكل من المصيب والمخطئ مقطوع به.
 - ◆ الحكم على الأفكار لا يكون إلا بالأفكار ، والحكم على الرأي لا يكون إلا بالرأي والحكم على الكتاب لا يكون إلا بالكتاب.. وذلك كله ضمن دائرة الصواب والخطأ وليس دائرة الحلال والحرام أو التكفير.
 - ◆ توضيح وتأكيد أن التطرف لا يرتبط بدين ولا طائفة ولا عرقية محددة وإنما بسلوك متهمين- في غالب الأحيان - لهذه الإتجاهات.
 - ◆ التنبيه إلى أن التطرف في بعض جوانب التفكير الديني ينتج عنه بالضرورة تطرف مضاد معاكس له في التوجه ينحو إلى رفض الدين جملةً أو في أخف صورته رفض بعض قطعياته التي لا خلاف حولها.
 - ◆ التنبيه على أهمية عنصري الضبط والتجديد.. ضبط الخطاب الديني وتجديد الفكر الديني.
 - ◆ تبني الروح النقدية في تناول الأفكار ومناقشتها في حد ذاتها بعيداً عن شخصية الكاتب أو التشكيك في النوايا فلنا الظاهر والله يتولى السرائر.

هوامش ومراجع الورقة :

- القرآن الكريم.
- (١) الإسلام المعاصر "نظرات في الحاضر والمستقبل" : د. رضوان السيد - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م - دار العلوم العربية - بيروت - لبنان.
- (٢) الإحكام في أصول الأحكام : "تصنيف الإمام الجليل المحدث الفقيه فخر الأندلس أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ" - قدم له الأستاذ الدكتور / إحسان عباس - المجلد الثاني [٥-٨] - الطبعة الأولى ١٤٩٩هـ / ١٩٨٠م - الجزء السابع - منشورات دار الآفاق الجديدة.
- (٣) الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : د. محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة الثقافة القومية [٢٩] - قضايا الفكر العربي.
- (٤) الحقيقة الغائبة : د. فرج فودة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - كتاب الفكر [١٠] - الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٨م - القاهرة - مصر.
- (٥) الإسلام السياسي في الميزان "والبديل : الإسلام المتكامل وملحق به بحث عن : نحو أيديولوجية عربية إسلامية" : د. محمد علي أبو ريان - دار المعرفة الجامعية - ١٩٩٧ - دون تحديد لعدد الطبعات.
- (٦) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : الإمام / محمد أبو زهرة - دار الفكر - دون تحديد لعدد الطبعات أو تاريخ النشر.
- (٧) "العدة" شرح العمدة في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه : تأليف بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي - دون تحديد لعدد الطبعات أو دار وسنة النشر.
- (٨) القرآن الكريم "وبالهامش زبدة التفسير من فتح القدير" : "وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكاني المسمى فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير" : محمد سليمان عبد الله الأشقر - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م - دولة الكويت - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- (٩) أصول الأحكام الشرعية : د. يوسف قاسم - دار النهضة العربية - مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي - الطبعة الثانية ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر - ص. ٣٧٠.

- (١٠) البدنية في الفقه الإسلامي " دستوريتهما وعلاقتها بالدفاع الشرعي " : د. الحسيني سليمان جاد - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر.
- (١١) الإسلام والرأي الآخر " تجربة الإمام علي نموذجاً " : حسن السعيد - قضايا إسلامية معاصرة - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م - مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد بالتعاون مع دار المهادي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- (١٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥هـ وبهامشه شرح الشيخ أحمد بن قاسم العبادي الشافعي علي : شرح جلال الدين محمد بن أحمد المحلى الشافعي علي : "الورقات في الأصول" لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي المتوفي سنة ٤٧٨هـ - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة - مصر.
- (١٣) السياسة والحكم " النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع " : د. حسن عبدالله الترابي - دار الساقى - الطبعة الأولى ٢٠٠٣ - بيروت - لبنان.
- (١٤) محاضرات في الفقه المقارن " مع مقدمة في بيان أسباب اختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن " : د. محمد سعيد رمضان البوطي - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان.
- (١٥) إختلاف أصول المذاهب : للقاضي النعمان بن محمد [٢٥٩ - ٣٥١هـ] - تحقيق وتقديم الدكتور. مصطفى غالب - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - دون تحديد لعدد الطبعات.
- (١٦) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : الإمام / محمد أبو زهرة - دار الفكر - دون تحديد لعدد الطبعات أو تاريخ النشر.
- (١٧) الموافقات في أصول الشريعة " لأبي إسحق الشاطبي " : تحقيق محمد عبد القادر الفاضل - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - الجزء الأول ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م - بدون تحديد لعدد الطبعات - صيدا - بيروت
- (١٨) الجرائم في الفقه الإسلامي " دراسة فقهية مقارنة " : دكتور. أحمد فتحي بهنسي - دار الشروق - الطبعة الخامسة "مزيدة" - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - بيروت - لبنان.

- (١٩) المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام ” بيان المقاصد وتطبيقاتها وآثارها والشبهات التي أثيرت حولها ومقارنتها بمقاصد القوانين الوضعية قبل الإسلام وبعده “ : د. حسنى الجندي - دار النهضة العربية - الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م - القاهرة - مصر.
- (٢٠) الصِّحَاح ” تاج اللِّغة وصِحَاح العَرَبِيَّة “ : تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار - المجلدين الأول والثاني - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م [١٤٠٢هـ-١٩٨٢م] على نفقة المحسن معالي السيد / حسن عباس الشربتلي - القاهرة - جمهورية مصر العربية.
- (٢١) المسند : أحمد بن محمد بن حنبل - تحقيق عيسى القلندي - مؤسسة الرسالة - دون تحديد لبلد الطبع - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م - الجزء التاسع والعشرون.
- (٢٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : تأليف الإمام المحدث سلطان العلماء أبي محمد عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام السلمي ، المتوفى سنة ٦٦٠هـ - ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن [١-٢] - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م - بيروت - لبنان.
- (٢٣) موقف الشريعة من نظرية الدفاع الإجتماعي: د. أحمد فتحى بهنسي - دار الشروق - الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - بيروت - لبنان .
- (٢٤) تثوير القرآن : جمال البنا - ” الإحياء “ دار الفكر الإسلامي - دون إشارة لعدد الطبعات أو تاريخ النشر - القاهرة - مصر.
- (٢٥) منهل الواردين ” شرح رياض الصالحين “ : للإمام النووي الحافظ محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف [المتوفى سنة ٦٧٦هـ] - ضبط الأصل - ووضع الشرح - ووضع الفهارس د. صبحي الصالح أستاذ الإسلاميات وفقه اللغة في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الرابعة - كانون الثاني [يناير] ١٩٧٧م.
- (٢٦) في أصول النظام الجنائي الإسلامي ” دراسة مقارنة “ : د. محمد سليم العوا - دار المعارف - الطبعة الثانية ” مزينة ومنقحة “ مايو ١٩٨٣م - القاهرة - مصر.

- (٢٧) محاضرات في الفقه المقارن "مع مقدمة في بيان أسباب إختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن" : ٧٩ / محاضرات في الفقه المقارن ، د. محمد سعيد رمضان البوطي - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان.
- (٢٨) علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف - دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثانية عشرة ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧م ، الكويت.
- (٢٩) ظاهرة الفساد : د. ناصر عبيد الناصر - كتاب المدى [٥] - رئيس التحرير فخرى كريم - دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٢م - دمشق - سوريا.
- (٣٠) سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي - تحقيق أحمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - دون إشارة لعدد الطبعات - ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م - الجزء الرابع.
- (٣١) رسالة الخلود أو "جاويد نامه" للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال : ترجمها وشرحها وعلق عليها د. محمد السعيد جمال الدين - مؤسسة سجل العرب - القاهرة - مصر [١٩٧٤] بدون تحديد لعدد الطبعات.
- (٣٢) صحيح أبي عبد الله البخاري "بحاشية السندی" : للعلامة المدقق أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - مطبعة دار إحياء الكتب العربية "عيسى البابي الحلبي وشركاه" - دار التراث العربي "ميدان المشهد الحسيني" - القاهرة - مصر.
- (٣٣) رد المحتار على الدر المختار : حاشية ابن عابدين على شرح الشيخ علاء الدين محمد بن علي المصفاكي لمتنه "تنوير الأبصار" للشيخ شمس الدين التمرتاشي ومعه تقارير الرافعي وضعت في الهامش زيادة في المنفعة - تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م - بيروت - لبنان.
- * أخرى :
- (٣٤) مجلة الاجتهاد : "مجلة متخصصة تُعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الاسلامي" : رئيسا التحرير الفضل شلق ورضوان السيد - مدير التحرير المسؤول محمد السهاك - تصدر عن دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر - بيروت - لبنان.



التطرف الديني : في التوصيف والتصنيف والنماذج

د. قيصر موسى الزين
جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٠١-١٢٢)

المستخلص :

اهتمت هذه الورقة البحثية بظاهرة ما يعرف بـ "التطرف الديني"، وهو مصطلح يكثر استخدامه اليوم في الاعلام والصراع، بشكل اخرجته عن المدلول العلمي المنضبط. وقد اوضحت الورقة ان مصطلح التطرف الديني يمثل دائماً مفهوماً نسبياً، وتعتمد فحواه على منظور وتوجه المستخدمين له. وكذلك على ملابسات وسياق استخدامه. وقد حاولت الورقة استعراض المعاني المختلفة لمصطلح التطرف الديني من خلال محاولة تقديم نظرية تصنيف، تعتمد على التفرقة بين ما هو مرتبط او غير مرتبط بالعنف من اشكال التطرف.

اختارت الورقة نموذجين بهدف ربط اتجاهها النظري بأرض الواقع، وهما: الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وتفريعاتها المعاصرة وحركة الجهاد التي انطلقت من مصر في ستينيات القرن العشرين - وذلك على أساس ان الكثيرين يعتبرون هذين النموذجين من مظان التطرف الديني في عالم اليوم. وقد حاولت الورقة تجنب اصدار الاحكام القيميّة الذاتية على الظواهر التي عالجتها، وبالرغم من ذلك فقد اشارت على نحو موجز إلى بعض طرق مكافحة الجوانب السلبية في ظاهرة ما يعرف بـ "التطرف الديني".

Abstract:

Title : Religious Extremism, Description, Classification and Models
This research paper is about the so-called religious extremism, which is a current term, greatly abused by media and used in a political sense in different types of conflict. The paper explained that, this term always has a relative meaning, depends on both the perspective of the users and the surrounding circumstances. The paper tried to demonstrate the different meanings of the term through an attempt of classification that distinguished basically types of extremism related with violence from types not related with violence.

The paper selected, for the purpose of applying its theoretical aspects on reality, two cases-considered by many as sources of both "extremist thought" and "extremist action". These models –as the paper explained –are the "Wahabi Movement in the Arabian peninsula and its sub branches in the present, and the " Jihad Movement" that started in Egypt since 1960s. The paper tried to avoid subjective value judgments in this context. In spite of this it dealt briefly with the possible ways of handlings what it considered negative aspects in the religious extremism.

مقدمة : موضوع ومنهج الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى القاء بعض الضوء على معانى ومفاهيم ما يعرف بـ "التطرف" ، وذلك بهدف تحقيق انضباط وتدقيق مفاهيمى فى تناول قضايا احدث فيها التناول الاعلامى كثيرا من التشويش الذى لا تقبله النظرة الموضوعية الاكاديمية ، التى تهتم اولا بالتعرف على "الظواهر" كما هي فى الواقع وفهم علاقاتها ، وذلك للوصول إلى تشخيص أقرب إلى الصحة للمشاكل والأزمات- سواء كانت فكرية او عملية ، ثم محاولة تلمس الطرق لمعالجتها وحلها. وتهتم الدراسة فى هذا السياق بوجه خاص بـ "التطرف الدينى" ، الذى لا يمكن عزله - وان امكن تمييزه - عن ظاهرة "التطرف" بوجه عام. وترتكز الدراسة فى توضيحها لمفاهيم "التطرف الدينى" على انواع هذا "التطرف" فى سياق العالم الاسلامى. وهى تتدرج فى ذلك ، من حيث التركيز - من المعانى والمعالجات العامة إلى النماذج- التى تأتي كأمثلة- وتركز اكثر على نموذجين ممثلين لاثنتين من بين اهم المدارس الفكرية فى العالم الاسلامى - هما "السلفية الوهابية" ، التى اثرت على صياغتها بيئة الجزيرة العربية ، خاصة فى نجد ، والحركة الجهادية ذات المرتكز السننى العام ، التى انطلقت اساسا من البيئة المصرية. وتبحث فى حالة "السلفية الوهابية" فى فكر محمد بن عبد الوهاب وفى حالة الحركة الجهادية ذات المنطلق المصرى ، تشير إلى بعض النصوص التى كتبها الاستاذ سيد قطب.

تقوم منهجية^(١) الدراسة على مبدأ "الموضوعية النسبية" التى تحاول الابتعاد عن التداخل بين الرؤية الذاتية للباحث وبين ما يقتضيه منهج البحث العلمى من اعتماد التقصي والوصف للظواهر الفكرية والاجتماعية الموجودة فى الواقع ، بعيدا عن تلوينها او ادراجها فى إسار الشعارات ذات الطابع الصراعى او السياسى بين الفرقاء المعنيين هنا ، كذلك الابتعاد عن النزعات الاعلامية او النظرات ذات الطابع الاحادى الذى يعمى عن رؤية مختلف الابعاد والاحتمالات.

see : Bailey ,K & Fairchild , PP. 276-305 ^(١)

بشأن مصادر البحث فهي اساسا ادبيات حوتها بعض الكتب والدراسات ذات الصلة. وقد تم استخدامها هنا اما باعتبار انها تمثل موضوعا اساسيا للدراسة او لأغراض التوثيق او لهدف الاشارة إلى مواضع المزيد من المعلومات عن الموضوع.

مفاهيم اساسية

(أ) التطرف : منظور انساني عام :

يتصل المدلول اللغوي لكلمة ”التطرف“ بمفهوم ”الطرف“ ، وهو يعني عادة ابعد موضع من ”الوسط“. ويمكن نقل المقصود هنا من المستوى المكاني – الفراغي ، الخاص بالأبعاد المادية الثلاثة ، إلى المستوى المعنوي. ومن هنا يمكن القول : ان ”التطرف“ يعني الذهاب إلى أبعد خانة من الوسط ”وهي الطرف“. ويعني ”الوسط“ منتصف الطريق بين الطرفين. ويصبح بذلك ”المتطرف“ هو من يتخذ موقع الطرف في اي قضية. وقد تطورت استخدامات هذا المصطلح وتضمنت جملة من الصفات مثل ”التعصب“ ، ”التعسف“ ، ”عمى البصيرة“ ، ”البعد عن المرونة والتسامح والاعتدال“. وبسبب الطابع السلبي لهذه الصفات فقد اخذ استخدام كلمة

”التطرف“ منحى وظيفيا في الحرب الاعلامية بين الخصوم ، وقد يكون هؤلاء الخصوم دولاً او مجموعات او حتى افراداً – مثل ما في حالة العلاقات الاساسية بين الاب والابن ، الاخ والأخت ، الزوج والزوجة ”المرأة والرجل بوجه عام“. ومن بين افضل نماذج التدليل على هذه الناحية ، هو ما عبرت عنه الأساطير الإنسانية – وهي ابداع فني جمعي يعبر عن طريق الرمزية عن تجارب ومعاني اساسية ، قاعدية في التكوين الإنساني. من ذلك أن الأساطير ذات الجذور التوراتية – وقد تحولت إلى تراث انساني عام – أضافت إلى قصة ابني ادم بعدا لم يذكره القران الكريم ، كما لم تذكره التوراة الرسمية ، فذهبت إلى ان قابيل قد قتل هابيل بسبب الصراع حول امرأة. وهذا وضع تطرف واضح – حتى أنه ورد في القصة القرآنية ، ان ابن ادم القاتل تعجب من نفسه متحسرا كيف سولت له نفسه قتل أخيه وكيف أنه تعلم من الغراب كيف يوارى سوءته ، ومن جوانب الرمزية الأساسية هنا ان ابن ادم هذا يمثل ”الانسانية“. وهذا يعني ان ”التطرف“ مركز ”في الطبيعة الانسانية. وهو هنا من اخطر انواع التطرف ، ذلك المرتبط ب ”العنف الجسدي“ ”الهمجية“. والقتل هو

جوهر الحرب التي كثيرا ما تكون عدوانية والتي لم تمنعها حتى اليوم القوانين الدولية السائدة حتى في اعلى مستوياتها ”العدوانية“ واكتفت بمحاولة جعلها أكثر انسانية !!
 اذا اخذنا مثلا اخر من الأساطير ، لا علاقة له بالعالم ”العبراني“ او ”الإسلامي“ ،
 وهو قصة ”ميديا“ الاغريقية ، نجد في هذه القصة أن جاسون - وهو ملك اغريقي -
 تزوج ميديا بعد عشق وحب عميق ، وكانت مراسم احتفالات العرس اسطورية. وأنجب
 منها ثلاث بنات ، وبعد اربعة عشر عاما تزوج بامرأة أخرى. وكانت ردة فعل ”ميديا“ أنها
 قتلت بناتها الثلاثة. ويمثل ذلك واحدا من أقوى درجات التطرف الإنساني. وتحليل هذه
 الأسطورة يدل على انها ”نموذج“ انساني / شعوري / سلوكي. قد يحدث في الواقع اليومي
 في اي مكان وفي داخل اي ثقافة. وفي الغالب يكون ”القتل“ رمزيا - ومع ذلك يكون في
 حالات نادرة واقعيا. وهذا نفسه هو حال قصة هايبل وقايل ، كلما دار صراع بين رجلين
 حول امرأة.

ومن غير شك ان التطرف الجماعي في كثير من نماذجه الكبرى لم يكن مرتبطا بصورة
 مباشرة ب ”الدين“. ومن اشكاله التاريخية الحقيقية ، التي قد تبدو وكأنها اساطير ، المجازر
 التي أقامها المغول والتتار ، وكذلك حالة المانيا النازية وزعيمها هتلر ، الذي قتل عشرات
 الملايين من البشر ، في فترة زمنية تقل عن العشرة اعوام لأسباب ودوافع غير معقولة ، بالنسبة
 لأي تفكير موضوعي. والسؤال الأساسي هنا هو : اذا كان هتلر مخبولا فما هو عذر الشعب
 الالمانى ؟ والسؤال الاخر ، الذي يرد منطقيا هنا ، لماذا لم تكن نهاية المانيا النازية وزعيمها هتلر
 نهاية ل ”جوهر النازية“ ، التي تتزايد اشكال التعبير عنها في عالم اليوم ؟ والواقع ان النازية
 كانت إلى حد بعيد تعبيرا عن تيار فلسفي تمثل في فلسفة نيتشه وغيره في السياق الأوروبي ،
 وله مشابهاة في سياقات فلسفية اخرى غير اوربية.

لابد هنا من توكيد حقيقة انه يصعب دمج حضارات او ثقافات او شعوب بعينها او
 فترات تاريخية او نطاقات جغرافية - ثقافية بعينها بأنها ”متطرفة“ بوجه مطلق. وفي نفس
 الوقت لا يمكن اتهام ”الطبيعة الانسانية“ مطلقا بالتطرف. ذلك لأن كل درجات
 ”التطرف“ و”الإعتدال“ توجد في الحالات الانسانية جميعا. وسيشير التحليل في هذه
 الدراسة إلى ان ما يعرف ب ”التطرف“ يمثل قضية جدلية معقدة ، يتأثر الحكم القيمي فيها
 بالمنظور النسبي وكذلك بالملابسات الموضوعية.

(ب) مدخل تصنيفي عام :

قبل تناول "التطرف الديني" لابد من التعرض لتصنيف اشكال ما يمكن أن يدخل في دائرة "التطرف". ولابد هنا من توضيح ان موضوع "التصنيف" ليس مجرد جانب شكلي او اجرائي فقط بل هو موضوع معقد ، يمكن ان يؤدي بالبحث العلمي إلى الانزلاق خارج دائرة "العلمية" و"الموضوعية" ، وذلك لما يتضمنه احيانا من مواقف مسبقة او قبلية ذات طابع "ايديولوجي". وحتى في حالة توخي الحذر الاكاديمي فان إي محاولة تصنيف تحمل عادة ابعاد النظرية ، التي ينبغي ان تقبل الرؤى النقدية ان اراد البحث ان يكون موضوعيا. ولابد ان يستصحب التصنيف لأنواع "التطرف" هنا مصطلحات ومفاهيم ذات صلة: مثل "العنف" ، "الوظيفية" ، الايديولوجيا وغيرها.

يمكن القول عموما انه يمكن تقسيم "التطرف" إلى قسمين اساسيين : التطرف المرتبط بالعنف والآخر غير المرتبط بالعنف. ومفهوم "العنف" هنا اشكال عديدة ، مثل : العنف الجسدي "الدموي" ، والعنف اللفظي ، والعنف المشهدي "القائم على عرض مشاهد العنف الجسدي في الاعلام المرئي" - وفي تصنيف هذه الدراسة يقع العنف الجسدي وحده في اطار التطرف المرتبط بالعنف. وهناك اشكال من العنف المشروع - في الحالات الفردية والجماعية - مثل تنفيذ القانون العادل في حالة "القصاص" وما إليها. ومن اشكال "التطرف" غير ذات الصلة بالعنف : التطرف الفكري ، والتطرف الشعوري ، غير المرتبطين بالفعل مباشرة مع انها قد يؤديان في كثير من الحالات إلى العنف الفعلي. ويتضمن تصنيف وبحث هذه الاشكال عادة سؤال المشروعية الاخلاقية - وهي ترتبط بدورها احيانا بالمشروعية القانونية. ومن ذلك أن كلمة "الإرهاب" التي تستخدم اليوم كثيرا في الحرب الدعائية بين الخصوم باكثر المعاني سلبية ، ويقصد مستخدموها عادة دمج اعدائهم بتهمة استخدام العنف الدموي ، او التهديد باستخدامه بطريقة غير اخلاقية وغير قانونية بينما يرى من يستخدمون هذا العنف أنهم يدافعون عن القيم النبيلة والاهداف السامية ضد الظلم. وهذا لا يرتبط بالجانب الديني فقط بل يشمل اتجاهات اخرى غير دينية "علمانية" ، مثل حالة "العنف الثوري" في الماضي ، او تلك التي ارتبطت بحركات التحرر الوطني في اسيا وافريقيا. وفي حالات الصراع العربي الاسلامي المعاصر ، المتجذر في التاريخ كذلك ، نجد عامل صراع القيم فاعلا في تحديد الاختلاف حول المشروعية الاخلاقية في استخدام

” العنف “ عند كل من الطرفين. وهو صراع يقوم على مرتكزات حضارية ، وفي كثير من الاحيان على فكر اقصائي لا يرى صحيحا غيره. ولا بد هنا من تقرير وجود ” التطرف النسبي “ وهو يعني وجود درجات متفاوتة من الحدة والتصلب داخل كل نطاق حضاري اوتيار فكري او جماعة كبيرة. وعادة ما يعتبر الأقل حدة وتصلبا أنفسهم من المعتدلين ، وتختلف وجهات النظر في الطرف الاخر ، المناوىء ، لهم في قبول وصف الاعتدال هذا – وذلك وفقا لدرجة تطرفها او نسبيتها. ومن الامثلة الواضحة هنا اختلاف الدوائر الغربية والإعلام المتصل بها في تصنيف حالة جماعة ” الاخوان المسلمين “ المصرية. هل تقع مع تنظيم ” القاعدة “ و” تنظيم الدولة الاسلامية “ في صنف واحد ، أى صنف المجموعات الارهابية ؟ أم تقع في صنف المعتدلين؟ وقد تم اعتبار واحد من القراء القادة الفكريين لهذه الجماعة ، هو الشيخ يوسف القرضاوي ، من الارهابيين بواسطة النظام المصري الحاكم وصدر ضده حكم غيابي بالاعدام ، بالرغم من انه من رموز الوسطية والاعتدال بنظر كثيرين. ولا بد هنا ، ليتضح المقصود ، من التفرقة بين البعد السياسي في ذلك الحكم والتصنيف ، وبين الموقف الفكري الثابت لبعض الفئات في مصر وغيرها ، من المتمين إلى النخب الليبرالية واليسارية ، التي ترى في الشيخ القرضاوي ومن يمثلهم متطرفين يدعمون بصورة مباشرة التيارات الارهابية. وبالنسبة للتيارات الفكرية الاسلامية فقد تأثرت بدورها بمفهوم النسبية في التصنيف وما يحدثه من غموض وبلبلة وإضعاف للجزم بشأن وضع عناوين واضحة توضح درجات ” تطرف “ من يعتبرونهم متطرفين من ” اسلاميين “. حدث هذا في التاريخ بشأن ” الشيعة “ من منظور أهل السنة ، فظهر مصطلح ” الشيعة الغالية “ ، ويعني ذلك قدرا من الاعتبار والمشروعية لغيرهم من الشيعة – مما لا تراه بعض عناصر التيار السني السلفي. ويحدث هذا اليوم بين فصائل ” الاسلاميين “ المختلفة ومنهم من يعتمد مبدأ التوسع في ” التكفير “ – إلى حد ما – ويرى نفسه معتدلا ازاء اخر يذهب إلى مدى اكبر مما يصله هو في إصدار احكام ” التكفير “ بحق من يعلنون اسلامهم وينطقون بالشهادتين. وذلك على اسس كلامية جدلية مثيرة للاختلاف.^(١)

^(١) راجع بعض تفاصيل الاحتجاج الجليلي هنا في : حسن الهضيبي – دعاة لاقضاء.

لا بد هنا من الإشارة العابرة إلى مداخل عديدة تتصل بالتصنيف العام ، مثل : العنف الفردي ضد الذات ، واعي حالاته الانتحار. وهو عنف يمكن ان يتطور إلى عنف جماعي ، ويمكن تطوير مشروع دينية او اخلاقية له واستخدامه وظيفيا في الحرب والإعداد للحرب. ويبدو هنا التداخل بين العنف ضد ”الذات“ والعنف ضد ”الآخر“ ، وبين العنف ضد ”الذات“ البسيط ” كما هو في حالة الرياضة الفردية البدنية القاسية “ والعنف الوظيفي ” كما في الترويض النفسي – الجسدي القاسي في التدريب العسكري “.. وهكذا... وهناك ” العنف الاجرامي “ ، ويمكن تحويله إلى عنف وظيفي سياسي ذي مشروعية فكرية وأخلاقية بعد اعادة توجيهه من نفس منطلقاته النفسية.⁽³⁾ وهذا يشير إلى نمط اخر من العنف وهو ” العنف المؤدلج “ وهو يرتبط بما يمكن تسميته ب ” التطرف المؤدلج “. يضاف إلى ذلك اشكال من التطرف والعنف تحتاج إلى دراسات مستقلة ، مثل عنف وتطرف الدولة.

(ج) التطرف الديني مدخل عام :

يمكن القول في البداية أن تعبير ” التطرف الديني “ يعني حكماً قيمياً يكونه طرف ما ، فرد أو مؤسسة أو غير ذلك ، إزاء طرف آخر. وليس بالضرورة أن يكون ذلك في سياق مواجهة أو عدا ، مع أنه غالباً ما يكون في هذا السياق ، والمدخل العلمي هنا لا بد أن يكون موضوعياً ، بعيداً عن المنطلق الايدولوجي ، حتى توظيف هذه المعرفة لمن يشاء كيف يشاء. لظاهرة ” التطرف الديني “ أسماء عديدة – حتى في نطاق الثقافة واللغة الواحدة – وإذا بدأنا بالدائرة الإنسانية والعالمية العامة ، نجد في المفاهيم الغربية ، وهي ليس عالمية إلا بمعنى نسبي وخاص ، إن ” التطرف الديني “ يتصل بمفهوم تمثله كلمة ذات ظلال ودلالات خاصة في المناخ الثقافي الغربي ، وهي كلمة ” الأصولية “ ، وتقابلها في اللغة الانجليزية كلمة⁽⁴⁾ "Fundamentalism" هي كلمة ترتبط في هذه اللغة بما هو جذري وأساس وقاعدي ورئيسي ، في الاستخدام العام.

⁽³⁾ علي زيعور – التحليل النفسي ص ١٦-٣٩ ، وعن بعض الجوانب ذات الصلة : Jelle & Hall and Rychlak.

⁽⁴⁾ Flew, A-P. 128 & Houghton, Miffin C. – Heritage Dictionary , P. 539

وفي السياق الديني الغربي المسيحي ، فهي تتصل بما يمكن تسميته بـ ” حرفية فهم الكتاب المقدس [The Bible] “ ، وذلك أحد التيارات القومية في المذهب البروتستانتي المسيحي ، وقد تم تعميم ذلك ليدل على كل الاتجاهات العادية لما يمكن تسميته ” الليبرالية الدينية “ ، وهي تعني تحرير المفاهيم الدينية من القيود التقليدية والمرجعية الصارمة والسماح بحرية ومرونة التداول لهذه المفاهيم وحرية الوصول إلى نتائج مختلفة واحترام ذلك ، وقد أصبح هذا المفهوم العام جزءاً واحداً فقط من أجزاء عديدة متنوعة تشكل معنى ” التطرف الديني “ في الغرب.

ومن الأنواع الأخرى للتطرف الديني في العالم الغربي ما يرتبط بالعنف ويعني توظيف الحكم الديني في بناء منظمات تسمى ” إرهابية “ ، وهذا المعنى الأخير يسيطر على تصنيف الغرب لبعض التيارات الدينية في العالم الإسلامي وإذا كانت البروتستانتية قد مثلت في الغرب المسيحي في القرن ١٦م اتجاهاً متحرراً مقارنة بالكاثوليكية ، فإنها مع غيرها من التيارات الدينية المسيحية أصبحت تطرفاً دينياً إزاء حركات التنوير في القرن ١٨م في أوروبا - التي اعتبرت كل الفكر الديني معادياً للحرية الليبرالية ، وقد بلغ هذا الاتجاه قمته في الولايات المتحدة وغيرها ، في إطار ما عرف بـ ” العلمانية الإنسانية “ وهي تختلف عن العلمانية التي كانت مذهب الكنيسة البروتستانتية ، وكانت تعني فصل الكنيسة عن الدولة في الأدوار والوظائف وليس كما يشاع خطأ فصل الدين عن الدولة ، أما ” التنوير “ فيذهب بعيداً عن ذلك بارتكازه على مشروعية إجازة انكار وجود الإله أو ما يعرف بـ ” الإلحاد “ هذه المفاهيم والحركات الغربية انعكست على العالم الإسلامي وأحدثت بلبلة واضطراباً كبيراً في المفاهيم السياسية وغيرها وظلت اتجاهات فكرية وسياسية عديدة ذات أهمية خاصة في تكييف معنى ” التطرف الديني “ وكيفية التعامل معه ، حدث هذا في إطار عمليات التحدث - التغريب ذات الطابع المزدوج ، والتي تضمن ما اسماه البعض بـ ” الغزو الفكري “^(٦) ولا بد من ملاحظة أن الانقسامات بين المتشددين فكراً ونقيضهم كانت معروفة في الدوائر الإسلامية قبل الاحتكار الثقافي بالغرب ، وذلك منذ بداية الإسلام بنزول الوحي في فترة النبوة وما بعدها.

(٦) محمد جلال كشك - الغزو الفكري ” وبقية سلسلة إصداراته في هذا المجال “.

ومن أهم المصطلحات الإسلامية في وصف ما يعادل اليوم واحداً من معاني ” التطرف الديني “ تعبير ” الغلو في الدين “^(١) وتفرعت من كلمة ” الغلاة “ و ” الفرق الغالية “ ، وما إلى ذلك ، وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ... ﴾ [النساء : ١٧١] ، وكذلك ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ... ﴾ [المائدة : ٧٧] ، ومن المهم هنا ملاحظة الموازنة القرآنية بين ” الغلو “ و ” الحق “ ، وذلك مهم في بعض نقاط التحليل في هذا البحث ، وفي اللغة العربية فإن الغلو ذو صلة بمعاني الحد ، ويدخل في التشدد والتعصب في الدين حتى تجاوز الحد ، والحد المقصود هنا هو الفاصل بين الصلاح والفساد ، الذي يعني ضمن ما يعني الضرر والاختلال وانقلاب الأمر إلى ضده .

والغلو لا يخرج من إطار المذموم ، وعندما ظهرت بعض الفرق الإسلامية التاريخية – مثل الخوارج والرافضة – أطلق عليها بعض منتقديها من علماء الإسلام تعبير ” الفرق الغالية “ ، وإزاء التشدد المذموم في الدين ، استخدمت في التراث الإسلامي تعبيرات نقيضة ، ذات جذور في المصادر الإسلامية الأساسية ” القرآن الكريم والحديث الشريف “ ، منها التسديد والمقاربة والتوسط والقسط ، وهذا لا يخرج من أمر الدين نفسه – في الإسلام كما في غيره – وهو أمر جدية . وأمر شدة وفعالية وانضباط ، لذلك ” لن يشاد الدين أحد إلا غلبه “ وقد جاء في سورة آل عمران ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، والآية الكريمة السابقة تدل على الثبات والتمسك على طريق ” الحق “ . ويمثل إدراك ” الحق “ واحداً من أهم القضايا التي تبحث في موضوع ” التطرف الديني “ في السياق الإسلامي ، والعبرة في هذا المقام تختص بحسن الإدراك وحسن الفهم وحسن التقدير .

التطرف الديني في سياق العالم الإسلامي المعاصر : نماذج مختارة

(أ) مدخل :

يركز هذا الجزء من الدراسة على الفكر المتصل بالفعل ، ومن بين اشكال الفعل هنا ان يؤدي او يؤثر او يتأثر الفكر بتكوين التيارات والجماعات والمؤسسات السياسية والاجتماعية .

(١) عبد الله سلوم السامرائي ص ٣١ وما بعدها & الطاهر حسن التوم / عصام احمد البشير ص ١٥-٢٦ .

ومن ناحية اخرى فان من بعض انواع الفكر المتصل بالفعل هو ذلك الذى يؤثر على سلوك الافراد والجماعات والمؤسسات ويدخل فى ذلك ميلها او ابتعادها عن ”العنف“ .
وفى هذا الجزء من المعالجة لابد من التمييز بين ما هو عصري ” بالمفهوم الزمني وليس النوعي “ وبين ما هو تاريخي سابق للعصر الحديث ، مع مراعاة مسألة هامة هي تأثير الجذور التاريخية على المعاصر وكذلك الاستمرار التاريخي فى المعاصر ، ذلك بالاضافة إلى البنات الثابتة التى لا تتغير فى وحدات زمنية كبيرة - مثل القرون - الا بصورة نسبية ، مثل المعادلات الرئيسة التى تحكم علاقة ” النص “ ب ” المتلقي “ فى ذلك الجانب الذى يكون فيه النص ” فوق التاريخ “ - ” لابد من ملاحظة ان ذلك لا ينطبق على كثير من النصوص مقدسة او عادية “ . وسترکز الدراسة هنا على نموذجين ، هما الفكر الوهابي السلفي ذي المرتکز النجدي فى الجزيرة العربية وتفريعاته المعاصرة ، والفكر الجهادي ذي المرتکز السني فى مصر .

(ب) نموذج الفكر الوهابي ذي المرتکز النجدي فى الجزيرة العربية وتفريعاته المعاصرة :

ينسب هذا الفكر إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى اسس هذه المدرسة فى اواسط القرن الهجري الثانى عشر / الميلادى الثامن عشر فى الجزيرة العربية.^(١) وهذا الفكر فى بعض جوانبه ذو اصول حنبلية ، متأثر بصورة خاصة بشيخ الاسلام ابن تيمية . وقد ظهر هذا الفكر فى سياق حركة مناهضة لممارسات دينية ، تتعلق بتقدیس القبور ، خاصة قبور الصحابة فى المدينه بالبقيع ، وممارسات ذات صلة بذلك مثل الاعتقاد فى قدرة الاولياء والصالحين - بمعزل عن القدرة والارادة الالهية- على اجابة الدعاء . وقد قادت هذه الفكرة الاساسية الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى بناء منظومة فكرية متكاملة فيها العديد من الجوانب الجدلية المتشابكة ، صاغها حول ما اعتقد انها عقيدة التوحيد الصحيحة . وقد جره ذلك إلى الكثير من الصدامات الكلامية الجدلية ، وحرك الكثير من الفئات والقوى الدينية ، وادخله ذلك فى دائرة الفعل السياسى ” الذى ارتبط فى النهاية بالعمل العسكري - الذى قام به اخرون غيره . وجاءت اهم النتائج هنا فى قيام دولة تتبنى ” الفكر “ ، وهى المملكة العربية السعودية . حدث ذلك عبر تطور تاريخي طويل ، امتد منذ منتصف القرن الهجري الثانى عشر حتى الربع الاول من القرن العشرين / الهجرى الرابع عشر . وقد سحب ذلك عند التيار الوهابي

^(١) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط & الفتاوى الكبرى - كذلك : احمد امين ص ١٠ - ٢٧ & حسين بن غنام - تاريخ نجد & اليهانى الفخرانى ص ١٩ .

تطور وتشعب في الفكر السياسي ، ارتبط بعدد من الانقسامات ، وكذلك ببعض الخلاف والصدام مع الدولة السعودية نفسها. وقد خلق ذلك داخل هذه المدرسة قطبين بين التطرف والاعتدال. ولا بد هنا من الاشارة إلى ان خصوم محمد بن عبد الوهاب قد مثلوا بدورهم تطرفا ضده ، حتى انه كتب مفندا ما نسبوه إليه من مواقف : ” انه بلغني ان رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم ، وانه قبلها وصدقها بعض المتممين للعلم في جهتكم ، والله يعلم ان الرجل افتري على امورا لم اقلها ولم يأت اكثرها على بالي ، فمنها قوله :... اقول ان الناس من ستائة سنة ليسوا على شئ. واني اكفر كل من توسل بالصالحين واني اكفر البوصيري لقوله ” يا اكرم الخلق “ واني اقول لو اقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها ... واني احرم زيارة قبر النبي ، واني اكفر من حلف بغير الله. وجوابي عن هذه المسألة ان اقول : ” سبحانك هذا بهتان عظيم “^(٨) ويستمر الشيخ محمد عبد الوهاب في نفى اراء متطرفة نسبت اليه : ” ... اني اكفر جميع الناس ، الا من اتبعني واني ازعم ان انكحتهم غير صحيحة ، فيا عجبا كيف يدخل هذا في عقل عاقل؟ وهل يقول هذا مسلم؟ اني ابرأ الى الله من هذا القول الذي ما يصدر الا من مختل العقل فاقد الادراك ، فقاتل الله اهل الاغراض الباطلة “^(٩) ويقول الشيخ محمد عبد الوهاب في اثبات اساس عقيدته في نفس المصدر السابق ” اني اقول : لا يتم اسلام الانسان حتى يعرف معنى ” لا اله الا الله “ واني اعرف من يأتيني بمعناها ، واني اكفر الناذر اذا اراد بنذره التقرب لغير الله واخذ النذر لاجل ذلك وان الذبح لغير الله كفر والذبيحة حرام ، فهذه المسائل حق وانا قائلها “^(١٠) ما ورد في الاقتباس السابق من كتاب ” الدرر السنية “ عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد اثبته صاحب الكتاب ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الذي ذكر ان محمد بن عبد الوهاب كان في بداية دعوته لا يكفر احدا. وكان اذا سمع الناس يدعون زيدا بن الخطاب ، يقول الله خير من زيد ، ويتلطف بهم بلين الكلام ، نظرا إلى المصلحة وعدم النفرة.^(١١) وهذه الملاحظة مهمة من ناحيتين :

الأولى : انها غالبا ما ترجح تحرك مواقف محمد بن عبد الوهاب باتجاه التشدد في القول - على الاقل - بتصاعد حركته الدعوية.

(٨) احمد الكاتب ص ٣٧ - ٣٨.

(٩) المصدر السابق ص ٣٨.

(١٠) المصدر السابق ص ٣٨.

(١١) عبد الرحمن بن محمد - الدرر ج ٢ ص ٢١١.

الثانية : انها تشير إلى ضرورة التفرقة بين التطرف الفكري المحض وبين التطرف على مستوى الفعل. ويمثل ”القول“ واحدا من درجاته.

لابد من اثبات المفهوم المحوري في فكر محمد بن عبد الوهاب حول التفرقة بين شرك الالوهية وشرك الربوبية ، ففي حين ان شرك الربوبية يعني عند محمد بن عبد الوهاب ، كما هو الحال عند سلفية ابن تيمية ، مخالفة توحيد الربوبية وهو الاشرار في الاعتقاد بالله عز وجل. فان شرك الالوهية فيعني نفي توحيد الالوهية وهو التوحيد بالافعال ، فيكفر الانسان رغم اعتقاده بتوحيد الله نطقا لانه اتى فعلا مثل دعاء العباد وتقديم الذنور والقرايين والتوكل عليهم ... وما إلى ذلك من العبادات والشعائر. يقول في ذلك ” ان التوحيد هو افراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذين ارسلهم الله إلى عباده“.^(١٧)

كان محمد بن عبد الوهاب باعثا ومنظما لواحد من توجهات المدرسة السلفية عند الحنابلة وابن تيمية في سياق تاريخي مختلف ، كانت تحكم فيه الدولة العثمانية في الربع الاخير من عمرها. وبدأ بعد ذلك بفترة قصيرة الهجوم الاستعماري الاوربي على بلاد المسلمين ، وانعكس ذلك على ”الفكر الوهابي“. وبدأ بعد فترة التباعد بين بعض اشكاله المعتدلة والمتشددة فكريا وفعليا ، وذلك بتوسيع وتعميق مبادئ قرآنية مثل ”الولاء“ لله وحده و”البراءة“ من المشركين. وادى ذلك إلى عدم التوافق بين بعض التيارات الوهابية والمملكة العربية السعودية التي تبنت صورا معتدلة من ”الوهابية“. ومصطلح ”الوهابية“ هنا لا يقتصر على محمد بن عبد الوهاب بل يشمل المدارس التي توسعت وتفرعت بعده نابعة من اصول فكره. وكان موقف المملكة العربية السعودية يقوم على احترام موازين القوى السياسية الدولية من ناحية مع الحرص على تحقيق حد اساسي من مصالح الاسلام والمسلمين في هذا الاطار. وذلك ما انتقده تيار وهابي اكثر تشددا ، وهو الذي وصل قمته بظهور ”تنظيم القاعدة“ والذي اصبح مشهورا بقيادة زعيمه اسامة بن لادن ، بعد تفجير البرجين في نيويورك في ١١ / سبتمبر / ٢٠١١م. ولابد هنا من ملاحظة ان التبلور الفكري والعلمي الاخير لتنظيم القاعدة جاء بعد التحام التيار النابع من جزيرة العرب مع التيار الجهادي المصري - ذي الاصول الفكرية المختلفة نسبيا. وهو اختلاف في التاريخ وملايسات التكوين

^(١٧) احمد الكاتب ، مصدر سابق ص ١٧.

واساليب العمل وليس اختلافا في التوجهات الفكرية والعقائدية. وهذا ما توضحه الفقرة التالية من هذه الدراسة ، عن ما اسمته الفكر الجهادي ذي المرتكز السني في مصر .

لابد هنا من الاشارة إلى ان الفكر ” الوهابي “ في مرحلة وسيطة من مراحل تطوره اتجه اتجاهها محافظا بتبنيه الرأى القائل بعدم جواز الخروج على ولي الامر ” ويقصد بالطبع ولي الامر الشرعي بنظر هذا التيار “ ، غير ان تجاوزه لهذا الموقف اصبح صارخا في مرحلة اسامة بن لادن ، الذي اعلن الحرب على الدولة السعودية بذريعة سماحها بوجود القوات الامريكية على ارض المملكة. وقد وصف هذا الوجود بانه ” تحالف اسرائيلي امريكي يحتل بلاد الحرمين ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام “^(١٣) واثبت في رسالة قوله ” ان الذين يزعمون ان دماء جنود هذا العدو الامريكي المحتل لبلاد المسلمين معصومة ، إنما يرددون مكرهين مايمليه هذا ب بطشه ... والواجب على كل قبيلة في جزيرة العرب ان تجاهد في سبيل الله وتطهر ارضها من هولاء المحتلين ، وعلم الله ان دماءهم مهدورة وامواهم غنيمة ، ومن قتل قتيلا فله سلبه “^(١٤) وربما كان اهم تطور في تحول الفكر السلفي الجهادي إلى التنظيم والفعل العسكري بعد عام ٢٠١١ هو بروز ” تنظيم الدولة الاسلامية “ - الذى عرف باسم ” داعش “ ، اشارة إلى مرحلته السابقة ، عندما كان تنظيم الدولة الاسلامية في العراق وسوريا. وقد خرج هذا التنظيم من رحم تنظيم ” القاعدة “ ومثل تشدداً أكبر من الناحيتين الفكرية والعملية وهو يختلف عن تنظيم القاعدة في توسيعه أكثر لمفهوم ” التكفير “ وفي تركيزه على الحرب في ارض المسلمين ، لانه يسعى إلى اقامة دولة على مساحتها الجغرافية بخلاف القاعدة التى كانت تركز عموما على الحرب خارج ديار المسلمين. ويلاحظ ارتباط ” تنظيم الدولة “ بالعراق والشام ، من حيث الارتكاز والنشأة ، اكثر من السعودية واليمن كما هو حال القاعدة. وهذا يبعده قليلا عن التأثير المباشر للمدرسة الوهابية ، بخلاف حالة الفكر والجماعات الوهابية التاريخية ، التى كانت تنزع إلى استخدام العنف الدموي ولكنها تنحصر في اطار جغرافي محدود ، فان كلا من القاعدة وتنظيم الدولة يتوسع في نطاقات جغرافية واسعة خارج جزيرة العرب في اسيا وافريقيا ويؤثر كذلك في اوربا ، وذلك وفقا لايدولوجيا اعمية تخلق نسبا بينها وبين حركات مشابهه مثل ” بوكو حرام “ في غرب افريقيا وحركة الشباب الاسلامي في الصومال وطالبان في افغانستان وباكستان.

(١٣) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

(١٤) موقع الكترونى : <http://www.aloswa.org/bayanat/afgan/laden2.html>

إذا كانت ” الوهابية التاريخية “ قد ارتبطت بالعلم السلفي وطبيعته الجدلية فإن كلا من ” القاعدة “ و ” تنظيم الدولة “ قد نزعت نحو ” الفعل “ العنيف مع ضعف الارتباط بحركة العلم الشرعي المتعمق والعلماء المدرسين والفكر النظري. ولا شك ان هذه الحركات التي توصف من قبل خصومها بالارهابية تقوم على نشاط اقلية صغيرة وسط الشعوب الاسلامية ، لكن قوة تنظيمها وارادتها القتالية واساليبها العنيفة وتجاوزها لحدود قيم ” السلام “ و ” الانسانية “ المعروفة في عالم اليوم ، تجعلها اكثر خطورة ، خاصة وانها تؤثر أكثر على قطاع صغار السن بصورة عامة ، وذلك بحكم طبيعة التفكير والشعور والسلوك وسط افراد هذه الفئة العمرية ، واستعدادهم النفسى للتطرف. وذلك حكم ، في ما يخص الحالة المحددة ، يحتاج إلى استقصاء اكثر قبل ان يصبح نتيجة علمية.

(ج) نموذج الفكر الجهادي ذي المرتكز السني في مصر :

النموذج الذي تركز عليه هذه الدراسة هنا هو ذلك التيار الذي تأسس فكريا في مصر على يد سيد قطب ، ثم تطور جانب منه بواسطة تنظيم – ” تنظيمات الجهاد “ – المنبثق بوجه عام من جماعة ” الاخوان المسلمين “ وقد كون جزء من هذا الجانب مع واحد من اشكال السلفية الوهابية – ” ذلك الذى تزعمه اسامة بن لادن “ – تنظيم القاعدة. وكان ابرز قادة هذا التنظيم الجهادي المصرى هو أيمن الظواهري.

مثلت ” حركة الاخوان المسلمين “ ذات المنشأ والمرتكز المصري الاطار العريض الذى انتج جانبا كبيرا من الحركات ” الاسلامية “ المتفرعة عنه – معتدلة كانت ام متطرفة – مع استمرار هذه الحركة باعتبارها الحركة الاسلامية الاعظم في الوسط المصري. وعندما تعرضت هذه الحركة لبطش النظام الناصري بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٦ تطور داخل سجونها فكر سيد قطب ، الذي مثل تجاوزا للفكر الاخواني التقليدي الذي اسسه حسن البنا منذ عام ١٩٢٧ وهو نفس تاريخ قيام الدولة السعودية في مرحلتها الحالية ” الثالثة “^(١٥) وقد تطور بجانب فكر سيد قطب في السجون المصرية خلال هذه الفترة تيارات ” التكفير السافر “ التي عرف بعضها باسماء مثل جماعة ” المسلمون “ و ” التكفير والهجرة “ وما إلى ذلك ، وهى تميل إلى الاحتجاج الجدلي ، شأن الفرق الاسلامية التاريخية – وتلك ليست ذهنية او ” لغة “ سيد قطب الذى لم يكن يؤمن بالفرق الاسلامية كلها بما في ذلك ” اهل السنة “ وبها في ذلك ما

(١٥) محمد جلال كشك – السعوديون ص ٦٣٣ وما بعدها.

يمكن تسميته بـ ”الفقه التاريخي“ الذي سماه سيد قطب بـ ”فكر الأوراق“ مقابل ما اصطلح عليه فكر الحركة. ذكر سيد : ”وانا على يقين جازم بان التصور الاسلامي لن يخلص من التشويه والانحراف والمسح الا حين يلغى عنه جملة بكل ما اطلق عليه اسم الفلسفة الاسلامية وبكل مباحث ”علم الكلام“ وبكل ما اثير بين الفرق الاسلامية المختلفة في شتى العصور ايضا ثم نعود إلى القران الكريم ونستمد منه مباشرة ” مقومات التصور الاسلامي “. (١٦) ويتضح من هذا الاقتباس ان سيد قطب ينحو منحى ثوريا - ان جاز التعبير - في المجال الأساس والقاعدة التي تحدد الآراء والاحكام ”الإسلامية“، وهو مجال ما اسماه بـ ”المنهج“. ويتصل بذلك ابتكار سيد قطب لمصطلحات مفتاحية اساسية يمكن أن تغير توجه ”الفكر الاسلامي“ وتخرجه من القوالب التاريخية - مثل ”مقومات التصور“ و”قوالب الفكر“، ”المنهج الالهي“ و”منهج الحركة“. وما إلى ذلك. وكان من بين أهم المصطلحات التي طور سيد قطب استخدامها مصطلح ”الجاهلية“، باعتبار انها ليست فقط المرحلة التاريخية السابقة للبعثة المحمدية وانما هي حالة انسانية تتكرر دائما وتتكرر معها دلالة الأحكام والقيم القرانية كلما استجد وضع مواجهة بين ”الحق“ ”والباطل“. وكان مدخل سيد لبناء نظريته هذه هو وضعها في سياق اعادة تفسير مبدأ الاسلام الاول وهو ”التوحيد“، تماما كما فعل محمد بن عبد الوهاب واسلافه في المذهب الحنبلي ومن قبلهم المعتزلة. واستخدم مصطلحي ”الالوهية“ و”الربوبية“، وذهب إلى أن الاعتقاد والنطق بالشهادتين وحده لا يكفي، لنفي صفة الجاهلية عن الافراد والجماعات ولكنه لم يطلق لفظ تكفير او كفر مباشرة وانما استخدم كلمات ذات مدلول ضمنى مثل مصطلح ”جاهلية“. واستخدم في هذا السياق مصطلح ”مجتمع“ - وهو مصطلح غير موجود في مصطلحات العلوم الشرعية التي تتحدث عادة عن أفراد أعيان أو عن جماعات. وادخل بواسطة هذه المصطلحات المجتمعات الاسلامية الحالية في صنف المجتمعات الجاهلية، في سياق يعني نفي الاسلام عنها ”اي عن المجتمعات وليس عن افرادها الذين لم يذكر عن حكمهم في هذا الخصوص شيئا“. قال سيد قطب في ”معالم الطريق“ : ”ولكن ما هو ”المجتمع الجاهلي“؟ وما هو منهج الاسلام في مواجهته إن المجتمع الجاهلي هو كل

(١٦) سيد قطب - خصائص ص ١٢.

مجتمع غير المجتمع المسلم او اذا اردنا التحديد الموضوعي قلنا : انه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده. ولا تتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي وفي الشعائر التعبيرية وفي الشرائع القانونية. وبهذا التعريف الموضوعي. تدخل في اطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة اليوم في الارض فعلا... تدخل فيه المجتمعات الشيوعية... وتدخل فيه المجتمعات الوثنية... وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية. وأخيرا في اطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها انها مسلمة.^(١٧) ولقد كان مصطلح "الحاكمية"^(١٨) ركنا في نظرية سيد قطب ، وادخل بذلك مسالة "الحكم" في صميم العقيدة - كما هو الحال في الفكر الشيعي ، مع الاختلاف الجذري في المنطلق والتوجه والغاية. وينزع سيد قطب في فكره نحو "المطلق" ولا يرى "الواقع" الا من هذا المنظور. ويعرض فكره مستعينا بقوة "الشاعرية" ذات التأثير القوي على وجدان من يملكون "الشفافية" اللازمة. ذلك مع وضوح وبساطة الأفكار كما تبدو للوهلة الأولى - مع انها غير ذلك تماما. وهذا يعني قدرتها على التأثير على كافة مستويات الفهم ، حتى لو لم يؤد ذلك إلى حسن الفهم في كل الأحوال. ومن الواضح ان سيد قطب قد منح "اصحاب النزعة التكفيرية" ازاء من ساهم هو نفسه : "يزعمون أنهم مسلمون أو مسلمون بشهادة الميلاد"^(١٩) وقد منح هؤلاء اسلحة فعالة وخطيرة في تطوير بعض بذور فكره باتجاهات لم يذهب اليها هو نفسه. وقد سبق سيد قطب "تنظيم القاعدة" بدعوته إلى قيام حركة المسلمين على المستوي العالمي ، واحداث الانقلاب في صميم النظام العالمي - مما ذهب اليه ابو الأعلى المودودي كذلك.^(٢٠) ولا زالت حتى اليوم الحلقات الفكرية والفعلية في التواصل والتطور بين سيد قطب - وهو ليس مجرد صاحب فكر وانما هو كذلك صاحب "تنظيم" - وبين ما حدث من تطورات في مصر وانتهى باغتيال الرئيس انور السادات وما تلاه من فترة كمون طويلة حتى سقوط نظام حسنى مبارك في يناير ٢٠١١ ، ثم بروز التنظيمات الجهادية المسلحة التي ارتبطت اولا بتنظيم القاعدة ثم بتنظيم الدولة الاسلامية ، لازالت هذه التطورات والحلقات غير واضحة امام الباحثين مع توفر

(١٧) سيد قطب - معالم ص ٨٨-٩٢.

(١٨) سيد قطب - معالم ص ٤٦ - ٥٤ & ص ٩١-٩٢ & ص ١٢٣ وما بعدها.

(١٩) سيد قطب ، معالم ص ١٤٤.

(٢٠) مصطفى الفلايلي في الحركات الاسلامية ص ٣٣٣-٤٠٨.

المؤشرات العامة عنها. غير ان ما يمكن قوله هنا ان الجانب الاعظم من هذه التطورات لم يكن مدبراً بصورة مسبقة وانما جاء في شكل تفاعلات وتداعيات تداخل فيها الفكر المتفاعل مع مستجدات الواقع وتأثيرات البيئة الاجتماعية والثقافية في اقطار مختلفة من العالم العربي والاسلامي. ومن الواضح ان الافكار - البذور والتنظيمات الجينية التي خلقها التشير بافكار دينية - سياسية - اجتماعية بسيطة ، في عقود ماضية ، قد نمت رغم محاولات وأدها ومكافحتها بشتى الوسائل. وقد ساهم ذلك في وضع عالم اليوم امام مواجهات معقدة قد تتطور إلى حروب طاحنة في المستقبل. واكثر البيئات الملائمة لتصاعد ” التطرف “ بكل اشكاله هي ” بيئة الحرب “. غير ان التطورات المشار اليها في هذا السياق ليست حربية فقط وانما ذات طابع اساسه مدني فكري رغم قوة الابعاد الصراعية فيه.

إشارة خاصة بمعالجة التطرف الديني :

إن حسن الإدراك وحسن الفهم وحسن التقدير والتوسط والاعتدال ، وما إلى ذلك من المبادئ التي ينادي بها جوهر الإسلام في مصادره الأولية ، هي صفات تتصل بسلامة التكوين النفسي للشخصية الإنسانية = فردية كانت أو جمعية ، لذلك فإن عامل الصحة النفسية ، في المستوى الفردي والجماعي ، يمثل ركناً أساسياً في تحقيق البعد عن ” التطرف “ المذموم ، ومهما أوتي شخص ، أو مجموعة ، من علم فإن نصيبه - أو نصيبها - سليم في تكوينه الأساسي : نفسه وقلبه ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦].

وأشار القرآن الكريم كذلك إلى المرض القلبي وصلته السببية بالضلال ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] ويوضح القرآن الكريم معاني الاستواء والاعتدال والاستقامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢]. وهذه الآية واضحة في دلالتها على العلاقة بين استقامة الطريق واستقامة سالكه وتوازنه ، وهنا لابد من التمييز الدقيق بين التشدد في التمسك ، عقيدة وسلوكاً ، وبين موضوع ومحتوى التشدد والتمسك أهو ” حق “ أم ” باطل “ بالمصطلح القرآني ، وهو ما يضمه الفكر غير الديني - وقد يتفق معه الفكر الديني أحياناً - في صورة المقابلة بين ما هو ” صحيح “ وما هو ” خاطئ “ ، وي طرح الفكر النقدي هنا - دينياً أو غير ديني - هنا أسئلة أساسية : من الذي يحكم وكيف

يحكم في قيمة ما هو حق أو باطل - أو ما هو صحيح أو خاطئ؟ وهل حكمه قاطع ونهائي - أم مجرد رأي حوله آراء أخرى يجب احترامها؟ وما هو الحكم القيمي على " النهج الليبرالي " في هذا أو ذلك من الأديان ، وهل يعني رفض النهج الليبرالي الديني الوقوع في هاوية " التطرف الديني "؟ وهل الليبرالية الدينية أو المناوئة للدين أو نقيض كل منها يمثل موقفاً فكرياً عقلياً أم يمثل كل ذلك حالة نفسية فردية أو جماعية أم يمثل مزيجاً من الاثنين، قد يتفاوت من حالة إلى أخرى؟ بالطبع لا يمكن هنا الاستفاضة في محاولة الإجابة على هذه الأسئلة ، لضيق الحيز ، غير أن طرحها هنا يأتي بغرض التنبيه والإشارة إلى نقطتين أساسيتين : الأولى : أن " الحصان " هنا هو " الحق " - وله متشابهات في ثقافات أخرى غير إسلامية مثل " الحقيقة " ، وما يلي ذلك من قضايا في سياق الحديث عن " التطرف الديني " يمثل " الغربية " .

الثانية : أنه إذا كان " الدين " موضوعاً للتشكيل الذاتي - الفردي أو الجماعي بدون حقيقة مستقلة أو استقلال ، فإن هذا يعني الحكم بعدم وجوده ، وهذا يبين عن كل من الواقع والحقيقة ، لذلك فإن " المرجعية " الخاصة بالإسلام هنا هي صاحبة الرأي الفيصل ، ذلك على أساس انفصال " الدين " عن الذات الفردية أو الجماعية وكذلك على أساس استيلاء " الدين " على " التاريخ " ، ويستثنى من ذلك " التدين " فهو يخضع للتاريخية والذاتية إلى حد كبير .

إن الخروج من مأزق " التطرف الديني " ومحاولة توظيف الغموض الفكري بين المسلمين حول قضاياها ، بواسطة القوى المادية ، لا يكون إلا بشروط ، ومن أبرز تلك الشروط إشاعة وتعميق الصحة النفسية في نفس الوقت ، في هذا الإطار العام يمكن تطوير مقترحات عملية تفصيلية ، من أجل استخدامات التعليم والإعلام وأدوات التأثير الذهني والنفسية المختلفة .

خاتمة : خلاصة ونتائج :

أوضح الجزء الأول من هذه الدراسة ، المتعلق بالتصنيف والمفاهيم النظرية الخاصة بالتطرف والعنف وما يتصل بذلك ، مدى غموض وصعوبة تحديد معنى التطرف الديني ونسبية وزئبقية هذا المفهوم وتأثره وتغيره وفقاً للمنظور والمرتكز الفكري والسياسي ، خاصة في السياق الصراعى الحالى الذى تجرى فيه مثل هذه الدراسات والمناقشات. ولقد حاول

البحث بصورة موجزة تناول نموذجين يمثلان اثنين من بين اهم "مضان" التطرف الفكري المرتبط بالفعل والحراك الاجتماعي والسياسي المؤدى الى الصدام العسكري والحرب. وهما نموذجا الحركة الوهابية وتفريعاتها المعاصرة والحركة الجهادية ، التي انطلقت من مصر- حيث بدأت سلمية وفكرية ثم اخذت تتجه نحو المواجهة العنيفة. لم تنزع الدراسة ، التزاما بمنهجها العلمى الموضوعى ، نحو اطلاق الأوصاف الأخلاقية والقيمية على الافكار والجماعات والظواهر ، وركزت اكثر على توضيح المظاهر الموضوعية ووصف الواقع وتحليل التفاعلات. ولم تنظر في هذا السياق إلى "الفكر" الا باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من تفاعلات يدخل فيها الواقع ومستجداته بصورة اساسية - ذلك مع بعض الاستثناءات القليلة التي دعت اليها الرغبة في إضاءة بعض الجوانب ذات الصلة.

لم يسمح حجم الدراسة المحدود بمحاولة رؤية المعادلة الكاملة هنا وهي ليست بين "وسط" و"طرف" بل بين "وسط" و"طرفين" - يتغير فيها الفرقاء مع تطور "الحركة التاريخية" ، من خانة إلى اخرى "كأن يصبح من كان بالطرف في فترة ما او في مكان ما في خانة الوسط" وهذا يشير إلى ان "التطرف" قد لا يكون في فريق او مجموعة ما بقدر ما هو في الوضع والملابسات التي تشكل معادلة "الطرف" و"الوسط". ولو تم استصحاب المعادلة كاملة لبرزت في التحليل - الخاص بالتيارات الإسلامية المتحركة - اطراف اخرى مثل "البرالية" التي ترفض بحدّة قبول الحركات التي تسعى إلى تنظيم المجتمع بعد اعادة صياغته ووضعه في اطار نظم شمولية ذات اطار وتوجه "ايدولوجي" ، ولظهرت تيارات مثل "العلمانية" التي تتحفظ على منح "الفكر الديني" اي مساحات كبيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية. ولظهرت ايضا التيارات "الصوفية الباطنية" في مقابل التيارات "السلفية والظاهرية المتشددة". ولبرز كذلك "التفرنج" و"الاستغراب" و"الاباحية" والتمرد على "الاله" في مواجهة التيارات الإسلامية المتشددة والمعتدلة معا. كان القصد من خطة هذه الدراسة القائمة على ايراد الاشارات والتلميحات وانتقاء النماذج المحدودة -دون التوغل في التفاصيل- هو مجرد لقاء نظرة عامة على ظاهرة معقدة بغرض مكافحة التبسيط وسطحية الشعارات - خاصة في التداول السياسي والاعلامي - التي تعوق الفهم الصحيح لحقائق الواقع كما تعوق المعالجات المنشودة.

مراجع مختارة

الكتب :

(أ) باللغة العربية

- (١) ابن ابي العز الدمشقي - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية- مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٤م
- (٢) ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم الحراني - اقتضاء الصراط المستقيم - مخالفة اصحاب الجحيم ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ط ٢ - تحقيق محمد حامد الفقى - ١٣٦٩هـ - شرح
- (٣) ابن تيمية ، الحراني - شرح العقيدة الواسطية.
- (٤) ابن تيمية ، الحراني - الفتاوى الكبرى - تحقيق حسنين محمد مخلوف " خمسة اجزاء " دار المعرفة ط ١ بيروت ١٣٨٦هـ
- (٥) محمد قطب - جاهلية القرن العشرين - الكويت.
- (٦) أحمد الكاتب- الفكر السياسى الوهابى ، قراءة تحليلية ، مكتبة مدبولى- القاهرة- ٢٠٠٨
- (٧) أحمد امين- زعماء الاصلاح فى العصر الحديث- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة ط ٤١٩٧٩
- (٨) الطاهر حسن التوم -التدين المغشوش ، فى نقد الغلو والتطرف- حوار مع فضيلة الشيخ أ.د. عصام البشير ، سلسلة قيد النظر ٢ - قناة النيل الازرق التلفزيونية ، " السودان " - هيئة الخرطوم للطباعة والنشر - الخرطوم ٢٠١٤
- (٩) اليمانى الفخرانى - النزعة التكفيرية فى فكر الوهابية - مكتبة مدبولى القاهرة ٢٠١٢ حسن الهضيبي - دعاة لاقضاة- القاهرة.
- (١٠) حسين بن غنام -تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الاسد - ط ٤ ، دار الشروق - القاهرة / بيروت ١٤١٥هـ- ١٩٩٤
- (١١) سيد قطب - خصائص التصور الاسلامى ومقوماته - دار الشروق - القاهرة / بيروت ط ٨ - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
- (١٢) سيد قطب- معالم فى الطريق - دار الشروق - القاهرة / بيروت / بدون تاريخ

- (١٣) سيف عبد الفتاح اسماعيل (محرر) -معجم مفاهيم الوسطية ، نموذج لبناء المفاهيم الاساسية من منظور حضارى - الجزء الاول - مركز الحضارة للدراسات السياسية ومنتدى النهضة والتواصل الحضارى - الخرطوم ط١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
- (١٤) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - الدرر السنية فى الاجوبة النجدية - انظر الموقع الالكتروني : www.Dorar.net/htmls/mbooks.asp
- (١٥) عبد الله سلوم السامرائى-الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الاسلامية-دار واسط للنشر-لندن/ بغداد ط ١٩٨٨٣
- (١٦) على زيعور-التحليل النفسى للذات العربية-دار الطليعة-بيروت ١٩٨٢
- (١٧) محمد بن عبد الوهاب-المؤلفات الكاملة-تحقيق عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد واخرون - جامعة الامام محمد بن سعود- الرياض / السعودية - بدون تاريخ
- (١٨) محمد جلال كشك-السعوديون والحل الاسلامى- المطبعة الفنية - القاهرة / ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م
- (١٩) مصطفى الفلايلى- تقرير تجميعى : الصحوة الدينية الاسلامية : خصائصها - اطوارها- مستقبلها فى الحركات الاسلامية المعاصرة فى الوطن العربى- مركز دراسات الوحدة العربية -بيروت ١٩٨٧م
- (ب) باللغة الانجليزية :

- (1) Fairehild , H.(ed) – Dictionary of Sociology – Hilex Book – N.J.,USA.1970
- (2) Flew, Antony (ed) – Dictionary of Philosophy – Martin`s Free Press –New York 1984
- (3) Hall, Calvin S.-theories of personality – New York 1965
- (4) Houghton MillinCompany – The American Heritage Dictionary – Boston 1982
- (5) Jelle,Larry A& Ziegler – Personality Theories – Mac Graw.Hill-1982
- (6) Rychlak , Joseph F- Introduction to Psychotherapy – Houghton Millin company –Boston 1981

مواقع الكترونية :

- (1) <http://www.khayma.com/Rafidha/ematah.ht>.
- (2) <http://www.aloswa.org/bayanat/afgan/laden2.html>
- (3) <http://www.Dorar.net/htmls/mbooks.asp>



بعض مظاهر التطرف في الدراسات الاستشراقية للإسلام ونقدها " نموذج دراسة جوزيف شاخت للفقهاء الإسلامي "

د. محمد مصطفى محمد صالح

أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة متطلبات جامعة الخرطوم

(١٢٣-١٤٤)

المستخلص :

تعني هذه الورقة بالوقوف على نظرية المستشرق جوزيف شاخت التي ناقش فيها الفقه الإسلامي حيث تركزت نظريته على أن الفقه الإسلامي لا علاقة له بالقرآن الكريم إلا في الجوانب المتصلة بفقه الأسرة والميراث. كما أنه ذهب إلى رأي متطرف للغاية حيث نفى وجود أي حديث نبوي يتصل بالفقه قبل سنة ١١٠ هجرية بل إنه أنكر وجود الفقه الإسلامي قبل هذه السنة. كما ذهب إلى رأي متطرف آخر وهو أن السنة في عهد الصحابة والتابعين لم تكن تعني سنة النبي صلى الله عليه وسلم بل كانت تعني سنة المجتمع، ولم تأخذ تعريفها بأنها سنة النبي إلا بعد الشافعي الذي أعطاهما هذا التعريف الجديد. تحاول الورقة إلقاء الضوء على طريقة شاخت المتسمة بالتطرف وبعدم اتباع منهجية علمية منضبطة تجاه التشريع الإسلامي.

مقدمة تعريفية :

يعد المستشرق الألماني الإنجليزي جوزيف شاخت من أشهر المستشرقين الذين عُنى بدراسة الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية ، وهو يعد امتداداً لمدرسة المستشرقين الذين انشغلوا بدراسات الشريعة الإسلامية وفقهها من أمثال المستشرق إجناس جولدزهر. كما أنه -أي شاخت- قد أثر في كثيرين من الدارسين الغربيين الذين جاءوا من بعده من أمثال نويل ج. كولسون أستاذ القانون الإسلامي والقوانين الشرقية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. غير أن شاخت قد عُرِفَ بأنه الوحيد من بين المستشرقين الذي استطاع أن يصوغ نظرية متكاملة عن الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية ، وقد وصف بعض الدارسين الغربيين لنظرية شاخت بأنها نظرية متكاملة لا يمكن دحضها بأي حالٍ من الأحوال. وبالرغم من ذلك الثناء المفرط الذي حظيت به مقولات شاخت في هذا المضمار إلا أن الكثيرين من المستشرقين اختلفوا معه في بعض الآراء التي صرّح بها في كتابيه المشهورين "أصول الشريعة المحمدية" و "مقدمة في دراسة الشريعة الإسلامية". لقد كانت النظرية التي عكف عليها شاخت زمناً طويلاً ، ونادى بها في كتابيه المذكورين آنفاً غريبة كل الغرابة ، وفيها الكثير من عناصر الوهم والخيال المحض ، وهي في حقيقة الأمر "مقلوب تطور الفقه

الإسلامي“ وبمعنى آخر فإن شاخت قد فهم نشأة الفقه الإسلامي أو أراد أن يفهمها بصورة عكسية. وبما أن هذه المقالة تعتبر أن التطرف هو الميل إلى أحد الطرفين المتضادين دون وجه حق ، وأنه-أي التطرف- هو البعد عن حد الاعتدال والتوسط والاستقامة فإنه بالإمكان اعتبار النظرية التي ذهب إليها شاخت نوعاً من أنواع التطرف الاستشراقي حيال الدراسات الإسلامية ، وحيال الإسلام بصورة عامة. وتعنى المقالة أيضاً بالوقوف على النقد الذي وُجّه لنظرية شاخت ، وعلى أبرز منتقدي هذه النظرية من الغربيين ومن المسلمين على حدّ سواء. كما تحاول ممارسة نوع من نقد النقد في هذا المضمار. وتشير المقالة إلى المكانة المرموقة التي حظي بها شاخت في الجامعات الغربية ، وأن بعض هذه الجامعات مثل جامعة لندن وجامعة كمبردج قد رفضتا تسجيل طالب أراد أن يدرس أحد كتّابي شاخت بصورة نقدية. كما أن جامعة أكسفورد البريطانية قد طردت أحد الأساتذة الذين حاولوا نقد مقولات شاخت!!^(١) لقد اعتبر جوزيف شاخت دراسته في كتابه ”أصول الشريعة المحمدية“ مجرد امتداد لدراسة إجناس جولدزير ، وأنه جاء ليؤكد نتائج جولدزير ويمضي بها قدماً. كما اعتبر نفسه مديناً لدراسات المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورقرونية ، والمستشرق البلجيكي هنري لامانس ، والمستشرق البريطاني ديفيد صامويل مارجوليوت.^(٢)

أبرز مقولات شاخت في نظريته :

إن مقولات شاخت التي اعتبرت نظرية متكاملة حول الفقه الإسلامي قد ضمّنها كتابيه المشهورين ”مقدمة في الشريعة الإسلامية“ و ”أصول الشريعة المحمدية“. وأبرز مقولاته تتمثل في الآتي :

أن الفقه الإسلامي لا علاقة له بالدين ، وأن الشريعة ”القانون“ في الإسلام لا علاقة لها بالدين. يقول جوزيف شاخت :

^(١) انظر محمد مصطفى الأعظمي ، المستشرق شاخت والسنة النبوية ، ضمن إصداره ”مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية“ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الجزء الأول ، ١٩٨٥ م ، ص ٦٣ وما بعدها.

^(٢) Joseph Schacht, The Origins of Muhammadan Jurisprudence, at Clarendon Press, Oxford University Press, Ely House, London W. I First published 1950, P. v.

[The sacred law of Islam is an all- embracing body of religious duties rather than a legal system proper, it comprises on an equal footing ordinances regarding cult and ritual, as well as political and [in the narrow sense] legal rule. In choosing the examples I shall concentrate as much as possible on the (properly speaking) legal sphere... For the legal subject-matter in early Islam did not primarily derive from the Koran or from other purely Islamic sources, law lay to a great extent outside the sphere of religion].⁽³⁾

أن السنة في عرف المسلمين الأوائل من صحابة وتابعين لم تكن تعني سنة النبي ﷺ ، وإنما كانت تعني سنة المجتمع أو " الأمر المجمع عليه من قبل مجموع المجتمع ". ويرى أن الشافعي هو الذي وضع المعنى المتعارف عليه الآن للسنة حيث يقول :

[The main theme of Shafi's discussion with his opponents is the function of the traditions from the Prophet. Shafi's insists time after time that nothing can override the authority of the Prophet, even it attested only by an isolated tradition. And that every well-authenticated tradition going back to the Prophet has precedence over the opinion of his companions, their Successors, and later authorities. This is a truism for the classical theory of Muhammadan law, but Shafi's continual insistence on this point shows that it could not yet have been so in his time].⁽⁴⁾

ويقرر شاخت أن الشافعي هو أول فقيه يعرف السنة بأنها سيرة النبي ﷺ حيث

يقول :

Ibid. (3)

Ibid, P11. (4)

[... the first lawyer to define sunna as the model behavior of the Prophet, in contrast with his predecessors for whom was not necessarily connected with the Prophet, but represented the traditional, albeit ideal, usage of the community, forming their “living tradition” on an equal footing with customary or generally agreed practice].^(٥)

أنه لا يصح حديث واحد من الأحاديث النبوية المتعلقة بأمور الفقه والشريعة. أن الفقه الإسلامي لم يكن له وجود قبل سنة ١١٠ هـ.

أن المدارس الفقهية القديمة لم يكن لها وجود قبل التاريخ المذكور [١١٠هـ]. ويقصد بالمدارس الفقهية القديمة مدرسة العراقيين بزعامة أبي حنيفة وأتباعه من أمثال القاضي أبي يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وتلامذتهم ، ومدرسة المدنيين وعلى رأسها الإمام مالك بن أنس ، ومدرسة الشاميين ”المدرسة السورية“ وعلى رأسها الإمام الأوزاعي. ركّز شاخت في دراسته على هذه المدارس برغم أن هناك مجموعة من المدارس الفقهية الأخرى التي انتشرت في جهات مختلفة مثل المدرسة المصرية ، والمدرسة اليمينية.

يرى شاخت أن الشافعي هو الذي قام بوضع الأسس الجديدة التي أصبحت بموجبها أن السنة هي سنة النبي ﷺ ، وليست سنة المجتمع كما كان معهوداً من قبل. أي أن الأمر الذي كان استثنائياً قبل الشافعي أصبح هو الأساس بعده. ولقد ركّز شاخت كثيراً على الشافعي حتى أن دراسته في كتابه ”أصول الشريعة المحمدية“ يمكن أن تعتبر دراسة للشافعي وبخاصة من خلال ”الرسالة“ و”اختلاف الحديث“. توفرت لشاخت العديد من المصادر اللازمة لهذه الدراسة غير أنه يذكر منع السلطات المصرية له من العودة إلى عمله ومنزله بالقاهرة في سنة ١٩٣٩م الأمر الذي حرّمه من الرجوع لكثير من المصادر المتصلة بدراسته وبخاصة كتاب ”الحجج“ للشيباني وكتاب ”السنن“ للشافعي.

[...the refusal of the Egyptian authorities to allow me to return to my work and home in Cairo in 1939 deprived me of the use of

Ibid, P2. ^(٥)

my library at the time I needed it most. I particularly regret that I was thereby prevented from consulting the Kitab al-Hujaj by Shaibani, the Kitab al- Sunan by Shafi's ...].^(١)

يرى شاخت أن المدارس الفقهية المذكورة آنفاً كانت تتميز بتفضيلها لآثار الصحابة والتابعين على الأحاديث النبوية ، وبعبارةٍ أخرى يرى شاخت أن تلك المدارس الفقهية تتسم بروح عداوية وغير مرحبة بالسنة النبوية.

ويرى شاخت -أيضاً- أن المتكلمين كانوا يعادون السنة النبوية ، ويقصد بالتكلمين "المعتزلة". ويزعم شاخت أن مظاهر العداوة للسنة النبوية كانت تتمثل في طائفتين : طائفة معتدلة ، وطائفة متطرفة. أما الطائفة المعتدلة في رفضها للسنة فهم أصحاب المدارس الفقهية المشار إليها سابقاً ، وأما الطائفة المتطرفة في رفضها للسنة فهم المتكلمون من المعتزلة.

الخلفاء الأوائل ويقصد بهم الأربعة الذين خلفوا رسول الله ﷺ كانوا مشرّعين للأمة ، ويبدو - على حد زعم شاخت - أنهم لم يستمدوا أحكامهم من مصدرٍ أعلى. وأنهم - أي الخلفاء الأربعة - لم يعيّنوا القضاة. وأن الخلفاء الأمويين هم الذين خطوا خطوة مهمة بتعيينهم القضاة الإسلاميين. وكان أولئك القضاة يُختارون من مجموعة "الناس الأتقياء" على حد تعبير جوزيف شاخت. وأن هؤلاء "الناس الأتقياء" هم الذين أصبحوا نواة المدارس الفقهية القديمة. وكل هذا الكلام قد حدث في العقود الأولى من القرن الثاني الهجري. وهذا يعني أن شاخت يقول بصراحة بأن الفقه الإسلامي لا علاقة له بالقرآن ولا بالسنة النبوية ولا بالجيل الأول من الصحابة والتابعين ، وإنما نشأت كل تلك الحركة الفقهية في القرن الثاني ، وفي العهد الأموي.

ما أبرز شياً فعلته تلك المدارس الفقهية القديمة تجاه الفقه؟ يرى شاخت أن تلك المدارس كانت تقوم بإرجاع "الأمر المجتمع عليه" إلى شخصياتٍ كبيرةٍ من الماضي. وهي تفعل ذلك - ربما - لتعطي لذلك الأمر المجتمع عليه مزيداً من الحجية! ولكن لماذا تفعل ذلك وهي أصلاً تعادي السنة النبوية. إن شاخت لا يملك الإجابة عن هذا التساؤل المشروع. ويقول شاخت إن الكوفيين كانوا سبّاقين في هذا العمل أي في نسبة "إجماعهم" إلى

Ibid, Pvi. ^(١)

الشخصيات الكبيرة الماضية ؛ فقد نسبوا نظرياتهم إلى أشخاص من امثال إبراهيم النخعي ، ولم يقفوا عند أمثال هذه الشخصيات المتأخرة في الزمن نسبياً بل رجعوا بهذه الآراء إلى نقطة البداية في الإسلام حيث إنهم أشركوا عبدالله بن مسعود في هذا العمل أي أدخلوه في أسانيدهم. وهذا يعني أن أصحاب هذه المدارس الفقهية قد قاموا منذ البداية بعملية وضع للأسانيد حسب زعم شاخت.

ويرى شاخت - في كلام ربما يناقض النقطة السابقة - أن الحديث النبوي لم يصبح هو السنّة إلا بعد الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، ولقد أفرد شاخت دراسة مفصّلة ومتكاملة عن الشافعي في كتابه ” أصول الشريعة المحمدية “ وعن الحركة التي قام بها الشافعي في وضع قواعد الفقه الإسلامي. لقد اعتمد شاخت في الأساس على كتابين من كتب الشافعي وهما ” الرسالة “ و ” اختلاف الحديث “. ولا بد من ذكر أن رأي شاخت في الإمام الشافعي رأي سلبي للغاية. غير أنه يعتمد عليه في المقولات التي توافقه ، ويرفض الآراء التي تخالفه دون مبرر علمي منطقي.

يعتبر شاخت أن الشافعي هو رافع لواء مدرسة الحديث لأول مرة في تاريخ تطور الفقه الإسلامي. بل إنه الذي أعطى القرآن الكريم مكانته في أصول التشريع بعد أن لم يكن كذلك في العهود الإسلامية الأولى. إن الشافعي - بلا شك - كان ينتقد مسلك بعض الفقهاء الذين يستعملون الرأي والاجتهاد بضروره المختلفة ويتركون أحاديث نبوية ؛ فالشافعي إذن ينتقد هذا المسلك. ولكن أولئك الأئمة من الفقهاء لم يكونوا يتركون الحديث عمداً ومع سبق الإصرار ، وإنما كانوا ينظرون ربما في أسانيد بعض تلك الأحاديث ، وربما انتقدوا تلك الأسانيد ومن ثمّ ردوا تلك الأحاديث بسبب علمي وجيه. وربما لم تصل بعض تلك الأحاديث لأحد الأئمة من الفقهاء فحكّم رأيه واجتهد في القضية. ولكن في العموم كان أئمة المدارس الفقهية القديمة جميعاً ودون استثناء يقررون أنه إذا صحّ الحديث فهو مذهبهم ، وأن المتبّع لهذه المدارس إن وجد رأياً لإمام من أئمة هذه المدارس يخالف حديثاً للنبي ﷺ فعليه أن يتبّع الحديث ويضرب برأي إمامه عرض الحائط. ولكن شاخت يتخذ من هذا النقد الموضوعي الذي قام به الشافعي تجاه أصحاب المدارس الفقهية ذريعة لكي يصل من خلالها إلى أن أصحاب تلك المدارس الفقهية القديمة كانوا يعادون السنّة النبوية ويفضلون آراء الصحابة والتابعين عليها.

يرى جوزيف شاخت أن حركة المحدثين في القرن الثاني الهجري جاءت نتيجة طبيعية لاستمرار حركة المعارضة للمدارس الفقهية القديمة ، والتي - أي حركة الحديث - كانت متأثرة بالدين والأخلاق. ويُفهم من هذا الكلام كأن حركة الفقهاء والمدارس "المذاهب" الفقهية لم تكن متأثرة بالدين والأخلاق!! ولكن يتذكر الباحث أن شاخت كان قبل قليل يرى أن المدارس الفقهية خرجت من القضاة وهم "الناس الأتقياء" الذين عيّنهم الخلفاء لتولي القضاء ؛ فالتناقض واضح في مقولات جوزيف شاخت. وحينما ظهرت مدرسة الحديث فإن كافة المدارس الفقهية القديمة قد واجهتها بمعارضة شديدة وذلك لأنها وجدت في الحديث النبوي الجديد!!! عنصراً جديداً وغريباً ومشوشاً عليها!!! ولكن يبدو أن المحدثين قد انتصروا على أصحاب تلك المدارس حيث إنهم استطاعوا فرض عنصرهم الغريب المشوش على الفقهاء ، وأنهم حملوا الفقهاء على مجاراتهم في هذا الوضع فانتصر مبدأ أن الحديث مصدر للتشريع الفقهي مع القرآن ، وأن السنة أصبحت تعني هذا العنصر الجديد وهو الحديث النبوي بعد أن كانت تعني سنة المجتمع التي توارثها الناس عن السلف من الصحابة والتابعين. ولكن من أين ورثها الصحابة والتابعون؟ هذا السؤال البسيط الذي يعرفه كل مسلم يجله أو يتجاهله شاخت عن عمدٍ وسبق إصرار!!!

ومن خلال النقاط السابقة يتضح أن جوزيف شاخت يختزل ويختصر كل تلك الفترة الطويلة التي مرّ بها الفقه الإسلامي - يختزلها في فترة زمنية محدودة للغاية تتمثل في ثلاثين عاماً فقط تنحصر بين سنة ١١٠ هـ وهي السنة التي مات فيها الفقيه عامر الشعبي ، والفقيه الحسن البصري ، ومعلوم أن الحسن البصري كان من كبار التابعين ، بل إن أهل البصرة يعتبرونه أفضل التابعين. وهذا يعني أن الفقه الإسلامي والمدارس الفقهية القديمة لم تكن موجودة إلى ذلك الزمن المتأخر. وإذا كانت المدارس الفقهية قد تكوّنت في حدود سنة ١٤٠ هـ فإن الفترة الزمنية بين سنة ١١٠ هـ وسنة ١٤٠ هـ هي ثلاثون سنة فقط ، وقد شهدت كل تلك التطورات التي طرأت على الفقه الإسلامي.

إن الباحث يجد نفسه أمام مجموعة من الأحداث التي لا يمكن أن تحدث في فترة ثلاثين عاماً فقط. لقد تبنت نظرية شاخت هذه المقولات التي يصعب تصديقها ؛ فليس من المعقول أن تحدث الأمور التالية في هذه المدة اليسيرة :

ولادة المدارس الفقهية القديمة في سنة ١١٠هـ :

تطور هذه المدارس ، وتطور فكرة الإجماع في داخل كل مدرسة على حدة. نسبة أقوالهم إلى الشخصيات الكبيرة الماضية مثل نسبة العراقيين أقوالهم إلى إبراهيم النخعي.

تطور آخر في نسبة أقوالهم إلى شخصيات أسبق زمنياً مثل مسروق. تطور آخر في نسبة أقوالهم إلى الصحابة كنسبة هذه الأقوال إلى عبدالله بن مسعود. تطور آخر في نسبة هذه الأقوال إلى النبي ﷺ. ولادة حزب المعارضة وهم المحدثون الذين عارضوا المدارس الفقهية واخترعوا الأحاديث متوناً وأسانيد. وضع الأحاديث النبوية مفصلةً عن سيرة النبي ﷺ ، ووضع أقواله وأفعاله ، وكذلك وضع سير الصحابة وأقوالهم وأفعالهم. الخصومة والصراع المحتدم بين حركة المعارضة الدينية وبين أصحاب المدارس الفقهية القديمة.

انهزام المدارس الفقهية القديمة أمام حركة المحدثين ورسوخ سلطة السنة النبوية ، وكل ذلك بالطبع نتيجةً لعمل الشافعي. إن هذه الثلاثين سنة آنفة الذكر تمثل سنوات الوضع والتأسيس للفقهاء الإسلاميين ، ويخلص منها الباحث أن جوزيف شاخيت يحذف الفترة الأولى من تاريخ التشريع الإسلامي ، وهي الفترة النبوية ، وينسف الحديث النبوي المروي عن رسول الله ﷺ ، ويحكم على كل التراث الحديثي الذي رواه الصحابة والتابعون بأنه تراث غير حقيقي ومكذوب ومختلق في فترة لاحقة.

كما يلاحظ الدارس أن جوزيف شاخيت قد أخطأ خطأً جسيماً منذ الوهلة الأولى حيث إنه استبعد القرآن الكريم عن دائرة الفقه وعن دائرة الشريعة ، ويعتبر هذا الخطأ من الأخطاء المنهجية غير المقبولة. فكيف لدارسٍ يريد أن يدرس الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي بدون الرجوع إلى القرآن الكريم الذي يحتوي على كثير جداً من آيات الأحكام التشريعية في كل المجالات من أحكام أسرية وجنائية وتشريعات حرب وسلم وعلاقات دولية وقضايا ميراث وبيع ورهن وزكوات وصدقات مالية. إنه لا يمكن لباحث يريد دراسة الفقه

والشريعة في الإسلام أن يتجاهل القرآن الكريم بصرف النظر عن إيمانه أو عدم إيمانه بأن القرآن وحيٌّ من عند الله. يكفي أنه الكتاب الذي يؤمن به المسلمون ، ويأخذون منه تشريعاتهم. ولكن بالرغم من أن الأعظمي اعتبر استبعاد شاخت للقرآن الكريم بمثابة خطأ منهجي كبير إلا أن شاخت قد وضع خط رجعة وأثبت الدور التشريعي للقرآن بخاصة في أمور قوانين الأسرة وتشريعات الميراث. يقول :

[It is true that a number of legal rules, particularly in family law and law of inheritance, not to mention cult and ritual, were based on the Koran from the beginning].^(٧)

إن مظاهر التطرف تبدو بصورة واضحة في هذا المسلك غير العلمي الذي سلكه جوزيف شاخت في تعامله مع المصدرين الأساسيين للتشريع وللغة في الإسلام. إن جوهر النظرية الشاختية يتمثل في فك الارتباط بين الفقه والتشريع الإسلاميين وبين القرآن الكريم والسنة النبوية. لكن من أين جاء المسلمون بهذا الفقه وبهذا التشريع؟! إن الإجابة الجاهزة عند شاخت وعند غيره من متطرفي المستشرقين أن المسلمين جاءوا بالكثير من تلك التشريعات من أهل الكتاب " اليهود والمسيحيين الشرقيين " ، ومن عادات المجتمع العربي وأعرافه الجاهلية. ولكن الدراسات الاستشراقية نفسها لا تنكر التغيير الجذري والأساسي الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي آنذاك ، ولا ينكرون الانقلاب الهائل الذي أحدثه القرآن الكريم وأحدثه النبي ﷺ في معتقدات العرب. وإذا كان الإسلام قد أحدث ذلك الانقلاب العقائدي أفليس من الغريب أن يحدث ذلك الانقلاب في المستوى العقائدي ولا يصاحبه تغيير في المستوى التشريعي القانوني الفقهي؟! هل من العلمية في شيء أن يتحدث الدارس لتاريخ تطور الفقه الإسلامي عن سنة المجتمع التي توارثها الصحابة والتابعون وأصبحت سنة للمجتمع وللمدارس الفقهية بدون أن يناقش أصل القضية وهو من أين جاء الصحابة والتابعون بهذه السنة؟ وهل يستطيع شاخت أن ينفى دور النبي ﷺ في وضع القواعد الأساسية للتشريع الإسلامي؟ وهل يستطيع شاخت أو غيره من المستشرقين أن ينفى العلاقة الوثيقة والصلة الراسخة بين القرآن الكريم وبين السنة النبوية المطهرة؟ وهل

Ibid, P224. ^(٧)

يستطيع أن يقدم دليلاً علمياً واحداً على أن الصحابة والتابعين لم يكونوا على علم ودراية بأن القرآن والسنة هما مصدر التشريع الأساسيين في الإسلام؟! إن جوزيف شاخ لم يستطيع أن يقدم دليلاً علمياً منطقياً مقبولاً على نظريته تلك في كتابيه أنفي الذكر وذلك برغم المكانة السامية التي حظي بها هذان الكتابان وحظي بها شاخ نفسه في الدوائر الاستشراقية الغربية ، وحتى أن بعض كبار المستشرقين وصف نظريته بأنها غير قابلة للدحض ، وأنها سوف تظل أساساً لكل دراسة قادمة عن الفقه الإسلامي وعن الشريعة الإسلامية على الأقل في الغرب كما صرح بذلك المستشرق هاملتون جب.

نقد نظرية شاخ حول الفقه الإسلامي :

لاشك أن المقالة قد لمست شيئاً ولو يسيراً من نقد نظرية شاخ في أثناء استعراض أبرز مظاهر تلك النظرية. لكن لا بد من الوقوف عند حركة نقد الاستشراق بين الدارسين المعاصرين من العرب والمسلمين ، وهي حركة كانت إلى عهد قريب جداً تتسم بالتسرع والانطباعية ، وبعدم التعمق في دراسة كتابات المستشرقين ، والكثيرون من ناقدتي حركة الاستشراق من العرب والمسلمين كانوا ضمن العاملين في الدعوة الإسلامية ، وكانوا يتحركون بمشاعر العاطفة الجياشة دون التسلح الكافي بالأدوات العلمية والمنهجية بل واللغوية التي تمكنهم من فهم مقولات المستشرقين على وجهها الصحيح. لكن في الآونة الأخيرة ظهر جيل من العرب والمسلمين الذين درسوا في الجامعات الغربية ، ولعلمهم تتلمذوا على بعض أولئك المستشرقين ، ولقد تسلحوا بالمنهجية العلمية ، وبأدوات البحث العلمي ، وباللغات التي كتب بها المستشرقون أبحاثهم. ومن هنا جاء نقدهم لكتابات المستشرقين بالصورة العميقة المطلوبة التي كشفت الكثير من الغوامض والمبهات. ولعل أبرز أولئك الناقدتين لحركة الاستشراق وبخاصة لكتابات شاخ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي الذي كتب كتاباً خاصاً تتبع فيه النظرية الشاخية ، كما أنه كتب مجموعة من المقالات العلمية التي شرح فيها نظرية شاخ وبيّن جوانب ضعفها ، وقدم الأطروحات النقدية التي بنى عليها نقده المتمكن لهذه النظرية. وبرغم أن النقد الذي ساقه الأعظمي يحظى

بالأهمية الكبرى وذلك لمكانته في دراسات الحديث والفقهاء إلا أن نقده يحتاج إلى توضيح وبيان في بعض الجوانب.^(٨)

لقد انتقد الأعظمي شاخت من ناحية منهجية علمية وذلك في إبعاده القرآن الكريم من دائرة اهتمامه إذ كيف يتأتى لدارس للفقهاء الإسلامي وللشريعة الإسلامية أن يتجاهل القرآن الكريم؟! وقد اتضح كيف أن شاخت قد أثبت دور القرآن في بعض الجوانب التشريعية. كما أنه وصف القانون الإسلامي بأنه "مقدس"؛ ومن أين جاءت هذه القدسية إن كان القانون الإسلامي لا يرتبط بالقرآن الكريم!!؟

ثم كيف له أن يتجاهل الحديث النبوي، ويحكم ذلك الحكم الجائر وغير العلمي على الأحاديث النبوية بأنها أمر دخيل وغريب ومشوش دخل بدون وجه حق على أصحاب المدارس الفقهية القديمة. والدكتور الأعظمي الهندي الأصل حاصل على الدكتوراة في علوم الحديث من جامعة كمبردج البريطانية، وكان فحوى الرسالة ومضمونها إثبات أن الحديث النبوي كان مكتوباً منذ العهد النبوي ولم يمر بمرحلة شفوية صرفة حتى ظهور حركة التدوين الكبرى وحتى ظهور أصحاب الكتب الحديثية الكلاسيكية. وهو في هذا الميدان أفضل من يرد على شاخت ويدافع عن الحديث النبوي.

لقد ذهب شاخت إلى القول إن أصحاب المدارس الفقهية القديمة كانوا يفضلون آثار الصحابة والتابعين على حديث رسول الله ﷺ بل إنه يقول إنهم كانوا يعادون السنة النبوية، ولكن ظهور الشافعي وقيام حركة المعارضة الحديثية شكّلت عامل ضغط على الفقهاء المتأخرين فأصبحوا يستشهدون بالحديث النبوي ويفضلونه على آثار الصحابة والتابعين عكس ما كان سائداً من قبل. ثم يقدم شاخت جدولاً يتضمن مجموعة من الكتب بعضها متقدم وبعضها متأخر نسبياً في الزمن، ويريد شاخت من هذا الجدول أن يثبت قضيته هذه ولكن الغريب في الأمر أن الجدول لا يقف دليلاً على نظريته بل يقف دليلاً دامغاً ضدها. وليس بالإمكان استعراض الجدول بصورته الكاملة ولكن الصورة الموجزة له تفيد بأن موطاً مالك الأقدم زماناً يتضمن ٨٢٢ حديثاً نبوياً بينما يتضمن ٦١٣ أثراً موقوفاً عن الصحابة

(٨) انظر عبدالمجيد تركي، في مقدمته لتحقيق كتاب أحكام الفصول في أحكام الأصول لأبي الوليد الباجي، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م، ص ٣٠ وما بعدها.

ويتضمّن ٢٨٥ أثراً منسوباً للتابعين. ولا بد من تذكّر أن مالكا هو أحد أصحاب المدارس الفقهية القديمة التي وصفها شاخنت بأنها كانت تعادي السنّة النبوية وفضّل آثار الصحابة والتابعين عليها!! وهذا هو الإحصاء الذي قدّمه شاخنت يكذب زعم شاخنت!!! وأما موطأ الشيباني الذي جاء زمنياً بعد مالك فتتوقع حسب نظرية شاخنت أن تزيد كمية الأحاديث بسبب ضغط المعارضة الحديثة ولكن يخيب هذا التوقع فالأحاديث في موطأ الشيباني ٤٢٩ حديثاً أي أنها تقل عن أحاديث موطأ مالك وهي قريبة عنده من آثار الصحابة [الحديث الموقوف] ٦٢٨ أثراً عن صحابي. وفي آثار أبي يوسف نجد الأحاديث النبوية لا تتعدّى ١٨٩ حديثاً ، وأما آثار الشيباني فأحاديثه ١٣١ حديثاً فقط. إن مُضَيِّ الزمن يؤكّد أن الأحاديث حسب إحصائية شاخنت نفسه في تناقص وليست في تزايد ، وأن عدد الأحاديث في موطأ الإمام مالك وهو أحد أئمة المدارس الفقهية يؤكّد أن مذهب شاخنت الذي يزعم بأن أصحاب تلك المدارس يعادون السنّة النبوية زعم لا يقوم على أساس. ولكن شاخنت يقرر حقيقة ربما تخالف ما ذهب إليه ، ومفادها أن حجة أصحاب المدارس الفقهية في اعتمادهم على أحكام الصحابة أن الصحابة أعلم الناس بأمر النبي عليه الصلاة والسلام. حيث يقول :

[Their common thesis that the companions could not be unaware of the sunna of the Prophet and would know it best, takes its place beside other arguments put forward against traditions of the Prophet].^(٩)

وللمرء أن يعجب من هذا التناقض في هذه العبارة فأولها إيجابي مع السنة النبوية وآخرها سلبي!! فإذا كان أصحاب المدارس الفقهية يأخذون بآراء الصحابة لأنهم أعلم الناس بالنبي فكيف تكون هذه الحجة ضد السنة؟! بل هي تؤكد على أهمية السنة وعلى اهتمام أصحاب المدارس الفقهية بأمرها.

إن فقهاء المدارس الفقهية القديمة ”العراقية والمدنية والشامية“ كلهم يقرون بأنهم يقبلون السنّة النبوية ، ولكنّ شاخنت لا يقبل هذا الاعتراف!! وبرغم اعتماد شاخنت على الشافعي إلا أنه لا يقبل كلام الشافعي عندما يقول إن أصحاب تلك المدارس يتفقون معه في قبولهم للسنّة النبوية. ولكنه يقبل كلام الشافعي حينما يقول إن أصحاب تلك المدارس قد

Ibid, P50. ^(٩)

تركوا مجموعة من الأحاديث!! إن شاخت - كما جاء سابقاً - له رأي سلبي للغاية في الإمام الشافعي مثل اتهامه له بعدم الأمانة العلمية!! وبأنه يزيد في كلام خصومه من عند نفسه!!! وبرغم ذلك أخذ كلامه الذي يفيد بأن أصحاب المدارس الفقهية تركوا بعض الأحاديث وعمّم هذا الكلام بصورة غير علمية واستنبت منه أن هؤلاء الفقهاء يرفضون السنّة جملة واحدة!!! إن شاخت لا يسلك سلوكاً علمياً منضبطاً حينما يأخذ قول الشافعي الذي ينتقد الفقهاء في أنهم يتركون شيئاً سيراً من الأحاديث ثم يعمّم هذه الجزئية البسيطة ويجعلها قاعدةً عامةً. ومن هنا فإن الأعظمي ينتقد هذا الأسلوب بطريقة حادة وساخرة حيث يقول إن شاخت يجعل من ١٪ بسهولة كبيرة ١٠٠٪، وأن الأصفار على اليمين لا قيمة لها عنده!!!

ومن أبرز الآراء المتطرفة عند شاخت اعتباره أن المعتزلة هم الفئة المتطرفة في معاداة الأحاديث النبوية، وبرغم أن كبار المعتزلة ينفون عن أنفسهم هذه التهمة إلا أن شاخت يصر على هذا الرأي؛ فالخياط المعتزلي الذي ألف كتابه "الانتصار" قبل سنة ٣٠٠هـ يورد فيه مجموعة من النقول عن كبار معتزلة القرنين الثاني والثالث الهجريين تفيد بأنهم يلتزمون بالسنّة. يرفض شاخت ذلك ويقول إنه لا يعبر عن موقف المعتزلة ولا يمثلهم. ويبدو أن شاخت أخذ رأيه هذا من بعض كتابات ابن قتيبة [ت ٢٧٦هـ]، وابن قتيبة خصم للمعتزلة وهو يشير إلى مواقف بعض المعتزلة من أهل الكلام. وفي حقيقة الأمر فإن المعتزلة كانوا ينقسمون إلى فرق كثيرة وذلك لأنهم يقدمون العقل ويحكمونه فربما وجد منهم من يعترض على بعض الأحاديث والسنن.^(١٠)

إن الأعظمي يقف موقف الناقد الشديد لمسلك شاخت من المدارس الفقهية، وهو أنه يعتبرهم مخالفين للحديث رافضين للسنّة النبوية معتمداً على نصوص يسوقها من كتب الشافعي غير أن تلك النصوص لا يمكن أن تساعد على هذا الاستنتاج. ولا يُدرى هل يعاني شاخت من عدم فهم النصوص العربية أم أنه يتعمد عدم الفهم ومن ثم يخرج بتلك النظريات الغريبة؟! يقول شاخت بوضوح كامل: إن العراقيين ينزلون السنة النبوية في

Ibid, P 41. (١٠)

المنزلة الثانية بعد آثار الصحابة ، ويقول : هذا واضح من كتابات الشافعي . ولكن النص الذي ساقه واقتبسه من الشافعي لا يمكن أن يفهم هذا الفهم!!

وها هو نص الشافعي : ” وهم يزعمون أنهم لا يخالفون الواحد من أصحاب النبي ﷺ ، وقد خالفوا حكم عمر ، ويزعمون أنهم لا يقبلون من أحد ترك القياس ، وقد تركوه ، وقالوا فيه قولاً متناقضاً“ انتهى نص الشافعي .

قبل الحديث عن مضمون هذا النص لماذا يستشهد شاخت بالشافعي مع رأيه السلبي فيه؟! ولماذا لا يستشهد بأقوال الفقهاء العراقيين أنفسهم الذين يقولون ويكررون القول : ” لا حجة في أحد مع النبي ﷺ“؟! وهل هذا النص الذي استشهد به شاخت من كلام الشافعي يحمل في طوإياه أن العراقيين يجعلون السنة النبوية في المرتبة الثانية بعد آثار الصحابة؟!

أما موقف شاخت من المدرسة المدنية بزعامة مالك فهو موقف غريب للغاية . يقول شاخت عنهم : إنهم استعملوا السنة النبوية في قضايا كثيرة ، وأهملوها وتجاهلوها في أحوال كثيرة!!! وللباحث أن يسأل ما هي هذه الأحوال الكثيرة التي خالف فيها مالك رأس المدرسة المدنية السنة النبوية؟! لقد احتوى موطأ مالك على ٨٢٢ حديثاً وترك العمل بثلاثة أحاديث فقط . وروى ٦١٣ أثراً عن الصحابة وترك العمل بعشرة منها فقط!!! برغم هذه الإحصائية الواضحة لكل ذي بصر وبصيرة فإن شاخت يعتبر أن المدنيين لا يعتمدون على السنة النبوية في بحوثهم الفقهية ، وأن الاعتماد على العمل هو وحده الذي ينون عليه استدلالاتهم الفقهية حتى جاءهم الشافعي وغير عندهم هذا الاتجاه.^(١١)

إن تطرف شاخت قد جعله متخصصاً في عدم فهم النصوص واستنطاقها بما لا تحتمل من المفاهيم . وهنا نص آخر يفهم منه شاخت فهماً عجيباً مفاده أن الناس قبل حركة المحدثين كانوا يفضلون آثار الصحابة على حديث النبي ﷺ . النص يرويه معمر عن صالح بن كيسان : ” قال معمر : أخبرني صالح بن كيسان قال : اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا : نكتب السنن . قال : وكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ . قال ” يعني صالح“ : ثم قال ” يعني الزهري“ : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة . قال ” الراوي وهو معمر“ :

Ibid, P22. ^(١١)

قلت " يعني صالح " : إنه ليس بسنة فلا نكتبه. قال " صالح " : فكتب ولم أكتب فأنجح وضيّعت " انتهى النص. (١٢)

كل ما يمكن فهمه من هذا النص أن صالحاً بن كيسان والزهري قد طلباً العلم سوياً وكتبنا حديث رسول الله ﷺ ، وبعد أن انتهيا من كتابة الحديث اقترح الزهري على صاحبه أن يكتب آثار الصحابة لأنها من السنة ، ولكن صالحاً لم يقبل هذا الاقتراح واكتفى بكتابة الحديث النبوي وترك كتابة آثار الصحابة بينما واصل الزهري كتابة آثار الصحابة. وكان تعليق صالح بن كيسان على ذلك بأن الزهري قد نجح وأنه " أي صالح " قد ضيّع !!! هذا كلام واضح كل الوضوح ولا يحمل أبداً تفضيل آثار الصحابة على السنة النبوية المطهرة. لكن كيف فهم شاخت من النص هذا الفهم الغريب فهذا هو السؤال. ولماذا يستنبط جوزيف شاخت من النصوص ما ليس فيها فهو التحامل على الإسلام والتطرف والعصبية الاستشراقية؟ أم هو الجهل وعدم المعرفة باللغة العربية التي كتب بها أولئك العلماء والفقهاء المسلمون؟! ولعله من المستبعد أن يكون شاخت المستشرق المتضلع وتلميذ إجناس جولدزيرر جاهلاً باللغة العربية. بل إن المتبّع لكتابات شاخت يجد فيها الاجتهاد والعناء والتنقيب والبحث المضني ولكنه يسير بعد كل ذلك البحث الشاق في طريق غير قويم ، وفي صراطٍ غير مستقيم!!! لكن ما القول إذا كان هذا النص ينسف نظرية من جذورها ويأتي على قواعدها بصورة تامة. إن شاخت يصر على أن حركة المعارضة الحديثة كانت في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأن صناعة الأحاديث من ناحيتي المتون والأسانيد إنما جاءت متأخرة. ولكن هذا النص المروي عن صالح بن كيسان والزهري يؤكد أن حركة كتابة الحديث وجمعه وتدوينه كانت مستمرة منذ القرن الأول ؛ فالزهري من مواليد الخمسينيات في القرن الأول الهجري وهو من طبقة شيوخ مالك بن أنس. إن شاخت الذي ساق هذا واستشهد به على أمر لا يتواءم معه لا بد أن يكون مقتنعاً بصحته وإلا لما استشهد به. والنص يخالف نظرية شاخت بصورة جليّة حيث إن شاخت يقول إن كل الأحاديث النبوية قد وُضعت في القرنين الثاني والثالث الهجريين. (١٣)

(١٢) الأعظمي ، مصدر سابق ، ص ٩١ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٩٢ .

جاء في نقد الدكتور الأعظمي لشاغت أن شاغت يزعم أن الناس كانوا يعتقدون أن آراء الصحابة كانت تتوافق مع أحكام رسول الله ﷺ . ويبدو أن هذا القول بصورته هذه ليس فيه غرابة ، وليس فيه ما ينتقد. ولعل الأعظمي لم يستطع التعبير بوضوح عن مضمون كلمات شاغت. إن اتفاق آراء الصحابة مع أحكام رسول الله ﷺ وقضاياه هو من الأمور الطبيعية ، وهذا بالفعل ما استخرجه الأعظمي من النص في نهاية دراسته له مما يؤكد أن التعبير هنا لم يكن دقيقاً. ولكن شاغت يريد القول إن الناس كانوا ينسبون آراء الصحابة إلى رسول الله ﷺ ، وهو قد فهم هذا الفهم من نص لا يحمل هذا المعنى بل يحمل المعنى الإيجابي وهو اتفاق آراء الصحابة مع أحكام النبي عليه الصلاة والسلام حتى ولو حكموا باجتهادهم ولم يعرفوا حكمه عليه الصلاة والسلام في القضية. وقد حدث ذلك لابن مسعود رضي الله عنه حينما سألوه عن الحكم الشرعي في قضية بعينها فقال إنه لا يعرف فيها حديثاً عن رسول الله ﷺ فسأله الناس عند ذلك أن يحكم فيها باجتهاده فحكم باجتهاده ورأيه ، وعند ذلك قام رجل من حاضري المجلس وقال إنه سمع أن رسول الله ﷺ قد حكم في مثل تلك القضية بمثل الحكم الذي حكم به عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وتقول الرواية إن ابن مسعود قد فرح فرحاً شديداً بكلام هذا الرجل أي أنه فرح بأن يتوافق حكمه الاجتهادي مع حكم رسول الله ﷺ . وليس هذا بمستغرب وذلك لأن الصحابة تربوا على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعلموا في مدرسته النبوية ومن ثم فليس بغريب أن تتوافق اجتهاداتهم مع أحكامه عليه الصلاة والسلام.^(١٤)

ومن أبرز الآراء المتطرفة التي نادى بها جوزيف شاغت أنه نسب الوضع إلى الإمام الأوزاعي إمام مدرسة أهل الشام ؛ فقد زعم شاغت أن الأوزاعي ” كان يميل إلى أن ينسب كل ما يجده من تعامل المسلمين في عهده إلى النبي ﷺ “ ” ... ويعطيه السلطة النبوية سواء كانت له أحاديث تؤيده أم لا ... “ وهذا يعني ببساطة شديدة أن الأوزاعي كان وضاعاً للحديث.^(١٥) وهذه التهمة الكبيرة لم يوصف بها الأوزاعي حتى من قبل خصومه ومن أبرزهم القاضي أبو يوسف وهو الذي كان يرد على اعتراض الأوزاعي على خمسين قضية من القضايا

(١٤) الأعظمي ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(١٥) Ibid, P72.

التي خالف فيها الأوزاعي أبا حنيفة. ومن خلال ردود أبي يوسف على الأوزاعي تبين دقة الأوزاعي حيث كان يبين بوضوح كل قول وينسبه إلى صاحبه ؛ فهو نسب بعض القضايا إلى النبي ﷺ نفسه ، ونسب قضايا أخرى إلى الخلفاء بتفصيل دقيق ، ونسب قضايا أخرى إلى عمل المسلمين وقادتهم ، ونسب قضايا أخرى إلى استنتاجه ، ونسب أخرى إلى اجتهاداته ، ولم يذكر شيئاً في واحدة من تلك القضايا. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأوزاعي إمام أهل الشام كان ذا منهجية علمية دقيقة ومضبوطة ، وكان يتسم بالأمانة العلمية ، وكان ينسب كل قول إلى قائله ؛ ومن هذا فإن القول بأن الأوزاعي كان ينسب عمل المسلمين في عصره إلى النبي ﷺ قول تكذبه الوقائع ، وأن جوزيف شاخت قد أعظم الفرية على هذا الإمام الجليل ونسبه إلى الكذب والافتراء على النبي ﷺ دون وجه حق.

وأما المقولة المتطرفة الأخيرة هنا - فهناك آراء متطرفة كثيرة غيرها - فهي قوله بأن الأسانيد المتصلة بالأحاديث النبوية مصنوعة صناعةً وموضوعة وضعاً بطريقةً اعتباطية!!! ويستدل على ذلك بحديث أورده الإمام مالك في الموطأ بروايتين ، والحديث هو أن النبي ﷺ سُئِلَ عن الضب فقال : لست بأكله ولا محرّمه. والروايتان اللتان وردتا في الموطأ هما :

رواه مالك مرةً عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ .

ورواه مرةً أخرى عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ .^(١٦)

وجوزيف شاخت يعتبر هذا نوع من الوضع الاعتباطي للأسانيد!!! بل إنه يقرر بصورة حاسمة : [The Isnad were often put together very carelessly]^(١٨)

إن الدارس المبتدئ لعلم الحديث وعلم تراجم الرجال بصورة خاصة يعلم أن نافعاً وأن عبدالله بن دينار من موالى عبدالله بن عمر. أما نافع فقد عاش في المدينة النبوية لأكثر من ستين عاماً ، وأنه قضى ثلاثين سنةً في خدمة مولاة عبدالله بن عمر. وأما عبدالله بن دينار فهو الآخر قد قضى زمناً ليس باليسير في المدينة ، وقضى زمناً في خدمة عبدالله بن عمر. وليس هناك ما يمنع هذين الجليلين من سماع شيء مشترك من ابن عمر. كما أنه ليس بمستغرب أن يسمع مالك هذا الحديث من الرجلين ، وليس بغريب أن يورده في كتابه مرةً بروايته له عن

(١٦) الأعظمي ، مصدر سابق ، ص ١٠٥ .

(١٨) Schacht, op, cit, P163.

نافع ، وأن يورده مرةً أخرى بروايته له عن عبدالله بن دينار ، وذلك أن إيراد الحديث بروايتين اثنتين يعطيه مزيداً من القوة. ومما يزيد الأمر قوة أن سفيان بن عيينة المكي قد رواه أيضاً عن عبدالله بن دينار. وأورد الشافعي في ” الأم “ : أخبرنا الشافعي ” طبعاً الشافعي يميل على الكاتب “ ، وهذا ما جعل الأمر مشكلاً على بعض الباحثين حتى دفعهم للقول إن كتاب ” الأم “ ليس من تأليف الشافعي!!! عودة إلى متابعة الإسناد : قال : أخبرنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ ... الحديث ” وهو حديث الضب “. وهذه الأسانيد تقوي ما ذهب إليه مالك ، ولا تترك مجالاً للقول إن الأسانيد كانت تركب بصورة اعتباطية كما ذهب إلى ذلك جوزيف شاخ. ومن المعلوم لدى دارسي أسانيد الأحاديث النبوية أن هذا الإسناد الذي صوّب إليه جوزيف شاخ سهامه لهو من أجلّ الأسانيد عند المسلمين حيث إنهم يصفون هذه السلسلة بأنها ” السلسلة الذهبية “ ، وهي رواية مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ . وكيف يطلب شاخ من أولئك الفقهاء أن يستشهدوا بأحاديث هو نفسه يقول عنها إنها لم تُتخّرع إلا في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأن الشائع في معنى السنّة عند أولئك الفقهاء القدامى هو ” سنة المجتمع “ أو ” الأمر المجتمع عليه بين الناس “!!^(١٩) فمن أين يأتيه أولئك الفقهاء بالأحاديث!!!؟

ولعل من أهم الأمور التي ينبغي ذكرها هو المنهج والطريقة التي اعتمدها شاخ لمعرفة مدى صحة الحديث النبوي. ولكن يتذكر الدارس أن شاخ نفسه يقول بأنه لا يصح حديث واحد من الأحاديث الفقهية المنسوبة إلى النبي ﷺ ، وهو الذي يقول إن الأحاديث قد وضعت في فترة متأخرة أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأن السنة لم تكن تعني إطلاقاً سنة النبي ﷺ ، وأن هذا المصطلح إنما ظهر بعد الحركة التي قام بها الإمام الشافعي وهي الحركة التي أسماها شاخ بحركة المعارضة الحديثية. بعد كل هذه الآراء المتطرفة التي حاولت نسف القواعد التشريعية الإسلامية وبخاصة حاولت نسف الحديث النبوي نجد أن شاخ يعود ليضع منهجاً لمعرفة الأحاديث النبوية الصحيحة!!! ولكن ما هو هذا المنهج؟! إن شاخ يضع قاعدةً غريبةً كل الغرابة ، ولم يعرفها علماء الحديث الراسخون في هذا العلم!!! إن قاعدة شاخ تقول : ” إن عدم الاستشهاد بالحديث في الموضوع الذي ينبغي أن

Ibid, P 62. ^(١٩)

يُستشهد به على القضية موضع النقاش فإن هذا يعتبر دليلاً على عدم وجود هذا الحديث أصلاً!! وبمعنى آخر فإن الحديث الذي لا يذكره الفقهاء الأقدمون في مواضع الاستشهاد فهذا يعني أن هذا الحديث لم يكن موجوداً في تلك اللحظة ، وإذا ظهر ذلك الحديث في مصدر متأخر فهذا يعني أن الحديث قد وضع في الفترة الزمنية المنحصرة بين المصدر الأقدم الذي لم يُذكر فيه الحديث وبين المصدر الأحدث.

إن هذه القاعدة التي وضعها جوزيف شاخت لا تستقيم ولا تصمد أمام النقد العلمي ، وذلك لعدة أسباب أهمها : أن شاخت جعل أصحاب المدارس الفقهية القديمة حكماً على صحة الحديث بمعنى آخر فإن شاخت يقول إن الحديث الذي لم يذكره أصحاب المدارس الفقهية في مناقشاتهم العلمية فهذا دليل على أن هذا الحديث لم يكن موجوداً في زمنهم. ولكن كيف يستقيم لشاخت أن يجعل أصحاب تلك المدارس معياراً لصحة الأحاديث النبوية وهم الذين وصفهم شاخت بأنهم كانوا يتصفون بميلهم إلى معاداة السنة النبوية ويفضّلون آثار الصحابة والتابعين عليها؟ فإذا كانوا كذلك فلماذا يتوقع منهم شاخت أن يستشهدوا بالأحاديث النبوية على فقههم؟! وأما إذا كان شاخت يتوقع بصدق أن يورد هؤلاء أحاديث النبي ﷺ في معرض مناقشتهم للقضايا الفقهية فعند ذلك يتوجب على شاخت أن يسحب ذلك الاتهام الذي ساقه ضدهم دون دليل أو برهان.

ولكن حتى إذا كان أولئك الأئمة من فقهاء المدارس الفقهية القديمة لا يتسمون بمعاداة السنة النبوية فليس من الواجب أن يذكر الواحد منهم الدليل على قضيته من السنة النبوية أو من القرآن الكريم. والناظر لكثير من كتب الفقه يجد أن الفقيه يذكر الحكم في القضية دون أن يذكر الدليل الذي استند عليه.

وهل كان أصحاب تلك المدارس محيطين بكل الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ؟! والإجابة بالطبع لا ؛ فبعضهم لم يسمع ببعض الأحاديث أو بالكثير منها ، وبعضهم إذا سمع بها ربما لا يصح عنده إسنادها فينصرف عنها إلى رأيه واجتهاده.

إن قاعدة شاخت تحتم عليه أن يقدم الدليل والبرهان على أن أصحاب المدارس الفقهية قد أحاطوا علماً بكل الأحاديث التي نطق بها النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا غير ممكن.

ثم عليه أن يقدم الدليل والبرهان على أن الفقهاء يذكرون كل الأدلة التي يعرفونها حينما يناقشون قضاياهم الفقهية ، وهذا أمر يتعذر على شاخت أن يفعله؟
ثم عليه أن يقدم الدليل والبرهان على أن كل الكتب التي صنفها الأقدمون قد وصلت إلى هذا العصر أو العصر الذي كتب فيه جوزيف شاخت كتبه وأخرج فيه نظرياته ، وهذا بدوره من الأمور غير الممكنة.

لقد امتدح الغربيون شاخت ، وأثنوا على نظريته ثناءً واسعاً ؛ فهذا هاملتون جب يصف كتاب شاخت بأنه سوف يكون أساساً لكل دراسة عن الشريعة الإسلامية بخاصة في الغرب. ولقد أثرت نظرية شاخت في عدد من المستشرقين ودارسي الشريعة الغربيين من أمثال ” كولسون“ برغم الانتقاد الذي وجهه ” كولسون“ لمقولات شاخت.^(٢٠)

خاتمة :

وصفوة القول إن دراسة شاخت للفقهاء الإسلامي برغم الشمول والإحاطة والموسوعية التي اتسمت بها إلا أنها جاءت قاصرة وبعيدة عن المنهجية العلمية ، ولا يعفيه اعتذاره في بداية الكتاب أن السلطات المصرية منعت في سنة ١٩٣٩م من العودة إلى منزله في القاهرة ومن ثم لم يتمكن من الوقوف على عدد كبير من المصادر الموجودة بمكتبته الخاصة خاصة كتاب الحجج للشيباني وكتاب السنن للشافعي. ويحتاج كتابا شاخت ” أصول الشريعة المحمدية“ و” مقدمة للقانون الإسلامي“ إلى مزيد من الدراسة النقدية التي تؤكد عدم اتساق نظريته ، وعدم مقدرتها على الصمود في وجه النقد خاصة وأنها جاءت متصادمة مع كثير من الدراسات الفقهية القانونية التي أجراها المسلمون والمستشرقون على حد سواء.

^(٢٠) انظر مقالة النظام القانوني الإسلامي في الدراسات الاستشراقية المعاصرة - دراسة لمنهج المستشرق نوبيل ج . كولسون ، للدكتور محمد سليم العوا ، ضمن مناهج المستشرقين المشار إليها أعلاه ، ص ٢٥٣ وما بعدها.

المراجع :

- (١) أبو الوليد الباجي ، إحكام الفصول في أحكام الأصول ، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبدالمجيد تركي ، المجلد الأول ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٥م. استعرض المحقق في مقدمته نظرية جوزيف شاخت بصورة وافية.
- (٢) الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، المستشرق شاخت والسنة النبوية ، مقال منشور ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول ، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٥م ، ص ٦٣ إلى ص ١١٠.
- (3) Joseph Schacht , The Origins of Muhammadan Jurisprudence, Oxford, At the Clarendon Press, Oxford University Press, Ely House, London W.i First Published 1950 (1953,1959,1967).



منابع التطرف وأسبابه ”دراسة في الحالة الإفريقية“

د. الصادق محمد آدم سليمان

جامعة النيل الأزرق - كلية التربية، قسم اللغة العربية، الدمازين

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٧٢-١٤٥)

ملخص الدراسة :

وتدور هذه الدراسة حول فلك النزاع والاختلاف والتفرق والتطرف والتنازع والتجاذب الحزبي والافتتال الطائفي والإثني الذي ضرب بأطنابه جميع زوايا القارة الإفريقية ، فحولها إلى مستنقع للصراعات ، فصارت أشلاء ، بعد أن كانت تحتوي على كل عناصر القوة والازدهار ، وكان السبب في كل ذلك الدور الخسيس الذي لعبته القوى الاستعمارية بممارستها سياسة فرق تسد حين تدخلت في شؤون هذه القارة فأحدثت هذا التفرق والتطرف بين الأمة الإفريقية ، بفعل الأحزاب السياسية المستوردة بخلفياتها الأيديولوجية سواء كانت ليبرالية أم سلطوية أم شمولية تعددية ، أو أحادية التي خلقت البلبلة والاضطراب ، وخرقت النسيج الاجتماعي والثقافي للشعب. وعلى صعيد آخر ؛ فقد أفضت السياسة البراجماتية البريطانية إلى ظهور النزعات الإقليمية والعرقية ، وذلك بإعطاء الاستعمار البريطاني تنازلات كبيرة لصالح المستوطنين البيض مما أثار التطرف وخلق مشكلات جمة للمواطن الأفريقي ، ولندكر نظام التفرقة العنصرية في جنوبي إفريقيا.

وشهدت القارة الإفريقية تسييساً للظاهرة الإثنية ، من حيث تشكيل الأحزاب السياسية على أسس إثنية وما ترتب على هذا الأمر من تمثيل المصالح والتعبير عنها ، بل وتوزيع الثروة والسلطة وفقاً لهذه الأسس.

كما اتبع الاستعمار سياسة "فرق تسد" ، وأعلى من شأن جماعات إثنية معينة على حساب الجماعات الأخرى التي ربما لا تمثل الأغلبية.^(١) كما مارس المستعمر عمليات تهجير قسري لبعض الجماعات الإثنية خارج مناطقها الأصلية ، وذلك لخدمة مطامعه على حساب الاعتبارات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية لتلك الجماعات.^(٢)

وهذه الدراسة تحاول قراءة منابع وأسباب هذا التطرف وربطها بأسبابها .

والله ولي التوفيق ، ، ، ، ،

^(١) مثل جماعة التوتسي في رواندا ، والتي تمثل ١٥٪ من السكان ، والتي فضلتها بلجيكا على جماعة الهوتو التي تمثل ٨٥٪ من السكان!

^(٢) ومن ذلك تهجير بلجيكا للآلاف من المزارعين من جماعتي الهوتو والتوتسي من رواندا إلى شرق الكونغو منذ العام ١٩٣٧ م ، وهو الأمر الذي جعل الشرق الكونغولي منذ ذلك الحين بؤرة للتوترات السياسية والأمنية ، ونقطة انطلاق للحروب الأهلية في البلاد!

محاوير الدراسة :

عن إفريقيا حدث ولا حرج ، فقد ظلت مختبرا لنظريات الاستعمار الاقتصادية والسياسية والثقافية في بشاعة لم يحدث لها مثيل في التاريخ القديم و لا الحديث. ففي عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥م انعقد مؤتمر برلين لتقنين الاستعمار والتهافت على خريطة إفريقيا - Scrambling for Africa - فانهمرت بعده الشركات الاحتكارية على أشلاء القارة المنهكة.^(٣)

ومن جراء ذلك عانت القارة الإفريقية بشدة من التفرق والتطرف وما ترتب عليه من اقتتال وفقر ومرض وصراعات إثنية أخذت أشكالاً عديدة من التطرف وانتهاك حقوق الإنسان ، وخاصة ملازمة لتلك الصراعات ، وكان المستعمر أداة رئيسة من أدوات إدارتها ، وفي هذا السياق تشير الدراسات إلى وجود خمسة أشكال أساسية لهذه التطرف ؛ هي : الإبادة الجماعية ، وانتهاك حقوق الإنسان الأساسية ، وانتهاك الحريات المدنية ، وانتهاك الحقوق السياسية ، والتمييز الإثني والاجتماعي^(٤) ، وتردي الوضع الاقتصادي ، وانتشار البطالة والفساد الموجود في النخبة السياسية ؛ ومما زاد الأمر سوءا استخدام بعض السياسيين الانقسامات العرقية والطائفية من أجل الوصول للسلطة ، وذلك عن طريق إثارة الاضطرابات العرقية والدينية ، مما يعطي الفرصة للتيارات الدينية المتطرفة كي تنشط بقوة ، على أساس أنها تدافع عن دينها وعقيدتها.

وانعكس ذلك على جميع نواحي حياة الإنسان الإفريقي ، وتحاول الدراسة أن تتناول العوامل والآثار المترتبة على الخلاف والتطرف في إفريقيا من خلال المحاور الآتية :

- المحور الأول : المنابع والأسباب السياسية .
- المحور الثاني : المنابع والأسباب الاجتماعية .
- المحور الثالث : المنابع والأسباب الفكرية الثقافية.
- المحور الرابع : المنابع والأسباب الاقتصادية.

^(٣) زاهر رياض. استعمار إفريقيا. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص : ١٣٢ - ١٣٨ .

^(٤) د. أيمن السيد شبانة (*) الصراعات الإثنية في إفريقيا .. الخصائص - التداييعات - سبل المواجهة ٢٠ فبراير ٢٠١٤ - مقال في الانترنت.

تمهيد :

دعت نصوص قرآنية كثيرة إلى الوحدة وعدم التطرف ونبذ التفرق ، قال تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ [آل عمران : ١٠٣]. قال ابن كثير : وقوله "ولا تفرقوا" أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة.^(٥)

وقوله تعالى : ﴿... أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ [الشورى : ١٣]. هذا إضافة إلى نصوص نبوية تأخذ بالنفوس إلى الوحدة والتعاون والتكاتف وعدم التفرق.

وقد كانت قيادة الأمة الإسلامية في عصور العزة والتمكين ؛ موحدة مصونة من الانشقاق والتطرف ، يدين لها جميع الأمة بالسمع والطاعة والولاء والنصرة ، دلالة فعلية على الوحدة. وكان كل قول أو فعل يؤدي إلى شق العصا وتفريق الكلمة ؛ جريمة يعاقب عليها ، وكل تنظيم خارج على إمام المسلمين يعد من "الخوارج" ويحكم فيهم بحكم الله ورسوله ، كما في قوله ﷺ " من أتاكم وأمركم جميع ، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه"^(٦).

إن أي مجتمع إسلامي لا بُدَّ أن يقع له من الأزمات والصعوبات ما يستوجب اختلاف وجهات النظر ، ولكن عندما يحل الانفعال والتعصب محل العقل ؛ فإن أي حوار حينئذٍ سيسير به الهوى والتهاثر والسباب ، وتراشق بالشعارات ، وانتصارٍ للاتجاهات ، فحينئذٍ تقع داهية التفرق والتناحر ، فتنتلق وقتها حملات التشهير والتطرف ؛ فيصبح الخلاف في الرأي حينئذٍ انشقاقاً مذموماً ، يستحيل حينئذٍ معه الحوار البناء المثمر صلاحاً وإصلاحاً.

أما في الحالة الإفريقية فالتطرف له أبعاد كثيرة ومختلفة ، سياسية ، واقتصادية وثقافية ، ودينية ، وكان مثيرها وعاملها الأول هو المستعمر .

فقد تنافس الأوروبيون بشراسته للسيطرة على إفريقيا خلال القرن التاسع عشر. وبدأوا في إنشاء محطات تجارية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. وبحلول بداية القرن العشرين ، توزعت القارة تماماً إلى مناطق نفوذٍ استعمارية. لقد قاوم الإفريقيون الحكم الاستعماري منذ بدايته ، غير أن المطالبة بالاستقلال لم تأخذ شكل الحركة

(٥) تفسير ابن كثير : ٣ / ٥٣٩ .

(٦) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين : ٣ / ١٤٨٠ .

الشعبية إلا في أواسط القرن العشرين. وقد حصلت (٤٧) مستعمرة على استقلالها في الفترة بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٨٠م ، غير أن القادة في معظم هذه الدول الحديثة الاستقلال لم يكن بوسعهم معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي ظلت قائمة بعد الاستقلال. ونتج عن ذلك أن انقلب قادة عسكريون على بعض تلك الحكومات وأطاحوا بها وأحلُّوا محلَّها أنظمة استبدادية عسكرية. وأصبح نظام الحزب الواحد هو قاعدة الحكم في عددٍ آخر من البلدان. أما في وقتنا الحالي ، فإن التنافس العرقي والخلافات الإقليمية بين الدول تشكل عبئاً أمام استقرار إفريقيا ، إضافة إلى ذلك ، فإن هناك مشاكل الضغط السكاني والفقر والمجاعة والأمراض ، وهي أكبر التحديات أمام القادة الإفريقيين.

فالأثار العامة للنظم الإدارية الاستعمارية في أفريقيا تمثلت أولاً في خلق مشكلة الحدود السياسية بين المستعمرات ، وربط إفريقيا بمنظومة علاقات الغرب ، وخلق نظم التفرقة العنصرية ، وانتهاك حقوق الإنسان الإفريقي ، مما ترك آثاراً متباينة على القارة أدت إلى تفرقها وتشردمها ومن ثم ظهور التطرف فيها.

المحور الأول

المنابع والأسباب السياسية للاختلاف والتطرف في إفريقيا

لقد أتى على القارة الإفريقية وشعوبها حين من الدهر ، عانت فيه العسف وشتى صنوف القهر والإبادة والتمييز العرقي الذي فرضه عليها الاستعمار.^(١) والحديث عن الاستعمار حديث عن علاقات غير متكافئة بين أفريقيا وبين أوروبا التي تهافتت - بقوة السلاح - على باقي قارات العالم وشعوبه ، وبقوة التخريب لا بقوة التشييد تمكنت من إخضاع هذه الشعوب وتسخيرها لمآربها وفرضت عليها نظماً وأفكاراً كانت بمثابة نقطة تحول أدت إلى التفرق الإفريقي ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو الأفكار والأيدلوجيات المستوردة المتمثلة في الآتي :

^(١) من كتاب " لمحات من تاريخ أفريقيا " تأليف - باسل ديفد سون ترجمة مركز البحوث والدراسات الأفريقية -

الأحزاب والأيدلوجيات :

شهدت إفريقيا مجموعة من الممارسات الفكرية بعضها استند إلى إرث محلي أبرزها نظام الحزب الواحد ذي القاعدة الجماهيرية ، وكانت تمثله المجتمعات التقليدية ، وقد نجح نظام الحزب الواحد في تلك الفترة في تحقيق نجاحات كبيرة ، ولكنه فشل في تحقيق أي نجاحات تذكر في ظل الدولة الإفريقية الحديثة أو المعاصرة أو في تحقيق الوحدة الوطنية . وقد شهدت إفريقيا نماذج لممارسات سياسية استجلبت من خارج إطارها الجغرافي ، وأبرزها الانقلابات العسكرية التي لم تعرفها النظم الإفريقية التقليدية ، ولكنها انتشرت عقب عام الاستقلال الأفريقي [١٩٦٠م] واستطاعت أن تعبر عن تطلعات النخب الفكرية والسياسية آنذاك.^(٨) وقد اختلفت نظم الإدارة الاستعمارية في إفريقيا بشكل واضح ، ومن ثم تركت آثارا متباينة ، فقد تعامل البريطانيون والألمان بشكل عام على أن مستعمراتهم تمثل وحدات كاملة ، ومن ثم تعاملوا مع كل منها بشكل منفصل.

ومن جهة أخرى فإن الفرنسيين والبرتغاليين نظروا إلى مستعمراتهم على أنها تمثل جزءا لا ينفصل عن الدولة الأم ؛ يعني ذلك ببساطة شديدة أنها مجرد مقاطعات فيما وراء البحار ، ولقد اتبعت فرنسا نظام الحكم المباشر الذي يعتمد على مركزية فرنسية واضحة في إدارة مستعمراتها ، وإلى جانب ذلك طبقت سياسة ثقافية استهدفت نشر قيم وتراث الثقافة الفرنسية ، وقد بدأ تطبيق هذه السياسة في بادئ الأمر طبقا لمبدأ الاستيعاب **Assimilation** أو الفرنسية الجماعية ، وهي تقوم على فرض اللغة والحضارة والمفاهيم والنظم الفرنسية على الحياة الإفريقية حتى يصبح الأفارقة فرنسيين في كل شيء فيما خلا لون جلودهم. بيد أن التجربة أثبتت فشل خطة الفرنسيين في فرنسة الأفارقة ، وعليه فسرعان ما تبنت فرنسا سياسة جديدة أطلق عليها اسم : فرنسة النخبة ، لخلق نخبة إفريقية مثقفة قادرة على قيادة مجتمعاتها وتصبح بمثابة الوسيط بين الرسالة الحضارية الفرنسية والشعب الإفريقي المتخلف مما خلق الفرقة بين النخبة والشعب.

^(٨) أسامة على زين العابدين . المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطية في إفريقيا المعاصرة ، المرصد الثقافي ، ورقة منشورة في أعمال ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا ، الجزء الأول ، ص : ١٣٨

ومن أهم مظاهر التفرق السياسي بين الأفارقة تبني الأيدلوجيات الغربية وهي :
أولا : النظام الديمقراطي المتعدد الأحزاب :

أورث الاستعمار الأوربي كثيرا من المستعمرات في أفريقيا نظما ديمقراطية على النمط الغربي ، ورغم أنها حققت نجاحات مقدرة للمجتمعات الغربية ، إلا أنها كانت وبالا على المجتمع الإفريقي إذ لم تتح لها الفرصة الكافية لتحقيق انجازات تذكر عند تطبيقها في إفريقيا ، ويعزى ذلك إلى تحوف القادة الأفارقة من آثارها السالبة على النسيج الاجتماعي للشعوب الإفريقية ، وأشاروا إلى عدم تهيئة البيئة الإفريقية لمثل هذا النمط من الممارسة السياسية رغم أنهم جاءوا إلى قمم الحكم في دولهم على ذلك النمط من الممارسة الديمقراطية ، وهم بذلك جعلوا نجاح الديمقراطية يتطلب مقدمات وشروطا لم تستوفها إفريقيا آنذاك.^(٩)

ومنذ بداية التسعينيات بدأت معظم الدول الإفريقية تتجه نحو الأخذ بنظام التعددية الحزبية تحت وطأة ضغوط داخلية وخارجية في ظل فشل الأنظمة السياسية التي سادت إفريقيا ، والانبهار للتجربة الماثلة الآن في المجتمع الغربي ، وحتى لا تتكرر التجارب الفاشلة كان لابد من الوقوف على أسباب الفشل والنجاح القائمة على المرجعية الاجتماعية التي صاحبت تجارب الديمقراطية في إفريقيا.^(١٠)

من خلال التجربة التاريخية التي عاشتها الدول الإفريقية ، فإن التجربة الديمقراطية تواجه ببعض الإشكاليات في الفهم والتطبيق كنظام للحكم ، بسبب النعرات والتعصب القبلي ، إذ تعاني القارة الإفريقية من تناقضات حادة عاقت التطور الديمقراطي في إفريقيا ، وتركت آثار سالبة على كافة الهياكل والأنشطة السياسية والاقتصادية مما جعلها أكثر الإشكاليات التي تقف أمام الممارسة الديمقراطية.^(١١)

وكما هو معلوم فإن الاستعمار قد قام برسم حدود للدول الإفريقية التي أسسها بهواه ، وجمع عرقيات مختلفة في حدود ضيقة ، ومن قبل أشعل بينها النعرات العرقية والدينية ، حيث

^(٩) أسامة على زين العابدين . المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطية في إفريقيا المعاصرة ، المرصد الثقافي ، ورقة منشورة في أعمال ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا ، الجزء الأول ، ص : ١٣٧ .

^(١٠) المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطية في إفريقيا ، ص : ١٤٠ .

^(١١) المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطية في إفريقيا المعاصرة ، ص : ١٤٠ .

أدخل في المجتمع الإفريقي ديانة غريبة وهي النصرانية ، ومن ثم حول بعض العرقيات الإفريقية إلى المسيحية ، وتوجهاً بعد ذلك بتسليم مقاليد الحكم والإدارة إلى تلك الأقلية الإثنية أو الدينية التي رباها على يديه.

وفي المقابل علم الأغلبية التي استوثر بالحكم عنها أن الديمقراطية لا تقبل أن تحكم الأغلبية من قبل الأقلية ، فحدث بذلك ما تشهده القارة من حروب دامية .
وعليه فإن الظاهرة الحزبية في العالم الإفريقي سواء من حيث نشوئها؛ أو خصائصها ومقوماتها تمثل أثراً وشاهداً على واقع التخلف والاختلاف بدلا من القضاء على التخلف والاختلاف وتحقيق التنمية والوحدة.

ثانيا : النظم الاشتراكية الشيوعية :

يمكن أن نتلمس قوة التنافر والاختلاف بين الأفارقة في التبعية السياسية التي ربطت أفريقيا بأوروبا عند مطالعة تجربة الاتحاد السوفيتي مع إفريقيا . فقد كان الاتحاد السوفيتي ينظر لإفريقيا باعتبارها منطقة ذات إمكانيات كبيرة بالنسبة للكتلة والحركة الشيوعية الدولية ، وخلال سنوات الستينيات ركز السوفيت على ترسيخ وجودهم في أنحاء أفريقيا وتوسيع قاعدة عملياتهم من خلال الصلات الدبلوماسية والثقافية والاقتصادية.^(١١)

ومن اللافت للنظر أن نكروما اعتبر الاشتراكية الإفريقية في جوهرها نظرية اجتماعية وسياسية وفلسفية ذات أصل وأساس إفريقي . ورأى أن الثقافة الإفريقية الأصيلة هي ثقافة جماعية الطابع ، ولا تسودها النزعة الفردية ، ثم نظر إلى الرأسمالية ، على أنها قوة مخربة ، لو سمح لها بالنمو في إفريقيا لتوحشت وأدت إلى تدهور القيم الأخلاقية للسكان الأصليين في إفريقيا وجودة الحياة في كافة مناحيها . وعلى سبيل المثال فإنه في إفريقيا تعتبر ملكية الأرض تقليدياً غير شخصية ، فهناك استخدام مشاعي للأرض ، لكن إذا هيمنت الرأسمالية فإن البديل الذي سيكون أوفر حظاً هو بسط مزيد من الرأسمالية في إفريقيا بعد الاستقلال ، وهو في هذا الإطار استعمار جديد . وهذا الدخول السوفيتي الشيوعي من ناحية والرأسمالي من ناحية أخرى قد عمق الهوة بين الأفارقة وزاد من حدة التفرق والاختلاف بينهم.

(١١) أفريقيا والاستعمار ، ص : ١٣٤ .

وتعتبر سياسات حكومة البرتغال الاستبدادية التعسفية هي المسؤولة عن التيار اليساري الذي اندفع في البرتغال . وبنفس المنطق قويت التيارات اليسارية في أفريقيا البرتغالية.

وحتى عندما طبقت إصلاحات اشتراكية فإن سياسات الإنصاف ووجهت ضد المظالم الاجتماعية التقليدية للحد من ثروات الإقطاعيين والرأسماليين ولكنها لم تتجاوزهم للحد من التفاوت في الرواتب والامتيازات داخل القطاع العام نفسه حتى صارت الفوارق بين الدخول الكبيرة والدخول الصغيرة في القطاع العام وداخل نطاق الدولة فوارق شاسعة يبلغ أكبر دخل في كثير من هذه البلدان ٣٠ ضعفا من أصغر دخل من الأجور فيها .

وقد أدت مشروعات الإصلاح والإجراءات الاشتراكية إلى انتشار الفساد المالي والإداري. ذلك الفساد الذي انتعش مستمدا من مصادر داخلية وخارجية وجعل الصفوة الحاكمة مضرب الأمثال للحياة المسرقة المترهلة.

ولم يكن موقف القوى الأجنبية مشجعا. فالغرب ساند أي نظام أبدى احتراما للنشاط الرأسمالي وميلا ضد الشيوعية. والشرق عندما وجد فرصته مضى يستخدم مكانته لدعم الأقليات الشيوعية في السياسة الداخلية كما حدث في السودان ومصر على سبيل المثال ، وبذلك تعمقت الهوة بين الأفارقة وزاد مستوى الخلاف بينهم .

ثالثاً : النظام الشمولي : ” نظام الحزب الواحد “ :

أدى نظام الحزب الواحد في أفريقيا إلى استبداد زعيم منفرد بالأمر كله دون قيود ترشد ممارساته .

و كانت عقلية الحكام الوطنيين وأعوانهم لم تتشعب بفكر جديد ، ولا بتحليل أساسي لمشاكل البلاد يلقي ضوءا على الحلول المطلوبة ، وهذا أدى إلى الاستمرار في إغفال القطاع التقليدي في الاقتصاد الوطني .

وقد قام هؤلاء القادة بتجيش القبائل لتكون قاعدتها الأساسية في مواجهة المشكلات التي تعترضها ، واستخدامها متى شاءت وقودا في أزماتها المتكررة . كما قامت هذه النخب بتوظيف الانقسامات الإثنية لتحقيق أغراضها السياسية . إذ أن القارة الإفريقية ، تضم الآلاف من الجماعات الإثنية التي كانت تتعايش وتعمل وتتزوج بعضها مع بعضها في أطر سلمية ، لكن حدة المشكلات الإثنية أخذت في التصاعد مع قدوم الاستعمار الغربي .

لذا لا بد من إيجاد نظام سياسي ملائم للدول الإفريقية ، فالنظام السياسي الملائم لهذه البلدان لا يمكن أن يكون النظام البرلماني المتعدد الأحزاب ؛ لأنّ هذا النظام لا ينجح إلا في مجتمعات نالت قدرا معلوما من التطور الاجتماعي والاقتصادي.

المحور الثاني

النتائج والأسباب الفكرية والثقافية

عمل الاستعمار الأوربي على ربط إفريقيا فكريا وثقافيا بالدولة الأم ، ولكي نلمّ الحديث من أطرافه يجب علينا أن نأخذ الموضوع من خلال سياسات الاستعمار واتجاهاته الثقافية الشيء الذي أحدث ثنائية في هذا الباب. وعموما يمكن تقسيم إثنيات الاستعمار الثقافية إلى مجموعتين :

الأولى : المجموعة اللاتينية في البحر الأبيض المتوسط ، وتضم : فرنسا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا.

الثانية : مجموعة الشمال الجرمانية : وهي بريطانيا وألمانيا.

فالمجموعة الأولى كاثوليكية والثانية بروتستانتية ، ولأجل هذا التباين بين المجموعتين اللتين اقتسمتا القارة الإفريقية ، اتسعت الرقعة بين الشعوب الإفريقية نظرا لانعكاس سلوكهما في التعليم والثقافة عموما.

وعلى سبيل المثال فقد كان النفوذ الفرنسي في الستينيات "عقد الاستقلال الإفريقي" مركزا على وجه الخصوص في مجال التعليم ، ففي دول الجماعة الفرنسية كان هناك ٨٠ / من معلمي المدارس الثانوية فرنسيون ، إضافة إلى ذلك كانت هناك أربع جامعات إقليمية قد تم تأسيسها في هذه الدول بمساعدات فرنسية . ووفقا للعديد من الاتفاقيات التي وقعتها فرنسا مع الدول الإفريقية ، خاصة الناطقة بالفرنسية ، فإن وزارة التعاون الفرنسية قدمت نحو خمسمائة ألف [٥٠٠٠٠٠] فني لمساعدة العديد من دول إفريقيا جنوب الصحراء في بداية الستينيات ، وبدون هؤلاء المتخصصين فإنه كان من المشكوك أن تتمكن هذه الدول المعنية من القيام بتسيير الحياة اليومية بها بصورة فعالة.^(١٣)

(١٣) إفريقيا والاستعمار ، ص : ١٣٩ .

ثمة ملاحظة مبدئية وهي أنه عندما تعرضت القارة الإفريقية إلى التغيير الثقافي الكبير عند دخول الاستعمار الأوربي في نهاية القرن التاسع عشر ، ارتبط ذلك بإدماج القارة في الثقافة العالمية عبر إدخال الأنظمة الحديثة في الإعلام والإدارة والتعليم ، وهذا يعد تبديلا ثقافيا في جوهر مكونات الثقافة المحلية . وتمحورت محاولات الاستعمار في التركيز على الآتي :

أولا : طمس اللغة والهوية :

وهدفت هذه الإستراتيجية إلى محو قيم الإنسان الإفريقي وثقافته ، بالرضا والإقناع أو بالقوة . وذلك بتدوين الثقافات الإفريقية في إطار ثقافة الجماعة الاستعمارية المسيطرة ؛ بحجة الاستعلاء الغربي قيميا وثقافيا . وما زال في الغرب حتى الآن من يختمر في ذهنه أن التاريخ لم يتخذ له سبيلا بين الشعوب الإفريقية السوداء . ولما كانت نفس الإنسان هي هويته ، وهويته هي حصيلة ماضيه القريب والبعيد أو قل التراث والتاريخ ، ارتأى الاستعمار طمس هذا التاريخ ورفضه تحت شعار ” الشعوب السوداء لا مكان لها في التاريخ “ . قال أحدهم : ” على الإفريقيين أن يتحلوا بالصبر ، ويعترفوا بدونيتهم .. “ ” كل أحداث العالم مرت على منأى من الإفريقيين “ .. ” إفريقيا ليس لها فصل في دفتر تاريخ هذا الكون ، كل التطورات التي ظهرت فيها مصدرها إليها من الخارج “ .^(١٤)

وهذا أدى إلى أن تطفو على السطح مشكلات جديدة ساعدت في تعميق الجرح الإفريقي وزادت من التفرق والتطرف بين الأفارقة . فقد خطط الاستعمار لربط مستعمراته بالثقافة ممارسة لـ ” مبدأ التبعية الفكرية “ التي يسميها عالم الاجتماع ابن خلدون - رحمه الله - ” نحلة الغالب “ .^(١٥) وكان أول ما لجأ إليه الاستعمار عند احتلال الدول الإفريقية هو طمس معالم ثقافتهم المحلية ، فكان لا بد من رد فعل مماثل ومناسب وبالعيار نفسه ، أي : إعلان حرب ثقافية للدفاع عن الهوية .

وإنّ أخطر ما واجه الإنسان في إفريقيا من جراء السياسات الاستعمارية هو طمس اللغة والهوية ، ففي تنجانيقا على سبيل المثال ؛ رفضت البعثات التبشيرية المسيحية استخدام

(١٤) قضايا اللغة والدين في إفريقيا ، ص : ٤٦ .

(١٥) ابن خلدون . المقدمة ، ص :

اللغة السواحيلية في المدارس على أساس أنها تحض على نشر القيم الإسلامية ، ويؤكد ذلك المعنى : أن الإدارة الاستعمارية الألمانية حينما استخدمت في البداية اللغة السواحيلية كلغة للتعامل التجاري الحكومي وحث الأوربيين على تعلمها ؛ احتجت البعثات التبشيرية في أوغندا على ذلك ، وقادت حملة مناهضة للغة السواحيلية على أساس نفس الاعتبارات السابقة ، ولم يكن مستغربا أن نجد أحد القساوسة الأوغنديين - رغم تأييده لفكرة وجود لغة واحدة تجمع شعوب إفريقيا الوسطى - يصر على ألا تكون تلك اللغة هي السواحيلي ، يقول في ذلك : " إذا كان وجود لغة واحدة لأفريقيا الوسطى هو أمر مرغوب فيه بإخلاص بالغ ، فإنّ الرب حرّم أن تكون هذه اللغة هي السواحيلي ، أهي الإنجليزية ؟ نعم .. أما السواحيلي فلا ؛ فالأولى تعني الإنجيل والمسيحية ، أما الثانية فتعني الإسلام " .^(١٦)

وبالنظر إلى جنوب السودان الذي يعتبر أحد الشواهد الأساسية للتفرق والتطرف فإنّه قد انتشر الإسلام والعروبة عبر القرون في شمال السودان ، وفي البداية حالت عوامل جغرافية دون انتشارهما في جنوب السودان ، وحينما أزلت الوسائل الحديثة الموانع الجغرافية حلت محلها موانع سياسية وإدارية فرضها الاستعمار البريطاني . ولعل أوضح تعبير عن تلك السياسة هو ما جاء في مذكرة السكرتير الإداري السير هارولد ماكمايكل في عام ١٩٣٠ من أنّه ينبغي أن يتم تطوير الجنوب على أساس حضارته المحلية الزنجية وأن يستخدم أهله اللغة الإنجليزية كوسيلة تخاطب بينهم ، وأن يقفل الجنوب تماما في وجه الدين الإسلامي واللغة العربية والمؤثرات الشمالية كاللباس الوطني الشمالي .. الخ .

لقد اعتمد الاستعمار على أصداء التنافر بين العرب والأفارقة ليزيد من حجم الصحراء الكبرى كحائط متين بين أفريقيا شمال الصحراء وأفريقيا السمراء .

ويدخل في هذا السياق محاولة الاستعمار الفرنسي إحداث قطيعة بين بلاد المغرب العربي وشمال إفريقيا ، وبين باقي المجتمعات المسلمة في أفريقيا من خلال محور المكون العربي والإسلامي من الهوية الإفريقية ، وإظهار الإسلام الإفريقي مختلفا تماما عن الإسلام العربي^(١٧)

^(١٦) حمدي عبد الرحمن . التعددية وأزمة بناء الدولة في أفريقيا الإسلامية ، القاهرة : مركز دراسات الأفريقي ، ١٩٦٦ .

^(١٧) نقلا عن آدم بمبا . الإسلام وتشكيل الهويات في إفريقيا ، مجلة قراءات إفريقية ، ابريل ٢٠١٢م ، العدد ١٠ .

كما لا يخفى أن الجهود الاستعمارية الرامية إلى طمس الهوية والثقافة الإسلامية لصالح فرض القيم الغربية أدى إلى خلق حالة من القنوط عند الإنسان الإفريقي وبذا تعمقت الفجوة بين الأفارقة.

وهذا كله نابع من الاختلاف بين الأيدلوجية الغربية والعربية التي عملت على تعميق الخلاف بين الأفارقة والثقافة العربية مما أدى إلى تطرف الكثير من الإثنيات غير العربية ضد الثقافة العربية والإسلامية.

الاستقطاب الديني المسيحي :

أحدث الاستعمار انقطاعا بائنا في التطور العفوي للقارة الإفريقية في جوانبها الاقتصادية والسياسية ، كما أحدث خللا في نسيجها الثقافي والديني ، وغني عن التعبير القول بأن التهافت السياسي على إفريقيا سبقه تهافت ديني ، وقد أثر الجانبان معا على الإنسان الإفريقي.

وقد كان سياسيو الاستعمار يدركون أن السيطرة على الأرض وقصم ظهر الناس بالبندقية والنار لا يضمن إلا ولاء مؤقتا مادامت هنالك ثقافة أو تراث يبقى في هؤلاء هاجس التمايز ، فلذلك طبقوا المثل الاستعماري القائل : ” قبل السيطرة على الناس لا بد من السيطرة على نفوسهم “. فقد دعا بعض المبشرين إلى ضرورة هداية الشعوب الإفريقية ، وأن على الأبيض أن يتحمل عبئه في تبشير هذه الشعوب وتمدينها ، فهبت البعثات التنصيرية تحت ظل الحماية الاستعمارية وخلقت لنفسها جوا خصبا للمسيحية في إفريقيا ، وهو ما سمي بإقحام الدين المسيحي لتبرير الاستعمار ، قال أحدهم : ” متى كان الدين موجودا في أوربا حتى تفيض به على الآخرين؟؟ “.

لذا لم يكن الإنسان الإفريقي يفرق بين المستعمر والمبشر ، وهذه التوأمة جعلت الروائي الجنوب إفريقي بيتر ابراهام يقول : ” في الحقيقة المسيحية دابة الاستعمار “. وكان يسمي البندقية والكتاب المقدس التوأمن المساعدان للاستعمار^(١٨) ، وقال الزعيم كاوندا في بعض خطبه : ” حينما يريد رجل إنجليزي سوقا جديدة لبضائعه الفاسدة التي صنعها في مانشستر ، فإنه يرسل مبشرا لتعليم الأهالي ” بشارة السلام “ ويقتل الأهالي المبشر ، فيهب

^(١٨) وذلك في روايته الشهيرة ” الاحتلال الوحشي “.

الإنجليزي ليحمل السلاح دفاعا عن المسيحية ويحارب من أجلها ، ثم يستولي على السوق كمكافأة من السماء".

فالدين المسيحي الذي تعطلت محركاته منذ قرون في أثيوبيا ومصر بدأ يستعيد حيويته من جديد في ظل الوصاية الإمبريالية الاستعمارية وسيطرتها المطلقة على إفريقيا عام ١٨٨٥ م ، فهبت البعثات التنصيرية لنشر المسيحية في إفريقيا بحماية استعمارية فكسبت لها أتباعا في المناطق التي لم يصلها الإسلام لبعدها عن تأثير الثقافة العربية الإسلامية لأسباب في معظمها جغرافية .

ويرى ديكسون مونجاي أنه قد شكل الاستقلال السياسي لأفريقيا فرصة لدول القارة بأن تشهد تحولا اجتماعيا تاريخيا ، لكن بدلا من تحقق ذلك ظهر العديد من القادة الأفارقة الذين استغلوا هذا الاستقلال لخداع شعوبهم ، فقد عمد جميع القادة الأفارقة الذين قادوا بلادهم من الاستعمار إلى الحكم الذاتي و الاستقلال إلى الاحتفاء بالعقيدة المسيحية لتحقيق الزعامة المرتجاة من قبل مواطنيهم ، وقد توصل نكروما وجميع الوطنيين الأفارقة إلى أنهم بدون الاحتفاء بالعقيدة المسيحية فإنهم لن يصلوا أبدا لوجهتهم السياسية المحددة . وأنه ليس هناك بديل عن ذلك . وقد أرست حكومات الدول الاستعمارية فكرة أنه طالما ترسخت العقيدة المسيحية في عقول الوطنيين الأفارقة فإنه ليس هناك مانع من تحقق الاستقلال السياسي.^(١٩)

تحييد الدين الإسلامي في الساحة الإفريقية :

حركة الإسلام في إفريقيا في معظم مظاهرها حركة مستقلة مجردة عن أي كيان خارجي ، فهي مسألة إقناع واقتناع ، وقد لعب الإفريقيون أنفسهم دورا هاما في نشر هذا الدين بينهم ، كما ساهموا في إثراء ثقافته ولغته العربية.^(٢٠)

فإفريقيا وحدها بين القارات التي قبلت الإسلام دينا والعروبة جنسا وثقافة ، بينما نبذت أوروبا الاثنين معا ، وقبلت آسيا غير العربية الأولى لا الثانية.

(١٩) - Mungazi. Dikson . The mind of black Africa . West port 1996-

p : 169.

(٢٠) العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية ، ندوة عقدت في الخرطوم ١٩٨٥ م.

ولقد ألقى الاستعمار بذور المحنة في إفريقيا ، وأثمرت هذه المحنة مزيدا من الصراعات والنزاعات ، فمهمة الاستعمار لم تكن سياسية واقتصادية فقط ، بل كانت عقائدية استهدفت تحجيم المد الإسلامي ، وإضعاف السلطة السياسية ذات المرجعية الإسلامية^(١١) ، ومعلوم أنه حيثما كان الإسلام دين الأغلبية فلا سبيل لإغفاله ، ونسيانه ؛ لأن الإسلام دين يضم محتوى اجتماعيا لا يمكن إهماله أو إغفاله . فالإسلام أكثر الأديان انتشارا في إفريقيا حتى وصفت بأنها قارة الإسلام ، فالدين الإسلامي بالنسبة للشعوب الإفريقية يعد دينا إفريقيا انتشر بقوته الذاتية ، وخصائصه المتفككة مع الفطرة الإفريقية ، فكان أكثر الأديان صلاحية وارتباطا بالواقع الإفريقي ، إلا أن هناك تحديات كثيرة واجهت هذا الدين المحبوب لدى الأفارقة منها العودة بالعقيدة إلى مرحلة النقاء الأول ، وضعف دور مؤسسات العمل الدعوي التي تقوم بنشر الدعوة الإسلامية الصافية والنقية ، ومحاربة المد التنصيري الذي تمدد حتى داخل دائرة الوجود الإسلامي في القارة . ومن أهم التحديات التي واجهها الإسلام أن النخب الحاكمة في الدول الإفريقية بعد الاستقلال سعت إلى تحييد المتغير الديني ، من خلال فرض دساتير علمانية تفصل بين الدين والدولة ، وتؤكد على حرية المعتقد لتمكين التنصير من اختراق البؤر المسلمة وذلك بفتح الباب أمام الحركات التبشيرية ؛ للنفوذ إلى المناطق الإسلامية وغير الإسلامية على السواء ، مما أدى إلى التصادم بين الديانتين فخلق توترا وتطرفا في كثير من الأقطار الإفريقية . كما حاولت بعض الدوائر تعميق الخلاف بين المسلمين أنفسهم تمثل ذلك في التركيز على القضايا الخلافية ، في الأمور المرتبطة بالعقيدة والاصطدام بالطرق الصوفية بطرح قضايا فقهية خلافية لإشعال الفتنة بين المسلمين ، ولعل ذلك عمق الخلاف والاختلاف والتطرف ، فسارعت الكنيسة ومؤسساتها التبشيرية على استغلال هذه الأوضاع لصالحها ؛ مما أدى إلى بروز مشكلة التطرف المذموم والتعصب لبعض المذاهب الفقهية ؛ أو الشخصيات الدينية ، أو الاتجاهات الفكرية ؛ ولذا نحن بحاجة ماسة إلى وعي عميق بما يسمى بـ ” فقه الاختلاف “ الذي عرفه خير قرون هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة

^(١١) عبد الله أبوبكر شيخ حسين . الصراعات الإثنية والدينية في إفريقيا . ورقة مقدمة إلى ندوة : الإسلام وتحديات إفريقيا . رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع جامعة أم درمان الإسلامية ومنتدى النهضة والتواصل الحضاري . الخرطوم - السودان ، ٤ - ٥ / ٦ / ١٤٣٤ هـ - ١٤ - ١٥ - ٤ / ٤ / ٢٠١٣ م . ص : ١٤١ .

الهدى ؛ فلم يضرهم الاختلاف العلمي شيئاً ، وجهله كثير منا ، فأصبحنا يعادي بعضنا بعضاً بسبب مسائل يسيرة أو بغير سبب .

كما أنّ أبرز ما يواجه مسيرة الحركات والتنظيمات الإسلامية في الواقع الإفريقي المعاصر : أنّها لا تعبر عن تجانس فكري ؛ إذ أنّها تعكس اختلافاً في الرؤى والتفسيرات .

الاستقطاب العربي - الإفريقي .

كان هذا هو أساس السياسة البريطانية في السودان حتى بعد الحرب العالمية الثانية ويومئذ اتضح للإدارة البريطانية أنّ أيام الإمبراطورية صارت معدودة فلا بد من اتخاذ قرار بشأن مصير الجنوب : أيكون دولة مستقلة في المستقبل ؟ أم يلحق بأحد أقطار شرق أفريقيا مثل يوغندا؟ وبعد البحث استبعدوا هذين الاحتمالين لأسباب عملية وقرروا أنّ لا مفر من إلحاق الجنوب بشمال السودان في قطر واحد. هذا ما تقرر في عام ١٩٤٨ .

فمعظم الدول في أفريقيا السمراء اعتبرت مشكلة جنوب السودان صراعاً بين العرب والأفارقة كما اعتبروها بحق إحدى المشاكل التي ورثتها الأقطار المستقلة من الاستعمار. ونادوا باعتبارها صراعاً عربياً أفريقياً وأعلنها بعض القادة الأفارقة من أمثال الدكتور ناندا - رئيس مالي وهو وأضرابه من التيار الوطني الإفريقي ..

وكان الاستعمار وإسرائيل يحرصان لتطوير ذلك التناقض لإتلاف العلاقات بين العرب والأفارقة .

هناك نقطة أخرى هي أريتريا : إذ أنّ بعض الدول العربية تعتبر إريتريا قطراً عربياً ينبغي أن يتحرر وينضم إلى الجامعة العربية وآخرون في العالم العربي يرون أنّ تمزيق أثيوبيا لا معنى له بل لا بد من أن ينال الأثيوبيون جميعاً والإريتريون حقوقهم السياسية والمدنية وأن ينال الإريتريون قدراً معلوماً من الحكم الذاتي ، مما شجع أسياسي أفورقي الرئيس الحالي على المجاهرة برأيه في هذا الصدد وهو معاداته للقيم العروبية ورفضه الانضمام للجامعة العربية .

فهذه المناطق وغيرها تعتبر نطاق استقطاب عربي إفريقي خلقت أزمة بين شعوبها المسلمة المتعاطفة مع العروبة وغيرها المعادية لها .

النظم الإدارية والتعليمية :

من اللافت أنّ التوسع الكبير في التعليم العلماني والمسيحي في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية قد شكل ضغطا كبيرا على التعليم الإسلامي في إفريقيا الفرنكفونية . وبينما كانت المدارس التي تدرس علوم القرآن تنتشر انتشارا كبيرا في إفريقيا الفرنكفونية وبمعدل متشابه تقريبا فإنّ الشعوب الإسلامية في إفريقيا الفرنكفونية وجدت نفسها تحكم بواسطة قيادات تلقت تعليما غربيا في المدارس العلمانية. وردا على هذا التهديد ، عزف المسلمون عن التعليم باعتباره تعليما استعماريا هدفه الأساسي تنصير أبناء المسلمين ، ومن هنا تولدت ” حركة بوكو حرام “ التي تعني ” التعليم الغربي حرام “.^(٢٢)

مسؤولية الاستعمار في نشأة بوكو حرام :

نشأت حركة بوكو حرام في ولاية يوبي بنيجيريا عام ٢٠٠٢م ، وتعني كلمة ” بوكو حرام “ بلغة الهاوسا ” تحريم التعليم الغربي “ ، وبالتالي تعتبر هذه الجماعة كل ما هو غربي منافيا للإسلام جملة وتفصيلا ومرفوضا ، وترى في النفوذ الغربي في المجتمعات الإسلامية أصل الضعف الديني لدى هذه المجتمعات ؛ كما أنها لا تؤمن إلا بالتعليم الذي يشبه نظام ” الملاي “ والحلقات الدينية.^(٢٣)

وهي عبارة عن حركة ذات طبيعة راديكالية تنادي بالتغيير على طريقتها وترفض مظاهر الحضارة الغربية بما في ذلك التعليم الغربي ، من هنا أطلق عليها إعلاميا لقب ” بوكو حرام “.^(٢٤) وتطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وترى في الديمقراطية الغربية كفرا ومن ثم تكفر من يحتكم إليها. وهي تعبير عن إحباط وخيبة أمل في الدولة والطبقة السياسية العلمانية التي أبعدت المعتدلين من العلماء والمثقفين ثقافة إسلامية عن المشاركة في تسيير الشأن العام منذ الاستقلال ، بفعل الاستعمار وبالتالي أصبح الفكر المتطرف هو البديل ، أضف إلى ذلك سوء الإدارة

^(٢٢) إفريقيا والاستعمار ، أحمد فليفل ، ص : ١٣٩ .

^(٢٣) ” بوكو حرام “ .. ” القاعدة “ في قلب إفريقيا .

^(٢٤) بوكو حرام قراءة في عوامل النشأة والتطور . نور الدين البشير . مقال في الانترنت .

من قبل هذه الطبقة الحاكمة المتغربة عن المجتمع وثقافته ودينه مما خلق أسبابا اجتماعية اقتصادية وسياسية لقيام الحركة ، فالأسباب الاجتماعية تتمثل في الفقر ، والأمية المتفشية، والجهل والظلم الاجتماعي والتهميش والإهمال من قبل الحكومات النيجيرية المتعاقبة لأقاليم الشمال مما أدى إلى نشوء بيئة حاضنة لمثل هذه الحركات المتطرفة ، أضف إلى ذلك اختلال الصيغة التي اتبعت في الحكم بعد الاستقلال بالتوافق الضمني بين الطبقة الحاكمة والمستعمر مما أدى إلى حالة من الغبن ، وجعل الساحة مفتوحة مما يجعل لكل حركة ترفع مطالب بحقوق المسلمين أو تطبيق الشريعة تنجح وتكسب التعاطف والتأييد حتى وإن كانت متطرفة ، فشأه هذه الحركة المتطرفة ترجع في الأساس كردة فعل للثقافة الاستعمارية المتمثلة في الظلم والإقصاء السياسي والتهميش التي مارستها الإدارة الاستعمارية والتي مازالت آثارها موجودة حتى الآن .

ونتيجة لانحياز الاستعمار للديانة المسيحية وإقصائه الدين الإسلامي قدمت جماعة "بوكو حرام" نفسها كمدافع عن الإسلام والمسلمين ضد المسيحيين ؛ مما أعطاها نوعا من التعاطف من بسطاء المسلمين تجاه الجماعة.

المحور الثالث

النتائج والأسباب الاقتصادية

اتبع المستعمرون نمطاً تنموياً غير متوازن ، وذلك بتنمية المناطق الغنية بالثروات ، أو التي تلبى احتياجات الإدارة الاستعمارية ، على حساب بقية المناطق ، فالعوامل الاقتصادية ، وفي مقدمتها الرغبة في السيطرة على الموارد النفيسة والاستراتيجية ؛ مثلما هو الحال في أنجولا وليبيريا وسيراليون وغيرها ، أدت إلى بروز التطرف . وكان من آثار هذا التفرق في القارة الإفريقية استغلال المشاكل الاقتصادية والإدارية للدولة الحديثة الاستقلال ؛ بهدف التدخل في شؤونها والضغط عليها في صورة معونات وقروض ؛ لإقامة القواعد العسكرية ، وإثارة الاضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية والعنصرية ؛ لإضعاف الدول الإفريقية وإيقاعها بالتالي تحت السيطرة الأجنبية ، واستخدام المنظمات الدولية التي تقوم فيها

الدول الكبرى بدور رئيسي في الضغط على الدول النامية وتوجيه سياستها^(٢٥)؛ مما زاد من معاناتها وتخلفها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي مقارنة بباقي دول العالم.^(٢٦) كما أنّ العوامل الاقتصادية تلعب دوراً هاماً في إشعال الحروب الأهلية في القارة الإفريقية. فقد أدت الصراعات والحروب الإثنية إلى نشوء ما يُعرف باسم ”اقتصاديات الحرب“، حيث يهيمن أمراء الحرب على الشؤون الاقتصادية والثروات في المناطق التي يسيطرون عليها، ويستثمرون عائدات بيع تلك الثروات في تكريس الثروة وتدابير تكاليف الصراع، وعادة ما يرتبط هؤلاء بشبكات التجارة الدولية، كما يترك قادة الجماعات المتصارعة أتباعهم يمارسون عمليات السلب والنهب؛ بما في ذلك سلب مواد الإغاثة الإنسانية، وذلك كبديل عن دفع الرواتب لهم، ومن ثمّ يجد هؤلاء أن من مصلحتهم استمرار الصراع وتصعيده.

وفيما يتعلق بالبنى الأساسية؛ أدت الحرب الأهلية في كل من أنجولا وليبيريا ورواندا وبوروندي والكونغو الديمقراطية وسيراليون إلى تدمير معظم عناصر البنية الأساسية في البلاد، وبخاصة الجسور والطرق الرئيسية.

وبالنسبة لثروات الدول الإفريقية؛ فقد أتت عليها تلك الصراعات، ففي الكونغو الديمقراطية تعاني البلاد منذ العام ١٩٩٦م حتى الآن عمليات نهب منهجي، وذلك من قبل جميع الأطراف المنخرطة في الصراع الداخلي فيها، وحتى عندما تمّ تشكيل لجنة دولية للتحقيق في ذلك الأمر لم تتم محاسبة المتورطين في عمليات النهب، بعد أن كشف تقرير اللجنة عن تورط عدد غير قليل من الحكومات الغربية الاستعمارية في تلك العمليات.^(٢٧) وقد قامت الدول الأوربية خلال مدة استعمارها للدول الإفريقية بربط اقتصادياتها بأوروبا بوصفها مصادر للمواد الأولية اللازمة لصناعتها وأسواقا لتصريف إنتاجها الصناعي.

(٢٥) د. السيد على أحمد فليفل . إفريقيا والاستعمار - بحث مقدم إلى ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا - الخرطوم ، السودان جامعة أم درمان الإسلامية بالتعاون مع منتدى النهضة والتواصل الحضاري . الجزء الأول ، ص : ١٢٨-١٢٩ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص : ١٢٩ .

(٢٧) الصراعات الإثنية في أفريقيا .

وفي عقد الستينيات وما تلاه حصلت معظم الدول الإفريقية على استقلالها ، واتجه بعضها إلى إحداث نوع من النمو الاقتصادي ، إلا أن سياسة الدول الغربية الاستعمارية كانت تجتهد في عدم تشجيع مثل هذا الاتجاه حتى تظل إفريقيا مصدرا للمواد الأولية رخيصة الثمن منخفضة القيمة ، وتظل سوقا للمنتجات الغربية . وقد قامت سياسة الدول الغربية في المرحلة التالية على ضمان السوق الإفريقي والمواد الأولية المعدنية والزراعية والغايبية ومصادر الوقود والطاقة وغيرها من خلال الضغط على الدول الإفريقية من قبل منظمة التجارة العالمية لفتح الأسواق وتحرير التجارة ، وكان من نتائج ذلك التأثير السلبي في الاقتصاد الإفريقي ، حيث انهارت الصناعات التي كانت قائمة ، وانخفضت قيمة صادراته الأولية ، وزادت بشكل واضح قيمة وارداته ، وبمعنى أشمل أصبح الاقتصاد الإفريقي مهمشا عن الاقتصاد العالمي.^(٢٨)

وتعد أزمة الديون التي واجهت إفريقيا ، ولا سيما خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي ، من أبرز نتائج وصور هذه التبعية الاقتصادية ؛ مما دفع المؤسسات الدولية ، وبخاصة البنك الدولي وصندوق النقد ، إلى مطالبة دول القارة بضرورة إجراء برامج التهيئة الهيكلية [sap] ، ولكن ترتب على تطبيقها في التسعينيات في العديد من الدول الإفريقية ارتفاع معدلات البطالة وانخفاض الأجور الحقيقية ، وتعد سيراليون نموذجا للصراعات الأهلية التي اندلعت في التسعينيات على خلفية تدهور الأوضاع الاقتصادية.^(٢٩)

(٢٨) المصدر السابق ، ص : ١٣٠ .

(٢٩) حمدي عبد الرحمن . إفريقيا وتحديات عصر الهيمنة . القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٦م .

المحور الرابع

النتائج والأسباب الاجتماعية

ربط عدد كبير من الدراسات التاريخية الحديثة ربطاً واضحاً بين المنظومة الاجتماعية وفق نمطها الثقافي ونموها الحضاري وخصائصها الاجتماعية من جانب وبين خصائص البيئة الطبيعية الجغرافية من الجانب الآخر.^(٣٠)

ومن التأثيرات البالغة التي خلفتها أزمة التفرق والاختلاف في إفريقيا ، تلك التأثيرات السلبية الناجمة عن تصاعد المشاكل داخل هذه القارة بين أبناء الشعب الإفريقي بل بين أبناء الوطن الواحد ، والمشكلة هنا تتجاوز حدود ما تخلفه تلك المشكلات من قتلى وجرحى ومشردين ونازحين ولاجئين وضياح فرص التنمية وغيرها إلى إحداث أزمة عانت منها العديد من دول القارة ومنها تشاد وأفريقيا الوسطى والسودان ورواندا وليبيريا وغيرها.

ومن أهم الآثار المترتبة على اندلاع الأزمة في إفريقيا ” أزمة الاختلاف “ وخصوصاً في الناحية الاجتماعية تأثير عمليات النزوح في النسيج الاجتماعي وإحداث خلل في التوازنات الاجتماعية القبلية والتركيبية الديمغرافية في كل منطقة من مناطق القارة التي ما زالت مستمرة حتى الآن في كثير من مناطق القارة ومن أهمها دارفور- وكذلك في المناطق المجاورة لها ، في إفريقيا الوسطى.

ومن الآثار الاجتماعية لتصاعد أزمة الاختلاف في إفريقيا زيادة معدلات الظواهر السلبية مثل ارتفاع معدلات الجرائم وتنوعها ، وكذلك النهب والسرقة والاحتلال ، وهجر المواطنين المدن .

ومن الآثار التي أفرزتها الأزمة وجود عدد كبير من المنظمات الأجنبية في أوساط معسكرات اللاجئين الإفريقيين ويبدو أن هناك نوعاً من السيطرة الواضحة لهذه المنظمات على الأوضاع كافة وجميع الأنشطة داخل المعسكرات ، وعلى الرغم من الدور الذي تدعي هذه المنظمات القيام به ، إلا أن هذا لا يخلو من مهام مستترة عديدة تسعى تلك المنظمات للقيام بها ، خدمة لتوجهات دول محددة لمصالحها.

^(٣٠) كرستين نصار. الإنسان والجغرافيا ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٩١م. الفصل الأول.

وظلت تمارس المنظمات سيطرتها وتحكمها في التعامل مع المواطنين الأفارقة ، وهذا الأمر يثير العديد من الشبهات حول حقيقة وجود هذه المنظمات خصوصاً أنّ بعضها يروج للمفاهيم السلبية ضد العرب والإسلام من خلال الندوات التي تهدف إلى خلق بلبلة داخل المعسكرات ، كما أنّ هذه المنظمات أصبحت أداة وهدفاً يوظفها الإعلام العالمي للترويج لحدوث انتهاكات لحقوق الإنسان في القارة.

ولا تكتفي تلك المنظمات بذلك ، بل إنّها تستهدف المنظمات الوطنية مثل منظمة الهلال الأحمر للتقليل من أهمية الدور الذي تقوم به وقد اتهمها بالتجسس لصالح الحكومات ، وربما يكون هذا من الأسباب التي تشير إلى خروج تلك المنظمات عن الدور الإنساني الذي تدعي القيام به.

تدويل القضايا الإفريقية :

إنّ الحكومات الإفريقية ما أن تفرغ من مشكلة حتى تفاجأ بأزمة جديدة في مجلس الأمن تتعلق بأمورها الداخلية ، فملف دارفور مثلاً تم تدويله وأقلمته بصورة كاملة ، وقد أثر ذلك على علاقات السودان الإقليمية والدولية وسبقت تلك الأزمة صور لنازحي ولاجئي دارفور في الفضائيات العالمية تتحدث عن الفظائع التي ارتكبت هناك ، أعقبتها حملة إعلامية شرسة في أميركا والمجتمعات الغربية كتلك التي قادتها البارون كوكس في بريطانيا وأوروبا والولايات المتحدة الأميركية في بداية الإنقاذ ، وكانت لها آثار سلبية على علاقات السودان بتلك الدول ، فقادت المنظمات الطوعية والإنسانية العالمية وبدأت الحكومة في مواجهة قرارات المجتمع الدولي حيث صدرت عدة قرارات من مجلس الأمن الدولي والاتحاد الأوروبي والأفريقي والكونغرس الأميركي وصدرت تقارير من المنظمات الإنسانية العاملة في مجال الإغاثة ، فتحدثوا عن انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان في دارفور مما كان لها الأثر السالب على علاقات السودان الخارجية بالمجتمع الإقليمي والدولي.

عدم استقرار الدول :

أثرت مشكلة التفرد والاختلاف على كل الدول على المستوى الإقليمي الواسع ، فمثلاً مشكلة دارفور أثرت في تشاد وليبيا ومصر وحتى دول البحيرات العظمى خاصة شمال أفريقيا وغربها ، نتيجة لحقائق التاريخ والجغرافيا ، بالإضافة إلى أنّ دارفور بوابة الدخول

لوسط أفريقيا جنوب الصحراء وكذلك غربها ، ولذا فهي إحدى نقاط الالتماس بين الغرب والأفارقة ، كما أنها تمثل أيضاً بوابة لجيرانها على مناطق إستراتيجية . فليبيا تعتبر مدخلاً للشمال الأفريقي وغرب أوروبا ، وتشاد مدخلاً للقرن الأفريقي في المحيط الأطلسي ، أما أفريقيا الوسطى فهي مدخل لوسط أفريقيا ومنطقة البحيرات ، ومن ثم تماست المصالح الفرنسية والأميركية عند دارفور في أفريقيا ، ويذكر التاريخ كيف حاولت فرنسا السيطرة على هذه المنطقة الجغرافية حتى تستطيع المحافظة على نفوذها الاستعماري في تشاد وأفريقيا الوسطى والكاميرون ومالي ، لكن ظلت دارفور تاريخياً ، هي مركز لحركات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في تشاد ، وهناك ارتباط وثيق بين القبائل الدارفورية مع القبائل الأخرى داخل الدول المجاورة لها وتنوعت ارتباطاتها خاصة الزغاوة والمساليات والفور ، حيث ارتبطت بمصالح تشاد وأفريقيا الوسطى وليبيا ، ومصر .

*- استخدام إفريقيا مسرحاً لتصفية الصراعات السياسية بين الدول الكبرى :

وعلى مستوى التشابكات السياسية وبسبب هذا الوضع الجغرافي والتاريخي والقبلي كانت إفريقيا مسرحاً خلفياً لعدة صراعات حيث تم استخدام هذه القارة ، إما كمخزن للسلاح أو للتأييد القبلي أو حتى الاستعداد عسكرياً لأي صراع مرتقب سواء في الداخل أو الخارج وبدت هذه الاستخدامات واضحة في الصراعات ” التشادية- التشادية “ و ” التشادية- الليبية “ حول شريط أوزو الحدودي وكذلك الصراعات الداخلية لأفريقيا الوسطى.^(٣١)

وعلى المستوى الاجتماعي تتمثل أكبر المشكلات الاجتماعية للقارة على دول الجوار في ظاهرة اللجوء ، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار عدم وجود حواجز طبيعية بين الدول ، بالإضافة إلى التداخل القبلي الموجود أصلاً والمتأثر بعدم وجود الأمن والاستقرار في معظم دول القارة ، وانعكس كل هذا على هذه المهجرات الكبيرة للمواطنين من وإلى كل الدول موزعين بينها كل حسب ارتباطه بالدولة الأقرب له ، وهنا تبرز مشكلة اللجوء ، إذ إنّ الدول التي يلجأ إليها المواطنون أصلاً فقيرة وبذلك تزيد عبئها على العبء الموجود سلفاً ، ولا

^(٣١) السيد فليفل وحسن مكّي ، أعمال الحلقة النقاشية حول الصراع في دارفور ، مرجع سابق ، ص ١١ .

ينحصر الحديث هنا على الأعباء الاقتصادية فقط التي تتمثل في توفير السكن والغذاء ، وإنما تنتقل إلى الأعباء الاجتماعية والأمنية والسياسية فوجود معسكرات اللاجئين في الدول تزيد الاضطراب القبلي داخل هذه الدول نفسها ، إذ إن القبائل تهاجر بنفس عدائها وبذلك يكون عدم الاستقرار قد انتقل من وإلى تلك الدول التي تمت الهجرات إليها ، وهذا يكون مدعاة للتدخل الأجنبي بدعوى حفظ الأمن والاستقرار .

وهنا نضرب مثلاً من منطلق مشكلة دارفور ، ونبدأ بإفريقيا الوسطى ، فهي تخشى من أن يستغل أنصار الرئيس السابق الموجودين في دارفور ، الصراع في المنطقة لينقضوا على حكم الرئيس الحالي الذي جاء للحكم بانقلاب عسكري في مارس ٢٠٠٣ م ، وما يصيب أفريقيا الوسطى يصيب تشاد نسبة لوجود علاقة قوية بين النظامين .

وكذلك تعتبر مصر دارفور الامتداد الاستراتيجي لها عبر السودان ، وعمق أفريقيا ، كما يقع تحت رمال دارفور الخزان الجوفي وتشارك في مياهه الجوفية كل من مصر وليبيا والسودان وتشاد ، ومن ثم فوجود قوى دولية في دارفور أو تصاعد الصراع فيها لفصل الإقليم يهدد مصالحها المائية وأمنها القومي بصورة مباشرة ، يضاف إلى ذلك الحديث عن وجود علاقات بين تمرد دارفور وإسرائيل من خلال الجسر الإريتري الذي يمثل خطراً كبيراً على مصر.^(٣٢)

ويمكن القول ، إن مشكلة الاختلاف في إفريقيا طرحت مخاطر عامة منها تدفق اللاجئين من المناطق المتأثرة لدول الجوار وتهديد أمن الدول المجاورة بتسرب السلاح والمسلحين ، إضافة إلى تشجيع المجموعات الشبيهة في الدول المجاورة على ممارسة التمرد لانتزاع مطالبها ، وزيادة أعباء الصرف على الأوضاع الأمنية على الحدود ، كما أن فرض عقوبات على الدول الإفريقية يطرح تأثيرات اقتصادية سالبة على انسياب حركة التبادل التجاري بين الدول بشكل طبيعي حتى لو كانت هذه العقوبات لا تمس هذا الجانب بصورة مباشرة ، أما في حالة حدوث تدخل عسكري أجنبي في القارة فإن الدول المجاورة في هذه الحالة ستصبح في وضع صعب من جراء تفجير العنف بدرجة أكبر في منطقة النزاع ووجود

(٣٢) السيد فليفل وحسن مكّي ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

مقاومات مسلحة يمكن أن تتحرك عبر الحدود مدعومة بالعلاقات القبلية ، إضافة لما يمثله الوجود الأجنبي من ضغوطات على بقية دول المنطقة.

الخاتمة والتوصيات :

كان من نتائج السياسات الاستعمارية أن تعدد بناء الأمة في معظم دول القارة ؛ مما ودد نتائج عكسية ، كان أهمها حدوث أزمة عدم التكامل الإقليمي ، وكذا عدم التكامل السياسي ، وكان من مظاهر ذلك : التظاهرات ، والتوترات الأمنية ، والإضرابات ، والتمردات المسلحة ، والانقلابات العسكرية ، والمحاولات الانفصالية ، وحروب العصابات ، بيد أن أخطر تلك المظاهر على الإطلاق تمثل في التطرف ” واندلاع الصراعات والحروب الأهلية في القارة “ ، حيث مثلت تلك الصراعات والحروب أبرز أشكال التفاعلات الإفريقية - الإفريقية في أعقاب الحرب الباردة ، فخلال المدة من ١٩٩٠م إلى أبريل ١٩٩٧م اندلعت في إفريقيا أكثر من ٣٠ حرباً ، كان معظمها داخلياً ، وفي العام ١٩٩٦م وحده ، نُكبت ١٤ دولة إفريقية بنزاعات داخلية مسلحة^(٣٣) ، ناجمة عن عوامل عديدة في مقدمتها التطرف الإثني .

إن التطرف والاختلاف والتفرق في القارة الإفريقية أدى إلى نتائج متباينة الأبعاد والتأثير ، وشملت هذه النتائج جوانب سياسية وإدارية واقتصادية وفكرية وثقافية ، كما أثمرت على التواصل بين الدول الإفريقية على كل الأصعدة من خلال فصم عرى الترابط بين أطراف القارة الإفريقية وبين شأها وجنوبها ، وشرقها وغربها ، وهو الأمر الذي حدث بعامل الاستعمار الأوربي الذي تمتع هو نفسه بتباينات في المنطلقات والمناطق الجغرافية التي سيطر عليها لذا يجب :

(١) أن تعرف الأمة الإفريقية من هم أعداؤها الحقيقيون ، على مر التاريخ ، ولو تلونت الوجوه ، وتبدلت الأفعنة ، وتغيرت الحيل والطرق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] . فإذا عرف الأفرقة من هو عدوهم ، نسوا الخلافات الجانبية أو الجزئية فيما بينهم ، ليقفوا في مسار واحد نحو تحقيق الوحدة ، والسلامة من الأذى والضرر الذي يوجهه العدو نحوهم .

(٣٣) قراءات إفريقية - الصراعات الإثنية في إفريقيا - الخصائص والتداعيات وسبل المواجهة .

- (٢) يجب أن تتوحد جهود الأمة في شتى المجالات : السياسية ، والتعليمية ، والاقتصادية ، والإعلامية والدفاعية ، من أجل حماية مصيرها المشترك ، لأن الأمة الإسلامية مهددة بخطر مشترك ، فهي مقصودة في مجموعها ، والتساهل أو غض الطرف عن جزء من الأمة ، يعد تمكيناً للعدو الذي يحرص على تدميرها وإسقاطها وإزالة حضارتها ومآثر رقيها وتقدمها.
- (٣) نبذ الاختلاف والتطرف ، إذا أراد الإنسان الإفريقي أن يعيش بعيداً عن المكدرات والمنغصات ، وعلينا نحن المسلمين أن نعينهم بمنهج القرآن الكريم ، الداعي إلى الوحدة والأخوة ، وأن نرسخ في نفوسنا يقيناً أن التفاضل إنما بالتقوى ، قال تعالى : ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾ [الحجرات : ١٣].
- (٤) إصلاح النظام الاقتصادي ، فلا سبيل لإطلاق الحرية الفردية فيه لأن ذلك سوف يعني في عالم اليوم إتاحة المجال لرأس المال الأجنبي لأنه هو الأقوى والأقدر في العالم وهذا أكبر عامل لمحاربة التطرف.
- (٥) ضرورة تجميع جهود أبناء القارة ، وحشد قوى العلماء والمثقفين والشباب والرجال والنساء نحو تحقيق الوحدة ، وتعميق العلاقات الاجتماعية ، ونبذ التعصب العرقي والطائفي والمذهبي .
- (٦) التخلي عن تسييس القبائل ، وأن يكون معيار المشاركة السياسية بعيداً عن الانتماءات العرقية والجهوية التي نهى عنها الإسلام ، فقد قال رسول الله ﷺ عن القبلية "دعوها فإنها منتنة". فقد باتت الإثنية محفزاً أساسياً لإثارة التطرف والحروب الأهلية في إفريقيا ، فبالرغم من وجود عوامل أخرى للتطرف مثل الخلافات الدينية ، والمصالح الاقتصادية ، والصراع على السلطة ؛ فإن تلك العوامل لا تحدث تأثيراتها في الغالب إلا بعد أن تتداخل مع العوامل الإثنية ، فالإحساس بالظلم والحرمان من جانب جماعة أو جماعات إثنية معينة هو بداية الطريق نحو اندلاع الصراعات والحروب الأهلية في مجتمع ما.
- (٧) إحياء منهج الوحدة والاجتماع ، وترك الفرقة والنزاع ، إحياءً بالقول والعمل ، والدعوة والممارسة عند العاملين للإسلام بمختلف جماعاتهم وتنظيماتهم ، لأنهم يمثلون بمجموعهم عناصر الطائفة المنصورة في هذا العصر ، التي قال عنها ﷺ : "لَا

تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ“ .^(٣٤)
والله نسأل أن يؤلف بين قلوبنا وأن يجمعنا على الخير والهدى ، والحمد لله رب العالم .

قائمة المراجع :

- (١) آدم بمبا . الإسلام وتشكيل الهويات في إفريقيا ، مجلة قراءات إفريقية ، إبريل ٢٠١٢م ، العدد ١٠ .
- (٢) آدم محمد أحمد ، دكتور ، دارفور ” المأزق والحلول “ ، مؤتمر جمعية العلوم السياسية السودانية ، قاعة الصداقة ، نوفمبر ٢٠٠٨م .
- (٣) آدم عبد المؤمن ، طريق الإنقاذ الغربي ، التنمية مفتاح السلام في دارفور .
- (٤) السيد على أحمد فليفل ، دكتور . إفريقيا والاستعمار - بحث مقدم إلى ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا - الخرطوم ، السودان جامعة أم درمان الإسلامية بالتعاون مع منتدى النهضة والتواصل الحضاري . الجزء الأول .
- (٥) السيد فليفل وحسن مكي ، أعمال الحلقة النقاشية حول الصراع في دارفور .
- (٦) أسامة على زين العابدين . المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطية في إفريقيا المعاصرة ، المرصد الثقافي ، ورقة منشورة في أعمال ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا ، الجزء الأول .
- (٧) أيمن شبانة . - الصراعات الإثنية في إفريقيا .. الخصائص - التدايعات - سبل المواجهة ٢٠ فبراير ٢٠١٤م - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة .
- (٨) جامع عمر عيسى . الصراع بين الإسلام والنصرانية في شرق إفريقيا ، ١٩٩٩م .
- (٩) حمدي عبد الرحمن . التعددية وأزمة بناء الدولة في أفريقيا الإسلامية ، القاهرة : مركز دراسات الأفريقي ، ١٩٦٦ .
- (١٠) حمدي عبد الرحمن . إفريقيا وتحديات عصر الهيمنة . القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٦م .

^(٣٤) المسند الموضوعي للجامع للكتب العشرة (م) ١٧٤ - (١٠٣٧) . (٦) / ١٠٢

- (١١) كرسطين نصار. الإنسان والجغرافيا ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٩١م.
- (١٢) عبد الله أبوبكر شيخ حسين . الصراعات الإثنية والدينية في إفريقيا . ورقة مقدمة إلى ندوة : الإسلام وتحديات إفريقيا . رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع جامعة أم درمان الإسلامية ومنتدى النهضة والتواصل الحضاري . الخرطوم - السودان ، ٤ - ٥ / ٦ / ١٤٣٤هـ - ١٤ - ١٥ - / ٤ / ٢٠١٣م.
- (١٣) عبد الله زكريا إدريس . التداخل القبلي واللغوي بين السودان والدول الإفريقية.
- (١٤) محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك ، الترمذي ، أبو عيسى [ت : ٢٧٩هـ]. سنن الترمذي . تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر (ج ١ ، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤ ، ٥) ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر . الطبعة : الثانية ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- (١٥) مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري [ت : ٢٦١هـ]. * - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ . المحقق : محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت عدد الأجزاء : ٥ ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين .
- (١٦) مفرح بن سليمان القوسي [مجلة البيان ٢١٦]. عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .
- (١٧) نور الدين البشير. بوكو حرام قراءة في عوامل النشأة والتطور .. مقال في الانترنت .



التطرف والغلو ” الأسباب والآثار والعلاج “

د. عبد الحي القاسم عبد المؤمن عمر
جامعة الإمام المهدي ، كلية الشريعة والقانون

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٧٣-٢٠٢)

المستخلص :

هدفت هذه الدراسة لبيان معنى التطرف والغلو الديني ، وذلك بتعريف موجز للمصطلحين في اللغة والاصطلاح ، وبينت الدراسة ، أن المصطلحين مترادفان من حيث أن كلاً منهما يعتبر تجاوزاً لحد الاعتدال والتوسط ، كما وضحت الدراسة أن التطرف والغلو ظاهرة اجتماعية عامة لا تختص بزمن دون آخر كما لا يمكن إلحاقها بالمغالين المسلمين فقط ، بل في كل الأديان السماوية نجد من يتطرف ويغالي فيها ، لأن الأديان لا توصف بالغلو لأن منهجها رباني ، بل مطبقوها هم الذين يقومون بمجاوزة حدود الاعتدال ، كما وضحت الدراسة أسباب الغلو والتطرف في الدين ومظاهره ، ثم أخيراً ما هو العلاج الناجع لهذه الظاهرة التي شغلت العالم بأثره ، وختمت الدراسة بأهم النتائج وأبرز التوصيات.

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين ، أما بعد.

لا شك أن الغلو والتطرف كلمتان مترادفتان لأننا عندما نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة طرف نجد أنها شاملة لكل من يتجاوز التوسط إما بالإفراط والغلو^(١) ، أو بالتفريط والإهمال ، فالتطرف والغلو هو سلوكٌ يظهر في حياة كثير من الناس ، ويرجع هذا السلوكُ إلى عدة عوامل ودوافع تحركه ، وقد عُرف هذا السلوك في معظم عصور التاريخ الإسلامي .

وتتنوع الأسباب المؤدية إلى الغلو والتطرف ، وتمتد آثارهما إلى زعزعة النظام المجتمعي والأمان النفسي ، الذي يُعدُّ من أهم الضرورات الإنسانية لدى البشرية جمعاء .

ومعرفة الأسباب المختلفة وحصرها خطوةً مهمةً وضروريةً للحدِّ من الغلو والتطرف والقضاء عليها .

^(١) المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس ، وآخرون ، مادة طرف ، معجم اللغة العربية المعاصر ، مادة غلا .

واستشعاراً من الباحث بأهمية معرفة أسباب الغلو والتطرف : النفسية والاجتماعية والفكرية والتربوية والسياسية والاقتصادية وغيرها بصورة شاملة ومتعمقة ، فقد قام باختيار هذا الجانب والكتابة فيه .

أسباب اختيار الموضوع :

(١) بيان أن الغلو والتطرف أديا إلى قتل ونهب وإفساد في الأرض في كثير من دول العالم ، الإسلامية وغيرها فكان لا بد من توضيح موقف الشرع الحنيف من ذلك والأسباب المؤدية إليه وعلاج ذلك .

(٢) هنالك بعض الشبهات التي تدور في أذهان بعض الناس فيما يتعلق بتفسير الآيات الثلاث في سورة المائدة : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] ، فكان لا بد من توضيح المقصود من ذلك .

أهداف البحث :

(١) يهدف هذا البحث إلى بيان الجهد العظيم الذي بذله علماءنا الكرام في سبيل إيصال المعلومة الصحيحة لأفراد المجتمع فيما يتعلق بهذا الموضوع .

(٢) تبصير القارئ بأهمية الرجوع إلى كتاب ربنا تعالى وسنة نبيه ﷺ وفهمها كما فهمها سلف هذه الأمة ، ولا يتأتى ذلك إلا بمزاحمة العلماء في حلقاتهم العلمية .

أهمية البحث :

(١) تتمثل أهمية هذا البحث في كون الغلو أصبح ظاهرةً منتشرةً في بلاد العالم الإسلامي كله ، تهدد سلامة الجماعات والأفراد وأمنهم .

(٢) كما أن لهذا الموضوع أهمية قصوى في كون القارئ يستطيع الوقوف على النصوص الواضحة التي تحذر الجميع من الوقوع في الغلو من الكتاب والسنة وكيف فهمها سلف هذه الأمة وقاموا بترجمة ذلك في الواقع المعاصر .

منهج البحث :

المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي والتاريخي والتحليلي.

مخطط البحث :

المبحث الأول : التعريف بالتطرف والغلو لغة واصطلاحاً.

المطلب الأول : التطرف والغلو في اللغة

المطلب الثاني : التعريف بالتطرف والغلو اصطلاحاً

المبحث الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو.

المطلب الأول : الأسباب العامة.

المطلب الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو ومظاهره في العصر الحديث

المبحث الثالث : مظاهر الغلو والتطرف وآثارهما.

المطلب الأول : الآثار العقيدية والفكرية

المطلب الثاني : الآثار السلوكية والاجتماعية

المبحث الرابع : طرق علاج ظاهرة التطرف والغلو.

المطلب الأول : العلاج العقدي والديني

المطلب الثاني : العلاج الاجتماعي

المبحث الأول

التعريف بالتطرف والغلو لغةً واصطلاحاً

المطلب الأول : التطرف والغلو في اللغة

أولاً : التطرف في اللغة : معنى تطرف في معجم المعاني الجامع ، تطرف ” فعل “ ، تطرف / تطرف في يتطرف ، تطرفاً فهو متطرف ، والمفعول متطرف^(١) ، فالتطرف مشتق من الطرف أي الناحية ، أو منتهى الشيء ، وتطرف أتى الطرف ، وجاوز حد الاعتدال ولم يتوسط.

وأصل الكلمة في الحسيات ثم استخدمت في المعنويات ، كالتطرف الفكري ، وفي الحقيقة هو مصطلح صحفي ولم يرد هذا اللفظ بهذا الاصطلاح لا في الكتاب ولا في السنة.

ثانياً : الغلو في اللغة : كلمة غلو من : ” غ ل و “ ، مصدر غلا ، كلامه فيه غلو : فيه مبالغة ، وتميز فكره بالغلو ، أي تميز فكره بالتعصب ، وغلا في الدين : أي المغالاة والمشقة وتحميل النفس ما لا تطيق وتشدد وتصلب حتى جاوز الحد.^(٢)

المطلب الثاني : التعريف بالتطرف والغلو اصطلاحاً

أولاً : التطرف : تعد مشكلة التطرف من القضايا الرئيسية التي يهتم بها الكثيرون في المجتمعات المعاصرة فهي قضية يومية حياتية تمتد جذورها في التكوين الهيكلي للأفكار والمثل التي يرتضيها المجتمع ، فالفكر المتطرف شأنه شأن أي نسق معرفي ، هو ظاهرة اجتماعية تتأثر وتؤثر في غيرها من الظواهر ، مرتبطة إلى حد كبير بالظروف التاريخية والسياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من ظروف يتعرض لها المجتمع ، ويعد مفهوم التطرف من المفاهيم التي يصعب تحديدها أو إطلاق تعميمات بشأنها نظراً لما يشير إليه المعنى اللغوي للتطرف من تجاوز لحد الاعتدال^(٣) ، وغالبا ما يستخدم هذا

(١) المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، مادة (ط ر ف) .

(٢) معجم اللغة العربية المعاصر ، مادة غلا .

(٣) مفهوم التطرف الديني ، www.moqatel.com

المصطلح من قبل العلمانيين دون التزام بالموضوعية في هذا المصطلح ، فهم لم يحددوا أولاً ما هو التطرف ، ولا معناه ، بل يريدونه لفظاً غامضاً عائماً فضفاضاً لمحاولة إضفائه وإصاقه فيمن يشاءون سواء كانت الخصومة سياسية أو فكرية أو شرعية أو دينوية ، بل حتى خصومة شخصية ، فالיום التطرف والمتطرف هو الإسلام والملتزم به ، وغداً يتحول التطرف إلى جهة أخرى .

فمن له مواقف سياسية معينة ضد إسرائيل فهو متطرف سياسي مهما كانت قضيته عادلة ، ويبدل من أجل الدفاع عن دينه وبلده وأمته .

ومواجهة بعض المواقف السلوكية السلبية في نظر بعض العلمانيين تطرف كالدعوة إلى الحجاب ، ونبد التبرج ، أو محاربة الربا ، والدعوة للعمل بالنظام الإسلامي ، أو تجنب الفواحش ، وتقييد الحريات بالضوابط الدينية يعد تطرفاً عند البعض ، كما يعد متطرفاً من يدعو للالتزام العقائدي في الدعوة لتحكيم الشريعة واعتبار غير المسلم له أحكامه الخاصة به ، وأن لقاء الديانات على غير كلمة التوحيد غير ممكن ، وأن من لم يؤمن بالنبي ﷺ بعد ما بلغت الرسالة وزالت عنه الموانع فليس بمسلم ، ففي نظر البعض يعد هذا تطرفاً عقدياً ، ولذا فهذه لفظة ليس لها حد لمعرفة ما تجمع وما تمنع إذ الكل يوظفها حسب هواه ، وبما أن التطرف هو مجاوزة حد الاعتدال فهذا يدعو إلى معرفة الغلو .

ثانياً : الغلو : الغلو لفظة شرعية وردت في الكتاب والسنة وهي من غلا إذ زاد وارتفع وجاوز الحد ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ... ﴾ [النساء : ١٧١] وقال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧] .

وجاء في السنة عن ابن عباس رضي الله عنه : لما جمع النبي ﷺ الجمرات أمره أن يلقط له حصي صغارا وقال : ” بمثل هؤلاء فارموا وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين“^(٥).

ولذا فإن استخدام المصطلحات الشرعية أسلم وأحكم. والغلو هو مجاوزة الحد والحد هو النص الشرعي على فهم سلف الأمة الذين شهدوا التنزيل وفهموا مقاصد الشرع الحكيم. والغلو نوعان :

الأول : غلو اعتقادي : كغلو النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام ، وغلو الرافضة في الأئمة ، وغلو الصوفية في الأولياء ، وغلو الخوارج في تكفير أهل الإسلام بالكبيرة والذنب.

الثاني : غلو عملي : وهو المتعلق بالأمور العملية التفصيلية من الأقوال والأفعال بما لا يترتب عليه اعتقاد مثل رمي الجمار بالحصي الكبيرة ، والزيادة في العبادات كالوصول في الصوم والتبتل بعدم الزواج والرهبنة في الدين... الخ.

^(٥) صحيح ابن حبان بترتيب بن بلبان ، محمد بن حبان البستي ، المترجم : شعيب الأرنؤوط ، كتاب مناسك الحج ، باب التقاط الحصى ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، رقم الحديث (٣٨٧١) ، وصححه المحدث.

البحث الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو^(١)

المطلب الأول : الأسباب العامة :

- (١) قلة التفقه في الدين "أي ضعف العلم الشرعي" ، أو أخذ العلم على غير نهج سليم ، أو تلقيه عن غير أهلية ولا جدارة.
 - (٢) ظهور نزعات الأهواء والعصبيات والتحيزات.
 - (٣) الابتعاد عن العلماء وجفوتهم وترك التلقي عنهم والافتداء بهم ، والتلقي عن دعاة السوء والفتنة والالتفاف حولهم.
 - (٤) التعالم والغرور ، والتعالي على العلماء وعلى الناس ، واحتقار الآخرين وآرائهم.
 - (٥) حداثة السن وقلة التجارب ، والغيرة غير المتزنة؛ "عواطف بلا علم ولا حكمة".
 - (٦) شيوع المنكرات والفساد والظلم في المجتمعات ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو التقصير فيه ، كما في كثير من البلاد الإسلامية.
 - (٧) النعمة على الواقع وأهله ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية في كثير من بلاد المسلمين.
 - (٨) تحدي الخصوم "في الداخل والخارج" واستفزازهم للغيورين ، وللشباب وللدعاة "المكر الكبار" ، وكيدهم للدين وأهله ، وطعنهم في السلف الصالح.
 - (٩) قلة الصبر وضعف الحكمة في الدعوة لدى كثير من الغيورين ولا سيما الشباب المتدينين.
- إذا توافرت هذه الأسباب ونحوها أو أكثرها ، مهّد هذا لظهور الغلو والتطرف في أي زمان وأي مكان وأي مجتمع ، وبخاصة إذا انضاف إلى هذه الأسباب تقصير الولاية وغفلة العلماء وطلاب العلم والدعاة والمربين والآباء والمتصدّرين عن معالجة هذه السمات وأسبابها في وقت مبكر.

^(١) راجع كتاب (الخوارج) ناصر العقل ١٢٣-١٢٤.

هذا ما يتعلق بالأسباب العامة على مدار التاريخ.
أما الأسباب التي هيأت لظهور الغلو والعنف في العصر الحديث بين المسلمين في شتى بلاد العالم فأذكرها في المطلب التالي.

المطلب الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو ومظاهره في العصر الحديث^(٧)

أما ما يتعلق بالأسباب التي هيأت لبروز الغلو الذي هو سبب من أسباب العنف والإرهاب بين المسلمين في العصر الحديث^(٨) فهي كثيرة ومتشابهة تتمثل في الآتي :

أولا : إعراض أكثر المسلمين عن دينهم ، عقيدة وشريعة وأخلاقا : إعراضا لم يحدث مثله في تاريخ الإسلام ، مما أوقعهم في ضنك العيش وفي حياة الشقاء. كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٧] يتجلى هذا الإعراض بأمر كثيرة في حياة كثير من المسلمين اليوم؛ أفرادا وجماعات ودولاً وشعوباً وهيئات ومؤسسات ، ومن مظاهر هذا الإعراض :

- (١) كثرة البدع والعقائد الفاسدة ، وما نتج عن ذلك من الافتراق والفرق والأهواء ، والتنازع والخصومات في الدين.
- (٢) الإعراض عن نهج السلف الصالح وجهله ، أو التنكر له.
- (٣) العلمنة الصريحة في أكثر بلاد المسلمين ، التي أدت إلى الإعراض عن شرع الله ، وإلى الحكم بغير ما أنزل الله ، وظهور الزندقة والتيارات الضالة ، والتنكر للدين والفضيلة ، مما أدى إلى :

- (١) شيوع الفساد ، وظهور الفواحش والمنكرات ، وحماتها.
- (٢) التعلق بالشعارات والمبادئ الهدامة والأفكار المستوردة.

^(٧) راجع (الخوارج) لناصر العقل ١٢٥-١٣١ .

^(٨) الإرهاب والعنف ظاهرة شعبية عالمية ، لكنها قد تبدو بين المسلمين أكثر؛ لأنهم مستهدفون وهم أكثر إباء للضيم.

وكل هذه الأمور ونحوها مما يندرج تحت مفهوم الإعراض عن شرع الله ، وتثير غيرة الشباب المتدين ، وحين لا يظهر له السعي الجاد لتغيير الحال وإنكار المنكر ، يلجأ إلى التصدي لهذه الانحرافات بلا علم ولا حكمة.

(٣) وقوع أكثر المسلمين في التقصير في حق الله تعالى ، وارتكابهم للذنوب والمعاصي ، والمنكرات ، وضعف مظاهر التقوى والورع والخشوع في حياة المسلمين اليوم.

(٤) ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو التقصير فيه في أكثر بلاد المسلمين.

ثانيا : شيوع الظلم بشتى صورته وأشكاله : ظلم الأفراد ، وظلم الشعوب ، وظلم الولاة وجورهم ، وظلم الناس بعضهم لبعض ، مما ينافي أعظم مقاصد الشريعة ، وما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ من تحقيق العدل ونفي الظلم ، مما يُنمي مظاهر السخط والتذمر والحقد والتشفي في النفوس.

ثالثا - تحكُّم الكافرين " من اليهود والنصارى والملحدين والوثنيين " في مصالح المسلمين : وتدخُلهم في شؤون البلاد الإسلامية ، ومصائر شعوبها عبر الاحتلال ، والغزو الفكري والإعلامي والاقتصادي ، وتحت ستار المصالح المشتركة ، أو المنظمات الدولية ، ونحو ذلك مما تداعت به الأمم على المسلمين من كل حذب وصبوب ، بين طامع وكائد وحاسد.

وغير ذلك من صور التحكم في مصائر المسلمين والحجر عليهم ، مما أدى إلى تدمرهم وشعور طوائف من شبابهم ومثقفهم وأهل الغيرة منهم بالضييم والإذلال والإحباط وما ينتج عن ذلك من ردود الأفعال والسخط والعنف.

رابعا : محاربة التمسك بالدين والعمل بالسنن : التضييق على العلماء الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والتمكين لأهل الفسق والفجور والإلحاد ، مما يعد أعظم استفزاز لذوي الغيرة والاستقامة.

خامسا : الجهل بالعلم الشرعي وقلة الفقه في الدين : المتأمل لواقع أكثر أصحاب التوجهات التي يميل أصحابها إلى الغلو والعنف يجد أن أكثرهم يتميزون بالجهل وضعف الفقه

في الدين ، وضحالة الحصيلة في العلوم الشرعية ، فحين يتصدون للأمور الكبار والمصالح العظمى يكثر منهم التخبط والخلط والأحكام المتسرفة والمواقف المتشنجة ، ففي الحديث ” تحقرون صلاتكم مع صلاتهم “^(٩).

سادسا : الجفوة بين العلماء والشباب ” وبين الشباب والمسؤولين “ : ففي أغلب بلاد المسلمين تجد العلماء ” بعلمهم وحكمتهم وفقههم وتجاربهم “ في معزل عن أكثر الشباب ، وربما يسيئون الظن بالكثير منهم كذلك ، وبالمقابل تجد الشباب بحيويتهم ونشاطهم وهمتهم بمعزل عن العلماء ، وربما تكون سمعتهم في أذهان الكثيرين على غير الحقيقة ، وبعض ذلك بسبب انحراف مناهج التربية لدى بعض الجماعات ، وبسبب وسائل الإعلام المغرضة التي تفرق بين المؤمنين ، مما أوقع بعض الشباب في الأحكام والتصرفات الجائرة والخطأ التي لا تليق تجاه علماءهم ، وتجاه حكامهم ، وكذلك هناك حاجز نفسي كبير بين النخبة من الشباب ، وبين المسؤولين ، تجعل كلا منهم يسيء الظن بالآخر ، ولا يفهم حقيقة ما عليه الآخر إلا عبر وسائط غير أمينة غالبا ، ومن هنا يفقد الحوار الذي هو أساس التفاهم والإصلاح ، قال ﷺ ” من

أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل “^(١٠).

سابعا : الخلل في مناهج بعض الدعوات المعاصرة : فأغلبها تعتمد في مناهجها على الشحن العاطفي ، وتربي أتباعها على مجرد أمور عاطفية وغايات دنيوية : سياسية واقتصادية ونحوها ، وتحشو أذهانهم بالأفكار والمفاهيم التي لم تؤصل شرعا ، والتي تؤدي إلى التصادم مع المخالفين بلا حكمة. وفي الوقت نفسه تقصّر في أعظم الواجبات ، فتنسى الغايات الكبرى في الدعوة ، من غرس العقيدة السليمة والفقهاء في دين الله تعالى ، والحرص على الجماعة ، وتحقيق الأمن ، والتجرد من الهوى والعصبية ، وفقه التعامل مع المخالفين ومع الأحداث على قواعد الشرع.

^(٩) صحيح البخاري-كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم-باب قتل الخوارج ٣/٣٤٠ ح٦٩٣١.

^(١٠) صحيح البخاري-كتاب العلم-باب رفع العلم وظهور الجهل ١/٣١ ح٨١.

ثامنا : ضيق العقل وقصر النظر وقلة الصبر وضعف الحكمة : ونحو ذلك مما هو موجود لدى بعض الشباب ، فإذا أضيف إلى هذه الخصال ؛ من سوء الأحوال ، وشيوع الفساد ، والإعراض عن دين الله ، والظلم ، ومحاربة التدين وفقدان الحوار الجاد - أدى ذلك إلى التطرف في الأحكام والمواقف ، ” إن الله يحب الرفق في الأمر كله “^(١١) ، وعند مسلم : ” إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه “^(١٢) .

تاسعا : تصدر حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام : تصدر حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام للعلم والدعوة ، ففي الحديث : ” سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة “^(١٣) .

لهذا ترى بعض الشباب اتَّخذ منهم رؤساءً جهالاً ، فأفتوا بغير علم ، وحكموا في الأمور بلا فقه ، وواجهوا الأحداث الجسام بلا تجربة ولا رأي ولا رجوع إلى أهل العلم والرأي ، بل كثيرٌ منهم يتقصص العلماء والمشايخ ولا يعرف لهم قدرهم ، فيلمزهم بالتقصير أو المداهنة ونحو ذلك.^(١٤)

عاشرا : التعالم والغرور : من أسباب ظهور الغلو والعنف في بعض فئات الأمة اليوم ادعاء العلم ، في حين أنك تجد أحدهم لا يعرف بديهيات العلم الشرعي والأحكام وقواعد الدين ، أو قد يكون عنده علم قليل بلا أصول ولا ضوابط ولا فقه ولا رأي سديد ، ويظن أنه بعلمه القليل وفهمه السقيم قد حاز علوم الأولين والآخرين ، فيستقل

^(١١) صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء على المشركين ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م ، دار البيان الحديثة ، القاهرة ، ٣ / ٢٢٣ ، رقم الحديث : (٦٣٩٥).

^(١٢) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م ، ٢ / ٦٤٠ ، رقم الحديث : (٢٥٩٤).

^(١٣) صحيح البخاري-كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم-باب قتل الخوارج ٣ / ٣٤٠ ح ٦٩٣٠ .

^(١٤) صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، مكتبة الصفا ، ط الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م ، تحقيق محمود بن الجميل ٣ / ٣٤٠ ح ٦٩٣٠ .

بغروره عن العلماء ، عن مواصلة طلب العلم فيهلك بغروره ويهلك. وهكذا كان الخوارج الأولون يدعون العلم والاجتهاد ويتناولون على العلماء ، وهم من أجهل الناس.

حادي عشر : التشدد في الدين والتنطع : الخروج عن منهج الاعتدال في الدين الذي كان عليه النبي ﷺ وقد حذر النبي ﷺ من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ” إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه “^(١٥)

ثاني عشر : شدة الغيرة وقوة العاطفة لدى فئات من الشباب والمثقفين وغيرهم : بلا علم ولا فقه ولا حكمة ، مع العلم أن الغيرة على محارم الله وعلى دين الله أمر محمود شرعا ، لكن ذلك مشروط بالحكمة والفقه والبصيرة ، ومراعاة المصالح ودرء المفاسد. فإذا فقدت هذه الشروط أو بعضها أدى ذلك إلى الغلو والتنطع والشدة والعنف في معالجة الأمور ، وهذا مما لا يستقيم به للمسلمين أمر لا في دينهم ولا في دنياهم.

ثالث عشر : فساد الإعلام : الإعلام في العصر الحديث صار -غالبا- مطية الشيطان إلى كل فتنة وضلالة وبدعة ورذيلة ، فإن وسائل الإعلام في أكثر البلاد الإسلامية غالبا ما تسخر في سبيل الشيطان ، وهي من خيله ورجله في الدعوة إلى الضلالة ونشر البدعة والزندقة وترويج الرذيلة والفساد ، وهتك الفضيلة ، وحرب التدين وأهله ، وبالمقابل فإن إسهام الإعلام في نشر الحق والفضيلة قليل وباهت جدا ، ولا شك أن هذا الوضع منكر عظيم ومكر كبار ، ويعد أعظم استفزاز يثير غيرة كل مؤمن وحفيظة كل مسلم ، فإذا اقترن ذلك بشيء من قلة العلم والحلم والصبر والحكمة ، وغياب التوجيه الشرعي السليم ، أدى ذلك بالضرورة إلى الصلف والقسوة في الأحكام والتعامل ، وإلى الإحباط والتشاؤم واليأس عند بعضهم فيندفع إلى التغيير بعنف. لذا فإن علاج هذه الظواهر لن يكون حاسما إلا بإزالة أسبابها.

ومن العلماء من قسم أسباب التطرف والغلو إلى الآتي :

^(١٥) النسائي الإبان وشرائعه (٥٠٣٤).

أهم أسباب الغلو والتطرف :

أولاً : الأسباب الفكرية للغلو والتطرف :

(١) معاناة العالم الإسلامي اليوم من انقسامات فكرية حادة ، بين تياراتٍ مختلفة ، ومن أبرز هذه التيارات :

(أ) تيارٌ يدعو إلى بناء الحياة على أساسٍ دنيويٍّ ماديٍّ غيرٍ مرتبطٍ بالإسلام ، ولا بالتقاليد والعادات الاجتماعية الأصيلة. بل هي من وجهة نظرهم ، عوائقٌ في طريق التقدم والانطلاق نحو الحضارة.

(ب) تيارٌ يعارض المدنية الحديثة وكل ما يتصل بالتقدم الحضاري ، فهي من وجهة نظرهم فسادٌ في الدين والأخلاق ، فالحضارة تجعل الفرد يعيش لنفسه ملبياً لرغباتها متنكراً للآداب والفضيلة.

ولذا فكل تيارٍ منهما يرفض فكر الآخر ويقاومه ، وينظر إليه نظرة ازدراء واحتقار.^(١٦)

(٢) حرص الاستعمار على مسخ الهوية الإسلامية في البلدان المستعمرة ، وذلك من خلال إحياء القوميات التي عفا عليها الدهر ، مثل : الفرعونية في مصر ، والآشورية في العراق ، والفارسية في إيران ، والفينيقية في سوريا وفلسطين ، والبربرية في المغرب العربي.^(١٧)

(٣) غياب الوسطية ، إن غلو بعض المعاصرين أمات كثيراً من السنن ، فتوجّه بعض من ظن أن الدين فيما عليه الغلاة ، وصار يرمي الآخرين بالتفريط والتهاون في دين الله والمداهنة ونحو ذلك ، بل إن علو صوت الغلاة وظهور أمرهم وغرابة فعلهم جعلهم أشهر في الميدان من بعض أهل الاعتدال حتى ظن بعض الجهلة أن هؤلاء يمثلون الإسلام وأهله ، فظهور الغلو اختفى الاعتدال وظهر الغالين غاب المعتدلون.^(١٨)

^(١٦) دور التربية الإسلامية في الإرهاب الظاهري ص ٦١-٦٢ .

^(١٧) مشكلة الغلو في الدين اللويحق ٢ / ٥٦٦ .

^(١٨) نفس المرجع ص ٧٠٣ .

ثم إن النبي ﷺ حذر من الخروج على منهج الاعتدال في الدين فقال: ”إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه“^(١٩) والتشدد في الدين كثيراً ما ينشأ عن قلة الفقه في الدين.

(٤) الخلل في مناهج بعض الدعوات المعاصرة ، فأغلبها تعتمد في مناهجها على الشحن العاطفي ، وتربي أتباعها على مجرد أمور عاطفية وغايات دنيوية ونحوها ، وتحشو أذهانهم بالأفكار والمفاهيم التي تؤدي إلى التصادم مع المخالفين بلا حكمة. وفي الوقت نفسه تقصّر في أعظم الواجبات ، فتنسى الغايات الكبرى في الدعوة ، من غرس العقيدة السليمة ، والفقه في الدين ، والحرص على الجماعة ، وتحقيق الأمن ، والتجرد من الهوى والعصبية ، وفقه التعامل مع المخالفين.

ثانياً : الأسباب العلمية للغلو والتطرف :

(١) غياب دور العلماء وانشغالهم ، فالعلماء لهم منزلة عظيمة في المجتمع المسلم ، فهم ورثة الأنبياء ، فغيابهم أو انشغالهم ، مدعاة لتصدير غير الأكفاء الذين يضلون الناس بغير علم ، وحينذاك يتعرض المجتمع للهلاك^(٢٠). ففي الحديث : ” من أشرط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل “^(٢١).

(٢) نقص الثقافة الدينية في المناهج التعليمية في معظم البلاد الإسلامية ، فقد أسست السياسة التعليمية في معظم البلاد الإسلامية على أسس غير إسلامية ، كالتنشئة على حب القومية العربية ونحوها^(٢٢) فما يُدرّس في مراحل التعليم الأساس وما بعده ، لا يؤهل شخصاً مثقفاً بالحد الأدنى من الثقافة الإسلامية ، وقد أدى ضعف المقررات الدينية إلى الأثر السلبي على سلوك الأفراد واتجاهاتهم^(٢٣).

^(١٩) صحيح البخاري-كتاب الإيمان-باب الدين يسر ١/ ٢٠ ح ٣٩.

^(٢٠) مشكلة الغلو في الدين اللويحق ٢/ ٥٤٩ ، مرجع سابق.

^(٢١) صحيح البخاري-كتاب العلم-باب رفع العلم وظهور الجهل ١/ ٣١ ح ٨١.

^(٢٢) التعليم العام في البلاد العربية ، محمد منير موسى ، عالم الكتب بالقاهرة ، ط الثانية ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م ، ص ١٩٦.

^(٢٣) دور التربية الإسلامية في الإرهاب ، خالد الظاهري ، دار عالم الكتب بالرياض ، ط الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م ، ص ٦٠.

ثالثاً : الأسباب الدينية للغلو والتطرف :

- (١) الفساد العقدي ، إن كثيراً من المسلمين فرّقوا دينهم وكانوا شيعياً يقابلون البدعة بالبدعة ، فإذا نشأ فكر منحرف ظهر فكر منحرف آخر يناقضه ، فالشيعية مثلاً غالباً في علي عليه السلام والخوارج كفروه ، وفي العصر الحديث امتلأت الساحة بالفرق والمذاهب ، وقد كان انتشار تلك الفرق مؤثراً في إحداث الغلو والتطرف.^(٢٤)
- (٢) عدم الحكم بما أنزل الله في معظم البلاد الإسلامية ، وعند تتبع مظاهر الغلو والتطرف على مر التاريخ نجد غالبها يرجع إلى مسألة الحكم بغير ما أنزل الله ، فهذا الانحراف العقدي وهو عدم الحكم بما أنزل الله الذي أنتج انحرافاً عقدياً مقابلاً.^(٢٥)
- (٣) إعراض أكثر المسلمين عن دينهم ، عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً ، مما أوقعهم في ضنك العيش وفي حياة الشقاء ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ﴾ [طه : ١٢٤] ، مما يُنمي هذا الإعراض مظاهر السخط والتذمر والغلو والتطرف الفكري عند البعض. ومن مظاهر هذا الإعراض :
ظهور الفواحش والمنكرات وحماتها. والتعلق بالشعارات والمبادئ الهدامة والأفكار المستوردة. والتقصير في حق الله تعالى ، والوقوع في الذنوب والمعاصي. وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وشيوع الظلم بشتى صورته وأشكاله : ظلم الأفراد ، وظلم الشعوب ، وظلم الولاة وجورهم ، وظلم الناس بعضهم لبعض والتضييق على المتمسكين بالدين ، وبالمقابل التمكين لأهل الفسق والفجور والإلحاد ، مما يعد أعظم استفزاز لذوي الغيرة والاستقامة.
- (٤) إن الانحلال الخلقي المدعوم أحياناً بالقانون تحت غطاء الحرية هو أحد أسباب الغلو والتطرف ، فمظاهر الرذيلة التي يشاهدها المسلم خاصة في المجتمعات الإسلامية ، في الشارع والمدرسة والجامعة والإعلام الرسمي والصحافة والإذاعة والأسواق ، والاستهزاء بالدين وحملته وتشويه صورته ومحاربتة ، ومحاصرة القائم على دينه في فكره

(٢٤) مشكلة الغلو في الدين اللويحق ٢/٤٤٦-٤٥٠.

(٢٥) نفس المرجع ، ص ٤٣١-٤٣٢.

وإغلاق منافذ التعبير عليه ، كل ذلك من أسباب نشوء الغلو والتطرف وردة الفعل القاسية وإن كانت غير مبررة.

رابعاً : الأسباب السياسية للغلو والتطرف :

(١) التناقض الفاضح بين ما تحض عليه مواثيق النظام السياسي الدولي من مبادئ وما تدعو إليه من قيم إنسانية رفيعة ، وبين ما تنم عنه سلوكياته الفعلية التي تنتكر لكل القيم والمثاليات.

(٢) افتقار النظام السياسي الدولي إلى الحزم في الرد بعقوبات دولية ، حيث أن المجتمع الدولي يطبق هذه العقوبات على بعض دول العالم الثالث وتغض الطرف عن دول آخر ترتكب أفظع الجرائم ، وهذا يفتح المجال واسعاً أمام المغالين والمتطرفين في أن الاستهداف لدول دون أخرى.^(٣٦)

(٣) إن احتلال بلاد المسلمين بالغزو الفكري والعسكري وقتل أبنائهم وهتك أعراضهم وتدنيس مقدساتهم ومصادرة ثرواتهم ، كما يحصل في أفغانستان والعراق وفلسطين وغيرها ، حيث تداعى الأعداء على المسلمين من كل حذب وصوب ، بين طامع وكائد وحاسد. أدى إلى تدمير وشعور طوائف من شباب الأمة ومثقفها وأهل الغيرة بالضيم والإذلال والإحباط ، فنتج عن ذلك ردود أفعال مبنية على الغلو والتطرف والعنف ضد حكام الأمة وغيرهم ممن يرضون بحال الأمة.

خامساً : الأسباب الاقتصادية للغلو والتطرف :

(١) تبشر العولمة التي تجتاح العالم بمزيد من الأزمات الاقتصادية للدول والمجتمعات المطحونة ، مما يزيد الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، ومن ثم يولد التطرف في الفكر.^(٣٧)

(٢) إن كثيراً من النافذين استكثروا على شعوبهم أن يشاركوهم الحياة ، فاستأثروا بالثروات والمؤسسات والشركات ، وعاشوا حياة البذخ والسرف واستغلال السلطة ، في ظل وجود طبقة محرومة تعيش دون مستوى الفقر ، بل تصل إلى حد العدم ولا

^(٣٦) سلوك الإنسان بين الجريمة والعدوان والإرهاب منصور الشربيني ص ٢٤٤-٢٤٥.

^(٣٧) دور التربية الإسلامية في الإرهاب الظاهري ص ٥٩-٦٠.

تملك شيئاً ، إنه وبحكم الطبيعة البشرية سيرتفع مستوى الحقد والحسد والتحامل والتطرف والنقمة على الآخر الغني ، مما يؤجج روح العداة وبذكي نار التطرف والغلو تحت مسمى الدين أو غيره .

(٣) عدم القدرة على إقامة تعاون دولي جدي من قبل الأمم المتحدة ، وحسم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للدول . ويكون ذلك عن طريق النمو ، والتقليل من الهوة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، وتحقيق مستوى حياة أفضل للغالبية العظمى من الشعوب بكرامة وشرف .

(٤) عدم قدرة المنظمة على إيجاد تنظيم عادل ودائم لعدد من المشكلات الدولية . مثل اغتصاب الأراضي والنهب والاضطهاد وهي حالة كثير من الشعوب .^(٢٨)

سادساً : الأسباب الاجتماعية للغلو والتطرف

(١) اختلال العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ومما يلفت النظر هنا أن ضبط هذه العلاقة جاء بأسلوب شرعي بديع هو توجيه كل من الطرفين : الحاكم والمحكوم إلى القيام بالمهام المنوطة به والواجبات الموكلة إليه بأسلوب قوي ، فإذا نظرت إلى النصوص الواردة في شأن الحاكم وحقوق الرعية عليه والواجبات المنوطة به ظننت أن الشرع مائل إلى جانب الرعية ، وإذا نظرت إلى النصوص الواردة في شأن الرعية وحقوق ولي الأمر عليهم من الطاعة والنصرة ونحوها ظننت أن الشرع مائل إلى جانب الحاكم ، والموقف كما هو واضح يتشكل من مجمل النظر إلى النصوص الواردة في ذلك وعلى الإمام إقامة الدين والحكم بشريعة سيد المرسلين وإصلاح أمر المسلمين والرفق بهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الرعية السمع والطاعة ، وعليها التناصح والشورى .^(٢٩)

(٢) فقدان الانتماء إلى المجتمع الإسلامي والتعلق به ، لهذا فقد اهتم الإسلام بالتعلق بالمجتمع اهتماماً بالغاً ، وبيّن علاقة الفرد به حتى شبه المجتمع بالجسم الواحد ، ودعا إلى التعلق بالجماعة ، ففي الحديث : "عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع

(٢٨) المرجع السابق ص ٥٧-٥٨ .

(٢٩) مشكلة الغلو في الدين اللويحق ٢ / ٤٧٥-٤٨٨ ، مرجع سابق .

- الواحد وهو من الاثنين أبعد ومن أراد بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة“^(٣٠) وفي الحديث أيضاً: ”من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه“^(٣١)
- (٣) التفكك الأسري والاجتماعي ، فحرمان الطفل من الحاجات ، أو معاملته بالقسوة منذ صغره ، أو سوء العلاقة بين الزوجين ، يساعد على أن ينشأ الطفل قاسياً ناقماً على الناس ، يتخذ من الانحراف وسيلةً للثورة على مجتمعه وبيئته ، ونستشهد بحادثة عن النبي ﷺ ، فقد روي أنه قبل الحسن فقال له أحد الصحابة : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فقال النبي ﷺ : ”من لا يرحم لا يرحم“^(٣٢)
- (٤) رفقاء السوء ، لا شك أنه لا يُستهان بدور الرفقاء في النزوع نحو الغلو والتطرف ، لا سيما عندما يكون تأثير الرفقاء قوياً في وجود شخصية ضعيفة أو غير مستقرة أسرياً ، وفي الحديث : ”الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال“^(٣٣)

سابعاً : الأسباب التربوية للغلو والتطرف

- (١) افتقاد التوافق مع النفس ومع الغير ، وحين التأمل في الحياة المعاصرة نجد أن أكثر الذين اتهموا بالغلو والتطرف أو وقعوا فيه هم ممن يفتقد التوافق مع النفس أو مع المجتمع ، وعدم التوافق هذا دفعهم إلى اتخاذ أساليب غير شرعية في تغيير الواقع الذي يعيشونه.^(٣٤)

^(٣٠) سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، تحقيق مصطفى الذهبي ، -كتاب الفتن-باب ما جاء في لزوم الجماعة ٢١٣/٤ ح ٢١٦٥ . وقال : حديث حسن صحيح .

^(٣١) سنن الترمذي-كتاب الأمثال-باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٥٥٧/٤ ح ٢٨٦٣ . وقال : حديث حسن صحيح .

^(٣٢) صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ١٣٧/٣ ح ٥٩٩٧ ..

^(٣٣) سنن أبي داود ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي -كتاب الأدب-باب من يؤمر أن يجالس ٢٠٦٢/٤ ح ٤٨٣٣ . والحديث إسناده حسن .

^(٣٤) مشكلة الغلو في الدين اللويحق ١/٣٢٧ .

- (٢) عدم إشباع الحاجات الإنسانية ، فالإنسان وخصوصاً في مرحلة الشباب بحاجة إلى جملة من الحاجات الأساسية التي ينبغي إشباعها وتوجيهها ، ليعيش في استقرار نفسي واجتماعي ، وإلا فسيصير الشاب إلى أحد طريقتين : إما إشباع حاجاته من طرق غير سوية أو شرعية ، أو البقاء في ظل الحرمان ، وكلا الطريقتين يصير بالمرء والمجتمع إلى عدم الاستقرار ، مما يولد غلواً وتطرفاً في الفكر نحو المجتمع.^(٣٥)
- (٣) تلعب وسائل الإعلام دوراً لا يُستهان به في تغذية فكر الغلو والتطرف ، فهي بما تقدمه من برامج وأفلام وأخبار ونحوه ، ففي أغلب الأحيان تنتهج منهج التطرف فإما الاستهتار بالعقول والشعائر الدينية والأخلاقية ، أو زرع الفتن وإثارتها من خلال بعض البرامج أو الأفكار.^(٣٦)

البحث الثالث : مظاهر الغلو والتطرف وآثارهما

- إنه من الطبيعي لهذه الظاهرة أن تورث آثاراً سيئة منها الإفراط في التدين لإثبات الذات وإظهارها بأنها مميزة عن الآخرين وهذا الإفراط قد يؤدي إلى الآتي :
- (١) الإفراط الذي يؤدي إلى الكفر والإلحاد فلا يبقى للإنسان فضيلة في نفسه وقد يلجأ للهروب من الواقع.
- (٢) التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر ، مما يؤدي إلى إلزام الناس بما لم يلزمهم الله به وقد يؤدي ذلك إلى الغلظة والحشونة وإيذاء الآخرين.
- هذا هو جانب الإفراط ، أما الجانب الآخر فهو جانب التفريط الذي يتمثل في النقصان والتقصير والوقوف دون الحد في الأمور ، أو القيام بأقل ما يجب القيام به والتراخي في الأمور ، كتأخير الصلوات والتهاون في أمرها والتكاسل في أداء النوافل مثلاً ، فالفرق بين الأمرين أن الإفراط هو القيام بأكثر مما يجب والتسرع في الأمور ، بينما التفريط هو تجاوز الحد بالنقصان والتقصير.

(٣٥) المرجع السابق ١ / ٣٣٢ .

(٣٦) الإعلام الإسلامي الشنتيطي ص ١٦٠ .

المطلب الأول : الآثار العقيدية والفكرية والسلوكية أولاً : الآثار العقيدية :

- (١) الضلال وترك الهدى ، إن الغلو والتطرف ضلال عن الحق وابتداع في الدين ، ذلك لأنه يتبع الظن والمتشابه ، قال ابن تيمية : أصل الضلال اتباع الظن والهوى. (٣٧) وقال ابن عباس لما سئل عن الخوارج : يؤمنون بمحكمه ويضلون عند متشابهه ، لأنه ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم. (٣٨)
- (٢) التفرق ، ذلك أن فكر الغلو والتطرف يزيد الأمة فرقةً ، ففي الحديث : ” افرقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة “ (٣٩)
- (٣) التطاول على الشريعة واتهامها بالنقصان ، ذلك أن من يحمل فكر الغلو والتطرف إنما يبتدع في الدين ما ليس منه ، وكأنه يتهم الدين بالنقصان ، فالغلو والابتداع مضادة للشارع حيث نصب المبتدع نفسه مستدركاً على الشريعة لا مكتفياً بما حُدَّ له. (٤٠)

ثانياً : الآثار الفكرية :

- (١) تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، إن الغلو في الدين في العصر الحديث شوّه الدين الإسلامي الحنيف ، ونفّر الناس منه ، وفتح الأبواب للطعن فيه ، فتجرأ أناس على أفعالٍ وأقوالٍ لم يكونوا ليجرؤوا عليها لولا وجود الغلو والغلاة ، فسمع الطاعنون في الشريعة. (٤١) ففي الحديث : ” أفتان أنت يا معاذ؟ “ (٤٢) ، ذلك أنه كان يطيل في صلواته

(٣٧) مجموع الفتاوى ، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية ، مكتبة المعارف بالرياض .

(٣٨) الشريعة الآجری ص ٢٧ .

(٣٩) سنن أبي داود-كتاب السنة-باب شرح السنة ٤/١٩٦٩ ح ٤٥٩٦ . والحديث إسناده صحيح .

(٤٠) الاعتصام ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار ابن عفان بالسعودية ، ط الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، تحقيق سليم الهلالي ٢/٦١ .

(٤١) مشكلة الغلو في الدين اللويحي ٢/٦٩٢-٦٩٣ .

(٤٢) صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً ٣/١٥٩ ح ٦١٠٦ .

بالناس فاشتكى عليه أحدهم. والمراد : منفر عن الدين وصادُّ عنه.^(٤٣) وفي الحديث :
 ” يا أيها الناس إن منكم منفرين فمن أم الناس فليتجوز “^(٤٤)

(٢) الإفراط في التدين لإثبات الذات وإظهارها بأنها مميزة عن الآخرين ، واتهام أهل
 الوسطية والاعتدال بالتقصير والتهاون ، ذلك أن الغلاة يحسبون أنهم على خير وأنهم
 مهتدون ، وأن من خالفهم أو قصر فيما هم عليه ، فقد قصر في الدين وتهاون فيه ، مما
 يكسبهم الاغترار بالنفس.

(٣) التناقض في أفهامهم ، ذلك أن الغلاة يستدلون بأدلة من الكتاب والسنة هي في حقيقة
 الأمر تخالفهم ، لكنهم أخذوا بظاهر النصوص أو أولوها بما يتناسب مع فكرهم.

(٤) التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر ، مما يؤدي إلى إلزام الناس بما لم يلزمهم
 الله به وقد يؤدي ذلك إلى الغلظة والحشونة وإيذاء الآخرين.

المطلب الثاني : الآثار السلوكية والاجتماعية أولاً : الآثار السلوكية :

(١) إن الغلو شر أنواع الأمراض التي تفتك بالمجتمع ، ذلك أنها تنقسم إلى شهوات
 وشبهات ، فمرض الشهوة كمعصية الخمر والزنا ونحو ذلك يُرجى شفاؤه ، أما
 مرض الشبهة وهو ما يتعلق بالمعتقدات والأفكار فيصعب شفاؤه ، ذلك أن العاصي
 يعلم أنه يرتكب خطأً ، أما مريض الشبهة فيحسب أنه يحسن صنعاً.

(٢) الانقطاع عن الطاعات ، لهذا أرشدنا النبي إلى ترك الغلو والتشدد في العبادة لأنه يؤدي
 إلى تركها بعد ذلك ، ففي الحديث : ” إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا
 غلبه “^(٤٥) قال ابن حجر : والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا
 عجز وانقطع فيُغلب.^(٤٦)

^(٤٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار الفجر
 للتراث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ، تحقيق محمد تامر . ١٨٢ / ٤ .

^(٤٤) صحيح البخاري-كتاب الأذان-باب من شكوا إمامه إذا طول / ١ / ١٦٠ ح ٧٠٤ .

^(٤٥) صحيح البخاري-كتاب الإيمان-باب الدين يسر / ١ / ٢٠ ح ٣٩ .

^(٤٦) فتح الباري / ١ / ١١٧ .

ثانياً : الآثار الاجتماعية :

- (١) وقوع الفتنة والافتتال بين المسلمين ، ذلك أن الغلاة يملون لأنفسهم الخروج على الحاكم وقتال المسلمين ، ظانين أنهم بذلك يجاريون أعداء الإسلام ، قال ابن عمر في الخوارج : ” إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين “^(٤٧) وقال أبو قلابة : ما ابتدع رجل بدعة إلا استحلَّ السيف^(٤٨).
- (٢) الهلاك والوقوع في العذاب ، ففي الحديث : ” هلك المتطعون ، قالها ثلاثاً “^(٤٩). قال النووي : أي : المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم^(٥٠).
- (٣) التشديد من الله تعالى ، ففي الحديث : ” لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ، فإن قوماً شددوا فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار : ” رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم “^(٥١).

المبحث الرابع : طرق علاج ظاهرة التطرف والظلم

المطلب الأول : العلاج العقدي والديني أولاً : العلاج العقدي والديني :

- (١) الاعتصام بالكتاب والسنة يحقق النجاة من كل شر وانحراف ، إذ الشرور منبعها الإعراض عن دين الله وشرعه ، ففي الحديث : ” تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي “^(٥٢).

^(٤٧) صحيح البخاري-معلقاً-كتاب استتابة المرتدين-باب قتال الخوارج والملحدین بعد إقامة الحجّة عليهم ٣/٣٤٠.

^(٤٨) سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي -كتاب المقدمة-باب اتباع السنة ١/٤٦٦ح ٩٩.

^(٤٩) صحيح مسلم-كتاب العلم-باب هلك المتطعون ٤/٢٠٥٥ح ٢٦٧٠.

^(٥٠) شرح صحيح مسلم ٨/٤٣٨.

^(٥١) سنن أبي داود-كتاب الأدب-باب في الحسد ٤/٢٠٩١ح ٤٩٠٤. والحديث إسناده ضعيف.

- (٢) معالجة الفساد العقدي ، وذلك بالالتزام بفكر الوسطية والاعتدال وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، فأهل السنة وسط في باب الصفات بين تعطيل الجهمية وتجسيم المشبهة ، وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية.^(٥٣) لهذا فإن غلو المرجئة المعاصرين في إرجائهم دفع أقواماً نحو الغلو في التكفير.
- (٣) محاربة المظاهر العامة للفساد الأخلاقي والديني ، ذلك من شأنه أنه لا يترك مجالاً للغلاة والمتشددين لمهاجمة المجتمع والتطاول عليه ، أما وجود مظاهر الانحلال والفساد فقد يعطيهم المبرر في نظر الكثيرين لما يقومون به ، لهذا لا بد من قطع دابر الفتنة وسد باب الذرائع.
- إذاً لابد من إجراء حوارات ولقاءات ومناظرات مع من يحمل فكراً فيه غلو أو تطرف أو عرضت عليه شبهة بقصد تشخيص المشكلة ومعالجتها ، بعيداً عن المزايدات والتشهير وكيل التهم واستباق الأحكام والبحث عن مكاسب دنيوية.

ثانياً : العلاج العلمي والتربوي :

- (١) الحث على طلب العلم الشرعي النافع ، ذلك أن أهم أسباب الغلو والتطرف الجهل بأحكام الدين ، قال ابن تيمية : يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين ، وإلا فقد يفسد ورعه أكثر مما يصلحه ، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم.^(٥٤)
- (٢) الرجوع إلى العلماء ومشاورتهم ، لأنهم أعرف الناس بمراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ ، ففي الحديث : ” إن الله لا يقبض العلم ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا “.^(٥٥) وفي الحديث : ” إنما مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في

(٥٢) موطأ مالك- كتاب القدر- باب النهي عن القول بالقدر. والمستدرک ١/ ٩٣. وحسنه الألباني في صحيح المشكاة ١/ ٦٦.

(٥٣) انظر : الفتاوى ابن تيمية ٣/ ١٤١.

(٥٤) مجموع الفتاوى ابن تيمية ٢٠/ ١٤١.

(٥٥) صحيح البخاري- كتاب العلم- باب كيف يقبض العلم.

السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة“^(٥٦).

لا بد من تمكين العلماء الربانيين المخلصين والمشهود لهم بالعلم والإخلاص والتجرد وعدم التبعية أو التعصب من توجيه الجماهير وفتح القنوات الإعلامية لهم وأن يكونوا مرجعية حقيقية صادقة مخلصه للحاكم والمحكوم.

(٣) قيام العلماء بدورهم الذي ينبغي عليهم القيام به ، فإن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق أن يبينوا الحق للناس ولا يكتُمونه ، فإذا ترك العلماء الساحة فارغة حمل الراية من لا يجيد النزال.

(٤) محاورة العلماء للغلاة والمتطرفين ، وذلك بإقامة الحججة عليهم من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة ، كما أثار عن ابن عباس رضي الله عنهما في مناظرته للخوارج في زمن علي عليه السلام^(٥٧).

(٥) الاهتمام بمناهج التربية والتعليم ، وذلك من خلال العناية بالخطوة الدراسية والكتاب المدرسي والمدرسين الأكفاء وبالسياسة التعليمية كلها ، لأن هذا من شأنه أن يؤسس لبناء شخصية مسلمة متكاملة البناء.

المطلب الثاني : العلاج الاجتماعي

(١) الردُّ على شبهات الغلاة والمتطرفين ودحضها ، وهذا واجب على العلماء. قال ابن القيم : إن من بعض حقوق الله على عبده : ردُّ الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ، ومجاهدتهم بالحجة والبيان ، والسيف والسنان والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك من حبة خردل من إيمان^(٥٨). حيث أن من النصح الواجب لله ولرسوله ولكتابه الردُّ على أهل الغلو والابتداع وتحذير الأمة من فعلهم.

(٥٦) مسند أحمد ٣/ ١٥٧. والحديث إسناده ضعيف.

(٥٧) المرجع نفسه ٥/ ٦٧. والحديث إسناده صحيح.

(٥٨) هداية الخيارى ابن القيم ص ٣٦.

- (٢) إنشاء لجان تضم خبراء من الشرعيين والنفسانيين والاجتماعيين والاقتصاديين والأمنيين والإعلاميين لمعالجة ظاهرة الغلو والتطرف في المجتمعات ، عبر دراسات علمية وميدانية جادة غير منحازة.
- (٣) العقوبة والردع ، وهذا واجب الحكام والأمراء ، وذلك بعد استخدام كل الوسائل والسبل لمعالجة ظاهرة الغلو والتطرف ، فأخر العلاج الكي ، إذ إن بعض الغلاة لا يصلح معهم إلا التعزير من حبس أو نفي أو ضرب ونحوه ، وذلك بضوابط شرعية يحددها أهل الاختصاص ، فقد شرع الله تعالى العقوبات ونوعها.
- (٤) محاسبة المجتمع والدولة على ما يضحخه الإعلام من انحراف خلقي وما يخالف العقيدة والآداب ومنع المساس بالدين وأهله ومعرفة أن الحريات المنفلتة لا تولد إلا ردة فعل منفلتة غير منضبطة.
- (٥) تحسين الأوضاع الخارجية التي تجلب على الدول مواقف معادية والداخلية التي تسمى بالمواقف الأمنية بعدم التضييق على حريات الناس المنضبطة واحترام المخالف وإلغاء المحاكم الصورية التي تغطي على رغبات النظام في تصفية الخصوم والتعسف في حقهم.
- (٦) تحسين الوضع الاقتصادي للشباب بتوزيع الثروات بالشكل العادل وإتاحة فرص العمل والإبداع والمشاركة وإعادة تأهيل الشباب ليكون كل شاب فرداً صالحاً في مجتمعه وأمته والقضاء على هاجس الرزق وانتظار الفتات واستغلال هذا الفقر من قبل البعض لتجنيد الشباب لتحقيق أهداف وغايات غير مشروعة.
- (٧) ضرورة العدل وإعطاء الناس حقوقهم ، سواء كانت حقوقاً مالية أو سياسية أو اجتماعية أو شخصية والقضاء على الظلم أو تقليصه فإن المجتمعات لا يمكن أن يترعرع فيها الأمن وقد ساد الظلم ومن الظلم سرقة أقوات الناس وأخذهم بالظنة وتعذيبهم ومصادرة عقولهم ، وعد أنفاسهم وأخذهم بجريرة غيرهم ، فإن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة.^(٥٩)

^(٥٩) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٢٨ / ٦٣ .

(٨) ملء الفراغ الروحي لدى الشباب من خلال :

- (١) عقد الندوات والمؤتمرات التثقيفية على مدار السنة.
 - (٢) تنشيط الرياضة ودعم الأندية بما لا يخالف ديننا الحنيف.
 - (٣) تفعيل دور المساجد والمراكز الدينية في توعية الناس.
 - (٤) إقامة المعسكرات الصيفية للتثقيف والترويح.
- أمور يحسن التنبه لها في معالجة الغلو أو ما يسمى ”التطرف الديني“ منها :
- ◆ أن أعظم سبب لوجود التطرف في العصر الحاضر ، هو التطرف المعاكس في رفض الدين أو التساهل والإعراض عنه وعدم الجدية في علاج النوعين بتوازن.
 - ◆ يجب في هذه الحال التفريق ”بوضوح“ بين التمسك بالدين والسنة ”وهو حق“ وبين الغلو والتطرف ”وهو باطل“.
 - ◆ إن الغلو ”التطرف الديني“ لا يمكن علاجه علاجا حاسما إلاّ بأمرين ، وهما :
 - ◆ الحوار الجاد والمجادلة والتي هي أحسن ، ومن خلال النصوص الشرعية والقواعد المعتمدة من قبل الراسخين والمتخصصين الذين يحترمهم المحاور ويعترف بجدارتهم.
 - ◆ ثم الجد والحزم في معالجة أسباب الغلو ، بعد إقامة الحجة وكشف مواطن الانحراف بجلاء.
 - ◆ إن أكثر ما يثيره أهل الغلو ”التطرف الديني“ مبني على أوهام وظنون وشائعات ، وتلبس ، ثم أدى ذلك إلى التهاجر والقطيعة بينهم وبين العلماء والمفكرين ورجال الدولة.
 - ◆ فالحل هو كشف الحقائق ، والشفافية والحوار الجاد واللقاء المباشر وفتح الأبواب بضوابط.
 - ◆ يجب أن تضبط التعددية ”وحرية“ الرأي التي ظهرت الدعوة إليها أخيرا بالضوابط الشرعية؛ بحيث تكون التعددية في الاجتهادات لا في العقيدة والمسلمات والثوابت ، ولا تكون ترويجا للفرق والبدع والأهواء؛ فالبلد بلد الإسلام والسنة ويجب أن تبقى كذلك.
 - ◆ إن تجاوز هذه الثوابت من قبل بعض الجاهلين كان من أسباب تصاعد الغلو وذرائعه.^(١٠)

^(١٠) الغلو الأسباب والعلاج ، ناصر بن عبد الكريم العقل ، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، كلية أصول الدين ، ص ، ٢٠ .

الخاتمة :

نحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقنا لكتابة هذا البحث ، كما نشكره كثيراً أن يسّر لنا ما يعيننا على اتمامه ، ونسأله تعالى أن يجعله لنا في ميزان الحسنات يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وقد اشتمل هذا البحث على عددٍ من النتائج والتوصيات نجملها في الآتي :

أولاً : النتائج

- (١) من الأسباب العامة للتطرف ، قلة الفقه في الدين والابتعاد عن العلماء والتعلم والغرور والجهل بأمور الدين والجفوة بين الشباب والعلماء... الخ.
- (٢) من مظاهر الغلو والتطرف وآثارهما التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر ، مما يؤدي إلى إلزام الناس بما لم يلزمهم الله به وقد يؤدي ذلك إلى الغلظة والخشونة وإيذاء الآخرين.
- (٣) من العلاج العلمي التربوي للغلو والتطرف الحث على طلب العلم الشرعي النافع ، ذلك أن أهم أسباب الغلو والتطرف الجهل بأحكام الدين.

ثانياً : التوصيات

- (١) مراقبة الشباب عن طريق أسرهم ومجالستهم بغرض غرز الفضائل السمحة في نفوسهم.
- (٢) توفير فرص عمل كافية وعادلة للشباب حتى لا يحس بالظلم وعدم العدالة بين بني جنس القطر الواحد.
- (٣) مراجعة المناهج التعليمية ومراعاة البرامج التربوية فيها ، حتى يستطيع الشباب مواجهة كل فكر هدام لا يستقيم مع شرع الله الحنيف.
- (٤) مواصلة مثل هذه المؤتمرات في عدد لا يستهان به في الجامعات السودانية - سواء أكانت الجامعات الموجودة في العاصمة أو الولايات - لبث الوعي الديني الصائب بين الطلاب.

(٥) القيام بالعديد من الندوات الدينية والمحاضرات في المؤسسات التعليمية المختلفة والميادين العامة والأسواق ودور العبادة والأجهزة الإعلامية ، المرئية ، المقروءة والمسموعة.

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) الاعتصام ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار ابن عفان بالسعودية ، ط الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، تحقيق سليم الهلالي.
- (٣) الإعلام الإسلامي ، الدكتور سيد محمد ساداتي الشنقيطي.
- (٤) التعليم العام في البلاد العربية ، محمد منير موسى ، عالم الكتب بالقاهرة ، ط الثانية ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
- (٥) الخوارج مناهجهم وأصولهم وسماتهم قديماً وحديثاً وموقف السلف منهم ، ناصر بن عبد الكريم العقل.
- (٦) دور التربية الإسلامية في الإرهاب ، خالد الظاهري ، دار عالم الكتب بالرياض ، ط الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م ، ص ٦٠.
- (٧) سلوك الإنسان بين الجريمة والعدوان والإرهاب منصور الشربيني ص ٢٤٤-٢٤٥.
- (٨) سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، تحقيق مصطفى الذهبي.
- (٩) سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي.
- (١٠) سنن أبي داود ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي.
- (١١) الشريعة لأبي بكر بن الحسين الآجري المتوفى سنة ٣٦٠.
- (١٢) صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، مكتبة الصفا ، ط الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م ، تحقيق محمود بن الجميل
- (١٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، محمد بن حبان البستي ، المترجم : شعيب الأرنؤوط ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، رقم الحديث.

- (١٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار الفجر للتراث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، تحقيق محمد تامر .
- (١٥) الغلو الأسباب والعلاج ، ناصر بن عبد الكريم العقل ، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، كلية أصول الدين .
- (١٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري للفقيه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني .
- (١٧) مجموع الفتاوى ، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية ، مكتبة المعارف بالرياض .
- (١٨) مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر ، الأسباب والآثار ، عبد الرحمن معلا اللويحي ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة .
- (١٩) معجم اللغة العربية المعاصر ، مادة غلا .
- (٢٠) المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، مادة " طرف " .
- (٢١) مفهوم التطرف الديني ، www.moqatel.com
- (٢٢) موطأ الإمام مالك ، للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني ، المتوفى ١٧٩هـ .
- (٢٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، المكتبة القيمة بالقاهرة ، ط الثانية ١٣٩٩هـ ، تحقيق أحمد السقا .



التطرف ما بين الأسباب الكامنة والحلول الممكنة ”رؤية نفسية“

أ. تهاني هاشم خليل عابدين

محاضر بقسم علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٠٣-٢٢٥)

المستخلص :

هدفت هذه الدراسة إلى التحليل النفسي للتطرف بالتعرف على الأسباب واقتراح الحلول ، وقد استخدم المنهج الاستقرائي الاستنباطي لإجراء الدراسة ، تمثلت أهم نتائج الدراسة في أن التطرف يتحدد بأسلوب التفكير والانفعالات والمشاعر ومبدأ الفروق الفردية ، وأن الإيحاء سبب رئيسي في إنتشار التطرف عبر حرب المصطلحات والتعصب السلبي والإدراك الخاطيء ، ومن الأسباب النفسية للتطرف الإندفاع والشخصية غير المستقلة ، ويتمثل الحل لمشكلة التطرف في تنمية ممارسة التفكير الناقد والثقة في النفس وأخلاق الشخصية الاسلامية وأيضاً تعديل أساليب التنشئة الاجتماعية ، وأختتمت الدراسة بعدد من التوصيات أهمها التوصية بتطبيق برامج إرشادية لتنمية ممارسة التفكير الناقد كأسلوب حياة.

المقدمة :

تعتبر مشكلة التطرف من المشكلات المؤرقة لهدوء الحياة النفسية والاجتماعية لإنسان القرن الحادي والعشرين ، مما جعل علماء النفس المعاصرين ينظرون إلى السلوك المتطرف على أنه من السلوكيات الشاذة التي يجب بحثها ومعالجتها ، ويلاحظ أن التطرف ينتج عن تعطيل الإنسان للملكة العقلية التي تمنحه إنسانيته الحقيقية وتميزه عن غيره من المخلوقات الأخرى ، فقد فطر الله سبحانه وتعالى الكائنات الحية على قابلية النمو والزيادة ، والقابلية للنمو التي مُميّز بها الإنسان عن سائر المخلوقات الحية تمثلت في نعمة العقل الذي يأتي نتيجة للنمو المعرفي للإنسان ، وبذلك تتأكد الأهمية البالغة التي أولاها القرآن الكريم لممارسة التفكير لتفعيل هذا العقل^(١) ، كما وجه القرآن الكريم ولفت النظر إلى استخدام العقل عند محاولة الوصول إلى الحقيقة ؛ حيث استخدم طرقاتاً مباشرة وأخرى غير مباشرة تدعو الإنسان إلى تفعيل العقل وممارسته دوماً في التفكير والتأمل ، وقد تكررت هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام ، كما حفظ القرآن الكريم العقل ؛ فحرّم كل ما من شأنه إفساده أو إدخال الخلل

^(١) العياصرة ، وليد رفيق (٢٠١١) إستراتيجيات تعليم التفكير ومهاراته ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن ، ص ١٥ .

إليه^(١)؛ فحرم المفسدات المادية كالخمر والمعنوية كالتقليد الأعمى وما ينتج عنه من تطرف فيكون الفرد ذا بُعد واحد في تفكيره ويصبح عقله وكأنه غير موجود تماماً.

مشكلة الدراسة :

يمكن القول بأن الجانب العقلي للإنسان يمثل المرتكز الأكثر حيوية فيما يتعلق بتفاعله مع ذاته ومع غيره من الأفراد ومع البيئة من حوله عموماً ، ومن هنا تبرز أهمية التعرف على طبيعة الأساليب العقلية وما يرتبط بها من جوانب نفسية أخرى تقف حجر عثرة أمام تشكيل مجتمعات إنسانية تخلو من مظاهر التعصب السلبي والتطرف غير المبرر وما ينتج عنهما من مشكلات جمة تزداد وتربو آثارها السالبة مع الوقت ؛ كل ذلك لتقديم حلول علمية تعمل على الجانب النفسي للإنسان بهدف التخلص من السلوك المتطرف الذي بات سبباً رئيساً لتدهور المجتمعات على اختلاف ثقافتها وفي كافة المستويات دون استثناء ، لتمثل مشكلة هذه الدراسة في محاولة التوصل لإجابات علمية عن الأسئلة التالية :

(١) ما هي الأسباب النفسية للتطرف؟

(٢) كيف يمكن معالجة التطرف من منطلقات نفسية؟.

أهداف الدراسة :

(١) التعرف على الأسباب النفسية الكامنة وراء التطرف.

(٢) اقتراح معالجات ذات طابع نفسي للتطرف باعتباره سلوكاً بشرياً سالباً.

أهمية الدراسة :

(١) وضع تحليل نفسي علمي للتطرف حتى يساعد على الكشف عن الأسباب التي تريد من السلوكيات المتطرفة في المجتمع الإنساني.

(٢) الإجابة عن بعض الأسئلة ذات الصلة بالسلوك المتطرف التي يثيرها المهتمون بالمشكلات النفسية والاجتماعية الناجمة عن التطرف.

(٣) الاستفادة من المعرفة العلمية في مجال علم النفس لحل مشكلة التطرف.

^(١) إبراهيم ، السيد السيد (٢٠٠٩) العقل البشري رأس مال ، مؤسسة طيبة للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ٨٢.

منهج الدراسة :

تم اتباع المنهج الاستقرائي الاستنباطي لإجراء هذه الدراسة الذي يتضمن باحثاً موضوعياً يمثل الأداة الأساسية لجمع بيانات بحثه من خلال الملاحظة العلمية والاستقصاء والتحليل العقلي ، ويتم التعامل مع البيانات على هيئة كلمات بدلاً من الأرقام والإحصاء ، وتتحدد موثوقية البحث باستخدام مصادر متعددة لجمع البيانات ، كما يتم جمع البيانات وتحليلها في نفس الوقت بحيث يرتبط ذلك بشكل جذري بموضوع البحث ويكون نابعاً من البيانات المرتبطة به ؛ فموضوعية المنهج الاستقرائي الاستنباطي تعتمد على تنوع المحركات المستخدمة في جمع البيانات وتحليلها.

الأساس النظري للدراسة :**مفهوم التطرف :**

يشير التطرف في اللغة إلى الوقوف في الطرف بعيداً عن الوسط ، وأصله في الحسيات كالتطرف في الجلوس أو الوقوف أو السير ثم انتقل إلى المعنويات كالتطرف في الدين أو الفكر أو السلوك ، والتطرف لفظ معياري يعني مخالفة الخط السوي الذي تحدده المعايير الدينية والقانونية والاجتماعية السائدة في مجتمع محدد ، ويمكن النظر للتطرف من وجهة النظر النفسية على أنه سلوك تفكيري "عقلي" في المقام الأول ؛ تنتج عنه ردود أفعال أخرى متطرفة تحمل أبعاداً وجدانية وأخرى سلوكية ، مما يعطي أهمية بالغة للتركيز على مفهوم "التفكير" عند تحليل التعصب عبر منظار علم النفس ، ويمكن القول بأن التفكير يمثل خاصية إنسانية يتفرد فيها كل فرد بأسلوب خاص جداً من التفكير ، حيث يتأثر أسلوب التفكير بنمط تنشئة الفرد ودافعيته وقدراته ومستواه التعليمي وغير ذلك من الخصائص والسمات والقدرات التي تميزه عن الآخرين ، كما يُعد التفكير من الظواهر النمائية التي تتطور عبر مراحل العمر المتتابعة ، ويلاحظ أن تنوع سياقات الحياة قد فرض على الفرد مواجهة المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتكنولوجية ؛ مما أوجب عليه التسلح بمهارات تمكنه من تحقيق فهم عميق لمجريات الأحداث التي يتعرض لها أو يساهم في إحداثها ؛ عبر مجموعة من العمليات المعرفية التي تتفاعل جميعها لتشكيل التفكير

”Thinking“ الذي يُمكن الفرد من استيعاب كل مُعطيات هذه الحياة بصورة موضوعية بعيدة عن التعصب والتطرف وسوء الفهم.^(٣)

التفكير بوصفه أساساً نفسياً للتطرف :

يتجلى التفكير في الطريقة التي يحصل الفرد من خلالها على معلومات جديدة وبها يفهم الموجود من الأفكار التي أنتجها أو أتته من غيره ؛ فعن طريق التفكير ينشئ الفرد أفكاراً لم تكن موجودة تتعلق بحياته وبالكون من حوله ، وبالتفكير يتمكن من استيعاب وفهم الأفكار الموجودة ، وعلى الرغم من أن التفكير أمر مألوف لدى الناس فإنه من أكثر المفاهيم غموضاً ؛ فهو كمفهوم تتشابه وتتعدد أبعاده وهو من تعقده تصعب الإحاطة بجميع جوانبه^(٤) ، والإنسان غير المتطرف يمارس نوعاً من التفكير العلمي الناقد وهو ليس تفكير العلماء بالضرورة ؛ فالتفكير العلمي يمكن أن يتمثل في ذلك التفكير المنظم الذي يمكن أن يُمارس في الحياة اليومية ليعيد الإنسان عن التطرف الذي يمكن أن يتسبب في إحداث الكثير من المشكلات له ولمجتمعه ؛ فالتفكير يكون علمياً عندما يكون منظماً مبنياً على مجموعة من المبادئ والمحاکمات العقلية التي يطبقها الفرد في كل لحظة دون الشعور بها شعوراً واعياً ؛ مثل مبدأ استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد.

تحتل مسألة التفكير في علم النفس وعلوم أخرى وفي الحياة بوجه عام مكانة رئيسية ، حيث يُعد التفكير كعملية معرفية عنصراً أساسياً في البناء المعرفي الذي يمتلكه الإنسان ، ويتأثر ببقية العمليات المعرفية الأخرى كالإدراك والتذكر والانتباه ، كما يؤثر ويتأثر بجوانب الشخصية وما تحمله من قيم ومعايير وسمات إنفعالية وإجتماعية مختلفة ، ويتميز التفكير عن سائر العمليات المعرفية بأنه أشدها تعقيداً ؛ مما يمكنه من معالجة المعلومات وإنتاج وإعادة إنتاج معارف ومعلومات جديدة ، وهكذا يشكل التفكير المنطلق الرئيس لردود الأفعال المعرفية والوجدانية والسلوكية التي تصدر عن الفرد ، فيكون السلوك سليماً أو شاذاً متزنأً أو متطرفاً كنتيجة مباشرة للعملية التفكيرية التي تمت مسبقاً.

^(٣) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشارة ، موفق (٢٠٠٩) تنمية مهارات التفكير ”نماذج نظرية وتطبيقات عملية“ (الطبعة الثانية) ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، ص ١٧ .

^(٤) العقل البشري رأس مال (٢٠٠٩) ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

يمكن ربط مفهوم التطرف بمفهوم التفكير عبر الحقيقة التي تشير إلى أن ما يصنعه الفرد هو نتيجة مباشرة لتفكيره؛ فكما أن المرء ينهض وينشط ويُنتج بدافع من أفكاره، كذلك يمرض ويشقى ويتعصب ويتطرف بدافع من أفكاره أيضاً، وبالرغم من تشابه الأفراد في آلة التفكير "الدماغ" إلا أنهم ينتجون من خلالها أشكالاً متباينة من الأفكار، فالدماغ يفكر دائماً فيما يريد الفرد له أن يفكر فيه؛ لأن المفكر هو سبب الفكرة، والفكرة هي السبب في التفكير، والتفكير هو السبب في التركيز، والتركيز هو السبب في الإحساس، والإحساس هو السبب في السلوك، والسلوك هو السبب في النتائج، والنتائج هي السبب في الواقع الذي يعيشه الفرد؛ مما يشير إلى أن التغيير للأفضل يعتمد على تغيير أسلوب التفكير، وبذلك تظهر مشروعية التساؤل حول إمكانية أن يتمثل الحل الجذري لمشكلات التعصب والتطرف ومشكلات البشرية في عمومها في معالجة الجانب الفكري للإنسان أكثر من معالجة الجوانب الوجدانية والسلوكية والمادية؟.

فالعقل هو رأس مال الإنسان لكونه لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة بدونه، والله سبحانه وتعالى وهبه العقل وميزه به ليتدبر أموره ويتفكر وليعلم ما الذي يجب عليه أن يفعله وما الذي لا يجب أن يفعله، حيث يستخدم مصطلح العقل (Mind) عادةً لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري خاصة تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعياً بشكل شخصي⁽⁶⁾، ويأتي في مقدمتها التفكير الذي يمثل لغة العقل البشري، وبالمفهوم الوظيفي العملي يُنظر إلى العقل على أنه مركز للتحكم والسيطرة وتوجيه الطاقات الإنسانية؛ من خلال تحليل المعلومات التي تستخدمها الحواس وتخزينها وتوظيفها واختيار الأفعال وردود الأفعال المناسبة باستخدام آلية التفكير، وبذلك يعتبر التفكير عملية واعية يقوم بها الفرد عن وعي وإدراك، كما أن العقل كأى ظاهرة تاريخية قابل للتغير والتطور، وفي كل مرحلة تاريخية جديدة يتجاوز ذاته ويعيد بناءها بشكل جديد، وقد طورت الدراسات الحديثة التي تبحث في مفهوم العقل معارف مُذهلة حول طبيعة عمل العقل وقدراته؛ حيث ربطت بين دراسة الشبكات العصبية وعلم النفس وعلم الفيزياء وعلم الأحياء الخلوي والجزيئي وعلم الاجتماع وتاريخ العلم والألسنية؛ بما لا يدع مجالاً للشك في إدراك تلك العلوم لمحورية دور

(6) العقل البشري رأس مال (٢٠٠٩)، مرجع سابق، ص ٨.

العقل البشري في إنشاء كافة المشكلات المادية والنفسية والاجتماعية للإنسان وفي حلها كذلك ؛ بها فيها مشكلة التطرف .

دور المشاعر الإنسانية في التطرف :

يمكن تحليل ظاهرة التطرف كذلك عبر نتائج البحوث العلمية التي تشير إلى أن المشاعر والانفعالات تلعب دوراً مهماً في عملية التفكير ؛ حيث أن لـ ” اللوزة “ دوراً محورياً في تشفير الرسائل الشعورية وتحويلها إلى رموز يمكن الاحتفاظ بها في الذاكرة طويلة المدى ، علاوة على ذلك فإن المشاعر لها أولوية في كثير من الأحيان عند قيام المخ بمعالجة المدخلات التي ترد إليه ، فتعمل المشاعر المحايدة والسلبية لدى الأفراد نحو بعض الموضوعات على انخفاض مستوى التفكير ، وهذا ما يقود إلى ردود الأفعال المتطرفة وغير العقلانية غالباً ؛ حيث يمكن النظر للتطرف على أنه شحنات انفعالية تنشأ عن أفكار غير سليمة وتقود إلى سلوكيات تتصف بالتعصب غير الموضوعي ؛ فالعواطف في عمومها أشبه بشحنة تدفع إلى إتيان أفعال معينة ، لذلك لا بد لهذه الشحنات أن تكون ممتدة التأثير حتى يكتمل الفعل ، وقد وجد عبر دراسات علمية حديثة اتصالاً بسيطاً بين الجهاز الطرفي ” المسئول عن المشاعر “ والقشرة المخية ” المسئولة عن الإدراك والتفكير “ ولهذا الاتصال البسيط فسيولوجية عظيمة ، فهو يسمح بقدر محدود من التأثير المتبادل بين الجهازين ، ولكنه في ذات الوقت - نظراً لبساطته - يعطي لكل منهما فرصة الاستقلال في الوظيفة إلى حد كبير ، وبمعنى آخر فإن الفكر يؤثر في العاطفة والعاطفة تؤثر في الفكر لكن هذا التأثير ليس بالدرجة التي تجعل أحدهما وصياً على الآخر ، فلأفكار استقلالها النسبي وللمشاعر استقلالها النسبي ، ليشكل ذلك التفاعل بين العمليات المعرفية والوجدانية منطلقاً لربط التطرف والمشكلات الناتجة عنه بالشحنات الانفعالية المرتبطة بالأفكار التي يحملها الفرد ويتعامل وفقاً لها .

مبدأ الفروق الفردية والتطرف :

يمكن القول بأن اختلاف البشر في طريقة التفكير نفسها قد تشكل سبباً في إحداث التطرف وما ينتج عنه من مشكلات ، حيث تظهر الفروق الفردية في التفكير تبعاً لما يُعرف لدى علماء النفس بأسلوب التفكير ، ومن علماء النفس الذين اهتموا بدراسة أساليب التفكير العالم روبرت ستيرنبرغ [Sternberg] الذي يُعرّف أسلوب التفكير بأنه الطريقة المفضلة في

التفكير لدى الفرد ، وهو بذلك ليس قدرة عقلية ؛ بيد أن أسلوب التفكير يبين كيفية توظيف الفرد للقدرات العقلية التي يمتلكها تجاه قضية ما ، وبالرغم من أن العمليات العقلية يشترك فيها جميع الناس غير أن هذا الاشتراك لا يعني التطابق ؛ فهم غير متساوين حين يدركون أو يتذكرون أو يفكرون ، وبذلك فإن منشأ التطرف والتعصب السلبي تمثله المفاهيم التي يبلورها العقل بشكل لا يتسق مع الواقع ولا يتطابق مع حقيقته .

يمكن أن تتغير أساليب التفكير [Thinking Styles] عند الأفراد تبعاً لمتغيرات ومستجدات عديدة تحدث عبر الزمن ، كما أن أساليب التفكير ليست محفورة منذ الميلاد في دماغ الفرد ، فهي في معظمها ناتجة عن الوسط الذي يتفاعل فيه الأفراد ، كما قد يُفضل الفرد أسلوباً محدداً من التفكير وفي مرحلة أخرى من حياته يُفضل أسلوباً آخر ، حيث أن أساليب التفكير ليست ثابتة ، كما أن أسلوب التفكير تمثله مجموعة من الطرق والإستراتيجيات الفكرية التي إعتاد الفرد أن يتعامل بها مع المعلومات المتاحة لديه من ذاته أو بيئته ، وذلك حيال ما يواجهه من مشكلات ، وتلك الطرق يكتسبها الفرد من خلال مراحل نموه المختلفة ، بما يمكنه من السيطرة عليها وتوجيهها لما فيه صالحه^(١) ، كما أن الفروق الفردية في مقدرة الأفراد على معالجة المعلومات التي تصل إليهم من محيطهم الخارجي أو حتى من نسيج خيالهم تعتبر واقعاً تجب الإشارة إليه ، فكل البشر يفكرون لكن لكل منهم أسلوبه المتفرد ، ومن ثم يجب الاهتمام بتدريب الأفراد على تطوير أسلوبهم في التفكير وتنمية قدرتهم على التحول إلى أساليب التفكير الحاذقة والفعالة بعيداً عن أساليب التفكير الشاذة والمتطرفة .

الشخصية الناقدة مقابل الشخصية المتطرفة :

يشير النقد في اللغة إلى تحليل الشيء لمكوناته وجزئياته بهدف التعرف عليه عن قرب وبصورة أكثر عمقاً ، كما يدل على توضيح السلبيات والإيجابيات التي يتصف بها موضوع النقد ، ويؤكد علماء النفس أن ممارسة النقد تمكن الفرد من تقييم الأمور وإدراكها بصورة أكثر دقة ، لتكون الحجج والأدلة المقنعة لعقل الإنسان بمثابة الأصل المقرّر والركيزة الأساسية التي ينطلق منها الفرد حيال نشاطاته الفكرية والانفعالية والسلوكية جميعاً ، فالنقد

^(١) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشارة ، موفق (٢٠٠٩) تنمية مهارات التفكير "نماذج نظرية وتطبيقات عملية" ، مرجع سابق ، ص ٣٤ - ٣٥ .

وفقاً لما تقدم يمكن اعتباره تفكيراً تأملياً محكوماً بقواعد المنطق ، يُمارس فيه الفرد الافتراض والتفسير والتحليل وتقويم المناقشات والاستنباط ، كما يُعد عملية عقلية مُركبة من مهارات وميول ، فهو شكل من أشكال التفكير عالي الرتبة الذي يتطلب استخدام مهارات التفكير المتقدمة لمعالجة المعلومات ومحاکمتها منطقياً وبفعالية عالية للتوصل إلى نتائج هي أقرب ما تكون للحقيقة.^(٧)

يمكن القول بأن التفكير الناقد ذو أهمية بالغة في التخلص من التفكير المتطرف حيث أنه يشير إلى العمليات العقلية التي تؤدي إلى اتخاذ أحكام موضوعية بناءً على مهارات الاستقراء والاستنتاج ، فضلاً عن ما يتضمنه من مكونات ذات صلة بالتوجه والميل كالنزعة إلى التساؤل والبحث عن المعرفة والأدلة ، كما يتمثل التفكير الناقد في التعقل والأمانة العلمية والانفتاح العقلي على عكس الانفعالية والجمود العقلي والانغلاق العقلي والتطرف ، ويتضمن التفكير الناقد اتباع الدليل إلى حيث يقود ؛ لكونه نشاطاً ذهنياً تأملياً ومسئولاً بحيث يركز على اتخاذ قرار موضوعي بشأن ما نصدقه ونؤمن به وما نفعله في مواقف معينة ، فهو بمثابة تساؤل ذاتي نستخدمه عندما نسعى إلى الفهم والتقييم ؛ من خلال تحليل الحقائق وتحرير الأفكار وتنظيمها وتحديد الآراء وعقد المقارنات ، والتوصل للاستنتاجات وتقويمها وحل المشكلات باستخدام قواعد الاستدلال المنطقي ، وتجنب الأخطاء الشائعة في الحكم ، والتحقق من الظواهر وتقويمها بالاستناد إلى معايير محددة.

يرجع مفهوم التفكير الناقد في أصوله إلى أيام سقراط في القرن الخامس قبل الميلاد التي عرفت معنى غرس التفكير العقلاني بهدف توجيه السلوك ، كما يرجع إلى أرسطو الذي جاء بعد سقراط بقرن ، أما في العصر الحديث فقد بدأت حركة التفكير الناقد مع أعمال جون ديوي عندما استخدم فكرة التفكير المنعكس والاستقصاء ، حيث تعتبر محاولات جون ديوي [John Dewey] في عام [١٩٣٨] من المحاولات الأولى التي بحثت في مجال التفكير الناقد ، باعتبار أن الفرد يجب أن يكون معالجاً نشطاً للمعلومات وليس مستقبلاً جامداً لها ، وتبعاً لذلك ظهر الاهتمام بتنمية التفكير عموماً والتفكير الناقد بشكل خاص ، كما بدأ عدد

^(٧) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشارة ، موفق (٢٠٠٩) تنمية مهارات التفكير ” نماذج نظرية وتطبيقات عملية “ ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

من التربويين مع بداية القرن العشرين يهتمون بالتفكير الناقد كنتيجة حتمية لطبيعة المجتمع المعاصر ، الذي لا بديل له عن هذا النمط من التفكير نسبةً للانفجار المعرفي والتغير الاجتماعي السريع والمثير ، ومع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين وعندما أخذت سرعة التغير تتزايد ، وبدأت تواجه قدرات الإنسان وإمكاناته تحديات جديدة ، بدأ العلماء يهتمون أكثر بهذا النوع من التفكير ، وبلغ هذا الاهتمام ذروته حيث رأوا أن التربية بمعناها التقليدي لم تعد لها القدرة في مواجهة الاحتياجات المتجددة والمتزايدة لمجتمع اليوم المتغير وذلك لتحقيق التكيف الأمثل مع الذات والآخر بعيداً عن التطرف الذي يتنافى مع معايير التفكير الناقد.

يستخدم التفكير الناقد للدلالة على معانٍ عديدة ، من أهمها الكشف عن العيوب والأخطاء والشك الإيجابي في كل شيء والتفكير التحليلي والتفكير التأملي والتفكير اليقظ والتفكير المستقل فضلاً عن التعرف على أوجه التحيز والتناقض وعدم الاتساق ، ومن جانب آخر فإن التفكير الناقد يعتبر من المجالات الهامة التي حظيت باهتمام علم النفس ، وهو ضروري في جميع مجالات الحياة ، كما يتطلب من الفرد ممارسة مستوى متقدم من المعالجات العقلية حتى يمارسه بنجاح وفاعلية ، حيث يقلل التفكير الناقد من ممارسة التفكير المتطرف لكونه لا يعني مجرد النقد البسيط ولا يقبل المعلومات دونما تقويم جاد ومسئول لها ، كما أن جوهر التفكير الناقد لا يتركز على تقديم إجابات للأسئلة ، بل يتركز على الاستفسار عن الإجابات نفسها ، ووفقاً لمبادئ التفكير الناقد فإن الإشهار والانتشار لا يعني الأهمية بالضرورة ، كما يهتم التفكير الناقد بتفحص الأدلة والقرائن التي تقيّم الحجة أو تعمل على إثبات صحتها ، فالتفكير الناقد عملية تفكير تأملي مُنتج مقوم للأدلة والبراهين ، كما أنه لا يُبنى على أوهام ، ولا يعتمد اعتماداً كلياً على السلطة أو الحكمة الشعبية كمصدر للحقيقة ، وتبعاً لذلك يقود التفكير الناقد إلى البُعد عن التطرف والأحكام الذاتية المُتحيّزة ، وذلك تبعاً لما يتضمنه من انفتاح للعقل وتجنب للتفكير الضيق وممارسة للحذر العقلي بالبحث عن الأخطاء وعدم الدقة والتناقض.^(٨)

(٨) جروان ، فتحي عبد الرحمن (٢٠١٠) تعليم التفكير " مفاهيم و تطبيقات " [الطبعة الخامسة] ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ص ٦٠ - ٦٣ .

يختلف المُفكر الناقد عن المُفكر المتطرف في عدد كبير جداً من السمات والخصائص النفسية التي تمتد تأثيراتها إلى سلوكه الفعلي وإلى أدق تفاصيل حياته ، وتؤكد علمياً أن التفكير الناقد يرتبط بعدد كبير من سمات الشخصية الفاعلة والإيجابية ؛ مثل المثابرة والثقة العالية في النفس وتحمل المسؤولية ، والتجديد والابتعاد عن المحاكاة غير المُبرّرة ، فضلاً عن الابتكار والأصالة والمرونة والاستقلالية والاستكشاف ، والفاعلية المُرتبطة بدوام التفكير ودوام العمل وحب الاستطلاع والتساؤل الذكي والدافعية نحو التفوق والإنجاز ، مما يجعل من شخصية المُفكر الناقد شخصية مثالية مقارنةً بالشخصية المتطرفة ، وتبعاً لما تقدم يكون من الطبيعي أن يرتبط التطرف بمفهوم التفكير الناقد ، حيث يمثل غياب التفكير الناقد محفزاً حقيقياً لانتشار التطرف وفي المقابل تقود ممارسة أفراد المجتمع للتفكير الناقد بكافة مبادئه ومعاييرهِ المقررة إلى إعاقة مظاهر التطرف وتقليل إمكانية حدوثها.

الشخصية الإسلامية مقابل الشخصية المتطرفة :

يهتم الفرد الممارس لسمات الشخصية الإسلامية بتقديم المواقف بأمانة ووضوح ، كما يعمل على تمحيص المعلومات ومحاكمتها منطقياً وبدرجة عالية من العقلانية للوصول إلى الحقيقة في ظل ثقة عالية بالنفس ، فضلاً عن كونه لا يُجادل في أمور لا يعرف عنها شيئاً ، ويتحمل مسؤولياته أمام الجميع ، ويتعد عن الأحكام الذاتية على الأمور ، ويهتم بتعديل الآراء وفقاً لما يتم الحصول عليه من حقائق جديدة ، كما يواظب على تحقيق ما يؤمن به ويستمر في تقييم ذاته وأفكاره وسلوكياته مدى الحياة ، مما يشير إلى ارتباطه بصورة دائمة بالأخلاق الإسلامية التي تنطلق من فطرة الإنسان السوية ، كما يكره إعطاء آراء دون أدلة تدعمها ويؤخر اتخاذ القرارات إلى ما بعد التفكير المتأن ، ويحاول فهم وجهات نظر الآخرين رغم عدم تقبُّله المبدئي لها ، كما يسعى للتوصل إلى المعارف الصحيحة بغض النظر عن الربح والانتصار لآرائه الخاصة ، وهو ضد الاعتقاد بالأفكار البالية والمتطرفة ، حيث تعتبر تلك السمات النفسية التي دلت على أهميتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أهم سمات الشخصية التي اعترف علماء النفس الغربيون على محوريتها في تنمية شخصية إنسانية سوية ومرتنة.

يرى الفارابي أن القوة التي يتم بواسطتها الإحساس والتفكير والتخيل هي المخيلة ، التي يحفظ بها الفرد ما ارتسم في نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها ، وتسمى "مفكرة" إذا استعملها العقل أما إذا استعملها الوهم سُميت "مُتخيلة" (١٠) ، ويبدو أن التطرف عادةً ما ينتج عن إستعمال الوهم للمخيلة بحيث تنتج تبعاً لذلك أفكاراً هي أقرب ما تكون للتعصب غير المبرر ، ولكنها في ذات الوقت تمثل الحقيقة فقط من وجهة نظر الفرد الذي يتبنى تلك الأفكار فيدافع عنها بقوة ويستخدم كافة الأساليب لنشرها وتأكيدها ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة : ٢٠٤] ، وقد يدرك الفرد أنه متطرف في فكره أو أنه يتعصب لرأيه الخاطيء فيرفض اتباع الحق رغم علمه به ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] ، ولذلك فإن التطرف من سمات المفسدين في الأرض والضالين ، أما المؤمنون المهتدين فهم يتبعون الحق ويأخذون بالشرع كمعيار للحكم على أفكارهم وانتهااتهم واتجاهاتهم وبذلك فهم أبعد الناس عن الأفكار المتعصبة والسلوكيات المتطرفة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وتؤكد ذلك المعنى عدد من الآيات الكريمة التي تضعه كمحك للحكم على صدق المؤمن في ممارسة تعاليم الشريعة الإسلامية في حياته اليومية ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، ذلك أن التشريع الإسلامي له القدرة على حل كافة الخلافات والتوفيق بين مختلف الفرق والجماعات بمنتهى العدالة والحكمة ، وقد أمرنا الله تعالى برد الخلافات لله ورسوله وأولي الأمر لدرء أسباب النزاع والتطرف والعصبية ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩].

(١٠) طه ، الزبير بشير (١٩٩٥) علم النفس في التراث العربي الإسلامي ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم ، ص ١١٦ .

الإدراك الخاطئ بعده سبباً للسلوك المتطرف :

يمكن النظر إلى السلوك المتطرف على أساس أنه سلوك غير سليم ينتج عادةً عن المُدركات الخاطئة التي تتعرض لها كينونة الإدراك الإنساني ، فالعقل البشري يُنتج المعارف الظنية ولا يستطيع إنتاج المعارف اليقينية المطلقة ، وبذلك يكتشف الإنسان عبر الزمن عدم صحة العديد من المُدركات التي تم إدراكها بطريقة خاطئة ، فالبشر في رحلة بحثهم عن الحقيقة يعتمدون كلياً على المعارف التي ترد إليهم في شكل إيجاءات خارجية أو داخلية "ذاتية" يفتقونها عنها متوجههم العلمي والفكري ، ونتيجة لذلك برزت العديد من المُدركات الخاطئة في المعرفة والفكر الإنساني^(١) ، كما يُمثل الإدراك الخاطئ أصلاً لمعاناة الإنسان وتطرفه وحياده عن الطريق الصحيح ، حيث أن كثيراً من مظاهر التطرف تأتي نتيجة لمعالجة خاطئة للإيجاءات المُستقبلية وطريقة غير سليمة في التفكير الاستنتاجي ؛ ليدخل الإنسان من خلالها في دائرة مُفرغة تبدأ بفكرة متطرفة كنتيجة لإدراك خاطئ يليها انفعال متطرف ثم بعد ذلك سلوك متطرف تتولد عنه فكرة متطرفة أخرى يليها انفعال متطرف آخر... وهكذا ، فيكون الفرد أسيراً لها إلى أن يُعدل من أسلوبه السالب في الاستنتاج ومنهجهُ غير السليم وغير التفاؤلي في الإدراك ، حيث أن الإدراكات الخاطئة المُتكررة تقود إلى عقل مُغمَر بالمعارف والمقدمات الخاطئة ، بالإضافة إلى النزوع إلى الخبرات الخيالية المُشوّهة التي يتولد عنها انحراف حاد في البناء المعرفي يقود إلى ظهور السلوك المتطرف بكافة أبعاده وتجلياته.

الحرب النفسية وعلاقتها بالتطرف :

تعمل الحرب النفسية على التأثير في الرأي العام وتستخدم عدة أدوات للوصول إلى ذلك ، ويُعتبر الإعلام من أهم الأدوات التي تستعين بها في سبيل الوصول إلى مدى تعميم أكبر لأهدافها وغاياتها ، ومن أهم خصائص الحرب النفسية أنها تركز على القوة المعنوية والإرادة والتوجه ، كما أنها تركز على دراسة شاملة للمستهدفين ؛ كخطوة أولى للتخطيط المُتخصص للحرب النفسية الموجهة نحوهم ، وعلى استغلال مشاعرهم ودوافعهم ؛ فالحرب النفسية هي حرب لتغيير السلوك وميدانها هو الشخصية وأسلحتها هي بعض وسائل الإيجاء

^(١) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) الإيجاءات المُدركة ، كتاب غير منشور ، تحت رقم التسجيل : ٨ ت - ٢٠١٢ - ١٢ ك ، ص ١٠ .

المتمثلة في الكلمات والأفكار والدعاية والإشاعات ، وفي ظل ضعف الحساسية النفسية يكون من السهل على أقل سلاح نفسي للعدو أن يصيب ويؤثر^(١١) ؛ فتنشر تبعاً لذلك مظاهر التطرف والتعصب التي يتم نشرها في المجتمع المستهدف بالحرب النفسية ، حيث أن وسائل العدو في الحرب النفسية موجودة باستمرار ولكن وجودها وحده لا يؤثر وإنما الذي يؤثر هو استعدادنا لاستقبالها والتأثر بها.

حرب المصطلحات بعدها مدخلاً للفكر المتطرف :

تعتبر حرب المصطلحات من الأساليب الإيجابية القوية التي يمكن أن تزيد من احتمالية ظهور السلوكيات المتطرفة ، حيث انتشرت بطريقة واسعة لنشر أفكار وثقافات غير مقبولة في شكل مقبول ، وتعتمد أساساً على اللعب بالمصطلحات وتمويه دلالاتها بطريقة تجعل المتلقي دون وعي منه مُعتقاً لهذه الأفكار وتلك الثقافات ومُمارساً لها بل ومُدافعاً عنها ، وبذلك فإن أي شكل من الغزو الفكري الموجود في العالم اليوم ما هو إلا نتيجة حتمية لحرب المصطلحات التي تركز في أساسها على آلية الإيحاء ، ومن الأمثلة الواقعية على ذلك تغليف الدلالات غير المقبولة بمصطلحات مقبولة ومن ثم العمل على نشرها وبثها بكافة الوسائل الممكنة ، فكانت حرب المصطلحات وبهذه النظرة أداة لتحقيق المطامع بأساليب ناعمة لا تكلف ولا تتسبب في أي خسائر مادية أو بشرية لتحقيقها^(١٢) ، وهذا الرأي لا تدعمه أسس ومبادئ نظرية المؤامرة ، ولكن تدعمه كل المعاني التي ينطق بها الواقع عن مظاهر التطرف بين المسلمين اليوم الذي لا يحتاج لكثير من الشرح واستخدام الكلمات لتوضيحه أو كشف أبعاده ؛ ابتداءً من مظاهر التبعية والتقليد الأعمى وانتهاءً بالسلوكيات المتطرفة التي باتت تشكل تهديدات حقيقية للاستقرار والأمن في العالم العربي الإسلامي.

يمكن أن تتطور حرب المصطلحات وتتكثف تأثيراتها لتؤدي إلى ما يعرف في علم النفس بغسيل المخ ، الذي يشير إلى العملية التي يتم من خلالها تطويع المخ وإعادة تشكيل التفكير ، ويمكن أن يُستخدم ما يعرف بغسيل المخ مع المجموعات والأفراد ، واستخدامه مع المجموعات عادةً ما يكون من خلال حملة إعلامية مكثفة ، وعملية غسيل المخ أشبه ما تكون

(١١) عابدين ، تهباني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرّكة (٢٠١٢) ، ص ١٢ .

(١٢) عابدين ، تهباني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرّكة (٢٠١٢) ، ص ١٤-١٥ .

بعملية الفرمطة في الكمبيوتر لأنها تعتمد على محو وإعادة التعلم ، بما يجعل من هذه العملية النفسية أداة فعالة لتشكيل السلوك المتطرف ، ويُلاحظ أن مدى التأثير بها يتوقف على قوة أو ضعف ميل الفرد للخضوع والتأثر ، كما يمكن إرجاع بعض أشكال السلوك المتطرف إلى ما يعرف بسيكولوجية الحشد التي قامت مجموعة من النظريات النفسية بتفسيرها من خلال التأكيد على أن الأفراد يسلكون عندما يكونون وسط جماعة في مواقف مُحددة بما لا يتفق مع سلوكهم في نفس المواقف عندما يكونون بمفردهم ، لأن العقاب لن ينالهم في الحالة الأولى نسبة لعدم القدرة على إيجاد أدلة قوية تدينهم كأفراد عندما يكونون وسط جماعة.^(١٤)

يمكن للسلوكيات المتطرفة المرتبطة بسيكولوجية الحشد أن تحدث نتيجة لإجاء سلوك الحشد بأنها سلوكيات مرغوب فيها أو صحيحة وعلى أنها الطريقة الفعالة للحصول على الحقوق مثلاً ، والأدلة الواقعية على ذلك كثيرة ومنها العنف الطلابي في الجامعات والمظاهرات التخريبية للمواطنين والخلافات العنيفة بين الفرق وتطرف اتباع المذاهب والأحزاب السياسية والفكرية ... وما إلى ذلك ، كما قد تتعدد الحالات التي يؤثر فيها سلوك الجماعة على سلوك الفرد لتشمل كافة نواحي الحياة ، حيث يمدنا النظر الثاقب إلى هذه الأمثلة بالدليل القوي على أن سلوك الآخرين عندما تكون له صفة الانتشار أو الاستمرارية أو الاثنين معاً ؛ فإنه يُعطي إيجاء للفرد بأنه سلوك صحيح وطبيعي حتى وإن لم يكن كذلك بل حتى وإن كان على النقيض من ذلك تماماً ، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن درجة التأثير بإجاء سلوك الآخرين تعتمد في المقام الأول على مدى وعي الفرد ومدى قوة إرادته أو ضعفها في الانسياق والخضوع.^(١٥)

التطرف بوصفه مرادفاً للتعصب السلبي :

يمثل التطرف في علم النفس ما يعرف بالتعصب السلبي الذي لا يقوم على أسس عقلية كما لا تدعمه الأدلة الموضوعية ، ومن خلال التعمق في دلالات مصطلح التعصب سيتضح أنه عبارة عن ميل انفعالي يؤدي إلى أن يفكر الفرد وينفعل ويسلك نحو شيء أو فرد أو موقف بطرق تتفق مع حكم بالتمييز أو عدم التمييز ، ويكون ذلك الحكم سابقاً على

(١٤) مرجع سابق ، الإيجاءات المدركة (٢٠١٢) ، ص ٢٠ .

(١٥) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيجاءات المدركة (٢٠١٢) ، ص ٢٠ .

وجود دليل منطقي مناسب ، وهو يقوم على أساس نسق من القوالب النمطية والتصورات الجامدة التي يلعب الإيحاء دوره الفعّال في صناعتها ، ومن خلال تدقيق النظر للواقع المعاش يمكن الكشف عن العديد من صور التعصب التي لا تستند إلا على بعض الإيحاءات التي لا تستند بدورها إلى أي مبررات منطقية تدعم صحتها ، ولكن بالرغم من ذلك يُلاحظ أن مثل هذه الإيحاءات تؤثر بالفعل على العديد من الأفراد فتتحكم في أفكارهم وأحاسيسهم ونزوعهم السلوكية نحو موضوع التعصب بشكل كبير قد يصعب تصحيحه إلا بعد مجهودات عميقة ومُطولة ، نسبة لما تمتلكه تلك الأفكار من مكانة عميقة في أنفس مُعتنقيها والمتأثرين بها بالرغم من عدم منطقيتها^(١٦) ، ومن جانب آخر يمكن القول بأن الإيحاء هو مكنم فاعلية الأفكار المتطرفة لكونه يتضمن عملية غرس أفكار في عقلية الفرد بحيث لا تجد الفكرة الجديدة مُعارضة أو انتقاداً من الأفكار الأخرى القديمة ، وبذلك يمكن النظر إلى مظاهر التطرف على أنها نتيجة حتمية لمبدأ "الإلفة بالموضوع" الناتج عن تكرار الإيحاء بأفكار محددة عبر الزمن فيتقبلها الفرد بسهولة نسبةً لإلفته إياها بدون محاکمتها عقلياً^(١٧).

التقليد الأعمى بوصفه منشأ للسلوك المتطرف :

يمكن القول بأن التطرف ينتج عن تقليد السلوكيات المتطرفة أو في المقابل التأثير بها ، وهناك أهمية للتمييز بطريقة حاسمة بين ظاهرتي التقليد والتأثر ، فحتى إذا تمثلت نتائج هذا التأثير في نوع من الاستجابة الواعية فإنها تُنفذ ببطء واستلهاً ولا تأخذ الطابع الواعي الذي يتسم به التقليد ، وفي التأثير حقيقة بينة وهي أن المرسل لا يفتن عادةً إلى دوره المؤثر ، كما أن المُتلقي لا ينتبه إلى فاعلية العناصر التي يحتفظ بها ، ومن هنا يمكن اعتبار التأثير تقليداً غير واعٍ واعتبار التقليد تأثيراً واعياً ، ويرتبط ذلك التقليد أو التأثير غالباً بمبدأ الأكثرية الذي يدل من الناحية السيكلولوجية على أن الأقلية غالباً ما تميل إلى التأثير بالأغلبية^(١٨) ؛ وذلك بتوجيه الأفراد لنزعاتهم السلوكية وخصائصهم الفكرية والانفعالية تبعاً للخصائص السلوكية والانفعالية والفكرية السائدة ، التي يمكن أن تتطور لتأخذ شكل التقليد الأعمى والفكر المتطرف.

(١٦) مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرّكة (٢٠١٢) ، ص ١٣-١٤ .

(١٧) مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرّكة (٢٠١٢) ، ص ٢٩ .

(١٨) عابدين ، تهباني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرّكة (٢٠١٢) ، ص ١٦ .

تشير الملاحظة الواقعية إلى أن هنالك نوعين من التقليد؛ أولهما هو التقليد المبصر الذي يارسه الفرد على بصيرة ودراية وعلى هدي الله عز وجل وعلى سنة رسوله ﷺ، والتقليد المبصر ليس تقليداً بالمعنى المذموم وإنما هو تقليد محمود ومرغوب فيه، ويُمكن أن يظهر هذا النوع من التقليد في اتباعنا لرسولنا الكريم ﷺ في قوله وفعله واتباع أوامره واجتناب نواهيه، كما يمكن أن يظهر في الانتقاء المتبصر من قبل الفرد للأفكار والسلوكيات التي يمكن أن يُقلد فيها غيره من الناس بعد اقتناعه التام بمشروعيتها وبصحتها وبفائدتها، أما النوع الثاني فهو التقليد الأعمى ويتمثل في اعتناق فكر أو قبول رأي أو القيام بسلوك موافقة ومسيرة لفئة من الناس دون البحث عن دليل شرعي يبنى عليه ذلك سواء من الكتاب أو السنة الصحيحة، فالتقليد الأعمى يتم باتباع الغير في اعتقادات أو أقوال أو أفعال أو عادات مع جهل ضررها أو مُصادمتها للفضيلة والنقية والعلم السليم والشريعة المُشرفة، ووصف التقليد الأعمى بأنه "أعمى" لأنه تقليد بدون دليل ولا برهان يدل عليه، إن المُقلد للآخرين تقليداً أعمى نسي أن كل ابن آدم خطأون وتوهم أن الآخرين معصومون من الضلال والانحراف والخطأ، ونسي بأن الناس لا ينطقون دائماً من حجة دامغة أو برهان ساطع أو دليل قاطع؛ بل هم كثيراً ما يُطلقون الكلام على هوانة، والله عز وجل قد بين حال المُقلدين ومن قلدوهم يوم القيامة، وكيف يُلقى كل من الفريقين بالتبعة والمسئولية على الفريق الآخر، فقال عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [١٦٦] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿[البقرة: ١٦٦-١٦٧].

الحاجة للانتماء بعدها معززاً نفسياً للتطرف :

يعتبر الانتماء من الحاجات النفسية المركوزة في أعماق النفس البشرية، فكل فرد يسعى للانتماء لمجموعات مختلفة كالأُسرة وجماعة الرفاق والحزب السياسي والفريق الرياضي وغيرها من المجموعات لإشباع تلك الحاجة، وإذا تأملنا في مجال الفرق الدينية والسياسية باعتبارهما من أكثر الجماعات التي تظهر فيها مظاهر التطرف، سنجد أنها تجتهد في أن تظهر بأساليب إقناع تعتمد على عنصر الإيحاء اعتماداً كبيراً لتزيد من اتباعها ولتلبس أفكارها ثوب الحق والمصادقية، هذا الواقع المائل الذي قد يصيب الفرد بالحيرة فيما يتعلق بمحاولة الاختيار الصحيح للجماعة التي يجب أن يقتنع بأفكارها وينتمي لها يوضح الأثر الكبير

للإيحاء في مجال سيكولوجية التطرف ، حيث أن كل جماعة منها تعمل على إقناع الآخرين بأفكارها من خلال الإيحاء بدرجة قد تذوب معها معايير الفرد للحكم السليم غير المتطرف ، حيث يمثل الإيحاء أداة مرنة وفاعلة من شأنها أن تجعل الحق حقاً والباطل باطلاً والباطل حقاً والباطل باطلاً على حد السواء.^(١٩)

تتضاعف في ذات السياق فاعلية تأثير جماعة الأقران على الفرد خصوصاً في مرحلتي الطفولة المتأخرة والمراهقة ، فيبرز دورها في تفعيل مظاهر السلوك المتطرف لدى الناشئة ، وذلك على اعتبار أن عدم الانجراف مع جماعة الأقران ومسايرتهم يعتبر في نظر هؤلاء الأطفال والمراهقين ضعفاً وشذوذاً ينبع من عدم القدرة على التوافق ، كل ذلك بالرغم من أن المقاومة الواعية لهذا الانجراف التي تقبل الصحيح وترفض الخطأ تنم عن شخصية في قمة القوة ، لأن الرفض في هذه الحالة يكون من باب أن الفرد "لا يريد" وليس "لا يستطيع" ، وبالطبع فإن الاختلافات كبيرة بين دلالة اللفظين ، والحقيقة التي تداعت مثل هذه الإيحاءات لحجبها عن الرؤية تتمثل في كون الانجراف اللاواعي يُمثل قمة الضعف ؛ لأن الفرد حينها يقبل الصحيح والخطأ دون تمييز أو مقدرة على إبداء الرأي والاعتراض على الخطأ ، فإنه في هذه الحالة "لا يستطيع" أن يحكم ذاته نسبة لضعف إرادته ، فيكون "إمعة" يقبل التأثير ويُدمن التقليد ويمارس التطرف بشكل كبير.

نتائج الدراسة :

أولاً : تتمثل الأسباب النفسية للتطرف فيما يلي :

- (١) أساليب الإقناع التي تعتمد على عنصر الإيحاء اعتماداً كبيراً يمكن أن تشكل السبب الرئيسي في انتشار التطرف ؛ حيث يمثل الإيحاء أداة مرنة وفاعلة من شأنها أن تجعل الحق حقاً والباطل باطلاً والباطل حقاً والباطل باطلاً على حد السواء.
- (٢) التطرف سلوك عقلي في المقام الأول وتنتج عنه ردود أفعال متطرفة تحمل أبعاداً وجدانية وأخرى سلوكية ، بالدرجة التي تجعل من "أسلوب التفكير المتطرف" سبباً في مشكلة التطرف.

^(١٩) عابدين ، تهباني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المدركة (٢٠١٢) ، ص ٢٩ .

- (٣) التفكير العلمي هو ليس تفكير العلماء فقط بالضرورة ، فالتفكير العلمي يمكن أن يتمثل في ذلك التفكير المنظم الذي يمكن أن يُمارس في الحياة اليومية ليعبد الإنسان عن التطرف.
- (٤) السلوك المتطرف يؤثر ويتأثر بجوانب الشخصية وما تحمله من قيم ومعايير وسمات انفعالية واجتماعية مختلفة ، حيث تؤثر أساليب التنشئة الاجتماعية غير السليمة في خلق أجيال قابلة للتطرف.
- (٥) تشكل الأفكار المتطرفة المنطلق الرئيس لردود الأفعال الوجدانية والسلوكية المتطرفة التي تصدر عن الفرد ، حيث يسلك الفرد وينفعل بدافع من أفكاره التي يؤمن بها.
- (٦) تعمل المشاعر المحايدة والسلبية لدى الأفراد نحو بعض الموضوعات على إنشاء ردود الأفعال المتطرفة وغير العقلانية غالباً ، حيث يمكن النظر للتطرف على أنه شحنات انفعالية تنشأ عن أفكار غير سليمة وتقود إلى سلوكيات تتصف بالتعصب غير الموضوعي.
- (٧) اختلاف البشر في طريقة التفكير ” الفروق الفردية في التفكير “ يمكن أن تكون سبباً في إحداث التطرف وما ينتج عنه من مشكلات ، وذلك عند غياب ثقافة أدب الاختلاف في المجتمع.
- (٨) منشأ التطرف يكمن في المفاهيم التي يبلورها العقل بشكل لا يتسق مع الواقع ولا يتطابق مع حقيقته من خلال ما يعرف علمياً بالإدراك الخاطيء.
- (٩) ينتج التطرف عن أفكار هي أقرب ما تكون للأوهام التي لا تمثل الحقيقة بتاتاً ، ولكنها في ذات الوقت تمثل الحقيقة فقط من وجهة نظر الفرد الذي يتبنى تلك الأفكار فيدافع عنها بقوة وبشئى الطرق السليم منها والخاطيء.
- (١٠) يعتبر التفكير الناقد من أنماط التفكير المتقدمة لمعالجة المعلومات ومحاکمتها منطقياً وفعاليتها عالية للتوصل إلى نتائج هي أقرب ما تكون للحقيقة ، بما يجعله الأسلوب التفكيرى الأمثل في مقاومة التطرف.
- (١١) يختلف المُفكر الناقد عن المُفكر المتطرف في عدد كبير جداً من السمات والخصائص النفسية ، حيث يرتبط التفكير الناقد بعدد كبير من سمات الشخصية الفاعلة والإيجابية ، مثل الابتعاد عن المُحاكاة غير المُبررة وطلب الإقناع العقلي من الآخرين.

- (١٢) السلوك المتطرف ينتج عادةً عن المدركات الخاطئة التي تتعرض لها كينونة الإدراك الإنساني ، التي تنتج تبعاً لطبيعة العقل البشري الذي يُنتج المعارف الظنية ولا يستطيع إنتاج المعارف اليقينية المطلقة.
- (١٣) تعمل الحرب النفسية عبر وسائل الإعلام والاتصال المختلفة على نشر العديد من مظاهر التطرف في المجتمعات المستهدفة ، تبعاً لما تتمتع به من إمكانية للوصول إلى مدى تعميم أكبر لأهدافها وغاياتها.
- (١٤) تعتبر حرب المصطلحات من الأساليب النفسية القوية التي تزيد من احتمالية ظهور السلوكيات المتطرفة.
- (١٥) يمثل التطرف في علم النفس ما يعرف بالتعصب السلبي الذي لا يقوم على أسس عقلية ولا تدعمه الأدلة الموضوعية ، كما تحتل الأفكار التعصبية مكانة عميقة في أنفس المؤمنين بها على الرغم من عدم منطقيتها.
- (١٦) ينتج التطرف من الناحية النفسية عن التقليد الأعمى للسلوكيات المتطرفة أو في المقابل التأثير غير الواعي بها عبر الزمن.
- (١٧) تعتبر عملية غسيل المخ من الإستراتيجيات النفسية الفعالة لتشكيل السلوك المتطرف في بعض الحالات.
- (١٨) تلعب سيكولوجية الحشد دوراً واضحاً في تعزيز العديد من مظاهر التطرف في المجتمع الإنساني.
- (١٩) تتضاعف فاعلية تأثير جماعة الأقران على الفرد خصوصاً في مرحلتي الطفولة المتأخرة والمراهقة فيما يتعلق بتشكيل مظاهر السلوك المتطرف لدى الناشئة.
- (٢٠) يشكل الاندفاع سلوكاً انفعالياً وثيق الصلة بالتطرف ويؤدي تعديله إلى تحقيق تفكير متزن وموضوعي.
- (٢١) الاعتمادية المفرطة على الآخرين تعمل على نشر ثقافة التطرف ؛ لكون الفرد في هذه الحالة يعمل على تبني الأفكار الجاهزة فيقبلها من الآخرين بغض النظر عن كونها متطرفة أو غير متطرفة.

(٢٢) عدم الرغبة في التفكير تمثل أكبر المسببات النفسية النزوعية للتطرف ، فبعض الأفراد مثلاً قد لا يرغبون في بذل الجهد أو تحمل المسؤولية لاتخاذ قراراتهم وتشكيل أفكارهم وانتماءاتهم ؛ بما يزيد من نسبة تقبل الأفكار المتطرفة لديهم .

(٢٣) فقدان الثقة في التفكير تقود إلى إحجام الفرد عن القيام بعملية التفكير في الموضوع المطروح خوفاً من عدم قبول رأيه ؛ فيفضل الفرد ها هنا مسaire الآخرين بشكل أعمى يعزز من ظهور الأفكار المتطرفة .

(٢٤) الشخصية الإنسانية لا تخرج عن ثلاثة أنماط أساسية ؛ تتمثل في المسير الذي يُفكر وينفعل ويسلك وفقاً لتوقعات الجماعة ، والمُغاير الذي يعرف توقعات الجماعة لكنه يسلك بأسلوب مُخالف لتوقعاتها ، والمستقل الذي لا يتأثر فكره أو انفعاله أو سلوكه بالتوقعات الثقافية ، وقد تأكد أن الشخصية المسيرة والشخصية المغايرة هما الأكثر تطرفاً في مقابل الشخصية المستقلة .

ثانياً : تتمثل الحلول النفسية للتطرف فيما يلي :

(١) تنمية التفكير الناقد لدى الأفراد والذي ينطلق أساساً من القيم والمبادئ الإنسانية بعدها محاكاة له ويستهدف بشكل رئيسي الوصول للحقيقة ، ستشكل خطوة مهمة بإتجاه حل مشكلة إنتشار التطرف .

(٢) التركيز على معالجة الجانب الفكري للفرد المتطرف أكثر من معالجة الجوانب الوجدانية والسلوكية يعتبر إجراءً حيويًا لحل مشكلة التطرف ؛ حيث تمثل الأفكار المتطرفة المنشأ النفسي للتطرف .

(٣) أساليب التفكير المتطرفة ليست محفورة منذ الميلاد في دماغ الفرد فهي في معظمها ناتجة عن الوسط الذي يتفاعل فيه الأفراد ، مما يعطي أهمية لرفع الوعي الاجتماعي المحيط بالفرد بما يدعم دحر التطرف .

(٤) الاهتمام بتدريب الأفراد على تطوير أسلوبهم في التفكير الذي يقود إلى تنمية قدرتهم على التحول إلى أساليب التفكير الحاذقة بعيداً عن أساليب التفكير الشاذة والمتطرفة .

- (٥) تنمية الحساسية النفسية لدى أفراد المجتمع تضمن وقايتهم من التطرف الذي تستهدفه أساليب الحرب النفسية وحرب المصطلحات وإستراتيجيات غسيل المخ التي يتم ترويجها عبر وسائل الإعلام والاتصال الحديثة.
- (٦) تطويع الحقيقة التي تشير إلى تأثير جماعة الأقران على بعضهم البعض في انتشار السلوك المتطرف ؛ بشكل إيجابي يقلل من مظاهر التطرف لدى الناشئة.

توصيات الدراسة :

- (١) تصميم وتطبيق برامج إرشادية تستهدف حل مشكلة التطرف عبر تنمية ممارسة الأفراد للتفكير الناقد في سياق حياتهم اليومية.
- (٢) تمليك مؤسسات التنشئة الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية المعلومات والإستراتيجيات اللازمة لبناء أجيال غير متطرفة في أساليب تفكيرها ومشاعرها وانتماءاتها ونزعاتها السلوكية.
- (٣) وضع رقابة على المعلومات التي تتيحها وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة ؛ بحيث يتم تلافي تأثيراتها ذات الصلة بالجوانب المعززة للتطرف من خلال حملات إعلامية مضادة.

الخاتمة :

تجمع مشكلة التطرف بين اهتمامات العديد من ميادين العلم والمعرفة ، كالدراسات الإسلامية وعلوم النفس والتربية والسياسة والاجتماع والقانون ، ويعود السبب في ذلك إلى تعدد الجهات العلمية التي يهملها معالجة القضية لارتباطها المباشر بتخصصاتها ، ويمكن القول بأن اهتمام تلك التخصصات المختلفة بمشكلة التطرف ظهر من خلال بحوث ودراسات علمية عديدة هدفت للكشف عن أسباب مشكلة التطرف ، وتجدد الإشارة إلى أن الذي تم في الدراسة الحالية هو محاولة ربط عملية الكشف عن أسباب التطرف بوضع الحلول والمعالجات المقترحة ، حيث يجدر بها التلازم مع بعضها البعض للتخلص من مظاهر السلوك المتطرف ، وذلك من خلال تقييم الحلول انطلاقاً من الأسباب ، التي يمكن أن تمنحها المبرر لتكون حلاً نفسية مقترحة للتخلص من التطرف وما ينتج عنه من مشكلات.

قائمة المصادر والمراجع :

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) إبراهيم ، السيد السيد [٢٠٠٩] العقل البشري رأس مال ، مؤسسة طيبة للطبع والنشر ، القاهرة.
- (٣) جروان ، فتحي عبد الرحمن [٢٠١٠] تعليم التفكير ” مفاهيم وتطبيقات “ الطبعة الخامسة ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان.
- (٤) طه ، الزبير بشير [١٩٩٥] علم النفس في التراث العربي الإسلامي ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم.
- (٥) عابدين ، تهاني هاشم [٢٠١٢] الإيحاءات المدركة ، كتاب غير منشور ، تحت رقم التسجيل : ٨ ت - ٢٠١٢ - ١٢ ك.
- (٦) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشارة ، موفق [٢٠٠٩] تنمية مهارات التفكير ” نماذج نظرية وتطبيقات عملية “ الطبعة الثانية ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان.
- (٧) العياصرة ، وليد رفيق [٢٠١١] إستراتيجيات تعليم التفكير ومهاراته ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن.

قسم الثقافة الإسلامية

- * أنشئ قسم الثقافة الإسلامية في العام ١٩٩٤م وكان وقتها يتبع لإدارة التعريب.
- * ثم أنشئت إدارة مطلوبات الجامعة في العام ١٩٩٨م وأضيف قسم الثقافة الإسلامية لها.
- * يضم القسم في عضويته عشرة أساتذة ، واحد بدرجة أستاذ مشارك وسبعة بدرجة أستاذ مساعد ومحاضرين.
- * يقوم القسم بتدريس منهج الثقافة الإسلامية لكل كليات الجامعة كمطلوب جامعة.
- * للقسم نشاط خارجي يتمثل في المؤتمرات العلمية والمنتديات الشرعية وغير ذلك
- * للقسم أهداف تتمثل في ربط الطالب بتراثه الإسلامي وتزويده بالمعارف الإسلامية ، وتحقيق مبدأ الأخوة الإسلامية بين الطلاب ، وربط الدين بالعمل وأنماط السلوك. وتقوية الإيمان في نفوس الطلاب ، إلى غير ذلك من الأهداف.



صياغة رؤية إسلامية وسطية للحوار والتعايش الديني مع الأقليات غير المسلمة

د. هويدا صلاح الدين العتباني
جامعة بحري

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٥١-٢٢٧)

المستخلص :

هذه الورقة ” صياغة رؤية اسلامية معتدلة للحوار والتعايش الديني مع الأقليات غير المسلمة “ استعرضت المفاهيم التي تقود إلى فهم أبعاد قضية تعامل الإسلام مع الأقليات غير المسلمة. إضافة إلى تقديم نماذج من التعايش الديني والأحكام الشرعية التي تصبح صمام أمان للأقليات غير المسلمة ، والتي تعيش تحت ظل الحكم الإسلامي.

وقد أكدت الورقة أن الإسلام كرس مبدأ المساواة بين جميع الناس وفقاً لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]. ومن ثم فقد أكد الإسلام على الأسس والقواعد التي تعطي الأقليات حقوقهم حتي لا يتعرضوا للتهميش والأذلال والقهر، لا سيما في ظل المجتمعات التعددية. وحث الإسلام على الحوار مع المختلفين دينياً، تجنباً للنزاع والحرب ، وحتى يمكن إستيعاب الاختلافات الفكرية والدينية وتقبل الآخر. الأمر الذي يؤكد أن الإسلام يعتمد رؤية معتدلة ، ويرفض الفكر الإقصائي والتطرف في التعامل مع غير المسلمين.

مقدمة :

مع بروز رسالة الإسلام كان المعيار الأشمل والأوفي هو تكريم الإنسان والاعتراف بأفضليته وإبطال استعباده بغض النظر عن عرقه أو لونه أو دينه ، فكان أبرز وأعظم شعار للمساواة في الإنسانية قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]. ومن هنا برزت الحاجة إلى تأسيس مرجعية إسلامية وسطية ومعتدلة تنسجم مع طبيعة التعددية والتنوع الثقافي والديني في الدولة الواحدة ، وتعتمد مبدأ الحرية والعدل والمساواة مما يمكنها من التعامل مع الأقليات الدينية غير المسلمة ، ويتعين بها سبر غور التطرف الديني والفكر المتشدد.

تستعرض هذه الورقة حقوق الأقليات غير المسلمة ، وهي حقوق تستند إلى فلسفة الحق الإنساني في الإسلام ، في ظل المجتمعات التعددية ، وأهمية إجراء حوار في حالة النزاعات ، وذلك من خلال المحاور التالية :

المحور الأول : دراسة مفاهيمية للمصطلحات الأساسية المرتبطة بالبحث.

المحور الثاني : فلسفة الحق في الإسلام.

المحور الثالث : حقوق الأقليات غير المسلمة وفق الرؤية الإسلامية.

المحور الرابع : رؤية تأصيلية للحوار.

تهدف الورقة إلى :

أولاً : تأسيس رؤية وسطية معتدلة ، تستند إلى الفقه الإسلامي ، الذي يسعى إلى التعايش

الديني في المجتمع المتعدد.

ثانياً : إيجاد صيغ مشتركة للتعايش مع الأديان الأخرى من خلال الربط في القضايا المشتركة.

ثالثاً : بلورة رؤية حوارية تستوعب الاختلافات الفكرية والدينية وتقبل الآخر.

وفي هذا المنحى فإن الدراسة تتيح الإجابة عن مدى إمكانية إيجاد فكر وسطي معتدل

يعتمد على الفقه الإسلامي ويعمل على الانسجام والتعايش الديني في المجتمع المتعدد ؟

دراسة المفاهيم :

تعد دراسة المفاهيم الإجتماعية والسياسية ذات أهمية علمية ، وتصلح مدخلا لفهم

أبعاد القضية. على أن تلك المفاهيم تظل قيد البحث والتنقيب في ما هو متاح ، ومن ثم القيام

بعملية التنقيح حصولاً على أفضل النتائج. ويبدو من الأهمية تعريف المصطلحات التي لها

علاقة بموضوع الورقة وهي :

أولاً : الحق

ثانياً : الأمة والمواطنة.

ثالثاً : الأقلية.

رابعاً : الحوار.

أولاً : الحق :

كلمة حق بمعنى وجب ، يحق للمظلوم أن يجاهد في وجه الحق ، أي ” وجب “ على

المظلوم.^(١) وبعض العلماء مثل ابن نجم المصري المتوفي عام ٩٦٩ هـ ، عرف حق الملكية بأنه

” اختصاص حاجز “ ، باعتبار أن الاختصاص هو جوهر الحق.^(٢)

^(١) المعجم العربي الأساسي _ مادة حقق.

وفسر الفقهاء الحق أيضاً بأنه ”كل ما هو ثابت ثبوتاً شرعياً ، أي بحكم الشارع وكان له بسبب ذلك حمايته“^(٣). والتعريف الأخير هو الأكثر وضوحاً ، وهو الذي سنعتمده ونسطحه في تبيان حقوق الأقليات الدينية. والحق من أسماء الله الحسنى ، وقيل من صفاته. والحق نقيض الباطل كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٣].

يقول القرافي في كتاب الفروق إن ”حق الله أمره ونهيه وحق العبد مصالحه“^(٤). هنا لا بد من التفرقة بين حق الله سبحانه وتعالى وحق الفرد. فقد قسم الأصوليون في باب المحكوم فيه الحق إلى قسمين ، الأول حق الله أو حق الجماعة وهو ما يتعلق به النفع العام ، ونسب إلى الله تعالى لعظم خطره وشموله ومدى نفعه. والثاني هو حق العبد أو الفرد وهو ما يتعلق بمنفعة خاصة.^(٥)

ويرتكز مفهوم الحق بصفة عامة على مبدأ العدل ، وصولاً إلى نقطة التوازن بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة ، فالفرد يحترم حقوق الآخرين كي يضمن احترام الآخرين لحقوقه. وقد بالغ الإسلام في رعايته لحقوق الإنسان إلى درجة أطلق البعض عليها ”حرمات“ وأطلق البعض الآخر عليها ”ضرورات“ وأدخلها قسم ثالث في باب ”الواجبات“^(٦).

^(١) فتحي الدريني ، الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ١٨٦ .

^(٢) علي الخفيف ، الحق والذمة ، ١٩٤٥ ، ص ٣٦ . وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، انظر : هويدا صلاح الدين العتباتي ، حقوق الإنسان بين الإسلام والمواثيق الدولية مع دراسة خاصة لحقوق الإنسان في السودان ، رسالة ماجستير ١٩٩٨ ، قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم .

^(٣) شهاب الدين بن العباس الصهاجي القرافي ، الفروق ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

^(٤) محمد فتحي عثمان ، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني العربي ، دار الشروق ، ط الأولى ١٩٨٢ ، ص ٢٩ .

^(٥) هبة رؤوف ، المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٩٥ ، ص ٨٦ .

وقد يأتي الحق كثمرة لأداء الواجب الإنساني كما جاء في الحديث ” من أحيا أرضاً ميتاً فهي له “ رواية الترمذي عن جابر - كتاب الإحياء. فالحق هنا يتم نياله بعد القيام بواجب الإحياء للأرض بالسقي والغرس ، وعلى ذلك يصبح كل حق يقابله واجب.

ثانياً : الأمة والمواطنة :

يعبر مفهوم الأمة عن مجموعة من الناس تشترك في وحدة الأصل واللغة والثقافة والتاريخ.^(٧) وربما تجمع بينهم القيم والأهداف ويؤلف بينهم نفس التاريخ والمستقبل المشترك. وليس بالضرورة وجود الأمة في دولة واحدة أو إقليم واحد ، بل يمكن أن تتوزع في أقاليم مختلفة ، مثال الأمة العربية والأمة الإسلامية ، وهو على عكس مصطلح ” الأقليمية “ والذي يرمز إلى ” وضع وحالة تدرجان داخل الدولة الواحدة أو الأقليم الواحد ، اعتباراً بأن الأقليم يمثل عماد ولاء المجموعة وتنسب إليه هويتها. كما أنه يشير إلى درجة من التجانس التي تسود مجموعة بعينها “.^(٨)

ومفهوم الأمة هو المفهوم المعتمد في الإسلام لدى غالبية الفقهاء ، فقد ورد لفظاً ومعنى في القرآن الكريم ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ... ﴾ [الشورى : ٨]. وإن كانت الأمة يسودها الإيمان فإن الإسلام هو المرجعية الأساسية ، ومن ثم يجب الاعتراف بكل ما ينبثق عن تلك المرجعية ، وباعتبار أنها مرجعية لنظام شامل ومتكامل للحياة الإنسانية.

أما المواطنة فيشير مفهومها إلى تمتع الشخص بالحقوق والواجبات داخل الدولة أو البقعة الجغرافية التي لها حدود معينة ، والتي تستند الى حكم القانون ، وعادة ما تكون رابطة ” الجنسية “ هي المعيار الأساسي في تحديد المواطنة.^(٩) وانطلاقاً من مفهوم المواطنة ، فإن جميع المواطنين متساوون ، لا يميز بينهم الاختلاف في الدين أو الجنس أو العرق.

^(٧) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد العرب ، ج ٢ ، مطبعة

جامعة الخرطوم ١٩٨٩ ، ص ١٠٥

^(٨) محمد عمر بشير ، الإقليمية والوحدة القومية ، المركز الطباعي ، ص ٤٠ .

^(٩) سامح فوزي ، المواطنة ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، ص ٧-٩ .

وإذا عقدنا مقارنة بين مفهوم الأمة والمواطنة ، نجد أن المفهومين يلتقيان في أن الحقوق تكتسب وتستحق بغض النظر عن العرق أو اللون أو القبيلة. ورغم أن مفهوم الأمة يبدو أنه لا تحده حدود إلا أنه مقيد بضوابط الإيمان ، بينما المواطنة لا تتقيد بحاجز المعتقد أو الدين بل تتقيد بحاجز الجنسية. فكل المفهومين يفتح في جوانب ويتقيد في أخرى. وعلى سبيل المثال يرى بعض الناقدين لمفهوم المواطنة أن ثمة إشكالية تتمثل في اعتماد مبدأ المواطنة للمواطنين غير المسلمين في الدولة ، ومن ثم تمتعهم بالحقوق ، في الوقت الذي يحرم منها مسلمون من جنسيات مختلفة ، وهو أمر يخالف مفهوم الأمة ، والذي لا تحده حدود جغرافية ، مما يحتم إيجاد صيغة اجتهادية تتصدى لتلك الإشكالية.^(١٠)

ورغم رفض بعض الفقهاء تطبيق مبدأ المواطنة في الدولة الإسلامية ، إلا أن البعض الآخر يرى أن مفهوم الأمة هو مفهوم شامل يجمع بين الناس كافة ، وعناصر الأمة من الأفراد ” مواطنين “ في دولة الإسلام. وأن عنصر المواطنة يضم غير المسلمين الذين ارتضوا العيش تحت سقف الدولة الإسلامية.^(١١)

إضافة إلى ذلك فإنه يصبح من المهم اعتماد فقه الضرورة ، والذي يضمن عدم ضياع الحقوق ، أو على أساس ” حيثما وجدت المصلحة الشرعية فثم وجه الله “^(١٢) بالطبع المقصود هو المصلحة المقيدة بالضوابط الشرعية ، وعلى أساس أن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفساد. وعلى سبيل المثال أشار العلامة ابن القيم إلى قبول شهادة غير المسلم بأنه ” ضرورة يقتضي هذا التعليل قبولها في كل ضرورة ، حضراً وسفراً “^(١٣) لكن في اعتقادي

^(١٠) أبو بكر سليمان الشيخ ، مقالات في الشريعة و جدل الهوية ، هيئة الأعمال الفكرية ، السودان ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

^(١١) حسن سيد سليمان ، الدولة الإسلامية طبيعتها وأسسها ، جماعة الفكر والثقافة الإسلامية ، ص ٢٦ .

^(١٢) يقول القرضاوي لا تؤخذ العبارة على إطلاقها بل تعمل فيما لم يكن فيه نص صريح محكم. ومعروف أن الشرع جاء بجلب المصالح في العاجل والآجل فإن وجدت مصلحة معتبرة فإن الشرع أجاز تحصيلها.

^(١٣) ابن القيم ، إعلام الموقعين.

تظل الأشكالية في من هو الذي يحدد المصلحة أو الضرورة؟ وما هي مؤهلاته الفقهية؟ وإلى أي مدى يجد قبولاً لدى الناس؟.

ثالثاً: الأقلية:

الأقلية هي مجموعة إنسانية تنضوي ضمن مجموعة أكثر تعداداً يطلق عليها غالبية أو أكثرية. ويعني ذلك أن فئة الأقلية عملياً هي فئة نسبية قابلة دائماً للتمرد، إذ إنها تتعلق بالسياق وبوجهة النظر التي ترتبط بها.^(١٤)

ولقد استخدمت كلمة أقليات وعلى مدى طويل للإشارة إلى شعب، ينتمي إلى إثنية أو لغة أو دين، ويكون ضمن دولة خاضعة لسلطة مركزية. وعلى ذلك فإن الحاق الإقليات بالمجموعات المسيطرة يؤمن ويضمن نظاماً للحماية من قبل الدولة أو السلطة المركزية.^(١٥) ومهما يكن من أمر فإن قضية الأقليات في ظل الأغلبية أو الأكثرية غالباً ما تقود إلى مطالب، وإذا لم يتم تحقيقها فإنها تؤدي إلى أزمة وعدم استقرار، وذلك من شأنه إثارة المشاكل التي تتعلق بالبناء الاجتماعي للهوية الجماعية والعلاقة بالآخر.

وعندما تكون الأكثرية هي الفئة المهيمنة، فإنها تستهدف إلغاء التباينات للتخلص من وجود أي بديل ثقافي ينافسها في أسلوب وطريقة حياتها، وذلك من أجل الاستحواز على الدولة كآلية للدفاع عن هويتها. ومن هذا المنطلق ستغدو الأقليات هي الفئة المتضررة لأنها ستخسر خصوصيتها الثقافية. ولا يستبعد تولد ردود فعل عكسية وسالبة، وأول مظاهر تلك الردود هو رفض التعايش مع الهوية الثقافية الغالبة والمهيمنة على مقاليد الأمور، كمحاولة للاحتفاظ بخصوصيتها وهويتها، وربما تلزم الدولة في هذه الحالة إلى تطبيق حق "تقرير المصير" كحق للحماية القانونية^(١٦) ولذلك فإن التحدي المائل أمام الأكثرية هو إمكانية توفيق الأوضاع التي تهيئ البيئة المناسبة للتعايش مع الأقليات الدينية أو العرقية مع تقديم الخيارات المقبولة لدى الأطراف المختلفة.

(١٤) جان فرانسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع، ط ٢، بيروت، ٢٠١١، ص ٧٠.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه.

رابعاً : الحوار :

حسب ابن منظور ، الحوار هو التردد إما بالذات أو بالفكر ، حار الماء في القدير ، أي أنه ”تردد“ وحوار الحور الرجوع عن الشيء ، وحووراً رجع عنه.^(١٧) والحوار هو محادثة بين شخصين أو أكثر في عملية يجري فيها تبادل الآراء والأفكار. ويختلف الحوار عن الجدل ، فالمتجادلون يلتقيان في حديث أو مناقشة وربما يفترقان بعد ذلك. لكن الجدل يحدث على سبيل المنازلة والمغالبة ، ففيه تكون الخصومة والانتصار للنفس^(١٨) ، وفي الحديث ” ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا “ أما المجادلة بمعنى المناظرة لإظهار الحق فوجدتها في قوله تعالى ﴿ ... وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴾ [النحل : ١٢٥].

ولقد وردت كلمة المحاوراة في القرآن في ثلاثة مواضع فيها مراجعة للكلام والتداول بين طرفين ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف : ٣٤]. ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف : ٣٧]. ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] ، ورغم ورود كلمة المحاوراة ثلاث مرات إلا أن الحوار ورد بصيغة قال ، وهي كلمة تدل على الحوار وقد وردت في القرآن سبعاً وعشرين وخمسة مرة.^(١٩)

فلسفة الحق الإنساني وحقوق الأقليات الدينية :

إن أهم الأسس والمعايير التي تميز الحق الإنساني هي القيم التي تتمثل في الحرية والعدل والمساواة ويمكن تفصيل ذلك كالآتي :

^(١٧) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، باب حرر ، دار المعارف ، ص ٨٣٠.

^(١٨) محمد الفاضل بن اللافي ، تأصيل الحوار الديني : تأصيل المصطلحات وتحديد الضوابط الشرعية ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٥.

^(١٩) المصدر نفسه.

الحرية :

وتعني حالة الوضع الذي يتحرر فيه الفرد من القوى الاجتماعية والثقافية ، والتي ربما تسببت في إعاقة الفرد ومنعه من تحقيق ذاته.^(٢٠)

والحرية أن يكون الإنسان سيد نفسه ، فيملك قراره ويتحكم فيه بشرط ألا ينحرف وراء أهوائه ، التي تتعارض مع الضوابط الشرعية ، وتؤدي إلى الإضرار بالآخرين.^(٢١) وعلى ذلك يكون للإنسان الخيرة في أن يفعل ما يريد بشرط عدم الإضرار بالآخرين^(٢٢) ، سواء كان الضرر حسيماً أو مادياً ، حتى إن كان الآخرون مخالفين له في العقيدة والدين.

لقد تأسست الحرية الدينية وعدم التعدي على حرية الآخرين بسبب مخالفتهم للدين أو العقيدة ، إنطلاقاً من قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦]. وقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] وقوله ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ... ﴾ [الكهف : ٢٩].

العدل :

وهو عكس الجور ، والعدل كلمة ترجع إلى المعادلة بين شيئين^(٢٣) ، وعلاقته بالحق أن الدافع لتحقيق العدل هو إحقاق الحق وإبطال الباطل . فالحاكم أو القاضي أو الإمام يجتهد في إقامة العدل حتى لا ينتشر الجور والظلم . وأهم مقومات العدل الشهادة الصادقة ، ولو كانت على النفس والأقربين ، وهي إقرار على النفس وإلزام الحق لها^(٢٤) ، نجد ذلك في قوله تعالى

(٢٠) حسام الدين علي مجيد ، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر جدلية الاندماج والتنوع ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت يوليو ٢٠١٠ ، ص ١٧٧ .

(٢١) محمد أبو زهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، دار الفكر العربي ، ص ١٨٧ .

(٢٢) المادة الرابعة ، الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ، ١٩٧٩ .

(٢٣) محمد الطاهر بن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ، ص ١٨٦ .

(٢٤) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف ، ج ١ ، تفسير سورة النساء ، الدار العالمية للطباعة والنشر ، ص ٥٩٨ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴾ [النساء: ١٣٥].

من النماذج الحية التي تعكس مبدأ العدل ما حدث في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اندفع اليه رجل قبطي يستغيث ودموعه تسيل ، يشكو ابن عمرو بن العاص قائلاً : سابقني بن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم هو وابنه ، فقال عمر للقبطي خذ السوط وأضرب ، فأمسك الرجل بالسوط وضرب به ابن عمرو ، وعمر يقول أضرب ابن الأكرمين ، ثم قال ضعه على صلعة عمرو ، فقال القبطي : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه. ثم نظر عمر وقال ” منذ كم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً“^(٢٥).

المساواة :

هناك علاقة وطيدة بين المساواة والعدل ، سويت المكان أي عدلته. وعليه يتعين لكل فرد استحقاقاً ، أو بعبارة أخرى يتساوى الناس جميعاً في القيمة الإنسانية ، حيث يصبح تطبيق المساواة في الحقوق بين الناس بغض النظر عن العرق أو الجنس أو الدين. ولذلك يمكن القول إن المساواة هي الرثة التي تتنفس بها الحقوق الإنسانية.^(٢٦)

وتحدد المساواة وفقاً للرؤية الإسلامية بتنظيم العلاقات الإنسانية بين الفرد والمجتمع من جهة وبين الأفراد بعضهم ببعض من جهة أخرى ، تحقيقاً للعدالة الاجتماعية ، واعتماداً للمسؤولية الفردية والاجتماعية ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ... ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

والمساواة عادة لها جوانبها المطلقة ولها جوانبها النسبية ، حيث لا يوجد في الواقع العملي ما يعرف بالمساواة المطلقة فقط ، بل يوجد ما يعرف بالتمييز الإيجابي ، وهو الذي

^(٢٥) محمد خلف الله ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٤٦ .

^(٢٦) معجم مفاهيم الوسطية ، إشراف وتحرير سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل ، بالتعاون بين مركز الحضارة للدراسات السياسية ومنتدى النهضة والتواصل ، مطابع العملة ، ط ١ ، ٢٠١١ ، ص ١٥٣ .

يقتضيه الواقع المعيشي. ومن أقرب الأمثلة في تطبيق المساواة بين الناس بغض النظر عن أصلهم أو جنسهم أو لونهم ، الحادثة التي جاء فيها فريق من قريش إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن لا يجالس بلالاً الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيباً الرومي ، وعماراً وغيرهم من الموالي والفقراء ، حتى يستطيعوا مجالسة الرسول ﷺ ، والاستماع لدعوته فنزلت الآية ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢].

أما بالنسبة إلى غير المسلمين فإنهم يصبحون سواسية مع المسلمين أمام القضاء ، فيحكم للمسلم ضد غير المسلم ، أو يحكم لغير المسلم ضد المسلم ، متى ما ثبت استحقاق العقوبة لأحدهما.^(٢٧)

مفهوم أهل الذمة والتعامل معهم :

في اللغة الذمة هي العهد والأمان والكفالة ، وفلان له ذمة ، أي له حق. والذمة هي عقد يبرم على التأييد مع أهل الكتاب من جانب وإمام المسلمين من جانب آخر ، وبهذا الشكل فإن أموال المعاهدين ودماءهم كأموال المسلمين ودمائهم. وفي ذلك قال علي ابن أبي طالب ”إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماءهم كدمائنا“.^(٢٨) وعلى ذلك فإن عقد الذمة يترتب عليه حقوق متبادلة ، أي أن كل طرف له حقوق وعليه واجبات. وأهل الذمة هم المعاهدون من أهل الكتاب من النصارى واليهود وأهل الثقافات الأخرى كالمجوس والمشركين وذلك استناداً لقول الرسول ﷺ ” سنوا بهم سنة أهل الكتاب“^(٢٩) وإن كان بعض الفقهاء مثل الكاساني أخرج المشركين من أهل الذمة فإن البعض الآخر مثل مالك والأوزاعي والشافعي وأبي ثور وإبن المنذر والحنابلة لم يفرقوا بين مشركي العرب والعجم في أن يكونوا من أهل الذمة.^(٣٠)

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

(٢٨) علاء الدين ابن بكر بن مسعود الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ج٧، دار

الكتاب العربي، بيروت ، ص ١١١ .

(٢٩) سمعه عبدالرحمن بن عوف ورواه الشافعي .

(٣٠) محمد عبده ، تفسير القرآن الكريم ، المنار ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ١٠ ،

ص ٣٠٣ .

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم ”عقد الذمة“ ليس مفهوماً إسلامياً خالصاً ، بل إنه كان شائعاً قبل الإسلام. وفيما بعد أكسبه الإسلام مشروعيته ، وأضاف إليه ، فتحولت ذمة العاقد أو المجير إلى عقد مؤبد لا يقبل الفسخ حماية لغير المسلمين.^(٣١)

ومن أهم وأبرز الدلائل في الرخصة التي منحها الله تعالى لتعامل المسلمين بالقسط والبر مع غير المسلمين الموجودين في المجتمع الواحد أو الدولة الواحدة هو قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].^(٣٢) والبر هو الفضل والخير ، والقسط هو العدل فهما مطلوبان من المسلم ، وقد حث الله على بذل البر والعدل للناس كافة مسلمين وغير مسلمين ، إلا من قاتل المسلمين أو أخرجهم من ديارهم ، وذلك من شأنه تحقيق أسس المشاركة في دار الإسلام. ” فكل ما حقق مصالح المشتركين معاً فيه جاز ، وكل ما أهدرها فهو بالإهدار أولى وأحق “. ^(٣٣)

وقد ذكر القراني في معنى البر بأهل الكتاب أنه ” الرفق بضعيفهم ، وسد خلة فقيرهم ، وإطعام جائعهم ، وكساء عاريهم ، ولين القول لهم على سبيل التلطف والرحمة ، واحتمال إذابتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً بهم لا خوفاً ، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ، ونصيحتهم في جميع أمورهم ، في دينهم ودنياهم ، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم “. ^(٣٤)

^(٣١) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي و وضع غير المسلمين ، شركة القرافك للطباعة و النشر ، الخرطوم ، ٥١٤٠٩ ، ص ١٣ .

^(٣٢) سبب نزول الآية ، أن أسماء بنت إبي بكر قدمت إليها أمها وكانت مشرقة في وقت المهادنة مع كفار قريش وأهدت إلى أسماء قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها شيئاً حتى أتت و سألت النبي ﷺ ، هل تصل أمها ، فقال نعم . انظر ، ابي عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٨ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ٤٥ .

^(٣٣) محمد سليم العوا ، من معالم النظام الإسلامي ، سلسلة رسائل البعث الحضاري ، مطبوعات الحركة الإسلامية الطلابية ، ٨ أبريل ، ص ٥٠ ، ٥١ .

^(٣٤) محمد سليم العوا ، الن ١٩٩٥ ظام الإسلامي و وضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ٢٣ .

وفي قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. فقد قيل إنها نزلت في الحرب التي كانت بين المسلمين والروم وهم أهل كتاب وقد بدأوا بقتال المسلمين واعتدوا عليهم. على أن قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ لم يقصد بها الإطلاق في القتل وإنما قصد بها قتال الذين بدأوا بالعدوان. ثم جعل للقتال غاية ، وهي إعطاء الجزية بدلاً عن القتال. قال ابن عربي في ذلك ” مزج بين الغاية التي تمتد إليها العقيدة وعين البديل الذي ترتفع به “^(٣٥).

ولا بد هنا من التفرقة الزمانية بين حالة الحرب وحالة السلم ، وفي ذلك امر الله سبحانه وتعالى أن لا يوالي المسلم في حال احتدام النزاع إلا الله ورسوله والمؤمنين ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨]. وعلى ذلك يمكن القول ان نهي الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاته الكافرين انحصر في حالة العدوان أو الحرب ، وليس في حالة أن يكونوا شركاء في الوطن ، أو حالة السلم ، أو كجيران يتداخلون في العيش مع بعضهم البعض.^(٣٦)

أما الجزية فهي ضريبة مثل الخراج ، تؤخذ نظير ما يبذله المسلمون من حماية لأهل الذمة وتوفير الطمأنينة والأمن الكافيين.^(٣٧) وليس المقصود بالجزية المال فقط ، بل الحماية من جهة ، والدعوة الإسلامية والتعايش الديني من جهة أخرى ، حيث يسكن الذمي بين المسلمين فيرى الإسلام عن قرب ، وبالفعل أسلم عدد كبير من أهل الكتاب في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقال ” إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً “^(٣٨).

^(٣٥) أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ١١٠ .

^(٣٦) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي و وضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ٧ .

^(٣٧) ابن قدامة ، موفق الدين أبو محمد عبدالله ، المغني . ويليه الشرح الكبير ، دار الكتاب العربي ، ج ١٠ .

^(٣٨) القطب محمد القطب ، غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، ص ٢١٢ .

وروي كذلك أن عمر بن الخطاب رأى أحد اليهود وهو يشحذ فسأله عن مشكلته فأجاب أن ذلك بسبب دفع الجزية ، فأخذه إلى بيت مال المسلمين وطلب من مسؤول الخزينة إعطائه ما يكفيه من المال^(٣٩) ، فليس من العدل أخذ الجزية منهم عند الشدة ومنعهم عند العجز.

وخلاصة القول فإن الجزية هي قيمة تدفع بدلاً عن اشتراك غير المسلمين في الدفاع عن دار الإسلام ، لذلك أسقطها الصحابة والتابعون عن الذين يقومون بالاشتراك في واجب الجهاد ، وقد قيل إنها أسقطت من سراقه بن عمرو من أهل أرمينية سنة ٢٢هـ ، وحبيب بن مسلمة الفهري من أهل أنطاكيا. وصالح المسلمون بقيادة عبدالله بن أبي السرح ، أهل النوبة على غير جزية ، بل على هدايا يتم تبادلها بين الفريقين في كل عام.^(٤٠)

ومن جهة أخرى نجد هناك مواقع كثيرة في التاريخ الإسلامي تستحث المسلمين بالتعامل بالحسنى مع غيرهم من أهل الديانات والثقافات المختلفة ، فقد قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسأل القادمين من الأمصار عن أهل الذمة ويشدد في المسألة ، حتى يقال له لا نعلم إلا وفاءً وبراً ، ومات وهو يوصي خيراً بأهل ذمة المسلمين ، أن يقاتل من ورائهم — يعني يحميهم — ولا يكلفهم فوق طاقتهم. وقد كان آخر ما وصى به الرسول صلى الله عليه وسلم قبل موته أن ” احفظوني في ذمتي “ رواية نافع عن ابن عمر. وقوله في موقع آخر ” من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة “^(٤١) وهذا أقوى تعبير لوحدة الأصل وتطبيق مبدأ الحرية والعدل والمساواة بين الناس.

ومهما يكن من أمر وفي إطار السياقات الزمانية والمكانية والتي نشأت بعدها الدولة الإسلامية الحديثة ، فإنه لم يعد هناك حاجة إلى تسمية ” أهل الذمة “ وبذات الطريقة والكيفية التي كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، حيث تم فتح كثير من الدول وضمها بعد حروب بين المسلمين من جهة وأهل تلك الدول من جهة أخرى. لكنه بعد انقضاء دولة الخلافة سيطر الاستعمار الغربي على معظم تلك الدول والتي أصبح معظم من يعيش فيها مسلمين ، وانقطع العمل بأحكام الشريعة في بعضها لمدة من الزمان. وحيث

Islam & Relationship with Non Muslim Al Tayib Zain Al Abdin. ^(٣٩)

محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي و وضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ١٣ ، ١٤ . ^(٤٠)

محمد أبو زهرة ، مصدر سابق ، ص ١٩٨ . ^(٤١)

تمت مقاومة الاستعمار الغربي على مدى قرون من الزمان ، وشارك في تلك المقاومة مسلمون وأقليات غير مسلمة ، حتى استعادت الدولة الإسلامية كينونتها ونشأت الدول القائمة اليوم بعد أن روت شجرة استقلالها من دماء ابنائها جميعاً ، فليس من المنطق أن يأتي هؤلاء الأبناء ليقتتلوا اليوم أو تقهر الأغلبية المسلمة الأقلية غير المسلمة ، أو يكون هناك ثمة تمييز تحت مسمى ” أهل الذمة “ والذي أوجده ظروف وحالات مختلفة ، بل الواجب التعامل بالحسنى تحقيقاً للمصلحة المشتركة وهي مصلحة الأمة.

حقوق الأقليات الدينية في المجتمع المسلم :

كما سبق القول إن الأقلية هي مجموعة إنسانية ، تنضوي تحت نظام يحكم من قبل أكثرية تمتلك السلطة المركزية ، ويقع على عاتقها توفير الحماية. ومن الناحية العملية ، فإن أي مجموعة تعتنق ديناً غير الإسلام وتعيش وسط أغلبية مسلمة وفي ظل دولة تحكم بالشرعية الإسلامية تعتبر أقلية ، لها حقوق وعليها واجبات.

على أنه لا بد من توضيح الحقوق التي تنالها الأقليات غير المسلمة ، باعتبارهم مواطنين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية ، وبصفة عامة يمكن تفصيل تلك الحقوق في الآتي :

أولاً : حقوق عامة حيث إن ” أموالهم ودماءهم كأموال المسلمين ودمائهم “.
ثانياً : حق الحياة ، حيث إن قوله تعالى ﴿ ... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ... ﴾ [البقرة : 178]. لفظ عام ينطبق على الجميع مسلمين وغير مسلمين.

ثالثاً : حقوق مدنية ، حيث يتمتع غير المسلمين بحقوق مدنية ، مثل حق التملك ، وحق الجنسية ، وحق الزواج ، وحق تقلد الوظائف العامة... الخ

رابعاً : من الناحية القانونية ، تطبق على غير المسلمين نفس الأحكام والقوانين التي تطبق على المسلمين ، إلا أن هناك إستثناء في تطبيق قانون الأحوال الشخصية في الزواج والطلاق والوراثة... الخ فتكون للأقليات حرية ممارسة أحكام دينهم حسب قاعدة لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. أو لأنه من البديهي إذا أمرنا أن نتركهم لدينهم ، فالأولى كذلك تركهم وعدم التعرض لعبادتهم وعاداتهم من زواج أو طلاق.^(٤٢)

(٤٢) محمد أبو زهرة ، تنظيم الإسلام للمجتمع ، القاهرة ، ص ٣٤.

خامساً : ما يخص الزكاة ، فهناك خلاف بين الفقهاء ، حيث يرى أكثرهم عدم أحقية غير المسلمين في الزكاة ، بسبب أنها تجمع من المسلمين فقط ، وحتى الفقهاء الذين يؤيدون دفعها لغير المسلمين يرون أن يتم ذلك بعد أن يستوفي منها المسلمون.^(٤٣) ورغم عدم أخذ غير المسلمين أموال الزكاة إلا أنهم ينالون حقهم من الفيء والغنيمة إذا شهدوا القتال.

أما الصدقات فتدفع لهم ، لأن من واجب الدولة الإسلامية رعاية المسلمين وغير المسلمين ، وقد تصدق الرسول ﷺ على أسرة يهودية ، وكذلك أرسل مقتنيات إلى بعض القبائل في مكة عندما عانوا من المجاعة لتوزيعها على فقرائهم. وقد قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتوزيع الصدقات من خزينة بيت مال المسلمين.^(٤٤)

ولأهمية الحقوق الخاصة بتقلد الوظائف القيادية فإنه يمكن تناولها بشئ من التفصيل.

حيث إن هذه الوظائف يتم الاختيار لها عن طريق الانتخاب أو التعيين وذلك كآتي :

(١) الانتخاب : ويكون بالنسبة للوظائف التي لها بعد سياسي ، ويتم الترشيح والانتخاب فيها لأي فرد مسلم وغير مسلم دون تفرقة ، وذلك مثل الانتخاب للمجالس الولائية والمجالس التشريعية ” النيابية “ يقول المودودي في ذلك ” يجوز ولا شك أن يمنح هؤلاء حقوق العضوية والتصويت في المجالس البلدية Local Bodies لأن المجالس لا تتناول المسائل المتعلقة بنظام الحياة وإنما تكون وظيفتها تدبير الأمور لتحقيق الضرورات المحلية “^(٤٥) كذلك فإن هذه المجالس تغلب عليها الصبغة الدنيوية والتي لا تخرج عن القضايا الاقتصادية والصناعية والتشريعية وعرض مشاكل الناخبين وتقديم النصح للحكومة وهي أمور لا ضرر فيها من أي نوع من المشاركة بالرأي والمشورة.

Islam & Relationship with Non Muslim Al Tayib Zain Al Abdin. (٤٣)

Ibid. (٤٤)

أبو الأعلى المودودي ، نظرية الإسلام وهدية ، طبعة ١٩٦٧ ، ص ٣٠٠. (٤٥)

(٢) التعيين : وغالباً ما يتم على أساس المؤهلات وتحقيق الشخص المعين للمواصفات الوظيفية ، وعليه يتم التعيين للفرد مسلماً كان أو غير مسلم ، تحقيقاً للعدل والمساواة بين المواطنين في البلد الواحد.

غير أن هناك بعض الوظائف لا يمكن أن يتولاها غير المسلم ، نسبة الى صفاتها الدينية ، مثل التعيين في ديوان الزكاة أو التعيين لوظيفة في مسجد ، وهذا الوضع يكون مماثلاً في المجتمع المسيحي والذي لا يقبل تعيين المسلم في وظيفة في الكنيسة.^(٤٦)

أما تولي الأقليات الدينية غير المسلمة للمناصب القيادية العليا ، أو ما يعرف بالمناصب الدستورية ، فقد استفاض في توضيحها الماوردي ، فقسم المناصب الوزارية إلى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ.^(٤٧) وبصفة عامة فإن الحاكم المسلم يقوم بتفويض أحد المسلمين ليتولى عنه أمر الوزارة ، وفي ذات الوقت يمكنه تعيين غير المسلم في الوزارات التنفيذية ، والتي يتم فيها أمر التنفيذ وفقاً للنهج الإسلامي. وقد تولى عدد من المسيحيين مناصب عليا في عهد الدولة العباسية ، مثل أبي أسحق الصابي ، الذي تولى منصب الكاتب ، وكان من أرفع المناصب في الدولة ، كما تولى أيضاً من المسيحيين نصر بن هارون منصب وزير عضد الدولة.^(٤٨)

تطبيق مبدأ التعددية والمواطنة على الأقليات الدينية :

يندلع النزاع غالباً نتيجة لعدم الاعتراف بالآخر والتهميش واستخدام القسر والإكراه الذي تمارسه الأكثرية في المجتمع التعددي أو السلطة المركزية ، على الأقليات الدينية. ومن هنا فإن مبدأ المواطنة هو اساس للحقوق والواجبات.

ورجوعاً إلى المجتمع في عهد الرسالة المحمدية ، نجد أن مجتمع المدينة كان تعددياً ، حيث كانت تشكل فيه ثلاث فئات أساسية ، المسلمون ، واليهود ، والمشركون. اليهود منقسمون إلى قبائل ، ذكر أنهم تسع بطون من اليهود^(٤٩) ، والمسلمون منقسمون إلى مهاجرين

(٤٦) مقابلة أجرتها كاتبة الورقة مع بروفيسور حافظ الشيخ رحمه الله ، نائب رئيس القضاء ، مايو ١٩٩٨ ، الخرطوم ، السودان.

(٤٧) أبو الحسن الماوردي ، الأحكام السلطانية والولاية الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص ٢٥ ، ٢٩.

(٤٨) القطب محمد القطب ، مصدر سابق ، ص ٣٢٣.

(٤٩) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ١٠-١١.

وأَنْصار ، والأَنْصار منقسمون إلى أوس وخزرج.^(٥٠) يقول الواقدي إن المدينة فيها أخلاط من المجموعات ” منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام ، وفيهم اهل الحلقة والحصون ، ومنهم حلفاء للحيين جميعاً الأوس والخزرج “ فما كان من الرسول ﷺ إلا القيام بعملية الاستصلاح والموادعة.^(٥١)

وقد استطاع الرسول ﷺ في تلك البيئة التعددية أن يضع صيغة تحالفية ، يمكن وصفها بأنها بمثابة الدستور الإسلامي الذي يضمن قدراً من الوحدة والتناسك الداخلي ، تلك الصيغة هي ما عبر عنه المؤرخون بصحيفة المدينة ، حيث حوى الجزء الأول من هذه الصحيفة ، مفهوم الأمة ، والذي يحمل في طياته عنصر المواطنة ” هذا كتاب بين المؤمنين والمسلمين ومن تبعهم ، فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس “ وفي موقع آخر ” وأن من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم “^(٥٢) ولذلك كان التحدي المائل ، الإصلاح لتلك الفئات المختلفة في العقيدة والفكر والعرق.

لقد جعلت الوثيقة غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها ، لهم من الحقوق ما للمسلمين وعليهم من الواجبات ما عليهم ، وبتطبيق مفهوم المواطنة يصبح عناصر الأمة من الأفراد مسلمين وغير مسلمين ، أي أنهم ” مواطنون “ في دولة الإسلام.

كذلك كتب الرسول ﷺ إلى أهل نجران ” ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يظأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين “^(٥٣).

^(٥٠) التجاني عبد القادر ، الإسلام و الفدرالية مع إشارات للتجربة السودانية المعاصرة ، معهد البحوث و الدراسات الاجتماعية ، دار الحكمة للطباعة و النشر ، ط ٢ ، ١٩٩٥ ، ص ١١ .

^(٥١) الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق د. مارسون جونس ، مطبعة جامعة أكسفورد .

^(٥٢) النص الكامل للوثيقة في السيرة النبوية لابن هشام ، دار العرفة ، ج ٢ ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

^(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

وما ورد سابقاً يجعل الأحكام النبوية في معاملة غير المسلمين تصبح معياراً للحكم ، وجاز أخذ ماتوافق معها من اجتهاد الفقهاء طالما أنه يحقق المصلحة ، عند تنظيم الدولة الإسلامية الحديثة.^(٥٤) وذلك بعد الأخذ في الاعتبار التغيرات الزمانية والمكانية. وبصفة عامة فإن تطبيق مبدأ المواطنة يسري على الأقليات الدينية داخل الدولة الإسلامية ، حيث تتساوى في الحقوق والواجبات مع المسلمين ، كما أنه يجب على الحاكم المسلم ضمان المحافظة على ثقافتهم وعاداتهم وأموالهم.

تأصيل الحوار الديني :

إذا كان من الضروري دراسة موضوع الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى ، أو بين المسلمين الذين تفرقت بهم السبل ، فانقسموا بين متشدد ومنفتح ، فلا بد من اعتماد أسلوب توفيقى ، يخلق صلة بين المتحاورين ، ويعمل على تضييق الفجوة الخلافية بينهم. فلا يستعجل المرء إنكار حجة الآخر بل يسعى للبحث عن سبل التقارب ، قال الإمام الشافعي ” ما ناظرت أحداً فأنكر الحجة إلا سقط من عيني ، ولا قبلها إلا قبلته ، ولا كانت الحجة معه إلا رجعت إليه ... “^(٥٥) وبصفة عامة ، لا بد من مراعاة الآتي عند إجراء الحوار :

- (١) تحديد الهدف الذي يراد منه الوصول إلى غاية معينة.
 - (٢) تحديد الضوابط الأدبية والتي تعبر عن الأخلاق والاحترام المتبادل.
 - (٣) أهلية المتحاورين وقدرتهم على التحاور بذكاء وحنكة.
 - (٤) عدم التعصب ، والاستعداد للبحث عن الحقيقة ، وتقبل النتيجة.
- ولا شك أن كل طرف يؤسس حواراً باحثاً عن مصلحته ، مما يتطلب دراسة وتحليل قضية الحوار من جوانبه المختلفة. وحتى يمكن بناء الثقة فإنه يلزم إبداء نوع من التنازل في الحقوق والمصالح ، والتي ربما تشمل التفاصيل التي تؤثر على مجريات الحوار ، وليس بالضرورة أن يلمس هذا التنازل المبادئ والقيم الأساسية والتي تعد بمثابة ثوابت شرعية. ويمكن أن نستقي العبرة بالاستدلال بنموذج حوارى جرت أحداثه في صدر الرسالة

^(٥٤) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي و وضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ١٢ .

^(٥٥) محمد الفاضل بن علي اللافي ، مصدر سابق ، ص ٣٩ .

المحمدية. وهو الحوار الذي جرى بين جعفر بن أبي طالب موفد الرسول ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعد أن اشتد الحصار والتضييق على المسلمين.

لقد كان الحوار عبارة عن مرافعة رائعة ، قدم فيها جعفر بن أبي طالب أبلغ نموذج حوارى ، فقد استطاع بحنكته أن يخرج من المحك الضيق حين حاصره عمرو بن العاص الذي اشتهر بالمكر والدهاء محاولاً إفشال الحوار ، وكان ذلك قبل اعتناقه الإسلام ، وبدأت القصة حين احتفى المسلمون بالنجاشي ، فسافر عمرو بن العاص ليلحق بهم ، وقال للنجاشي ” أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً “. وكان يقصد أن يوقع المسلمين في الأمور الخلافية مع المسيحية ، والمتمثلة في صلب المسيح وقولهم المسيح ابن الله ، فأرسل النجاشي يسأل المسلمين عن قولهم في المسيح. ففزعوا في بادئ الأمر لكنهم صمموا على قول الصدق مهما كلفهم الأمر ، فقال جعفر ﷺ ” نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول “ ثم قرأ عليه آيات من سورة مريم. وهي القصة المشتركة بين الإسلام والمسيحية ، فقال النجاشي ” أذهبوا فأنتم آمنون بأرضي من سبكم غرم “ ، وقيل إنه قال لعمرو ابن العاص إن ” هؤلاء لا أبدلهم بجبل من ذهب “. (٥٦)

وتتجلى سلاسة الحوار ونجاحه في حنكة جعفر وتمكنه من تضيق الفجوة بين الديانتين ، وإبرازه للقواسم المشتركة ، فتجنب الحديث عن صلب المسيح حسب الرد القرآني ، والنفي بقتل المسيح ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : ١٥٧]. وفي المقابل اختار من الأمور المشتركة قصة ولادة المسيح والتجاء مريم إلى جزع النخلة وخطابها مع جبريل ، فقرأ آيات من صورة مريم.

ولعل العبرة تتجلى في الاختيار الموفق لشخصية جعفر بن أبي طالب ، الذي يتمتع بالذكاء والقدرة في إدارة الحوار ، وحسمه الأمر بالحكمة والمنطق ، ولعبت المعرفة والإدراك بالموضوع دوراً كبيراً في انجاح الحوار.

(٥٦) صفى الدين المباركفوري ، الرحيق المختوم ، دار الوفاق للطباعة و النشر والتوزيع ، جمهورية مصر العربية ، المنصورة ١٩٩٦ ، ص ١١٩ .

وإن كانت قوة الشخصية والعقلية الراجحة والمستتيرة ، لها القدرة في إبراز الحقائق الجوهرية ذات الصلة بالحدث تمثل أحد أهم عوامل إنجاح الحوار ، فإن الاستمساك ببواطن الأمور وجوهرها ، مع التغاضي عن الصغائر وتجاوز التفاصيل المخلة ، تمثل أهم أطر نجاحات الحوار.

خلاصة الأمر إن الحوار الموضوعي الذي يصطحب التحليل الجوهري ، يقود إلى خلق بيئة مناسبة للتعايش الديني والاجتماعي والتبادل الثقافي. ولا شك أن الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى خاصة المسيحية ، ينشد البحث عن أرضية مشتركة ، والتي تشمل قضايا الحداثة ، والحريات العامة ، والضوابط الأخلاقية ، ومهما كان الاختلاف والتباين في بعض المواقع والمواضيع ، فإن الأصولية الإسلامية تعمل بالتنسيق مع العلوم الدينية خاصة في المجالات الاجتماعية والإنسانية ، حيث المساحة المشتركة التي تحكم الإنسان أيأ كانت ديانتها. وطالما أن الوضع المثالي يسعى فيه الإنسان إلى إبراز وضع قيمه لتكريم الإنسان ، الذي استخلفه الله في الأرض ، وحمله الأمانة ، فإن هذا المفهوم سيجد قبولاً عاماً ، يلتقي فيه مع الأيدولوجيات والأديان التي قد تختلف معه في المنهج وطريقة التطبيق ، لكنها تلتقي معه في الأطر والأهداف العامة والغايات الإنسانية.

النتائج والتوصيات :

من السياقات السابقة ، توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

أولاً : أجزل الإسلام العطاء للحقوق الإنسانية ، والتي تكفل للفرد وضعاً يتمتع فيه بالعدل والحرية والمساواة ، ومن ثم عدم التعدي على الآخرين بسبب مخالفتهم للدين أو العرق أو الجنس ، تأكيداً للقيمة الإنسانية واعتماداً للمسؤولية الفردية والجماعية.

ثانياً : تستند الرؤية الإسلامية إلى مرجعية تبرز من خلالها صيغة وسطية يتطور فيها الخطاب ليدعم التعايش مع الأديان الأخرى ، والتفاعل مع غير المسلم ، والذي عليه ما على المسلمين وله ما لهم من حقوق وواجبات.

ثالثاً : يبيح الفقه الإسلامي في إطار التعامل مع الأقليات الدينية صيغاً مشتركة للتعايش ، مثل الزواج منهم ، إباحة إنشاء دور العبادة ، تقلد المناصب القيادية التنفيذية والتشريعية.....الخ.

رابعاً: أن ما يحدث من صراعات بين الأطراف المختلفة دينياً ، ليس بالضرورة أن يكون سببه الدين ، بل يمكن نسبه إلى العلاقات والظروف السياسية غير المتكافئة من جهة ، والتدخلات التي صاغتها عقلية أمنية لديها مصالح سياسية من جهة أخرى .
خامساً : أن الاعتراف بالأديان والتعايش مع غير المسلمين ، يحتم إجراء حوار سلمي ، يستوعب الاختلافات الفكرية والدينية ، ويرتكز على تبادل الآراء بين الأطراف المختلفة بغرض الوصول إلى صيغ مشتركة تضمن المصالح الذاتية والوطنية .

التوصيات المقترحة :

أولاً : الترسخ لمفهوم الأمة والمواطنة ، والذي يكفل للإنسان حقوقه وبيئته واجباته ، بغض النظر عن ديانته أو ثقافته .
ثانياً : رعاية الدولة للثقافات وكفالة الأقليات الدينية .
ثالثاً : زيادة الوعي المعرفي والديني وترسيخ قيم التسامح والتعايش الديني لوطن يسع الجميع .
رابعاً : تفعيل الحوار ، وتوسيع التواصل بين الكيانات الدينية ، لرتق النسيج الاجتماعي وعلى أساس أن المشكلة ليست في الفوارق وإنما في الفشل في التعامل مع الفوارق .
خامساً : تعزيز وتشجيع عملية التعايش الديني عن طريق بث ثقافة السلام والتسامح واحترام الأديان والثقافات .
سادساً : تنشيط الخطاب الإسلامي المعتدل بعد إجراء المقاربات والمراجعات الفكرية حتى يمكن احتواء التطرف الفكري .

قائمة المراجع :

المعاجم :

- (١) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ب ت .
- (٢) المعجم العربي الأساسي ، ب ت .
- (٣) معجم العلوم الانسانية ، جان فرانسوا دورتيه ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ٢ بيروت ، ٢٠١١ .

(٤) معجم مفاهيم الوسطية ، إشراف وتحرير سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل ، بالتعاون بين مركز الحضارة للدراسات السياسية ومنتدى النهضة والتواصل ، مطابع العملة ، ط ١ ، ٢٠١١ .

التفاسير:

- (١) أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ب.ت .
- (٢) أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف ، الدار العالمية للطباعة والنشر .
- (٣) محمد عبده ، تفسير القرآن الكريم ، المنار ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ب.ت .

كتب السيرة

- (١) أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية لابن هشام ، دار المعرفة ، بيروت ، ب.ت .
- (٢) الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق د. مارسون جونسن ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ب.ت .
- (٣) صفى الدين المباركفوري ، الرحيق المختوم ، دار الوقار للطباعة والنشر والتوزيع ، جمهورية مصر العربية ، المنصورة ١٩٩٦ .

المراجع الفقهية:

- (١) ابن القيم ، إعلام الموقعين ، ب.ت .
- (٢) شهاب الدين ابن العباس الصهاجي القرافي ، الفروق ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ب.ت .
- (٣) علاء الدين ابن بكر بن مسعود الكاساني ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ب.ت .
- (٤) موفق الدين أبو محمد عبدالله ابن قدامة ، المغني ويليهِ الشرح الكبير ، دار الكتاب العربي ، ب.ت .

الرسائل العلمية :

- هويدا صلاح الدين العتباتي ، حقوق الإنسان بين الإسلام والمواثيق الدولية مع دراسة خاصة لحقوق الإنسان في السودان ، رسالة ماجستير ١٩٩٨ ، الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم.

المقابلات

- مقابلة مع بروفيسور حافظ الشيخ رحمه الله ، نائب رئيس القضاء ، مايو ١٩٩٨ ، الخرطوم ، السودان.

المواثيق

- الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ، ١٩٧٩ .

الأوراق

- Islam & Relationship with Non Muslim , Al Tayib Zain Al Abdin.

الكتب

- (١) أبو الأعلى المودودي ، نظرية الإسلام وهدية ، طبعة ١٩٦٧ .
- (٢) أبو بكر سليمان الشيخ ، مقالات في الشريعة وجدل الهوية ، هيئة الأعمال الفكرية ، السودان ، ب ت .
- (٣) أبو الحسن الماوردي ، الأحكام السلطانية والولاية الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ١ ، ١٩٨٥ .
- (٤) التجاني عبد القادر ، الإسلام والفدرالية مع إشارات للتجربة السودانية المعاصرة ، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٩٥ .
- (٥) حسام الدين علي مجيد ، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر جدلية الاندماج والتنوع ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠١٠ .

- (٦) حسن سيد سليمان ، الدولة الاسلامية طبيعتها وأسسها ، جماعة الفكر والثقافة الاسلامية ، ب ت .
- (٧) سامح فوزي ، المواطنة ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان . ب ت
- (٨) علي الخفيف ، الحق والذمة ، ١٩٤٥ .
- (٩) فتحي الدريني ، الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده ، دمشق ١٩٦٧ .
- (١٠) القطب محمد القطب ، غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، ب ت .
- (١١) محمد أبو زهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، دار الفكر ، ب ت .
- (١٢) محمد أبو زهرة ، تنظيم الإسلام للمجتمع ، القاهرة ، ب ت .
- (١٣) محمد خلف الله ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ب ت .
- (١٤) محمد سليم العوا ، من معالم النظام الإسلامي ، سلسلة رسائل البعث الحضاري ، مطبوعات الحركة الإسلامية الطلابية ، ٨ أبريل ١٩٩٥ .
- (١٥) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، شركة القرافك للطباعة والنشر ، الخرطوم ، ٥١٤٠٩ .
- (١٦) محمد الطاهر بن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ، ب ت .
- (١٧) محمد عمر بشير ، الإقليمية والوحدة القومية ، المركز الطباعي ، ب ت .
- (١٨) محمد الفاضل بن اللافي ، تأصيل الحوار الديني : تأصيل المصطلحات وتحديد الضوابط الشرعية ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ٢٠٠٤ .
- (١٩) محمد فتحي عثمان ، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني العربي ، دار الشروق ، ط ١ ، ١٩٨٢ .-
- (٢٠) هبة رؤوف ، المرأة والعمل السياسي رؤية اسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٩٥ .
- (٢١) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان وافريقيا وبلاد العرب ، ج ٢ ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٨٩ .

قسم الثقافة الإسلامية

- * أنشئ قسم الثقافة الإسلامية في العام ١٩٩٤م وكان وقتها يتبع لإدارة التعريب.
- * ثم أنشئت إدارة مطلوبات الجامعة في العام ١٩٩٨م وأضيف قسم الثقافة الإسلامية لها.
- * يضم القسم في عضويته عشرة أساتذة ، واحد بدرجة أستاذ مشارك وسبعة بدرجة أستاذ مساعد ومحاضرين.
- * يقوم القسم بتدريس منهج الثقافة الإسلامية لكل كليات الجامعة كمطلوب جامعة.
- * للقسم نشاط خارجي يتمثل في المؤتمرات العلمية والمنتديات الشرعية وغير ذلك
- * للقسم أهداف تتمثل في ربط الطالب بتراثه الإسلامي وتزويده بالمعارف الإسلامية ، وتحقيق مبدأ الأخوة الإسلامية بين الطلاب ، وربط الدين بالعمل وأنماط السلوك. وتقوية الإيمان في نفوس الطلاب ، إلى غير ذلك من الأهداف.



العنصرية والقومية السلبية السمات والحلول من خلال كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي

أ.د. فيروز عثمان صالح

الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب - جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٨٢-٢٥٣)

المستخلص :

تعالج هذه الدراسة موضوعاً مهماً يمس واقعنا المعاصر في جانبه الاجتماعي وهو : مشكلة القومية والعنصرية وحلولها من منظور كليات رسائل النور في إرساء فقه التوسط لمقابلة الغلو والتطرف والتعصب بكافة أشكاله ، الذي أدى لتراجع الأمة وغياب دورها الحضاري وهو واحد من شواغل رسائل النور ، لذا تهدف الدراسة إلى إبراز جهود الأستاذ بديع الزمان النورسي في تحديد سمات العنصرية ووصفها والتحذير من آثارها الوخيمة على الأمة وإسهامه في إيجاد الحلول العملية لهذه المشكلة. وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي وتوصلت إلى نتائج مهمة منها : أنه لا سبيل لإنقاذ الأمة من الإرهاب والعنف والفوضى والدمار والهوان والذل الذي ينشأ ويترعع في ظل العنصرية والقومية إلا بالوحدة المنبثقة من حقائق القرآن، وتوصي الباحثة بإجراء المزيد من الدراسات والمؤتمرات لحل مشكلات الغلو والتطرف بكافة أشكاله.

مقدمة :

الحمد لله الذي جعلنا من الأمة المسلمة ، أمة الإيمان ، الأمة الوسط ، أمة المعيارية بما تمتلك من معايير الكتاب والميزان والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد- الذي كانت سيرته وسنته بياناً وتطبيقاً وممارسة وتنزيلاً لهذه المعيارية على واقع الناس- وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ، فإن محاولة استقراء فقه التوسط والتععيد له ، ومحاولة إعادة الحق إلى نصابه ، وتحديد مسؤولية الأمة ووظيفتها في الشهادة والقيادة ، هو اليوم من أجل الأعمال الفكرية البنائية والحماية معاً بعد هذه الموجة العابثة من الغلو والتعصب والتمييز والعنصرية ، والعبث بالقيم الإسلامية ودلالاتها.

وانطلاقاً من حقيقة أن الأمة ” لا تجتمع على ضلالة“^(١) فلا يتصور اجتماع على ذلك الانحراف والفساد الفكري ”التطرف والغلو بكافة أشكاله وصوره“ فذلك يناقض خلود الرسالة الخاتمة وقدرتها على إنتاج نماذج بشرية جديدة بالافتداء ، كما يناقض خاتميتها ، حيث من لوازم الخاتمية التجلي في واقع الناس.

ولعل رسائل النور - لبدیع الزمان سعيد النورسي [١٨٧٧-١٩٦٠م] باتت اليوم شاهداً على ذلك وعلى كون المعيارية والمرجعية لا تُسلب من الأمة كلها ، فقد تصدى الأستاذ النورسي وأخذ على عاتقه واجب إعادة الأمور إلى نصابها ، وتأسيس قيم العدل والمساواة وإقامة الكتاب والميزان ، وإرساء فقه التوسط والتعديد له ، لمقابلة الغلو والتطرف والتعصب بكافة أشكاله.

وهذه الدراسة تُعنى بالجانب الاجتماعي من التطرف والغلو- أي ” النزعات العنصرية والقومية“ - وتبين الدراسة دقة النورسي في تشخيص العلة ووصف الدواء لهذا المرض الاجتماعي الذي زاد من تراجع الأمة وغياب دورها الريادي والقيادي ووظيفتها في الشهادة.

^(١) وفي عبارة الأستاذ النورسي إشارة إلى قوله ﷺ : ” إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثِ خِلَالٍ أَنْ لَا يَدْعُو عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعًا وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ“. سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، وعن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ ان رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ” سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ كَمَا أَهْلَكَ الْأُمَّمَ قَبْلَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَلْبَسَهُمْ شَيْعًا وَيُذَيِّقَ بَعْضَهُمْ بِأَسِّ بَعْضٍ فَمَنْعَنِيهَا“ أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، ج ٦ ص ٣٩٦ . : عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ج ١ ، ص ٤٢ .

الدراسة :

اختلف الباحثون في بيان مفهوم العنصرية والقومية وذلك لأسباب أهمها : اختلاف تصوراتهم الفكرية والعقائدية والنفسية والاجتماعية حول العنصرية والقومية. وثانياً : تصوراتهم لمشكلات الإنسان السياسية والفكرية والاجتماعية ، لكنهم على الرغم من ذلك حاولوا النفاذ إلى بواعثها ودوافعها ووصفها وصفاً دقيقاً ، لإيجاد الحلول النافعة والناجعة لهذا المرض الاجتماعي الخطير.^(١)

وقد حظيت العنصرية والقومية السلبية باهتمام الأستاذ النورسي الذي وصفها وصفاً دقيقاً وبيّن سماتها وآثارها ونتائجها على المجتمع الإسلامي والإنساني ثم بيّن الحلول لهذه المشكلة الاجتماعية التي تعد شكلاً من أشكال التطرف الاجتماعي. وذلك في مؤلفه القيم كليات رسائل النور.

مفهوم العنصرية والقومية السلبية وسماتها وصفاتها عند الأستاذ النورسي :

أولاً : العنصرية والقومية السلبية تعمل على إقصاء الآخرين ولا تعترف بهم : وصف الاستاذ النورسي - في رسائل النور - العنصرية والقومية السلبية بجلاء فنجده يؤكد أن المدنية الحديثة المستندة لحكمة الفلسفة تلتزم بالعنصرية والقومية ، التي تعتدي على الآخرين وتكبر بابتلاعهم فنجده يعقد - في الكلمات - موازنة بين حكمة الفلسفة وحكمة القرآن^(٢) من حيث أثرهما في تربية وتوجيه المجتمع الإنساني قائلاً : ” إن حكمة الفلسفة ترى ” القوة ” نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية. وتهدف إلى ” المنفعة ” في كل شئ وتتخذ ” الصراع ” دستوراً للحياة ، وتلتزم ” بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات... ومن المعلوم أنّ شأن ” القوة ” هو ” الاعتداء ” وشأن ” المنفعة ” هو ” التزاحم ” إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم .. وشأن

(١) د. عماد عبد الله الشريفين ، المؤتمر العالمي التاسع لبديع الزمان النورسي : العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية ، ورقة بعنوان : العنصرية والقومية السلبية من خلال كليات رسائل النور ، إستانبول ، ٢٠١٠م ، ص ٧٤٥.

(٢) سيرد الحديث عن حكمة القرآن التي تستند إليها القومية الإيجابية لاحقاً

”الصراع“ هو ”النزاع والجدال“ .. وشأن ”العنصرية“ هو ”الاعتداء“ إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى^(٤).
 إذن فقد أكد الأستاذ النورسي أن أخص خصائص الفكر العنصري والقومي أنه لا يدع مجالاً لغيره من الأيدولوجيات والأفكار والمبادئ كي تعيش وتنمو إلى جانبه ”فشأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى“^(٥).

ويؤكد - رحمه الله - في موضع آخر من كتابه الكلمات ” أن شأن العنصرية هو ”التجاوز“ حيث تكبر بابتلاع غيرها“^(٦) والتجاوز هو الظلم وإقصاء الآخر.
 ثانياً: العنصرية تعزز ثقافة العنف والتصادم مع الآخرين : أكد الأستاذ النورسي أن التصادم والعنف مع الآخرين ، والتناكر والتعاقد المفضي إلى الدمار والهلاك من أخص خصائص وسمات العنصرية والقومية السلبية ، يقول رحمه الله في اللوامع من الكلمات : ”شأن القومية السلبية والعنصرية : التصادم المريع ، وهو المشاهد ومن هنا ينشأ الدمار والهلاك“^(٧) وأكد ذلك في السانحات من صيقل الإسلام.^(٨) فمنبع العنف هو ”التعصب العنصري والأناية“^(٩).

(٤) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط ٣ ، ١٩٩٨ م ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٦) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .

(٧) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٨٥٥ .

(٨) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط ١ ، ١٩٩٥ م ، ج ٨ ، ص ٣٥٧ .

(٩) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، الشعاعات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط ١ ، ١٩٩٣ م ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

فالقومية والعنصرية ” فكرة أو اعتقاد أو سلوك يقوم على الفصل بين الناس ، أو شعور بالتفوق على الآخرين تدعمه السلطة والقوة ، وتبرره صفات خاصة موجودة عند البعض ومحروم منها الآخرون كاللون والجنس ، والثروة والجاه“^(١٠).

فالشعور القومي السلبي ينشأ كما يؤكد الأستاذ النورسي ” من الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند“^(١١) ذلك ” أن الشر إذا تمكن من الأفتدة فتنافر ودها ، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد ، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، ونيران العداوة إذا اشتعلت تحرق حاضر الناس ومستقبلهم ، وتلتهم علائقهم وفضائلهم“^(١٢) وقد قال رسول الله ﷺ : ” إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكنه لم يئس من التحريش بينهم“^(١٣).

وقد ذكر الأستاذ النورسي شواهد من التاريخ لظهور أضرار كثيرة نجمت عن النزعات العنصرية والقومية ، منها : ما ترتب على خلط القومية العربية وإقحامها بالسياسة في عهد الأمويين من سخط العالم الإسلامي ، وفتن داخلية ، ومنها ما حدث في تاريخ أوروبا في العصور المتأخرة من حروب بسببها ... ، ومنها ما كانت ذات

(١٠) محمد عبابنة ، العنصرية وعلاجها من منظور تربوي إسلامي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، كلية الشريعة ، ٢٠٠٤ م ، نقلاً عن عماد عبد الله الشريفين ، المؤتمر العالمي التاسع لبديع الزمان النورسي ، مصدر سابق ، ص ٧٤٦ .

(١١) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٣٥ .

(١٢) محمد الغزالي ، خلق المسلم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط ٣ ، ١٩٩٠ م ، ص ٩١ .

(١٣) عن أبي سفيان عن جابر قال سمعت النبي ﷺ يقول : ” إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ“ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٢١٦٦ . انظر أيضا : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣١٣ .

علاقة بواقع المسلمين في عهد الحرية ” الاستقلال “ حيث تشكلت جمعيات مختلفة للاجئين وفي المقدمة الروم والأرمن ، تحت أسماء أندية كثيرة وسببت تفرقة القلوب.^(١٤) أما في عهد الأستاذ النورسي فيؤكد رحمه الله : ” أن التباعد والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله - بسبب من الفكر القومي - هلاك عظيم ، وخطب جسيم ، ... ومصيبة كبرى لا توصف ، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض ولا يعبأ بالثعابين الماردة^(١٥) التي تحوم حوله “.^(١٦)

ويؤكد كذلك - رحمه الله - في كتابه المكتوبات أن العدا والحقد والشقاق الناتج من الفكر القومي ترفضه الحقيقة ويرفضه الإسلام إذ هو ظلم وسم زعاف للحياة البشرية إذ يقول : ” إن ما يسببه التحيز - لعنصر أو ملة أو عرف - والعناد من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين ، وما يوغر في صدورهم من حقد وغل وعداء ، مرفوض أصلاً ، ترفضه الحقيقة والحكمة ، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى ، فضلاً على أن العدا ظلم شنيع يفسد حياة البشرية : الشخصية والاجتماعية والمعنوية ، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة “.^(١٧)

والعناد كما يقرر الأستاذ النورسي - ” يلزم أحياناً المغالين في التعصب الضلال والباطل “^(١٨) والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ” فميل الإنسان نحو الظلم لا يجد لا سيما إذا انضمت إلى ذلك الميل الأشكال الخبيثة للأنانية

(١٤) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ج ٢ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ملخصاً.

(١٥) أشار الأستاذ النورسي بذلك إلى أطماع أوروبا التي لا تفتر ولا تشبع كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

(١٦) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

(١٧) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ . بديع الزمان سعيد النورسي ، من كليات رسائل النور (١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة : إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠٨م ، ص ٩١ .

(١٨) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٦٤ .

كالإعجاب بالنفس وتحري المصلحة الشخصية والكبر والفساد والغرور ، تتولد جرائم بشعة لم تجد لها البشرية اسماً^(١٩).

ثالثاً : العنصرية والقومية السلبية ظالمة ولا تتبع للعدالة ولا توافق الحق : وكذلك فإن من خصائص العنصرية والقومية السلبية أنها تقوم على أساس ظالم ولا تعرف الحق والعدل وفيها دعوى الجاهلية التي تجاوزها الإسلام ، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله : ” إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق ، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة ، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم ، فأنتى له أن يبلغ العدالة! بينما الإسلام يجب ما قبله “^(٢٠) من عصبية جاهلية ، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما ... إذ لا تكون هناك عدالة قط وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف.^(٢١)

يرى الأستاذ النورسي : ” أن مقاومة الحسن والحسين رضي الله عنهما للأمويين ، في حقيقتها صراع بين الدين والقومية إذ اعتمد الأمويون على جنس العرب في تقوية الدولة الإسلامية ، وقدموهم على غيرهم ، أي فضلوا رابطة القومية على رابطة الإسلام فأذوا الأقسام الأخرى بنظرتهم هذه فولدوا فيهم الكراهية والنفور “^(٢٢). إن عادة العرب في الاستعلاء بالنسب والازدهاء بالأبوة غلبت في مجتمعهم تعاليم الإسلام ، فكان ذلك من أسباب الفتوق الخطيرة في ماضيها وحاضرنا.

^(١٩) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٦٤.

^(٢٠) رُوي أن عمرو بن العاص قال : قلت يا رَسُولَ اللَّهِ أَبَايُعْكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ” إِنْ الْإِسْلَامَ يُحِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَإِنْ الْهُجْرَةَ تَحِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا ... “ أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، مسند أحمد بن حنبل ، ج ٤ ص ٢٠٤ . أحمد بن الحسين ابن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، هـ ١٤١٤ - ١٩٩٤ م ، ج ٩ ص ١٢٣ .

^(٢١) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

^(٢٢) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

لذا فلا عدالة ولا إنصاف ولا حق دون تجاوز النزعات العنصرية والعصبية الجنسية التي وصفها النورسي بأنها ” السم القاتل “^(٢٣) ، و ” الداء الخبيث “^(٢٤) ، و ” المرض الوبيل “^(٢٥) .

وإنه من الطبيعي أن يحب المرء وطنه وقومه ، لكن لا يجوز أبداً أن يكون ذلك سبباً في نسيان المرء لربه وخُلُقِه ومثله.^(٢٦) قال رسول الله ﷺ : ” خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم “^(٢٧) . وسئل ما العصبية ؟ قال ” أن تعين قومك على الظلم “^(٢٨) .

رابعاً : العنصرية اتباع للأنا والشيطان وشرك عظيم : يؤكد الأستاذ النورسي أن الذي تنبض فيه عروق العصبية القومية والعنصرية - من فرط أنانيته - يصبح مخالفاً لأوامر الله سبحانه وتعالى كالشيطان ويتردى في مهاوي الشرك إذ يقول ” إن ” أنا “ ... إن لم تعرف ماهيته ينمو في الخفاء - كنمو البذرة تحت التراب - ويكبر شيئاً فشيئاً ، حتى ينتشر في جميع أنحاء وجود الإنسان ، فيبتلعه ابتلاع الشعبان الضخم ، فيكون ذلك

(٢٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٢٤) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٢٦) محمد الغزالي ، خلق المسلم ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ .

(٢٧) حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ثنا أيوب بن سويد عن أسامة بن زيد أنه سمع سعيد بن المسيب يحدث عن سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ” خَيْرُكُمْ الْمُدَافِعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ مَا لَمْ يَأْثَمْ “ . سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ج ٤ ، ص ٣٣١ . قال أبو داود أيوب بن سويد ضعيف ، انظر أيضا : الحسين بن مسعود البغوي ، شرح السنة ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، باب العصبية . ج ١٣ ص ١٢٢ . وذكر الطبراني أن الحديث لم يروه عن أسامة إلا أيوب . انظر ، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ، الروض الداني (المعجم الصغير) ، تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أمير ، المكتب الإسلامي ، دار عمار - بيروت ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٢٨) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني ، سنن أبي داود ، ج ٤ ص ٣٣١ ، سليمان بن أحمد ابن أيوب أبو القاسم الطبراني ، المعجم الكبير ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، مكتبة الزهراء ، الموصل ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ - ١٩٨٣ ، ج ٢٢ ص ٩٨ . أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ج ١٠ ص ٢٣٤ .

الإنسان بكامله وبجميع لطائفه ومشاعره عبارة عن "أنا". ثم تمده "أناية" النوع نافخة فيه روح العصبية النوعية والقومية ، فيتسلط بالاستناد على هذه "الأناية" حتى يصير كالشيطان الرجيم يتحدى أوامر الله ويعارضها ثم يبدأ بقياس كل الناس ، بل كل الأشياء على نفسه ووفق هواه ، فيقسم مُلك الله سبحانه على تلك الأشياء ، وعلى الأسباب فيتردى في شرك عظيم".^(٢٩)

إذن فإن الأستاذ النورسي يرى أنّ النزعات العنصرية والفكر القومي توجه أو اعتقاد يدعو إلى الاعتداء على الآخرين ، وتجاوز حقوقهم ، وظلمهم ويعزز ثقافة العنف والتصادم المؤدي بدوره إلى الدمار والهلاك والجرائم الإنسانية ، كما أنها سلوك شيطاني مخالف لأوامر الله سبحانه وتعالى مؤدٍ إلى الشرك بالله.

حلول مشاكل العنصرية والقومية من خلال رسائل النور :

بعد أنّ شخّص الأستاذ النورسي وبيّن ذلك الداء الاجتماعي الخبيث والمرض الوبيل - أي العنصرية والقومية - شرع في وصف الدواء وتبيين العلاج والحلول العملية التي منها :

أولاً : الدعوة للتعرف والتعاون الإنساني والإسلامي : عبّ الأستاذ النورسي على قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ قائلاً : "أي خلقناكم طوائف وقبائل وأماً وشعوباً كي يعرف بعضكم بعضاً وتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية ، لتتعارفوا فيما بينكم ، ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا فتتخاصموا".^(٣٠)

وكذلك نجده في صيقل الإسلام - بعد ذكره للآية السابقة- يؤكد أنّ هنالك روابط ووظائف محددة تجمع بين الناس في كل مجتمع من شأنها إحداث التعاون والتعارف إذ يقول : "كما أنّ هنالك روابط تربط الجندي بفصيله وفوجه ولوائه وفرقته في الجيش وله واجب ووظيفة في كل منهما ، كذلك كل إنسان في المجتمع له روابط متسلسلة

(٢٩) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ١ ، ص ٦٣٨ .

(٣٠) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٤١٣ .

وظائف مترابطة فلو اختلقت هذه الروابط والوظائف ولم تُعَيَّن وتحدّد لما كان هنالك تعاون ولا تعارف“^(٣١).

وكذلك ” فإن الأمر في المجتمع الإسلامي الشبيه بالجيش العظيم قد قُسم إلى قبائل وطوائف ، مع أنّ لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة إذ خالقهم واحد ورازقهم واحد ، ورسولهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وكتابتهم واحد ، ووطنهم واحد... وهكذا واحد ، واحد... إلى الألف من جهات الوحدة التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة ، بمعنى أن الإنقسام إلى طوائف وقبائل - كما تعلنه الآية الكريمة - ما هو إلا للتعارف والتعاون لا للتناكر والتخاصم“^(٣٢).

وقد أكّد الأستاذ النورسي أنّ الإسلام يُرغّب في هذا النوع من الشعور القومي بخلاف الشعور القومي السلبي إذ يقول في صيقل الإسلام : ” فنمو الشعور القومي في الشخص إما أن يكون إيجابياً أو سلبياً : فالإيجابي ينتعش بنمو الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف. أما السلبي فهو الذي ينشأ من الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند. والإسلام يرفض هذا الأخير“^(٣٣).

فالله سبحانه وتعالى قد أطلعنا في الآية الكريمة أنّ الغاية من جعل الناس شعوباً وقبائل ” إنّما ليست التنافر والخصام... إنّما التعارف والوئام... فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطبائع والأخلاق واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات“^(٣٤).

(٣١) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣٢) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٤١٤ .

(٣٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٣٥ .

(٣٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٩٠م ، ج ٦ ، ص ٣٣٤٨ .

فنحن المسلمين - كما يؤكد محمد الغزالي - ”نؤمن بالأخوة الإنسانية ونعد اختلاف الأجناس والألوان مصدر تعارف لا تناكر“^(٣٥).

ثانياً: التأكيد على الأخوة الإنسانية المستندة على وحدة الأصل الإنساني: أكد النبي ﷺ بأقواله وأفعاله على وحدة الأصل الإنساني وعلى أن المفاضلة بين إنسان وآخر وقوم وآخرين هو التقوى، إذ يقول عليه أفضل الصلاة والسلام كما روى مسلم في صحيحه: ”أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى“^(٣٦) وكذلك قوله ﷺ: ”كلكم لأدم وآدم خلق من تراب“^(٣٧).

ويقول عليه الصلاة والسلام: ”إن الله عز وجل أذهب عنكم عبيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمنٌ تقى وفاجر شقيّ أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعَنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو لتكُونَنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن“^(٣٨).

إن الإسلام جاء لتصحيح الأوضاع المعوجة والأفكار الباطلة مبتدئاً بالوثنية ومنتهاياً بالعصبية والعنصرية والقبلية التي كانت سبباً يحول دون توحيد الناس وسبباً في تنازعهم واختلافهم وقد نبه ﷺ عن العصبية والتحيز والتعاند والتبعية العمياء

^(٣٥) محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، (د.ن) الطبعة الأولى، ص ١٨٥.

^(٣٦) أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج ٥ ص ٤١١، عبد الله بن المبارك بن واضح، مسند الإمام عبد الله بن المبارك، تحقيق: صبحي البدر السامرائي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ج ١ ص ١٤٧.

^(٣٧) الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، تحقيق: محمد إدريس، عاشور بن يوسف، دار الحكمة، مكتبة الاستقامة، بيروت، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ. ج ١ ص ١٧٠.

^(٣٨) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبو محمد المصري، الجامع في الحديث، تحقيق: د. مصطفى حسن حسين أبو الخير، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٧١. العبيبة: الكبر، والنخوة، بضم العين وكسرها. قال عمر بن الخطاب ﷺ: إنا قومٌ أكرمنا الله بالإسلام، فمن يلمس العزَّ بغير الإسلام، يذله الله. الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة، ج ١٣، ص ١٢٤.

قائلاً: ”ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية“.^(٣٩)

إذن فقد أعلن الرسول ﷺ المساواة الجامعة وأكد على الكرامة الإنسانية فبات التفاضل والشرف بالتقوى: ”وقد أصبح المجتمع الإسلامي يتعامل بتلك الصفات ويطبّقها، وينسى العصبية البغيضة“ فحين باع حكيم بن حزام داره، وخاطبه في ذلك بعض الناس، يثرون في نفسه نخوة الأجداد الموروثة والشرف المستمد من العشيرة والنسب، فاجأهم الرجل بقول جديد في المجتمع العربي، يعكس اتجاهاته ويصور قيمه الإسلامية تجاه مبدأ المساواة: ”يا أيها الناس، لقد أصبح الشرف اليوم بالتقوى“.^(٤٠)

فالإسلام مجتمع كبير يمتد حتى يشمل الإنسانية كلها بجميع أجناسها وألوانها ولغاتها في كل أرض وفي كل مكان وفي كل زمان: ”وعند المقارنة بين الأخوة الإيمانية والأخوة في النسب التي تعارف عليها الناس، إذا كان الاشتراك في النسب كافياً لايجاد رابطة الأخوة بين الأفراد وإن اختلفوا في العقائد والعواطف والمصالح، فإن الاشتراك في العقيدة الراسخة والعاطفة المثلى ونظام العيش الواحد والمصالح المشتركة أحق وأجدر بهذه الأخوة، لأن النسب تلاق في حدود الجسد فقط، أما هذه الأمور فإنها اتحاد في أكرم مقومات الإنسان“.^(٤١)

(٣٩) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، ج ٤ ص ٣٣٢. يقول المناوي في معرض شرحه للحديث: ”ليس منا من دعا إلى عصبية“ أي من يدعو الناس إلى الاجتماع على عصبية وهي معاونة الظالم ”وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية“ قال ابن الأثير العسبي الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم والتعصب المدافعة والمحاماة [عن جبير بن مطعم] وفيه انقطاع. انظر: الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج ٢، ص ٣٣٠.

(٤٠) مصطفى عبد الواحد، المجتمع الإسلامي، دار الأمل، الكويت، (د.ت)، ص ٨٤.

(٤١) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الحضارة الإسلامية، دار العلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٨م، ص ١٤٩.

لذا فإن الأستاذ النورسي يقرر : ” أنه بسر الإيمان والتوحيد ، يرى أُخُوَّةَ بَيْنَ كل الكائنات ، وأنسية وتحبباً بين أجزائها لا سيما بين الأدميين ، ولا سيما بين المؤمنين ، ويرى أُخُوَّةَ في الأصل والمبدأ والماضي ، وتلاقياً في المنتهى ، والنتيجة في المستقبل “^(٤٢) . إذن فالأخوة الإنسانية المستندة على وحدة الأصل تستوجب التعاون والمساندة الذي هو دستور عمل الكون كما يؤكد الأستاذ النورسي : ” فإنه ما من شئ في هذا العالم إلا وكأنه يتطلع إلى الآخر فيغيثه ، أو يرى الآخر فيشد من أزره ويعاونه ... فيكمل الواحد عمل الآخر ، ويكون ظهره وسنده ، ويتوجه الجميع جنباً إلى جنب في طريق الحياة “^(٤٣) .

وإذا تقرر أن أجزاء الكون تظهر تحبباً وأنساً وتسانداً وتعاوناً ، فلا بد أن يتحقق ذلك بين مكونات المجتمع البشري ، أي شعوبها وقبائلها وأقوامها ، ولا يتحقق ذلك بداهة إلا بتجاوز الفكر القومي والتمييز العنصري والتعصب العرقي . والأستاذ النورسي يؤكد أن دستور التعاون الاجتماعي المستمد من القرآن سبب في إنجاز أصعب المهام إذ يقول : ” أما أسس مدينة القرآن الكريم فهي إيجابية ... ودستورها في الحياة : التعاون والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات ... “^(٤٤) فالتعاون من القواعد الثابتة للنبوة في الحياة الاجتماعية^(٤٥) وهو سبب في إنجاز أصعب المهام^(٤٦) . وكذلك ينبه الأستاذ النورسي إلى ضرورة العمل والتمسك بالقيم والروابط الاجتماعية المستندة على حكمة القرآن لتحقيق ثمراتها وغاياتها ، إذ يقول رحمه الله في الكلمات : ” أما حكمة القرآن فهي تقبل ” الحق “ نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة ، وتجعل ” رضى الله ونيل الفضائل “ هو الغاية والهدف ، بدلاً من المنفعة . وتتخذ دستور ” التعاون “ أساساً في الحياة ، بدلاً من دستور الصراع ، وتلتزم رابطة

(٤٢) بديع الزمان سعيد النورسي ، كليات رسائل النور ، المثنوي العربي النوري ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٩٩ م ، ج ٦ ، ص ١٨١ .

(٤٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

(٤٤) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٨٥٥-٨٥٦ .

(٤٥) النورسي ، كليات النور ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ١ ، ص ٦٤٤ .

(٤٦) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم . ج ٢ ص ٢٥٢ .

” الدين “ والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من ” العنصرية والقومية السلبية “.^(٤٧)

ثالثاً : القومية الإيجابية تحقيق لقوة المسلمين المادية والمعنوية : يرى الأستاذ النورسي أن القومية الإيجابية هي القومية التي من شأنها إحياء التعاون والتساند والقوة للمسلمين ، إذ يقول رحمه الله : ” القومية الإيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية ، وهي سبب للتعاون والتساند ، وتحقيق قوة نافعة للمجتمع ، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية “.^(٤٨)

فالقومية الإيجابية مفضية إلى ائتلاف القلوب والمشاعر واتحاد الغايات والمناهج والاتحاد قوة وليس ذلك في شئون الناس فقط ، إنه قانون من قوانين الكون ، فالخيوط الواهي إذا انضم إليه مثله أضحي حبلاً متيناً يجير الأثقال ، وهذا العالم الكبير ماهو إلا جملة ذرات متحدة. ” وقد شرح حكيم لأولاده هذا المعنى عند وفاته ليلقنهم درساً في الاتحاد ، قدم إليهم حزمة من العصي قد اجتمعت عيدانها ، فعجزوا عن كسرهما ، فلما انفك الرباط وتفرقت الأعداد كسرت واحداً واحداً “.^(٤٩)

وقد لجأ الامام النورسي إلى طريقة مقارنة لطريقة ذلك الحكيم ليدلل على كون الاتحاد قوة إذ يقول رحمه الله : ” نحن بحاجة ماسة بل مضطرون إلى الاتحاد والتساند التام وإلى الفوز بسر ” الإخلاص “ الذي يهبى قوة معنوية بمقدار ألف ومائة وأحد عشر [١١١] ناتجة من أربعة. نعم... إن لم تتحد ثلاث ” ألفات “ فستبقى قيمتها ثلاثاً فقط ، أما إذا اتحدت وتساندت بسر العددية ، فإنها تكسب قيمة مائة وأحد عشر [١١١]. وكذا الحال في أربع ” أربعات “ عندما تكتب كل [٤] منفردة عن البقية فإن مجموعها [١٦] أما إذا اتحدت هذه الأرقام واتفتت بسر الأخوة ووحدة الهدف والمهمة

(٤٧) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم ج ١ ص ٤٧٢-٤٧٣ انظر أيضاً المرجع نفسه ج ١ ص ١٤٥ مع اختلاف يسير.

(٤٨) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ج ٢ ص ٤١٥ .

(٤٩) محمد الغزالي ، خلق المسلم ، ص ١٨٩ .

الواحدة على سطر واحد فعندها تكسب قيمة أربعة آلاف وأربعمائة وأربع وأربعين [٤٤٤٤] وقوتها“^(٥٠).

ويبين الأستاذ النورسي سر القوة التي تنشأ من الاتحاد قائلاً: ”أما حكمة هذا السر فهي أنّ كل فرد من عشرة أشخاص متفقين حقيقة يمكنه أن يرى بعيون سائر إخوانه ويسمع بأذانهم ، ويرى أنّ كلاً منهم يكون له من القوة المعنوية والقيمة ما كأنه ينظر بعشرين عيناً ، ويفكر بعشرة عقول ، ويسمع بعشرين أذناً ، ويعمل بعشرين يداً“^(٥١).

رابعاً : سيادة الشخصية المعنوية لتحقيق التعاون والتكامل الفكري والمادي : حثت رسائل النور على ضرورة سيادة روح الجماعة التي عبر عنها سعيد النورسي رحمه الله : ”بالشخصية المعنوية“ ، مؤكداً أنّها أقوى من شخصية الفرد.. وهي-أي الشخصية المعنوية-تعكس روح العامة فإن كانت مستقيمة فإنّ إشراقها وتألقها يكون أسطع وألمع من شخصية الفرد“^(٥٢).

ومن هذا السر والحكمة-كما يقول النورسي : ”تري كل صاحب كمال وصاحب جمال يرى من نفسه ميلاً فطرياً إلى أن ينضم إلى مثيله ، وبأخذ بيد نظيره ، ليزداد حسنه... فالإنسان الذي لا يدرك سر التعاون هو أجمد من الحجر ، إذ من الحجر ما يتقوس لمعاونة أخيه“^(٥٣).

(٥٠) النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ج ٣ ص ٢٤٣ .

(٥١) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ص ٥١٥ ، وقد أكد الأستاذ على هذا الأمر في الملاحق ”فقه دعوة النور“ ، ج ٧ ، ص ٥٩ .

(٥٢) النورسي ، كليات رسائل النور ، المثنوي العربي ، تحقيق : إحسان قاسم ، ج ٦ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٥٣) النورسي كليات رسائل النور ، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، تحقيق : إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط ٣ ، ١٩٩٩ ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

فالتعاون الذي تُعد القومية الإيجابية إحدى منابعه - كما أكدت رسائل النور- يؤدي لإكمال النقص وتساند المواهب ” حتى يصير الجميع - في المجتمع المسلم - أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها الإنسان الكامل“^(٥٤) وفي ظل سيادة روح الجماعة فإنّ ”التأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب - إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة لاخطر فيها ولا خوف منها“^(٥٥)

فالقرآن يدعو الناس إلى التعارف والتعاون ، ووجود الشعوب والقبائل واختلاف اللغات واقع اجتماعي يدفع إلى التنافس على الخير وإقامة الحضارة وبناء الحياة.^(٥٦) فكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل والتعاون - المادي والمعنوي - بين القوميات ”التعددية الثقافية“ ازدادت فرص النمو والاكتمال والتعلم ، فالأمة الإسلامية تملك رصيماً ضخماً من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع يسمح لها بأن تنمّي الحضارة الإنسانية ، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية.

خامساً : التأكيد على أن الانقسام والتنازع مرضٌ اجتماعي فتاك والتحذير منه : إن التنازع والانقسام والعداء يستشري في ظل وجود العنصرية القومية البغيضة ” وقد تيقظ الإسلام لبوادر الجفاء فلاحقها بالعلاج ، قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة ، وشرع الإسلام من المبادئ مايرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة ، ومايمسك

(٥٤) النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ .

(٥٥) محمد عبد الرحمن مرجبا ، أصالة الفكر العربي ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٥٢

(٥٦) محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والقومية ، شبكة إسلام ويب ٢/٤ / ٢٠١٥م :
www.library.islam web.net/new library ummah.

قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة ، فنهى عن التقاطع والتدابير “^(٥٧) قال النبي ﷺ :
 ” لا تقاطعوا ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، كونوا عباد الله إخواناً... “^(٥٨)
 وقد وصف الأستاذ النورسي الاختلاف والفرقة والانقسام بالمرض الفتاك وأكد أن
 علاجه في الاسترشاد بنور القرآن والسنة ، إذ يقول في اللمعات -على سبيل المثال- :
 ” وطريق النجاة من هذا الواقع الباطل الأليم ، والتخلص من هذا المرض الفتاك ،
 مرض الاختلاف الذي ألم بأهل الحق هو اتخاذ النهي الإلهي في الآية الكريمة : ﴿ وَلَا
 تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، واتخاذ الأمر الرباني في الآية
 الكريمة ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] دستورين للعمل في الحياة
 الاجتماعية “^(٥٨).

ويضيف رحمه الله - قائلاً : ” فيا أهل الحق..ويا أهل الشريعة الحقيقة
 والطريقة...امتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات والأحاديث الشريفة ^(٥٩) من التآخي

^(٥٧) محمد الغزالي ، خلق المسلم ، ص ٩٢ .

^(٥٨) مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد
 الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١٩٨٦ م. أحمد بن حنبل ، مسند الإمام
 أحمد بن حنبل ، ج ١ ، ص ٥ .

^(٥٨) النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات . ترجمة إحسان قاسم ، ج ٣ ص ٢٣٥ .

^(٥٩) حث الأحاديث النبوية على تفعيل قيم التعاون والتساند في الحياة الاجتماعية ومن ذلك قوله
 ﷺ : ” مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه
 عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى “ ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري
 النيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٤ ص ١٩٩٩ ، محمد بن
 فتوح الحميدي ، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، تحقيق : د. علي حسين البواب ،
 دار ابن حزم ، لبنان/ بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ج ١ ص ٥٠٠ ،
 وكذلك قوله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) محمد بن إسماعيل البخاري ،
 صحيح البخاري ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدِهِمْ ، عالم الكتب بيروت ، ط ٥ ،
 ١٩٨٦ م . كتاب المظالم . ج ٢ ص ٨٦٣ رقم (٢٣١٣) .

والتحاب والتعاون ، وتمسكوا بكل مشاعركم بعري الاتفاق والوافق مع إخوانكم في

الدين ونهج الحق المبين. واحذروا دائماً الوقوع في شباك الاختلاف“^(١٠).

ويؤكد الأستاذ النورسي في الملاحق أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم دون الوحدة والتساند والترابط إذ يقول : ” إن الحياة نتيجة الوحدة والاتحاد ، فإذا ذهب الاتحاد المندمج الممتزج ، فالحياة المعنوية تذهب أدراج الرياح ، فالآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، تشير إلى أنّ التساند والترابط إذا اختل تفقد الجماعة مذاقها“^(١١).

سادساً : التأكيد على أن المحبة عامل بناء للمجتمعات الإنسانية والعداوة عامل تدمير : حرص الأستاذ النورسي في رسائل النور على التأكيد على ضرورة تأسيس العلاقات الاجتماعية - بين الأفراد والجماعات - على أساس من المحبة - وعدّ العداوة والبغضاء عوامل هدم للحياة الاجتماعية ، إذ يقول رحمه الله في ” الخطبة الشامية “ : ” إنّ ممّا تعلمته من الحياة الاجتماعية البشرية طوال حياتي ، وما أملت على التتبعات والتحقيقات هو... إنّ صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الاجتماعية البشرية والتي تدفع إلى تحقيق السعادة هي أليق للمحبة ، وإنّ صفة العداوة والبغضاء التي هي عامل تدمير الحياة الاجتماعية وهدمها هي أقبح صفة وأضرها وأجدر أن تُجتنب وتُنْفَر منها“^(١٢) مؤكداً أنّ مثل هذه العداوة استخفاف بالأسباب التي تربط المؤمنين وحماقة إذ يقول -رحمه الله- ” إنّ مثل هذه العداوة تُعد استخفافاً بالوشائج والأسباب التي تربط المؤمنين بعضهم

(١٠) النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٣ ص ٢٢٩ .

(١١) النورسي ، كليات رسائل النور ، الملاحق ” في فقه الدعوة والنور “ ترجمة إحسان قاسم . ج ٧ ، ص ٥٨ .

(١٢) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة احسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٥٠٩ ، النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠٠٩م ، ص ٥٦ . تتضح عبارة النورسي بما أورده في المكتوبات قائلاً : ” اعلم أنّ صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة ، كما أنّ خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شيء آخر “ النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم . ج ٢ ص ٣٤٣ .

ببعض - كالإيمان والإسلام والإنسانية- وخطأ من شأنها وهي أشبه ما يكون بحماسة
من يُرَجِّح أسباباً تافهة للعداوة كالحصيات على أسباب بجسامة الجبال الراسيات للود
والمحبة“^(٦٣).

فالعقيدة الروحية التي بيّنها القرآن الكريم ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية وهذا
سر قوة الإسلام وسماحته ووحدته كما أكد الكاتب الفرنسي ”مارسيل كابي“^(٦٤).
لذا فإنّ الأستاذ النورسي يؤكد في رسالة الأخوة في المكتوب الثاني والعشرين من
المكتوبات ” أن الإيمان بعقيدة واحدة يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب
واحد ، ووحدة العقيدة هذه تقتضي وحدة المجتمع “^(٦٥) حيث لا يعرف التحيز
والعصبية والعنصرية طريقاً إلى مثل هذا المجتمع ، فالإيمان يؤسس الأخوة بين كل
شئ ، لا يشتد الحرص والعداوة والحقد والوحشة في روح المؤمن ، إذ بالدقة يرى
أعدى عدوه نوع أخ له...“^(٦٦) فالأخوة في الله التي جمعت القلوب تصغر بجانبها
الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية ،
ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال.^(٦٧)
لذا فإنّ الأستاذ النورسي يصف بقاء الاختلاف بين المسلمين رغم الدوافع التي ينبغي
أن تدفعهم إلى الوحدة- كالخطر الخارجي- بأنه ” تدهور مخيف وانحطاط مفرج
وخيانة بحق الإسلام والمسلمين“^(٦٨).

^(٦٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٥٠٩ ،
النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم. ص ٥٧ ،
النورسي ، من كليات رسائل النور (١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٩٥ .
^(٦٤) عمر عودة الخطيب ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠ م ، ص ١٩٣ .

^(٦٥) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة احسان قاسم. ج ٢ ص ٣٤١ ، النورسي ،
من كليات رسائل النور (١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٦٤ .

^(٦٦) النورسي ، كليات رسائل النور ، المثنوي العربي النوري ، ج ٦ ، ص ١٥٨ .
^(٦٧) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، مج ١ ، ج (١-٤) ،
ص ٤٤٣ .

^(٦٨) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم. ج ٢ ص ٣٤٩ .

فأشد القبائل تأخراً يدركون معنى الخطر الداهم عليهم - العدو الخارجي - فتراهم يبنذون الخلافات الداخلية وينسون العداوات الجانبية^(٦٩) التي قد تنشأ عند استفحال عروق العصبية والتحيز والعنصرية وغيرها من هذه الأمراض الاجتماعية .

سابعاً : الوحدة في ظل المدنية الشرعية التي يأمر بها الإسلام : يرى الأستاذ النورسي أن المدنية الشرعية القائمة على الأسس والمرتكزات الايجابية كالحق والعدالة والمحبة والتعاون والتساند لا ترتبط المجموعات البشرية فيها برباط العنصرية بل عوضاً عن ذلك برابطة الدين وغيرها من الروابط الإيجابية كالرابطة الوطنية والرابطة التي تجمع بين من ينتسبون لمهن واحدة ، إذ يقول : ” أما المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتضمنها ، فهي التي سنتكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة ، وتضع أسساً إيجابية بناءً مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية. نعم إن نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة ، والحق من شأنه : العدالة والتوازن. وهدفها : الفضيلة بدلاً من المنفعة ، والفضيلة من شأنها : المحبة والتجاذب وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية : الرابطة الدينية ، والوطنية ، والمهنية بدلاً من العنصرية ، وهذه شأنها : الأُخُوَّةُ الخالصة ، والسلام والوثام ، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجنبي ، ودستورها في الحياة : التعاون بدل الصراع والجدال ، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد“^(٧٠).

فهذا الفكر القومي الإيجابي ينبغي أن يكون خادماً للإسلام ، وأن يكون قلعة حصينة له ، وسوراً منيعاً حوله ، لا أن يحل محل الإسلام ، ولا بديلاً عنه ، لأن الأُخُوَّةُ التي يمنحها الإسلام تتضمن ألوف أنواع الأُخُوَّةِ.. ولهذا فلا تكون الأُخُوَّةُ القومية مهما كانت إلا ستاراً من أستار الأُخُوَّةِ الإسلامية ، وبخلافه ، إي إقامة القومية بديلاً عن الإسلام جنانية خرقاء أشبه ماتكون بوضع أحجار القلعة في خزانة ألماس فيها وطرح الألماسات خارج القلعة.^(٧١)

(٦٩) النورسي مرجع سابق ، ج ٢-ص ٣٤٩.

(٧٠) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٥٩.

(٧١) المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٤١٥-٤١٦.

ثامناً : رسائل النور تؤكد أنّ اتحاد المسلمين هو أوجب الواجبات الدينية في هذا العصر : باعتبار الإسلام دين الإنسانية جميعاً فهو ليس مجتمعاً ضيقاً محدوداً تكوّنه عوامل جغرافية أو عنصرية أو عرقية أو طبقية ، لا ينشأ إلا في مناخ خاص وفي ظروف معينة ، ... بل هو مجتمع كبير يمتد حتى يشمل الإنسانية كلها بجميع أجناسها و ألوانها ولغاتها في كل أرض وفي كل مكان وفي كل زمان.^(٧٢)

وقد أكدت رسائل النور على أنّ الإسلام يأمر بالوحدة لحل مشاكل المسلمين والحفاظ على مصالحهم المشتركة عبر التبادل الفكري والمعرفي والتعاون بكافة أشكاله ، وأنه لا سبيل لترقي المسلمين وتحقيق النماء إلا بالحفاظ على الروابط المجتمعية أو ” العقد الحياتية “ كما أسماها ، إذ يقول - على سبيل المثال - في صيقل الإسلام : ” إن نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي ، التي أَلقت بثقلها العظيم ، عظم الأرض ، على العالم الإسلامي هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة ، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة ، وبالتعاون الذي تولده الأخوة ، فانظر بدءاً من العالم الإسلامي ، تلك الدائرة الواسعة ، وانتهاءً إلى طالب علم في المدرسة الشرعية كأصغر دائرة... تجد أن لكل منها عقداً حياتيةً ، تلك العقد مرتبطة ببعضها متسلسلة ومستندة إلى تلك النقطة العظمى ، كأفراد المجتمع وروابطه.. بمعنى أنه يمكن أن يصحو المسلمون ويبدأوا بالرقى متى ما نُبّهوا وبُث فيهم روح النماء ، فلا صحوة بخنق تلك العقد الحياتية “.^(٧٣)

فالأخوة الإسلامية هي جوهر حياة المسلمين وروحهم^(٧٤) ولا قيمة للجماعة المسلمة بلا اتحاد.^(٧٥)

ويؤكد الأستاذ النورسي أن الأمة لن تجد نقطة استناد ولن يُكتب لها البقاء إلا إذا توحدت فالوحدة تحول بين الأمة والانطفاء والزوال، إذ يقول : ” إن حماية سلسلة الإسلام النورانية وتقوية رابطته التي تجعل المسلمين - بسر الأخوة الإيمانية - كياناً واحداً ، .. هي وحدها ” نقطة الاستناد “ وهي وحدها ” نقطة الاستمداد “... إن

(٧٢) عمر عودة الخطيب ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، ص ١٩٥ .

(٧٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم . ج ٨ ، ص ٣٦٩ .

(٧٤) المرجع نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٥٦ .

(٧٥) وحيد الدين خان ، الدين الكامل ، الرسالة للإعلام الدولي ، مصر ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، ص ٥٥ .

قطرات ولمعات النور كلما بقيت متفرقة وظلّت متناثرة ، جفّت بسرعة وانطفأت حالاً -
 فينادينا رب العزة سبحانه قائلاً : ﴿ وَلَا تَفْرَقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾
 [الزمر : ٥٣] ليحول بيننا وبين الانطفاء والزوال“ .^(٧٦)

ويقرر النورسي رحمه الله أن الإرهاب والعنف والفوضى والدمار ينشأ ويتعرّج في ظل
 العنصرية والتحيز والقومية ولا سبيل لإنقاذ البشرية من كل ذلك إلا بالوحدة
 الإسلامية. إذ يقول رحمه الله : ” إنه لا يصمد أمام هذا الدمار الرهيب إلا وحدة
 المسلمين المنبثقة من حقائق القرآن ، فمثلما تكون هذه الوحدة وسيلة لإنقاذ البشرية من
 بلاء الفوضى والإرهاب فإنها تنقذ هذه البلاد أيضاً من سيطرة الأجانب وتُنجّي الأمة
 من مغبة الإرهاب ، بل لا منقذ لها إلا هذه الوحدة“ .^(٧٧)

ويؤكد الأستاذ النورسي أن طريق الذل والهوان والضعف الذي يعاني منه المسلمون
 اليوم لا يمكن تجاوزه إلا بالوحدة بعيداً عن التحزبات والتحيزات - العنصرية

^(٧٦) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ج ٨ ، ص ٣٩٢ .
^(٧٧) الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي ، (د.ن)(د.ت)
 ص ٩-١٠ ، وقد أرسل النورسي رسالة إلى المسؤولين تنبئهم لهم أن الوحدة الإسلامية هي
 العلاج الوحيد تجاه الإرهاب والفوضى ، وذلك في عهد حكومة الحزب الديمقراطي ، انظر
 تفصيل ذلك في : النورسي ، كليات رسائل النور ، الملاحق ، ملحق أمير داغ ، ترجمة إحسان
 قاسم ، ج ٧ ص ٤١٥ ، وقد أيد بديع الزمان تركيا في انضمامها لحلف بغداد عام ١٩٥٥م
 وكتب خطاباً هاماً يهنئ فيه الرئيس جلال بيار ورئيس الوزراء مندرس ويبلغها تأييده ،
 المرجع نفسه ، ج ٧ ، ص ٤١٥-٤١٩ ، وكان ممّا قال : إنه قضى خمساً وخمسين سنة من عمره
 لتحقيق المسألة ، ومن وسائله لتحقيق الوحدة تأسيس مدرسة الزهراء فهذه الجامعة
 الإسلامية التي أراد أن تكون على غرار الأزهر الشريف في القاهرة ، سوف تكون هي وسيلة
 لتحقيق السلام الشامل والتصالح على عدة مستويات وسوف تعمل هذه الجامعة على
 التخلص من تأثير التفرقة العنصرية وتدفع إلى إنهاء القومية الإسلامية الشاملة وازدهار
 العمل بالدستور القرآني ، القائل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) سورة الحجرات الآية ١٠ ، انظر
 تفصيل ذلك في : ابراهيم أبو ربيع ، الإسلام على مفترق الطرق ، رحلة في حياة وفكر بديع
 الزمان سعيد النورسي ، ترجمة محمد فاضل ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٥م ،
 ص ٥١ .

وغيرها- إذ يقول رحمه الله : ” أيها المؤمنون إن كنتم تريدون حقاً الحياة العزيزة ، وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان ، فأفيقوا من رقدتكم ، وعودوا إلى رشدكم ، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]. وحصنوا أنفسهم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية.. إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنانيتكم وتحزبكم ، فقوة قليلة جداً تتمكن من أن تذيبكم الذل والهلاك“ (٧٨) فلا بد من الوحدة على أساس ” الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلاً من العنصرية والقومية السلبية ، وهذه الرابطة من شأنها الأُخُوَّة الخالصة ، والسلام والوئام ، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجنبي“ (٧٩).

فالأستاذ النورسي يؤكد في رسائل النور أن الفكر القومي والعنصري معاول هدم حضاري وسبب في سيطرة الآخر على المسلمين فنجده يقول على سبيل المثال : ” لقد انتشر الفكر القومي وترسخ في هذا العصر ، ويثير ظالموا أوربا الماكرون بخاصة هذا الفكر بشكله السلبي في أوساط المسلمين ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم“ (٨٠). لذا فقد قرر الأستاذ النورسي أن الوحدة الإسلامية هي : ” أوجب الفرائض في هذا الوقت“ (٨١) ، ومن ثم فقد كانت الدعوة في رسائل النور إلى نبذ العنصرية والخلافات القومية سعياً لتحقيق الوحدة الإسلامية أو ما أسماه النورسي الاتحاد المحمدي (٨٢) على

(٧٨) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ، النورسي ، الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور ص ٤٦-٤٧ ، النورسي ، من كليات رسائل النور (١٢) ، الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٧٩-٨٠.

(٧٩) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ص ٣٥٩.

(٨٠) النورسي ، الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور ، ص ٢١.

(٨١) النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٩٩.

(٨٢) دعا الأستاذ النورسي إلى الاتحاد المحمدي والرجوع إلى الشريعة ونبذ الخلافات وقد أعلن عن ذلك الاتحاد عام ١٩٠٩ ضمن احتفال مهيب في جامع أيا صوفيا ، المرجع نفسه ، ص ١٠٤ نقلاً عن المترجم ، لمزيد من التفصيل انظر النورسي كليات رسائل النور ، سيرة ذاتية ، إعداد وترجمة إحسان قاسم ، سوزلر للنشر ، إستانبول ، (د.ت) ج ٩ ص ١١٢ وما بعدها.

أساس وحدة الدين إذ يقول رحمه الله : ” إن التوحيد الإلهي هو جهة الوحدة في الاتحاد المحمدي ^(٨٣) ، فبفضل هذه الرابطة المقدسة التي تشد الأمة الإسلامية بعضها ببعض يصبح المسلمون كافة كعشيرة واحدة ، فترتبط طوائف الإسلام برباط الأخوة الإسلامية ، كما يرتبط أفراد العشيرة الواحدة ، ويمد بعضهم بعضاً معنوياً ، وإذا اقتضى الأمر فهادياً وكأن الطوائف الإسلامية تتنظم جميعها كحلقات سلسلة نورانية “ ^(٨٤) وبوحدة الصف المسلم تذوب كل الفوارق ، اللونية واللغوية والطبقية ^(٨٥) والعرقية . والأستاذ النورسي يؤكد أن شجرة طوبى الإسلام قد ترسخت عروقها في صلب الكون وحقيقته ، وبثت جذورها في ثنايا حقائق الكون كله ، فهذه الشجرة العظيمة لا يمكن غرسها في تراب العنصرية الموهومة المؤقتة الجزئية الخصوصية السلبية ، بل التي لا أساس لها أصلاً وهي المشحونة بالأغراض الظالمة المظلمة ^(٨٦) وإن هذا العصر ليس بعصر القومية.. وقد ولي عصر العنصرية. ^(٨٧)

النتائج :

من هذه الدراسة التي ركزت على مشكلة العنصرية سماتها وصفاتها والحلول من خلال رسائل النور توصلت الباحثة إلى نتائج مهمة منها :

- ◆ أن رسائل النور سعت إلى إرساء فقه التوسط والتقعيد له ، لمقابلة الغلو والتطرف والتعصب بكافة أشكاله .
- ◆ الشعور القومي عند الأستاذ النورسي إما إيجابي أو سلبي ، فالإيجابي يقوم على الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف ، أما السلبي فهو الذي ينشأ من

^(٨٣) النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٩٨ .

^(٨٤) النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٥٩ ، النورسي ، الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور ، ترجمة إحسان قاسم . ص ٧ .

^(٨٥) علي الحاج على موسى ، وحدة المسلمين فريضة شرعية وضرورة حيوية ، دار جامعة القرآن الكريم للطباعة ، السودان ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م . ص ٩١ .

^(٨٦) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم . ج ٢ ص ٥٦٦ .

^(٨٧) المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٥٦٦

- الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند، والإسلام يرفض هذا الأخير.
- ◆ أكد الأستاذ النورسي أن العنصرية تعمل على إقصاء الآخرين والاعتداء عليهم إذ تكبر بابتلاعهم ، وتتوسع على حسابهم.
- ◆ قرر النورسي أن الفكر القومي والتمييز العنصري معاول هدم حضاري وسبيل لسيطرة الآخر على المسلمين.
- ◆ يؤكد الأستاذ النورسي أن التباغض والتنافر بين الإسلام وقبائله ، بسبب من الفكر القومي ، هلاك عظيم ، وخطب جسيم ، إذ يفضي إلى جرائم بشعة لم تجد لها البشرية اسماً.
- ◆ تصف رسائل النور العنصرية بأنها اتباع للأنا والشيطان وشرك عظيم فضلاً عن أنها ظالمة لاتعرف الحق والعدل ، وفيها دعوى الجاهلية التي تجاوزها الإسلام.
- ◆ سعيًا وراء حل مشكلة العنصرية والقومية يلفت الأستاذ النورسي النظر إلى أن هنالك روابط ووظائف محددة تجمع بين الناس في كل مجتمع من شأنها إحداث التعاون والتعارف.
- ◆ أعلن الرسول ﷺ المساواة الجامعة وأكد على الكرامة الإنسانية فبات التفاضل والشرف بالتقوى لا بالعرق والجنس واللون.
- ◆ يرى الأستاذ النورسي أن الأخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألوفاً من أنواع الأخوة ولهذا فلا تكون الأخوة القومية مهما كانت إلا ستاراً من أستار الأخوة الإسلامية.
- ◆ يؤكد النورسي أنه لاسبيل لإنقاذ الأمة من الإرهاب والعنف والفوضى والدمار والهوان والذل الذي ينشأ ويتعرع في ظل العنصرية والقومية إلا بالوحدة المنبثقة من حقائق القرآن.
- ◆ يرى الأستاذ النورسي أن الأخوة الإسلامية هي جوهر حياة المسلمين وروحهم ويؤكد أن اتحاد المسلمين هو أوجب الفرائض والواجبات الدينية في هذا العصر.

التوصيات :

- ♦ توصي الباحثة بإجراء المزيد من الدراسات والمؤتمرات للوصول إلى علاج مشكلات الغلو والتطرف بكافة أشكاله سعياً لإرساء قواعد التوسط والاعتدال.

قائمة المراجع :

- (١) القرآن الكريم
- (٢) أحمد : أحمد بن حنبل ، أبو عبد الله الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، ج٦ ، [د.ت.] .
- (٣) البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٦م .
- (٤) البغوي : الحسين بن مسعود البغوي ، شرح السنة ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق - بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .
- (٥) البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
- (٦) حبنكة : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، الحضارة الإسلامية ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٨م .
- (٧) الحميدي : محمد بن فتوح الحميدي ، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، تحقيق : د. علي حسين البواب ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
- (٨) خان : وحيد الدين خان ، الدين الكامل ، الرسالة للإعلام الدولي ، مصر ، ط١ ، ١٩٩٢م .
- (٩) الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ .

- (١٠) أبو داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر ، بيروت .
- (١١) الربيع : الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري ، الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب ، تحقيق : محمد إدريس عاشور بن يوسف ، دار الحكمة ، مكتبة الاستقامة ، بيروت ، سلطنة عمان ، ط ١ ، ١٤١٥هـ .
- (١٢) أبو ربيع ، إبراهيم أبو ربيع ، الإسلام على مفترق الطرق رحلة في حياة وفكر بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة محمد فاضل ، شركة سوزلر للنشر ، ط ١ ، ٢٠٠٥م .
- (١٣) الشريفين : عماد الدين الشريفين ، المؤتمر العالمي التاسع لبديع الزمان النورسي العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية ، ورقه بعنوان : العنصرية والقومية السلبية من خلال كليات رسائل النور ، إستانبول ، ٢٠١٠م .
- (١٤) الطبراني : سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني ، الروض الداني ” المعجم الصغير “ تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أمير ، المكتب الإسلامي ، دار عمار ، بيروت ، عمان ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- (١٥) الطبراني ، المعجم الكبير ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة الزهراء ، الموصل ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .
- (١٦) عودة : عمر عودة الخطيب ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠م .
- (١٧) الغزالي : محمد الغزالي ، خلق المسلم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط ٣ ، ١٩٩٠م .
- (١٨) الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، [د.ن] الطبعة الأولى ، [د.ت.] .
- (١٩) قطب : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢م .
- (٢٠) قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٩٠م .
- (٢١) ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك بن واضح ، مسند الإمام عبد الله بن المبارك ، تحقيق : صبحي البدري السامرائي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ .

- (٢٢) مرحبا : محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربي ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٢م.
- (٢٣) مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت. [د.ت].
- (٢٤) المناوي : زين الدين عبد الرؤوف المناوي ، التيسير بشرح الجامع الصغير ، مكتبة الإمام الشافعي ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- (٢٥) موسى : علي الحاج موسى ، وحدة المسلمين ، فريضة شرعية وضرورة حيوية ، دار جامعة القرآن للطباعة ، السودان ، ط١ ، ٢٠٠٨م.
- (٢٦) النورسي : بديع الزمان سعيد النورسي ، كليات رسائل النور(١) الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، دار النيل للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٨م.
- (٢٧) النورسي ، كليات رسائل النور(٢) المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط١ ، ١٩٩٢م.
- (٢٨) النورسي ، كليات رسائل النور(٣) اللمعات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط١ ، ١٩٩٣م.
- (٢٩) النورسي ، كليات رسائل النور(٤) الشعاعات ، ترجمة : إحسان قاسم ، دار سوزلر للطباعة والنشر ، إستانبول ، ط١ ، ١٩٩٣م.
- (٣٠) النورسي ، كليات رسائل النور(٥) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، تحقيق : إحسان قاسم ، دار سوزلر للطباعة والنشر ، إستانبول ، ط٣ ، ١٩٩٩م.
- (٣١) النورسي ، كليات رسائل النور(٦) المثنوي العربي النوري ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط٤ ، ١٩٩٩م.
- (٣٢) النورسي ، كليات رسائل النور(٧) الملاحق في فقه دعوة النور ، ترجمة : إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط١ ، ١٩٩٥م.
- (٣٣) النورسي ، كليات رسائل النور(٨) صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق ، إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط١ ، ١٩٩٥م.

- (٣٤) النورسي ، كليات رسائل النور(٩) سيرة ذاتية ، إعداد وترجمة ، إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، [د.ت].
- (٣٥) النورسي ، الاتحاد الإسلامي مقتطفات من كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي ، [د.ن][د.ت].
- (٣٦) النورسي ، من كليات رسائل النور(١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠٨ م.
- (٣٧) النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠٠٩ م.
- (٣٨) عبد الواحد : مصطفى عبد الواحد ، المجتمع الإسلامي ، دار الأمل ، الكويت ، [د.ت].
- (٣٩) ابن وهب ، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبو محمد المصري ، الجامع في الحديث ، تحقيق : د. مصطفى حسن حسين أبو الخير ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، ط ١ ، ١٩٩٦ م.
- (٤٠) مواقع على الانترنت
- (٤١) عبد الحميد : محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والقومية ٢ / ٤ / ٢٠١٥ م :
، www.library.islam web.net/new library ummah



دور الإعلام الجديد في التصدي لظاهرة التطرف وتعزيز الوسطية

د. محمد خليفة صديق

أستاذ مساعد، قسم العلوم السياسية، جامعة إفريقيا العالمية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٨٣-٣١٨)

المستخلص :

يستهدف هذا البحث مناقشة مفهوم الإعلام الجديد ومظاهره وتطبيقاته المختلفة ، والتأثيرات الإيجابية والسلبية ومخاطر التعرض له على وعي الأمة بالقضايا الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، والتعرف على بناء المفاهيم حول التطبيقات الإعلامية الجديدة ، وبيان أهمية البعد القيمي والاخلاقي في مناخ الإعلام ، مع مناقشة لأنجع السبل لاستفادة أكبر من الإعلام الرقمي للتصدي لحمى التطرف والإرهاب وماجاورها من غلو وتجاوز وعنف .

خلص البحث لأهمية التعامل العلمي مع ظاهرة التطرف لاجتثاث جذورها من المجتمع المسلم ، بالاستفادة من تقنيات الإعلام الجديد كأداة ممتازة قليلة التكاليف وواسعة الانتشار لخلق حوار مجتمعي حول قضايا المجتمع المسلم وعلى رأسها تنامي ظاهرة التطرف والغلو ، والسعي لاستخدام أمثل للإعلام الجديد في التصدي لموضوع التطرف .

مقدمة :

تعددت التسميات والمصطلحات لمسمى هذا النوع من الإعلام ؛ فهناك من يطلق عليه إعلاماً جديداً ، وهناك من يسميه إعلاماً رقمياً ، وإعلاماً إلكترونياً وعالمياً رقمياً وإعلاماً مندمجاً ومجتمع المعلومات ومجتمع المعرفة ، ويظل القاسم المشترك بين كل ماسبق هو الاستخدام للتكنولوجيا الحديثة كمحرك أساسي لتدفق المعلومات .

والتغير الذي نشهده اليوم في عالم الإعلام يعتمد على استخدام الكمبيوتر في إنتاج وتخزين وتوزيع المعلومات والتسلية وغيرها ، وخاصة توفير مصادر المعلومات والتسلية لعموم الناس بشكل ميسر وبأسعار منخفضة هي في الواقع خاصية مشتركة بين الإعلامين القديم والجديد ، ولكن الإعلام الجديد قادر على إضافة خاصية جديدة لا يوفرها الإعلام القديم وهي التفاعل [Interactivity] وهي قدرة وسيلة الاتصال الجديدة على الاستجابة لحديث المستخدم ؛ تماماً كما يحدث في عملية المحادثة بين شخصين.^(١)

^(١) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد.. دراسة في تحولاته التكنولوجية وخصائصه العامة ، دراسة منشورة على الرابط : <http://www.jadeedmedia.com/>

شهدت بداية التسعينيات مرحلة نهاية مركزية الإعلام ؛ فمع انطلاق الفضائيات وانتشار الإنترنت وتراجع أسعار أجهزة استقبال المحطات الفضائية وأجهزة الكمبيوتر ، وتزايد قدرات شبكات الاتصال الرقمية ، تغير وجه الإعلام بشكل كبير ، وقبل أن تنتهي التسعينيات كان احتكار المعلومة قد انتهى عملياً ، وتفتت قدرة الإعلام القديم على إبقاء قبضته ممسكة بالخبر والمعلومة.^(٧)

سيوضح مفهوم الإعلام الجديد ومظاهره وتطبيقاته المختلفة ، ومن ثم يتعرف على انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد على تنمية وعي الأمة بالقضايا الدينية والاجتماعية والسياسية بالتركيز على مدى حصانة مجموع الأمة ضد أفكار التطرف والغلو .

كما سيناقدش البحث دور التعرض لتكنولوجيا الإعلام الجديد في التصدي للأفكار الدخيلة ، والتعرف على الفرص المتزايدة التي يوفرها الإعلام الجديد من خلال ما يمثله من مصدر مهم لتنمية المعارف الفردية حول القضايا موضوع الحوار والنقاش والجدل السياسي داخل المجتمع بما في ذلك قضايا التطرف والغلو .

ويسعى البحث للتعرف على مدى قدرة الإعلام الجديد في زيادة الوعي لعمليات المشاركة المجتمعية وانتشار المعرفة ، ومدى استخدام حملة فكر التطرف لوسائل الإعلام الجديد كساحة بديلة للعمل الاستقطابي لأفكارهم من خلال تشكيل المنتديات والمواقع الفكرية الافتراضية والتغلب على القيود السياسية والقانونية المفروضة على بث الأفكار المنحرفة من خلال استخدام مداخل نظرية جديدة تتناسب مع طبيعة الإعلام الجديد التي تتمثل في مداخل التفاعلية ، والمشاركة ، و ثراء المعلومات .

الإطار المنهجي :

تستند هذه الدراسة إلى مدخلين نظريين الأول : نظرية ثراء وسائل الإعلام Media Richness Theory التي تستخدم لدراسة معايير الاختيار بين الوسائل الإعلامية والتكنولوجية وفقاً لدرجة ثرائها المعلوماتي ، وتوضح نظرية ثراء وسائل الإعلام أن فعالية

^(٧) هيثم الزبيدي ، محاضرة بعنوان : الإعلام القديم ، الإعلام الجديد وتحدي الإعلام البديل ، نشرت بصحيفة المتوسط ، ص : ١٦ ، بتاريخ : ١٤ / ٣ / ٢٠٠٩م .

الاتصال تعتمد على القدر الذي تستخدم به الوسيلة ، وتركز النظرية بشكل أكبر على الأشكال التفاعلية للاتصال في اتجاهين بين القائم بالاتصال والجمهور المستقبل للرسالة^(٣) ، وطبقاً لنظرية ثراء وسائل الإعلام فإن الوسائل الإعلامية التي توفر رجوع صدي تكون أكثر ثراء^(٤) ، فكلما قل الغموض كان الاتصال الفعال أكثر حدوثاً وتنظر النظرية لوسائل إعلامية مثل الصحف والإذاعة ، والتلفزيون على أنها فقيرة لأنها لا تسمح برجوع صدي سريع ومباشر ، كما تفترض النظرية أن وسائل الإعلام لديها القدرة على حل الغموض الذي يواجه الجمهور وتقديم تفسيرات متنوعة وتسهيل عملية الفهم على الجمهور المستقبل للرسالة ، فثراء المعلومات هو العملية التي تقوم فيها المعلومات بتخفيض درجة الغموض ، وإيجاد مساحة من المعاني المشتركة باستخدام وسيلة اتصالية معينة ، ولذا فإن مصطلح ثراء الوسيلة هو الأداة الفعلية التي يمكن من خلالها قياس ثراء المعلومة.^(٥)

تفرق نظرية ثراء وسائل الإعلام بين الوسائل الأقل ثراء والأكثر ثراء من خلال عدد المواقف المتاحة في الوسيلة ، ويفترض هذا المدخل أن الاتصال الجديد عبر الكمبيوتر هو وسيلة ثرية فهو مفيد للرسالة البسيطة وغير البسيطة وهو أكثر دقة بسبب وظائف العرض والجمهور والتفاعلية التي تعد ضرورية للمستقبل لكي يفهم المعلومات التي تكون غير واضحة أو غامضة أو عاطفية فإنه يجب استخدام وسيلة أكثر ثراء.

وقد افترض **Daft & Lengel** أن وسائل الاتصال تمتلك العديد من القدرات والإمكانات لتوصيل المعلومات والمعارف لمستخدميها وبالتالي تساعد في حل مشكلات

(٣) Alan R. Dennis , susan T. Kinney , Testing Media richness theory, in : The New Media : The Effects of cues, Feed back, and task Equivocally , Information systems research, vol ,9.No,3, pp.257-259.

(٤) هيثم الزبيدي ، محاضرة بعنوان : الإعلام القديم ، الإعلام الجديد وتحدي الإعلام البديل ، نشرت بصحيفة المتوسط ، ص : ١٦ ، بتاريخ : ١٤ / ٣ / ٢٠٠٩ م.

(٥) L. R. Daft, and H. R. lengel, organizational Information requirements, media richness and structural Design, management sci, 32, NO, 5,1986, pp 554-571.

في : عيسى عبد الباقي موسى . ، انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد ، مرجع سابق ، ص : ٣.

الغموض وتمكين مستخدميها من الوصول لحلول للخلافات في الرأي وتسهيل التفاهم بين الناس.^(٧)

تفترض نظرية ثراء وسائل الإعلام فرضين أساسيين هما :
الفرض الأول : أن الوسائل الإعلامية والتكنولوجية تمتلك قدراً كبيراً من البيانات والمعلومات بالإضافة إلى تنوع المضمون المقدم من خلالها وبالتالي تستطيع هذه الوسائل التغلب على الغموض والشك الذي ينتاب الكثير من الأفراد عند التعرض لها.

الفرض الثاني : هناك أربعة معايير أساسية لترتيب ثراء الوسيلة الإعلامية مرتبة من الأعلى إلى الأقل من حيث درجة الثراء الإعلامي وهي : سرعة رد الفعل ، قدرتها على نقل الإشارات المختلفة باستخدام تقنيات تكنولوجية حديثة مثل الوسائط المتعددة ، التركيز الشخصي على الوسيلة ، واستخدام اللغة الطبيعية ، واستفاد الباحث من تطبيق هذه النظرية في مجال الدراسة لتفسير مدى ثراء الإعلام الجديد بالمعلومات والمعارف التي تفيد بدورها في زيادة وتنمية مستوى الوعي والمعرفة للمواطنين حيث تهدف الدراسة إلى اختبار دور الإعلام الجديد عبر شبكة الإنترنت والوسائط الأخرى على تنمية وعي المواطن بالقضايا ذات الصلة بالتطرف والعنف.

أما النظرية الثانية فهي نظرية الشأن العام **Public Sphere** التي وضعها^(٨) **Habermas** عام ١٩٨٩ ، حيث عرّف الشأن العام بأنه مساحة للحياة الاجتماعية التي تضم عدداً من الأفراد تجمعهم خصائص واهتمامات مشتركة ، ويمنح الشأن العام لكل الأفراد فرصة القدرة على المشاركة والوصول إليه طالما شعروا أنهم جزء منه ، حيث يرى **Habermas** أن الشأن العام هو شبكة اتصالية من الشبكات القائمة في المجتمعات المدنية

(٧) M.EL-Shinnawy, and Mark us, M ,Media Richness Theory and New Communication Media : A study of Voice mail and Electronic mail, proc. international conf. on Information systems, Dallas tx , 1992-pp91-105

(٨) J. Habermes, the public sphere, in c. Mukerji and schudson. M (eds) Retching popular culture : contemporary perspectives in cultural studies , 1991, pp.398-404 .

ترتبط ارتباطاً عميقاً بالحياة العامة أو الخبرات اليومية للأفراد ، ويتحقق مفهوم الشأن العام عندما يتوجه الأفراد نحو ممارسة حقهم في المجتمع والاتصال والاشتراك في مناقشة قضاياهم العامة.

وتفترض نظرية الشأن العام أربع سمات رئيسية تميز الاتصال عبر ما أطلق عليه Habermas الشأن العام وهي : القدرة على الوصول إلى دائرة الاتصال ، والحرية التي يتمتع بها الأفراد في الاتصال داخل هذه الدائرة ، وبنية المناقشة ، وطرح خطاب مبرر بأدلة إقناعية محددة ، وقد وظف الباحث هذه النظرية في الدراسة الراهنة نظراً للسمات التفاعلية لوسائل الإعلام الجديد التي يمكن أن تقود إلى مزيد من حيوية المجتمع من خلال إمكانية الوصول غير المحدد للمعلومات والمشاركة المتساوية في المناقشات.

أهمية الدراسة :

تتمثل أهمية الدراسة في عدة اعتبارات منها :

- (١) التعرف على مجمل الإعلام الجديد ودوره في تعميق درجة الوعي العام للمواطن في التعرف على الأفكار المختلفة ، حيث تدل التجربة على وجود علاقة بين مستوى معرفة الأفراد ومعدل المشاركة في التعامل الصحيح مع الموضوع المطروح ، ومن ثم فإن دراسة تنمية الوعي العام للأفراد وتحديد العوامل المؤثرة فيه والمحددة له هي أولى خطوات تفعيل المشاركة المجتمعية في التصدي للتطرف والإرهاب غير المنضبط.
- (٢) التعرف بدقة على طبيعة التفاعل الاجتماعي والعلمي في وسائل الإعلام الجديد ، في ظل ما تشير إليه بعض الدراسات من أن مواطني المنطقة العربية ليس لديهم الوعي العلمي والفكري الكافي للتصدي للأفكار المستوردة والغريبة.
- (٣) قلة الدراسات التي تعرضت لأثر الاتصال التفاعلي من خلال وسائل الإعلام الجديد على درجة تنمية الوعي العام للمواطنين في المنطقة العربية.
- (٤) تناول أبعاد جديدة لتكنولوجيا الإعلام الجديد تتمثل في الاتصال التفاعلي عبر الإنترنت وغيره والتعرف على رؤى جمهور المستخدمين له ومجالات استخدامه وانعكاساته على تنمية الوعي القادر على التصدي للأطروحات المنحرفة.

الإجراءات المنهجية للدراسة :

(أ) نوع الدراسة : هذه الدراسة تنتمي لفئة الدراسات الوصفية التحليلية التي تستهدف وصف المواقف أو الظواهر والأحداث وجمع الحقائق الدقيقة عنها ، بهدف تحديدها تحديداً دقيقاً ، ورسم صورة متكاملة لها تتسم بالواقعية والشمولية بما يساعد على التعرف بدقة على دور وسائل الإعلام الجديد في تنمية وعي المواطنين وتعميق معارفهم تجاه موضوع الارهاب والتطرف وتوابعه.

(ب) منهج الدراسة : اعتمدت الدراسة بشكل رئيسي على منهج المسح ، والمنهج الوصفي والتحليلي لاكتشاف المشكلات وجمع ما يتاح من بيانات عن موضوع الدراسة لتحليلها وتحديد أبعادها التي تسهم في التعرف على دور وسائل الإعلام الجديد في التصدي لموضوع التطرف والغلو.

مصطلحات الدراسة :

الوسطية نعني بها : ” حالة محمودة تعصم الفرد من الميل إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط “ ، أو ” هي التوازن والتعادل بين الطرفين “ ، بحيث لا يطغى طرف على آخر ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير ، وإنما اتباع للأفضل في كل شيء . كما يعبر عنها أيضاً بـ التوازن ، الذي يعطي كل ذي حق حقه دون شطط كالأطراف المتقابلة مثلاً أو المتضادة : الروحية والمادية ، والفردية والجماعية ، والواقعية والمثالية ، والثبات والتغير ، وما شابهها ، ومعنى التوازن بينهما : أن يفسح لكل طرف منهما مجاله ، ويعطي حقه بالقسط أو بالقسطاس المستقيم .

التطرف : يعرف القاموس الفلسفي التطرف بأنه : ” اندفاع غير متوازن إلى التحمس المطلق لفكر واحد يصبح معه صاحبه أحادي الشعور ، وفي حالة اضطراب نفسي يُفقد حاسة التمييز بين الحسن والأحسن ، والسيئ والأسوأ “ .

الإعلام الجديد : يشير مفهوم الإعلام الجديد New media بحسب د. مارتن ليستر Lester إلى مجموعة تكنولوجيات الاتصال التي تولدت من التزاوج بين الكمبيوتر

والوسائل التقليدية للإعلام ، الطباعة والتصوير الفوتوغرافي والصوت والفيديو.^(٨) ويُعرفه آخرون بأنه : المعلومات والوسائط التي تنتقل إلكترونياً باستعمال الإنترنت أو إحدى خدماته.^(٩)

الإعلام الجديد .. مدخل نظري :

ظهر مصطلح الإعلام الجديد New media ليشير إلى المحتوى الإعلامي الذي يبث أو ينشر عبر الوسائل الإعلامية التي يصعب إدراجها تحت أي من مجموعة وسائل الإعلام التقليدية Traditional Media كالصحافة والراديو والتلفزيون ، وذلك بفعل التطور التكنولوجي الكبير في إنتاج وتوزيع المضامين الإعلامية.^(١٠)

و”الجدّة” المشار إليها في التعريف السابق التي يتسم بها هذا النمط من الإعلام هي جِدّة نسبية ، بمعنى أن ما يكون جديداً اليوم قد لا يكون جديداً في الغد ، أو أن ما نراه غير جديد اليوم كان جديداً بالأمس. ولذا فإن بعض منظري مفهوم الإعلام الجديد مثل جيتلمان وبنجري قد أصلاً لظهور الإعلام الجديد ابتداءً من ظهور التلغراف عام ١٧٤٠م ، وبنا فكرتهما على مبدأ الحالة الانتقالية للإعلام.

فهذا المفهوم بالرغم من دقة وصفه بالجدّة إلا أن هناك خلافاً لفظياً ولغوياً على مدلولاته ، وهذا لا ينفي أن هناك واقعاً جديداً للإعلام ظهرت فيه أشكال متعددة من الرسائل الاتصالية والوسائل الإعلامية التي تختلف تماماً عن مرحلة ما قبل الانتشار الجماهيري لشبكة المعلومات الدولية ”الإنترنت“ . في حين يرى أ.د يوسف بن رمضان أن الاتصال الجديد يمكن تعريفه على أنه يتجسّم في نمط اتصالي حديث يختلف أو يتجاوز نمط الاتصال التقليدي البسيط أو المبسّط بين مرسل ومتقبّل ، يتميز بقنوات متعدّدة يشارك فيها

(٨) د.رضا عبد الواحد أمين ، استخدامات الشباب الجامعي لموقع يوتيوب على شبكة الإنترنت ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٥١٢ .

(٩) عبد القادر بن خالد ، الإعلام الجديد.. مرحلة جديدة من التنافس ، مادة عرض تقديمي موجودة على الرابط : www.aek-b.com .

(١٠) رضا عبد الواحد أمين ، استخدامات الشباب الجامعي لموقع يوتيوب على شبكة الإنترنت ، مرجع سابق ، ص : ٥١٦-٥١٧ .

الفاعلون الاجتماعيون في كل لحظة ، سواء بصفة إرادية أو بصفة غير إرادية وذلك عبر تعبيرات وردود فعل ومواقف وسلوك.^(١١)

تُعرف كلية شريديان الجامعية الإعلام الجديد بأنه : كل أنواع الإعلام الرقمي الذي يقدم في شكل رقمي وتفاعلي. ويقرن آخرون مفهوم الإعلام الجديد باستخدام الحواسيب والوسائط الرقمية المتعددة في الاتصال ، مما يؤكد ضرورة الاهتمام بالمستحدثات الرقمية وخصائصها وتأثيراتها باعتبارها التطور المعاصر والحديث لتكنولوجيا الاتصال ، ومن هنا يمكن تعريف الاتصال الرقمي بأنه تلك العملية التي يتم فيها الاتصال من بعد بين أطراف يتبادلون الأدوار في بث الرسائل الاتصالية واستقبالها من خلال النظم الرقمية ووسائلها لتحقيق أهداف معينة ، وتعد الشبكة العالمية للمعلومات ” الإنترنت “ من أبرز النماذج المتطورة للاتصال ذي التأثير القوي والأبعاد الممتدة ، فهي تتجاوز الحدود الجغرافية وتتسم بالعالمية أو الكونية وسقوط الحواجز الثقافية بين أطراف عملية الاتصال ، وإذا كانت مفاهيم السينما العالمية والصحف الدولية والبث الفضائي عبر الأقمار الصناعية قد سادت لفترات طويلة ، فإن شبكة الإنترنت تعمل الآن كوسيط بين هذه الوسائل وتسهم في تجاوز الحدود والحواجز الثقافية بين هذه الشعوب.^(١٢)

أطلق البعض على الإعلام الجديد مصطلح الإعلام التكميلي حيث يرون أنه يكمل الإعلام التقليدي ، فقد تعاقبت وسائل الإعلام من حيث الظهور ، فمثلت الصحافة أولى وسائل الإعلام ظهوراً ثم الإذاعة ثم التلفزيون وأخيراً الإنترنت ، إلا أن الواقع شهد على أنه لا توجد وسيلة إعلامية لديها القدرة على القضاء نهائياً على وسيلة أخرى مماثلة سبقتها.^(١٣) غير أن الإعلام الجديد يتميز بالعالمية بخلاف نظيره القديم حيث يمكن الكتابة في شأن محلي

^(١١) يوسف بن رمضان ، الاتصال الجديد والديناميات الثقافية في المجتمعات المعاصرة ، في أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٣٣١.

^(١٢) عبد المحسن بدوي ، مشكلات الإعلام الجديد ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٨٥.

^(١٣) روبي جراد ، الإعلام الجديد.. قوة الانتشار وضعف المصادقية ، شبكة الشاهد الدولي : <http://arabic.alshahid.net/columnists/6348>

وفي الوقت ذاته يتابعها الجميع في أنحاء العالم ، والمواد الإعلامية في عالم الإعلام الجديد لا تعترف بفكرة الممنوع ولا القوانين والضوابط ولا الموائيق الأخلاقية ، وتلك من بعض سلبياته.

يمكن تقسيم الإعلام الجديد إلى أربعة أقسام هي: ^(١٤)

- (١) الإعلام الجديد القائم على شبكة الإنترنت وتطبيقاتها.
- (٢) الإعلام الجديد القائم على الأجهزة المحمولة ، بما في ذلك أجهزة قراءة الكتب والصحف.
- (٣) نوع على منصة الوسائل التقليدية مثل الراديو والتلفزيون التي أضيفت إليها ميزات جديدة مثل التفاعلية والرقمية والاستجابة للطلب.
- (د) الإعلام الجديد القائم على منصة الكمبيوتر ويشمل العروض البصرية وألعاب الفيديو والكتب الإلكترونية وغيرها.

بالرغم من صعوبة الاتفاق على تحديد مفهوم واضح المعالم للإعلام الجديد بسبب حالته الديناميكية المتغيرة والمتطورة بشكل مستمر ، إلا أن الحقيقة المؤكدة أن كثيراً من الأشكال الإعلامية والأنماط الاتصالية الجديدة بدأت تفرض نفسها في الواقع الإعلامي ، وتستقطب أعداداً متزايدة من مستخدمي الوسيط الاتصالي الجديد ”شبكة الإنترنت“ التي قامت بدمج الوسائل الاتصالية المختلفة القديمة والمستحدثة في مكان واحد ، وغيرت كثيراً من المفاهيم الإعلامية التي استقرت لسنوات طويلة عند الباحثين والأكاديميين ، كما أدت إلى تغير الأدوار التي تقوم بها عناصر العملية الاتصالية ، كالقائم بالاتصال والمتلقي والرسالة والوسيلة ورجع الصدى.

لم تكتف الوسيلة الإعلامية الجديدة بالسماح لكل من المرسل والمستقبل بتبادل أدوار العملية الاتصالية ، ولكنها أحدثت ثورة نوعية في المحتوى الاتصالي المتنوع ، من نصوص إلى صور ، وملفات صوتية ، ولقطات فيديو مصورة ، وانتشرت الأخيرة خلال العامين الماضيين بشكل يستوجب الوقوف أمام الموقف الاتصالي لتدبر أبعاده ودراسة تأثيراته ، فقد انتشرت

^(١٤) عباس مصطفي صادق ، الإعلام الجديد دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة ، ورقة منشورة على موقع البوابة العربية لعلوم الاتصال ، ص : ٦-٧.

المواقع التي تتيح للمستخدمين تحميل ملفات فيديو شخصية أو عامة بضوابط معينة ليراها الجميع في أنحاء المعمورة ، حيث تحول المستخدم إلى منتج إعلامي بفضل التقنيات الاتصالية الجديدة مثل كاميرات الهاتف النقال وغيرها ينتج ويبث ما يريد على الإنترنت ، وقد لاحظ الباحث إقبال الشباب على هذه النوعية من الأشكال الاتصالية المستحدثة بصورة كبيرة .

ساهمت الفضائيات والإنترنت في خلق أطياف أخرى وفرص مهمة لمعرفة الحقائق عن قرب والتعرف على حياة الشعوب وساهمت في تنمية وعي الأفراد والمجتمعات وأطلعت الناس على عوالم لم يكن من الممكن الاطلاع عليها لولا هذا الإعلام الجديد وهذه الثورة التكنولوجية المعاصرة .

يمكن القول إن الإعلام الجديد ، أو البديل ولد من رحم الثورة التقنية التي حدثت في عالم الاتصال ، جراء الاندماج الحاصل بين تقنية الحاسوب من ناحية ؛ والأقمار الاصطناعية من ناحية أخرى ، مما أدى إلى إتاحة قنوات اتصالية غير تقليدية ، وتوفير فرص اتصالية متنوعة ، وبدائل تواصلية غير مسبوقة ، ومن ثم فنحن اليوم نعيش عصرًا اتصاليًا جديدًا ، يُمكن Empowering الفرد من ممارسة الاتصال بوسائله وأشكاله المختلفة .

مميزات الإعلام الجديد :

من الواضح أن استخدام تكنولوجيا الاتصال الجديدة سيقود لتحويلات اجتماعية عميقة في المجتمع ، مع ما يعنيه ذلك من كسر احتكار الفئة المتحكمة بالمعلومات مقابل أن تصبح المعرفة شائعة يملكها أكبر عدد من أفراد المجتمع . ويتميز عصرنا الحالي على عصور الاتصال السابقة بتطوير تقانة اتصال متفردة : فهي رقمية [Digital] ، وتبادلية [Interactive] ومرتبطة ببعضها كربط الكاميرا بالقمر الصناعي بالحاسوب ، مما يمكن من عقد مؤتمر عن بعد [Video-conferencing] . ومن هنا فإن تأثيرها على المجتمعات العربية سيكون أقوى.^(١٥)

^(١٥) عصام الموسى ، العرب وثورة الاتصال المعاصرة ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٦٩ .

تبارى علماء الاتصال في تحديد مميزات خاصة للإعلام الجديد من هؤلاء فين كروسبي Vin Crosbie الذي يرى أن الإعلام الجديد يتميز بالآتي:^(١٦)

- ◆ الرسائل الفردية يمكن أن تصل في وقت واحد إلى عدد غير محدود من البشر.
- ◆ كل واحد من هؤلاء البشر لديه نفس درجة السيطرة ونفس درجة الإسهام المتبادل في هذه الرسالة.

يضع البعض للإعلام الجديد مجموعة من الميزات التي يرى أنه يتمتع بها في مقابل الإعلام القديم مثل درجة الآنية **Immediacy** وهي حالة تفيد في مجال الشفافية المطلوبة للإعلام ، ونلاحظها في النقل المباشر للوقائع من موقع الحدث لحظة وقوع الحدث ، وكذلك من الميزات الشعبية **Hypermediacy** في وسائط الاعلام الجديد.

من الغريب أن معظم التنظير حول الإعلام الجديد نشأ في المراحل الأولى في مجال لا ينتمي إلى الوسط الإعلامي ، ومعظم من بادر بوضع أسسه الفكرية والتكنولوجية هم متخصصون في مجالات بعيدة كل البعد عن الإعلام منذ أن نشر فانفر بوش **Vannevar Bush** مقالته الشهيرة في عام ١٩٤٥ م بعنوان ” كما يجب أن نفكر “ التي جسدت فيها أفكاره الأولى حول علاقة عقولنا بالآلة الهندسية ، وهي الأفكار التي مهدت لظهور شبكة الويب فيما بعد ، مروراً بالدور الذي لعبته رؤى جي سي آر ليكليدر **J. C. R. Licklider** التي أطلق عليها **Man-Computer Symbiosis** في عام ١٩٦٠ التي قادت إلى تطوير أسس فكرة التفاعلية بين الإنسان والكمبيوتر ، وهو التفاعل الذي أنتج حالة الإعلام الجديد التي نعيشها الآن.

يرى البعض أن تكنولوجيا الإعلام الجديد تتميز بمميزات ثلاث هي : التفاعلية وهي الميزة التي تعطي للمشاركين دوراً مؤثراً في عملية الاتصال ، بحيث يتبادل المستقبل دوره مع المرسل ويستطيع المشاركة الإيجابية في الاتصال ، والسمة الثانية هي تفتيت الجماهير أو اللاجماهيرية حيث يمكن للمشاركة أو الفرد الحصول على رسالة خاصة غير جماهيرية أو مميزة عبر الوسيلة الاتصالية ، مثلما يحدث في عملية الاتصال الشخصي ، أما السمة الثالثة والاحيرة

(١٦) Crosbie ,Vin, (1998) . What is New Media?
www.digitaldeliverance.com/philosophydefinitiondefinition.Html
Accessed July. 2006.

فهي اللاتزامنية بمعنى أن عملية الاتصال تتم في وقت مناسب للفرد مثل رسالة الفاكس أو البريد الإلكتروني حيث لا تتطلب من الفرد أن ينتظرها بل تأتي إليه في أي وقت ويطلع عليها عندما يصل إلى مقره.

تُعد التفاعلية **Interactivity** هي أبرز ميزات الإعلام الجديد لقدرتها على تحقيق التفاعل مع الجمهور وتوفير رجوع صدى فوري مباشر وأداة للتفاعل الفعلي بين المرسل والمتلقي وبين المستخدم والمضمون ، وهي تمثل التفاعل القائم على أساس تبادل الرسائل أو التغذية العكسية ، **Feedback** وهي عنصر أساسي من عناصر الاتصال المؤثر **Effective Communication** والتفاعلية يراد بها ، من جهة التفاعل بين المصدر أو المرسل وبين المستقبل ، ومن جهة أخرى ، التفاعل بين المستخدمين أو الجمهور نفسه ، سواء تم ذلك بواسطة المصدر ومشاركته أو بدونه.^(١٧)

التفاعلية في الجغرافيا الجديدة للإعلام والاتصال لا تتحقق بين مرسل ومتلقي كما وصفها فينير في الخمسينيات من القرن الماضي ضمن دراسات رجوع الصدى في بعده الفيزيائي والهندسي ، أو كما أوضحها روبر أسكريت في نقده للنماذج الخطية للاتصال ، فالتفاعلية اليوم تتمثل في الدور الذي تحوّل المتلقي بمقتضاه إلى فاعل في ”وضع الأجندة“ وإنتاج المحتوى.^(١٨)

هناك عدة عوامل مؤثرة في عملية التفاعل مع وسائط الإعلام الجديد منها:^(١٩)

البعد الديني والوطني وهو يلعب دوراً مهماً في تلقي المعلومة سواء للاستهلاك أو التفاعل ، فالبعد الإسلامي مثلاً يلعب دوراً مهماً في التفاعل والاستهلاك حيث نلاحظ الاهتمام بقضايا القدس وفلسطين وقضايا المسلمين في مناطق الأقليات في أوروبا وآسيا

^(١٧) جاسم محمد الشيخ جابر ، الصحافة الإلكترونية العربية ، المعايير الفنية والمهنية ” دراسة تحليلية لعينة من الصحف الإلكترونية العربية “ في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٣٩٧.

^(١٨) عبد الله الزين الحيدري ، الاعلام الجديد النظام والفضوى ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ١٣١.

^(١٩) ساعد ساعد ، الشباب العربي والمضامين الإعلامية الإخبارية بين الاستهلاك والتفاعل ، ورقة قدمت في مؤتمر الشباب والاتصال والميديا بتونس ، ٣١-١٦ إبريل ٢٠١٠م.

وغيرها ، وكذا المنافسات الرياضية حين يكون المشارك مسلماً أو عربياً ، وهناك بُعد الوسيلة والفاعل حيث أن وسائل الإعلام المكتوبة من خلال مواقعها الالكترونية فتحت فضاءات كبيرة للتواصل مع الغير ، بجانب بُعد الآنية والحداثة في التواصل والتفاعل والاستهلاك الإعلامي ، فكلما كان الصحفي حديثاً في معلوماته كان التواصل معه أكبر .

القدرة على التفاعل لا تقتصر على الإنترنت ، بل سعت الفضائيات لتحقيق ذلك عبر حضور المواقع الإلكترونية المصاحب لهذه الفضائيات ، حيث نجد أن لكل قناة موقعاً إلكترونياً يحقق لها نمطاً من التواصل التفاعلي مع الجمهور ، كإبداء الآراء وتبادل الأفكار وتقديم الاقتراحات بخصوص المضامين الإعلامية التي يقع بثها ، والانخراط في سبر الآراء والمسابقات . كما نلاحظ وجود حزمة من الخدمات التفاعلية في مستوى ما يعرف بالتلفزيون الرقمي الأرضي ، وتمثل هذه الخدمات في إمكانية القيام بالحجوزات المختلفة ، والحصول على أخبار البورصة والطقس والأخبار المتعلقة بأنشطة المؤسسات الخدمية والترفيهية . وهناك أيضاً التلفزيون التفاعلي الذي حقق حداثاً بارزاً من التفاعلية النشطة بين الباث والمتلقي إذ أتاح للمتلقي إمكانية تحديد البرنامج الذي يرغب في متابعته ، وإمكانية التحوار مع المنشط أو المشرف على الإنتاج ، وكذلك إمكانية القيام بعمليات تجارية مثل البيع والشراء ، وإمكانية التصويت وإبداء الرأي.^(٢٠)

الصحافة الإلكترونية كمظهر من مظاهر الإعلام الجديد لها تميزها عن الصحافة التقليدية ، ويظهر ذلك من خلال عاملين رئيسيين:^(٢١)

الأول : الجمهور الذي يفضل الإنترنت على سواه من الوسائل الإعلامية الأخرى ، يتوقع من هذه الوسيلة ان تزودهم بالسرعة في ملاحقة الأخبار والمعلومات ، بالاضافة إلى العمق و التناسل [Breadth] ، وبذلك تكون الترابطية النصية قد جمعت ما بين السرعة والعمق والترابط ، وهذه ميزة تفضيلية .

الثاني : وهو أن الترابطية النصية ، تمثل شكلاً من أشكال التفاعلية ، وعلى الرغم من أن البعض يعتبرها الشكل الابتدائي والمتدني من أشكال التفاعلية ، إلا أنها في النهاية تحقق

^(٢٠) عبد الله الزين الحيدري ، الاعلام الجديد النظام والفوضى ، مرجع سابق ، ص : ١٣٤ .

^(٢١) المرجع السابق ، ص : ١٣٤ .

تفاعلاً بين مصدر أو منتج الخبر و بين مستهلكيه ، الذي يصبح مشاركاً فيه ، لأنه ومن خلال إنتقاله إلى معلومات أخرى سواء داخل الصحيفة ذاتها أو في مواقع أخرى يكون قد أضاف معلومات أخرى إليه.

التطبيقات السلبية والإيجابية للتعرض للإعلام الجديد :

رغم التخوف الذى يديه بعض الباحثين من تأثير سالب لثورة الاتصال إلا أن هناك من يدافع ويؤيد التعاطي الإيجابي معها ، حيث يرون أن آثار ثورة الاتصال تفيد في الانفتاح الذي يؤدي إلى اكتشاف نقاط الضعف والخلل في بنية العلاقات المتبادلة بين الشعوب والأمم والحضارات والثقافات المختلفة ونقد البنية الداخلية للثقافة السائدة وفرز عناصرها المتكلسة غير القادرة على التجديد ، بل إن الإعلام الجديد بآلياته وإمكانياته جعل المعلومات متاحة بسرعة الضوء وتمكنت شعوب العالم من الاطلاع على ما يدور في مناطق النزاع الغارقة في التعتيم مثل غزة الفلسطينية وما فيها من مذابح ودمار وخراب هز ضمير العالم وجعله يخرج في تظاهرات مستمرة كرد فعل لما يتعرض له الشعب الفلسطيني^(٢٣) ، ولكن يظل القول إن الإعلام الجديد والإنترنت على وجه الخصوص لا يستطيع أن يخلق حركة جماهيرية ولكنه يساعد على دفعها وتفعيلها.

أحدثت ثورة الاتصال التي حدثت في العالم الكثير من النتائج ، وأبرزت وسائل إعلامية جديدة وكثيرة تتسارع نتائجها وآثارها ، في حين أن العرب والمسلمين تزداد مشكلاتهم الداخلية ومشكلاتهم مع العالم الخارجي ، وأصبحت توجه لهم الاتهامات بالإرهاب تارة ، وتُنعت ثقافتهم بالعنف وعدم قبول الآخر تارة أخرى ، بل يتم اتهامهم باتهامات كثيرة ويُتعدى على حقوقهم ، ويظل المعتدي حراً طليقاً مبرئاً من كل تهمة أو جريمة لقدرته وإمكاناته للاتصال بالعالم الخارجي وتوضيح وجهة نظره وإصاق التهم بالآخرين.^(٢٤)

^(٢٣) فؤاد البكري ، الهوية الثقافية العربية في ظل ثورة الاتصال ، الهوية الثقافية العربية في ظل ثورة الاتصال ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٣٨٢ .
^(٢٤) المرجع السابق ، ص : ٣٧٤ .

من الواضح أننا نعيش اليوم عصر الإعلام الجديد وهو إعلام بلا حدود سياسية أو قومية أو دينية أو ثقافية ويستطيع العالم بمختلف شعوبه التقاط البرامج والأحداث والأخبار وكل ما يرغب فيه أصحاب الأطباق التي انتشرت فوق الأسطح العربية ومستخدمي شبكة الإنترنت ، وبطبيعة الحال فإن الدول المتقدمة وأباطرة الصحافة وأصحاب المليارات هم المتحكم الرئيس فيما يتم بثه ونشره أو تعديله أو إعادة صياغته ، بل إن المزج بين الخيال والواقع أصبح متاحاً أكثر من أي وقت مضى وانتشر الإعلان العالمي لكي يروج للسلع والأفكار والأذواق ويصبح واقعاً حقيقياً من كثرة ترديده.^(٢٤)

من أبرز ما أفرزته ثورة الإعلام الجديد مشكلات التعدي على خصوصية الفرد ؛ والخصوصية هي : ” صيانة الحياة الشخصية والعائلية للإنسان بعيداً عن الانكشاف أو المفاجأة بغير الرضا “^(٢٥) ؛ ففي ظل العولمة وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات أصبحت المجتمعات الإنسانية الحديثة تعيش بدون حواجز مانعة للخصوصية وأصبح من الصعب جداً إخفاء المعلومات أو التعتيم عليها ، وتم إلغاء قيود الزمان والمكان ، مما كان له أثر ملموس على الحق في الخصوصية.

وظائف ومظاهر الإعلام الجديد :

على المستوى العام يمكن لهذا النوع من الإعلام أن يقوم بعدة وظائف منها : أنه يعد من الطرق الفعالة لنقل السياسات والتصورات ، وكذلك هو فرصة لتحريك الشعوب نحو الغايات الكبرى في التنمية والرفاه ، إلى جانب أنه يساهم في زيادة المشاركة السياسية ، ومعرفة رد الفعل المباشر تجاه الحملات الانتخابية والحملات المشابهة التي تقوم بها الدولة مثل حملات التعداد السكاني وغيرها ، كما أن الإعلام الجديد يساعد في نقل المعلومات بسرعة أكبر ، وتوجيه الحركات المجتمعية.

تشير معظم المؤشرات إلى أن مجال الإعلام الجديد سيكون المجال الأكثر جاذبية خلال السنوات القادمة للدخوليين الجدد لحقل الإعلام ، ومع النمو السريع للغاية لاستخدام

^(٢٤) نفس المرجع ، ص : ٣٨٣.

^(٢٥) عبد المحسن بدوي ، مشكلات الإعلام الجديد ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٩٤.

الإنترنت ، ستفتح أبواب هذا التخصص أمام الصحفيين في مواقع الصحف على الإنترنت ومواقع وسائل الإعلام الأخرى على الشبكة مثل التلفزيون والراديو ووكالات الأنباء والمواقع الإخبارية [Online news sites] وغيرها من المواقع التي تزداد أعدادها يوماً بعد يوم ، مما يعني فرصاً وظيفية جديدة للصحفيين والمحررين الذين يتوقع أن يزيد الطلب على خدماتهم بصورة كبيرة في غضون السنوات القادمة ؛ حتى أولئك الصحفيين الذين لا يملكون خبرة تكنولوجية فإن لديهم الفرصة لدخول عالم الصحافة الإلكترونية ، في الوقت الذي تشهد فيه الفرص الوظيفية في الإعلام التقليدي تراجعاً أو في أحسن الأحوال ثباتاً أو نمواً بطيئاً.

لقد أصبح الإنترنت بوصفه أبرز مظهر للإعلام الجديد مصدراً لاستهلاك المحتوى المعلوماتي بشكل لا يضاويه أي مصدر آخر ، إذ أنه يندر أن نجد موقعاً على الشبكة لا يهتم بتوفير المحتوى لزواره سواء أكان هذا الموقع شخصياً أو حكومياً أو تجارياً ، فمعظم المواقع تستخدم المحتوى كوسيلة لجذب الزوار وإبقائهم على صفحاتها لأطول فترة ممكنة.^(٢١)

ظهرت للإعلام الجديد آليات ومظاهر متعددة تدل على مدى توسع وتعمق هذا النوع من الإعلام في بنية المجتمع العالمي ، ومن أبرز آليات ومظاهر الإعلام الجديد ما يلي :

الهاتف الجوال : ساهم التبنى الواسع الانتشار لاتصالات الهواتف المحمولة حالياً في جعل الهاتف الجوال أكثر من وسيلة اتصال أو امتداد للخطوط الأرضية ، وصار وسيلة لوسائط إعلامية متعددة بشكل جيد ؛ فقد اتضح من بعض الدراسات أن مستخدمي الهاتف لا يريدونه فقط لإجراء اتصالات ، وإنما أيضاً للاستفادة من الوسائط الإعلامية المتعددة الملحقة به. وقد ظهرت هذه الاستفادة بشكل واضح في عام ٢٠٠٦م بظهور الجيل الثالث من الهواتف المحمولة التي تعمل على نقل مواد مرئية بدرجة عالية من النقاء ، وبالتالي يمكن استخدامه يومياً في التسجيل والتحرير والتدوين للأحداث والقصص اليومية.

أصبح للجوال الرقمي كذلك القدرة على استقبال البث التلفزيوني ، بالإضافة إلى أن الجيل الثالث يمكن استخدامه من الاتصال بشكل أسرع مع شبكة الإنترنت التي سهلت من

^(٢١) الموقع العربي الأول للإعلام الجديد : <http://www.ekateb.net> ، بتصرف.

إرسال وإجراء المعاملات البنكية والتسوق وخدمات تنزيل المواد السمعية والبصرية ، مع إمكانية بث المعلومات ، ومن خلال الهاتف المحمول نشأت الخدمات الإخبارية التي تقدم من خلال التطبيقات اللاسلكية [WAP wireless application protocol] ، وهذه التطبيقات اللاسلكية تعد المعبر إلى عالم جديد من البيانات المتحركة مثل خدمات خاصة عن ” الطقس ، الرياضة ، الأخبار ، التسوق ، التسلية ، الترفيه ، الخدمات المصرفية ، أخبار البورصة“ كل ذلك يتم توفيره من خلال الهواتف المحمولة.^(٢٧)

أشار مستخدمو المحمول بشكل مكثف إلى أن جمعاً كبيراً من المواقع الإعلامية على شبكة الإنترنت أصبحت شديدة الاهتمام بالهاتف المحمول ، وتبث إليه موادها على مدار الساعة ، على سبيل المثال مواقع شبكات التلفزيون العالمية [CNN- FOX NEWS- ABC- BBC] وبالنسبة للدول العربية نلاحظ أن تلك الظاهرة آخذة في الازدياد رغم أنها ليست منتشرة في كل الدول العربية ، ومن هذه الشبكات التلفزيونية ” الجزيرة - العربية - الإخبارية - أبو ظبي - اقرأ“ وغيرها ، بل وصل الأمر إلى قنوات الأطفال.

الإنترنت : يعتبر الإنترنت من أبرز المستحدثات التكنولوجية ووسائل الإعلام الجديد في عالم ثورة المعلومات والاتصال ، حتى أصبحت أسلوباً للتعامل اليومي ونمطاً للتبادل المعرفي ، كما أن الانتشار السريع لهذه الشبكة جعلها من أهم معالم العصر الحديث ، لما أحدثته من آثار عميقة وتغيرات جذرية في أساليب وأشكال التواصل والاتصال المباشر وغير المباشر.

أصبح الإنترنت وسيلة اتصال عالمية وتفاعلية وغير مرتبة ، وينمو استعمالها تصاعدياً ، كما أنها تمنح الأفراد فرصة الحصول على معلومات لم يسبق لهم استخدامها ، ويشبه بعض الباحثين الإنترنت بكرة الثلج التي تلتف وتكبر ، وقد سمح الإنترنت بضمّان حصول الفرد على معلومات عبر وسائل عديدة مثل مجموعات الأخبار وشبكة الإنترنت العالمية ، والبريد الإلكتروني ، ونظام إرسال الملفات ، ونظام الدردشة.

^(٢٧) صفا محمود عثمان ، إدراك الجمهور والقائم بالاتصال لوسائل الاتصال الحديثة بالتطبيق على الخدمات الإعلامية المقدمة عبر الهاتف المحمول ، ورقة قدمت في المؤتمر الدولي السنوي الرابع عشر للجمعية العربية الأمريكية لأساتذة الاتصال AUSACE ، ٧ - ١٠ نوفمبر ٢٠٠٩ م.

ساهمت شبكة الإنترنت في إيجاد شكل جديد من الإعلام عُرف في الأوساط الصحفية والعلمية بـ ”الإعلام الجديد New Media“ أو الإعلام البديل ، وتعددت تصنيفاته بين مواقع إنترنت ، ومجموعات بريدية ، هذا بخلاف المدونين أو البلوجرز ، والمنتديات الإلكترونية... إلخ. وقد ساهم هذا الإعلام في الآونة الأخيرة في جذب الأنظار بعد تفجيره لعدد من القضايا أثارت الرأي العام وأرغمت حكومات كثيرة في اتخاذ قرارات ضد رغبتها. ألغت شبكة ”الإنترنت“ المسافات ، واخترقت السدود والحدود ، مزجة بين الصوت والصورة والكلمة في صيغة رقمية ، بعد أن دمجت الحوسبة بالاتصال ، وأزالت الفواصل بين العمل والترفيه ، وفتحت نافذة واسعة للجماهير الغفيرة كي تشارك في ثورة اتصال تغير كل يوم أنماط الحياة والتفكير في مختلف دول العالم بدرجات متفاوتة ، وتنتج مشاهد ومعالم وأحوالاً لا تُصم عنها أذن سميعة ، ولا تغمض عنها عين بصيرة.^(٣٨)

تعمل وسائل الإعلام الجديدة خاصة الإنترنت على نشر الوعي العام لدى المواطنين ، ونشر الثقافة وتوعية الجمهور وزيادة اهتمامه بالشئون الاجتماعية والسياسية بما يزيد من المشاركة النشطة للأفراد وهي خطوة أولى للتنمية السياسية ، وقد وضعت شبكة الإنترنت أمام مستخدميها عدداً ضخماً يتنامى يومياً من مصادر الأخبار والمعلومات المتحررة من قيود الزمان والمكان ، ويؤكد Harrigan John أن شبكة الإنترنت أصبحت أكثر وسيلة إعلامية لإثارة الجدل والنقاش الديمقراطي حيث أضافت أبعاداً أخرى للاتصال مقارنة بالوسائل الإعلامية الأخرى ، منها : الطبيعة التفاعلية ، وصعوبة السيطرة والرقابة على المواقع الإلكترونية ، واتساع نطاق القاعدة الاجتماعية المستخدمة لها ، وعدم تقييدها بالحدود الجغرافية والسياسية ، كما تحول الجمهور المتلقي فيها من مجرد مستخدم ومستهلك مجهول للرسالة الإعلامية إلى مشارك فاعل في تشكيل تلك الرسالة ، ويرى Best & Kruegar أن الإنترنت تعد مظهراً جديداً للتطبيع الاجتماعي السياسي ووسيلة لجذب المواطنين من الشباب إلى الاقتراب بصورة أوثق من العملية التنموية والسياسية في بلادهم ، كما ظهرت توقعات مرتفعة تتعلق بإمكانية الإنترنت في إحداث التعبئة السياسية وإشراك جماعات جديدة

^(٣٨) صحيفة الاتحاد الإماراتية ، العدد ١٢٧١٧ ، بتاريخ : ٣٠ إبريل ٢٠١٠م ، د. عمار علي حسن ، مقال الإعلام الجديد... ثورة ناعمة.

مستبعدة عن ممارسة السياسة ، كما أصبحت الشبكة مصدراً مهماً للمشاركة السياسية من قبل صغار السن الذين لا تجذبهم السياسة عادة كما استطاعت جذب أناس جدد كانوا أقل تمثيلاً في أشكال المشاركة التقليدية.^(٢٩)

قد ركز بعض الباحثين على دراسة الأبعاد التفاعلية للإنترنت ، واستكشاف الاختلافات بينه وبين وسائل الإعلام التقليدية واختبار قدراته كوسيط اتصالي يخلق شبكة اجتماعية ثقافية تشبع احتياجات الناس المعرفية والاتصالية ، وقد أظهرت دراسات حديثة أن الإنترنت يصلح كوسيط وأداة فعالة للاتصال الشخصي ، بل ويستخدم كأداة مهمة في المشاركة والتفاعل اللحظي في كثير من المواقف ومناقشة مواضيع ليس من المريح التحدث فيها وجهاً لوجه ، فقد وجد بعض الباحثين أن الوسائل التفاعلية تمتلك الكثير من السمات التي لا تجدها لدى الوسائل الإلكترونية غير التفاعلية ، حيث أن المستخدمين يتصلون ويفصحون عما لا يستطيعون الإفصاح عنه في الاتصال الشخصي أو التلفوني ، ووجدت إحدى الدراسات التي تعرضت لاستخدام الإنترنت وإشباعاته ، أبعاداً جديدة للإشباع من الإنترنت تضمنت حل المشكلات وإقناع الآخرين وتأكيد العلاقات ، والبحث عن المكانة. ودراسة أخرى وجدت أن وظائف الاتصال تتحقق في أكثر الأساليب الاتصالية المستخدمة في الإنترنت مثل البريد الإلكتروني والمحادثة Chat.

يلاحظ على فئات جمهور مستخدمي الإنترنت أنهم أكثر نشاطاً ومشاركة في العملية الاتصالية بتأثير التفاعلية التي يتميز بها الاتصال الرقمي ، وبالتالي فإننا نتوقع أن يتخذ الفرد قراره في استخدام الإنترنت عن وعي كامل بحاجاته التي يريد إشباعها ومدى إشباع تلك الحاجات من استخدام الإنترنت مقارنة بوسائل الاتصال الأخرى ، ويتمثل هذا الاستخدام في اتجاهين :

(١) الاتصال بالآخرين من خلال الوسائل المتاحة على شبكة الإنترنت ، سواء كان المستخدم مرسلًا أو مستقبلًا.

^(٢٩) عيسى عبد الباقي موسى ، انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد على تنمية وعي الشباب الجامعي بالقضايا السياسية ، ورقة قدمت في : مؤتمر تقنيات الاتصال والتغير الاجتماعي ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، من ١٨ إلى ٢٠ / ٣ / ١٤٣٠ هـ ، ١٥-١٧ / ٣ / ٢٠٠٩ م ، ص : ٣.

(٢) تصفح المواقع المختلفة على شبكة الإنترنت لتلبية الحاجات.
أجريت العديد من الدراسات على الإنترنت ، خلصت إلى جملة من الدوافع لاستخدامه هي: (٣٠)

(١) بديل عن الاتصال الشخصي.

(٢) للتفاعل الشخصي.

(٣) الإدراك الذاتي عن الجماعات المختلفة من الناس.

(٤) تعلم السلوكيات المناسبة.

(٥) بديل إتصالي أقل تكلفة عن الوسائل الأخرى.

(٦) الاستمالات العقلانية.

(٧) المساندة المتبادلة مع الآخرين.

(٨) التعلم الذاتي.

(٩) التسلية.

(١٠) الأمان والصحة.

المدونات : ظهرت المدونات في بادئ أمرها ، في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٤م ، وكانت حينها على نطاق ضيق ، على شكل صفحات شخصية مفتوحة ، تحوي معلومات شخصية وأخرى عامة متنوعة ، بعض ما يكتب على تقارير حول أمور مختلفة ، وهيئة تشبه إلى حد ما الصحف الإلكترونية المتعارف عليها اليوم ، مع تطور في أدوات الإدراج وطريقة العرض. وساهم هذا التطور في زيادة عدد المدونين ، وسعة انتشار التدوين.

والمدونات في الأصل هي صفحات خاصة على شبكة الإنترنت توفرها مواقع مجانية كموقع [Blogger] ، ويتوزع هؤلاء المدونون على عدّة مواقع كبيرة منها ”جوردان بلوغ“ و”بلوغرز“ و”غوغل“ و”جيران“ و”البوابة“ و”مكتوب“ ، بالإضافة للصفحات

(٣٠) Bleise, N. (1982), “Media in Rocking Chair : Media Uses and Fun-tions Among the Elderly”, in Gumpert, p. and Cathcart R. (eds) inter /Media : Interpersonal Communication in a Media world (2 nd ed.(New York : Oxford University, pp. 624 – 634.

الشخصية لبعض المدونين المعروفين من أدباء وشعراء وفنانين ومسرحيين وغيرهم. وتستمد المدونة سماتها العامة من شخصية صاحبها والأهداف التي ضبطها من التدوين.^(٣١) ويرى آخرون أن أشكال التدوين الأولى ظهرت في فرنسا مع مطلع ١٩٨٩م في حدود شبكة اتصالية داخلية عرفت باسم : المينيتال [Minitel] ، وهي تقنية اتصالية موصولة بالمعلوماتية تتيح لمستخدميها المحليين خدمات بريدية واقتصادية وثقافية محلية ، محدودة إذا ما تمّ قياسها بالخدمات التي توفرها الإنترنت اليوم. ولكن التدوين على نطاق أوسع ، وعلى نحو يتم فيه تحميل النصوص والصّور وصور الفيديو ، ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية أواخر التسعينيات من القرن الماضي ، وتطوّر مجاله باتساع دائرة استخدام شبكة الإنترنت ونمو الشركات الناشرة للمدونات الإلكترونية مثل بلوغر [Blogger] ، وسكايلوغ [Sky Blogger] وأوفر بلوغ [Overblog] وسيكس أبارت [Sixapart] التي أتاحت توفير قوالب جاهزة لاحتضان المدونات ، قوالب ذات تصاميم متنوّعة ، مرنة الاستخدام مرفقة بحزمة من الأدوات تساعد المستخدم على التحكم كيفما يشاء في شكل مدونته ومضمونها ، وتمكّن ، في المقابل ، المتصفّحين للمدونة من التفاعل الفوري مع المضامين.^(٣٢) هناك أنواع متعددة للمدونات ، ويمكن أن تصنّف على النحو الآتي :^(٣٣)

- (١) مدونات سياسية اجتماعية : تقوم بوظيفة النقد والتعليق في الشأن السياسي والاجتماعي.
- (٢) مدونات علمية متخصصة : وهي التي تعرض مقالات علمية ونصوصاً أدبية وترجمات وغيرها كالمدونات التي تهتم بقضايا الإعلام العربي والدولي والصورة في زمن العولمة وغيرها.

^(٣١) Benoit Desavoye et Alii; Les Blogs :Nouveaux media pour tous ;M2 éditions;Paris, 2001;Francis Pisani,Internet saisi par la folie des weblogs; Le Monde Diplomatique; aout 2003,pp8-9.

^(٣٢) عبدالله الزين الحيدري ، الإعلام الجديد النظام والفوضى ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ١٣٨ .

^(٣٣) أمال قرامي ، قراءة في محتوى بعض المدونات العربية ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٢٢٣-٢٢٦ .

(٣) مدونات حقوقية : وهي التي تنشر ثقافة حقوق الإنسان ، وتدافع عن قضايا تخص حرمان الفرد من حقوقه الأساسية كالكرامة ، وحق الحياة ، وحق العمل ، وحق التعليم ، والحريات.

(٤) مدونات دينية ودعوية : وهي مندرجة في إطار نشر المعرفة الدينية والتوعية ، وعلى المستوى الإسلامي تدخل فيها جهود أسلمة المجتمع ، وتتضمن أحياناً نصوصاً تراثية للصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ، وأقوالاً مأثورة ، وكتباً ودروساً ووصايا للعلماء والدعاة ، ولا غرابة أن يرتفع عدد هذه المدونات في السنوات الأخيرة ، ذلك أن العلماء ينصحون كل من كانت له موهبة الكتابة أن يستغلها في العمل الدعوي ، وأن يمارس عبر فعل الكتابة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح.

(٥) مدونات نسائية : غايتها بث الوعي بقضايا النساء والدفاع عن قضاياهن وبث مشكلاتهن.

(٦) مدونات عامة : تتضمن مقالات حول الشعر والخواطر والسير اليومية وغيرها ، وهي أقرب إلى الحكيم والسرد الشفاهي.

مهما تعددت أنواع المدونات فإنها تلتقي جميعها في أنها تمثل في نظر أصحابها الملجأ وفضاء الارتياح النفسي ، ووسيلة تعبير عن الآراء والمواقف ، والإختيارات وغيرها ، كما أنها أفضل طريقة للكشف عن نسيج العلاقات الاجتماعية وخصائص البنية الاجتماعية باعتبار أنها تجعل الأزمات مرئية وتساهم في إسقاط الأتعة. وغير خاف أن التدوين ، ليس إلا انعكاساً لواقع المدونين أنفسهم ، واقعهم اليومي ، السياسي ، الاجتماعي ، الثقافي ولاسيما النفسي.

مشهد التدوين غداً فضاءاً للتعبير والتفاعل المتزايد وسط جغرافيا اجتماعية متعددة المواقع والثقافات ، ومجالاً نشطاً لتحقيق الأرباح وبسط النفوذ ، يلتقي في حدوده العالم والمفكر والباحث والخبير والسياسي وطالب العلم... وعامة الناس بمختلف مراتبهم التعليمية والتكوينية. وأبرز المستخلصات في هذا المضمار أن التدوين ، كسائر الأنشطة الرقمية الأخرى الجارية على شبكة الإنترنت ، هو أيضاً فضاء المفارقات المثيرة ، يمتزج فيه الكذب بالصحة ، والافتراء بالصدق ، والتحريف بالصواب ، والغش بالنصيحة.

خلصت دراسة لتحليل مضمون عينة من المدونات الإعلامية لسوزان روبنسن إلى أنه رغم اعتبار المدونات كأدوات يستثمرها الإعلاميون للتعبير عن أفكارهم إلكترونياً ، والتصدي للتحديات التي تشكّلها المدونات ” المستقلة “ ، إلا أن بعض هؤلاء الإعلاميين يتخلى عن المعايير المهنية التي تحكم عمله ، مثل التأكد من المعلومات ، ويميل إلى الأخذ بالشائعات وتغليب الأسلوب الذاتي في الكتابة.^(٣٤)

لئن تعددت البحوث والدراسات الخاصّة بتحليل انعكاسات الإنترنت أو الفضائيات على المجتمعات المعاصرة وغيرها من المسائل الناجمة عن ثورة المعلومات فإنّ موضوع المدونات ظلّ موضوعاً بكرةً في المنطقة العربية ، ولم ينل بعد حظّه من الدرس ، رغم أنه أصبح ظاهرة لافتة للنظر تستدعي من الباحثين استقراء المدونات والتمحيص في شكلها ومحتواها ، لبيان خصوصياتها وكيفية التعامل معها وتحديد مختلف الوظائف التي تنهض بها في المجالات الاتصالية والاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية.^(٣٥)

صحافة المواطن :

صحافة المواطن هي : ” نشاط للمواطنين يلعبون خلاله دوراً حياً في عملية جمع وتحرير وتحليل الأخبار ، وهذه المشاركة تتم بنية مد الوسائل الإعلامية بمعلومات دقيقة وموثوق بها ومستقلة تستجيب لمتطلبات المشاركة في الهم العام “^(٣٦) ، وصحافة المواطن وفق التعريف السابق صارت من مهتمات الإعلام في العصر الحاضر ؛ فقد بات المواطن الصحفي مكملًا للمشهد الإعلامي في كثير من المناطق ، سيما مناطق النزاعات والتعقيم الإعلامي ، وهي

(٣٤) Robinson, S. (2006, February). The Mission of the j-blog : Reclaiming journalistic authority online. Journalism, 7(1), 65-83. Retrieved November 26, 2008, from <http://web.ebscohost.com/ehost/detail?vid=6&hid=13&sid=f2d43e44-e84b-4ba7-8605-29986b9819a9&sessionmgr2&bdata=JnNpdGU9ZWwhvc3QtbG12ZQ%3d%3d#d b=ufh&AN=20301375>.

(٣٥) آمال قرامي ، قراءة في محتوى بعض المدونات العربية ، مرجع سابق ، ص : ٢٢٠ .

(٣٦) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد من فانقر بوش إلى نيكولاس نيغروبونتي ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص : ٣٤ .

صحافة لم نعهدها من قبل ، مما جعل البعض يقول إنه خلال سنوات قليلة سيصبح نصف الإنتاج الصحفي من عمل المواطنين.

يمكن تقسيم صحافة المواطن إلى عدة تقسيمات :

(١) أدوات مشاركة الجمهور : وتتمثل أطر مشاركة الجمهور **Audience Participation** في تعليقات القراء المرتبطة بالأخبار ، والمدونات الشخصية ، والصور أو لقطات الفيديو المصورة بالكاميرات الشخصية.

(٢) مواقع الأخبار المستقلة : وهي تتمثل في مواقع الإنترنت الإخبارية المستقلة مثل **Consumer Reports**.

(٣) مواقع الأخبار التشاركية النائمة : **Full-fledged Participatory News Sites** ونموذج لها الموقع الكوري الجنوبي أوه ماي نيوز.

(٤) مواقع المساهمة العامة : **laborative and Contributory Sites** ICo مثل موقع سلاشدوت **Slashdot**.

(٥) مواقع البث الشخصية : **Personal Broadcasting Sites** مثل **KenRadio** ^(٣٧).

هذا النوع الجديد من الصحافة وهو صحافة المواطن يتميز بالتفاعلية والتواصل الفوري بوسائل وطرق متنوعة تكسر حواجز الصمت في سرعة نقل الحس الشعبي تجاه الأحداث والمواقف والشخصيات وهدم اللغة الرسمية والفوقية وحرية طرح المواضيع الحساسة والخطيرة ، الأمر الذي يستدعي توافر قسط من الرسائل والدراسات العلمية حول هذا الموضوع بالذات. ^(٣٨)

^(٣٧) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد من فانفر بوش إلى نيكولاس نيغروبونتي ، مرجع سابق ، ص : ٣٤.

^(٣٨) تلخيص لرسالة دكتوراة حول الصحافة الإلكترونية العربية : الالتزام والانفلات في الخطاب والعرض ، موجودة علي الرابط :

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=contact>

سمات الإعلام الجديد :

ما جرى في الإعلام خلال السنوات الأخيرة هو ثورة بكل المقاييس ، يمكن أن نصفها بأنها ” ثورة إعلامية “ أو اتصالية ، تضاف إلى الثورات الناعمة التي يشهدها العالم ، التي تغيرنا من دون إراقة نقطة دم واحدة ، لاسيما بعد أن صارت الثورات السياسية نفسها تناسب في سلاسة وسلامة عبر التطور الديمقراطي ، كما يقول جون فوران وزملاؤه في كتابهم ” مستقبل الثورات “ ، والثورة الاتصالية تلك تكسر النماذج الإرشادية التقليدية ، متسقة في هذا مع الطفرات المعرفية التي شهدتها العالم في العقود الأخيرة ، ومن ثم لا يمكن فهمها أو الإحاطة بها اعتماداً على طرق التفسير التقليدية لأداء الإعلام ، ونظرياته البسيطة المعهودة ، بل تحتاج إلى مقاربات ومداخل مبتكرة وجديدة تواكب التطور الرهيب الذي يشهده عالم الاتصال.

لهذه الثورة الاتصالية سمات عدة ، سنسبها في هذا المقام ، كنوع من العصف الذهني ، أو مجرد طرح أولي ينتظر التعديل بالحذف أو الإضافة ، وأولى هذه السمات هي :^(٣٩)

(١) توسيع المشاركة الشعبية في صناعة الإعلام ، بما جعلنا نشهد ما يمكن أن يسمى بـ ” المواطن الصحفي “ ، كما ذكرنا سابقاً ، إذ بوسع أي شخص أن يكتب ما يشاء ويبثه على الإنترنت في موقع خاص أو مدونة أو حتى في تعقيب على مقالات الكتاب ، وأخبار وتقارير وتحليلات وتحقيقات الصحفيين ، وهذا الاتساع الإعلامي حقق كل ما حلم به من كتبوا منذ عقود عن ” مسرح المقيمين “ متخيلين ومطالبين بأن يشارك المتفرجون في صناعة النص المسرحي وتمثيله.

(٢) تعزيز الفردية ، التي تتغول دوماً بفعل التقدم التقني وتغير بعض أنماط وطرائق المعيشة ، فمثلاً أدى اختراع الطباعة وتقدمها إلى إنهاء التجمعات البشرية التي كانت تتحلق حول شخص يقرأ لهم مخطوطاً ، وبات بوسع كل شخص أن يقرأ كتابه مختلياً بنفسه ، كما أدى اختراع ” الساندويتش “ إلى انصراف أفراد الأسرة عن التجمع لتناول الوجبات اليومية المعتادة. وعلى المنوال نفسه فإن الإنترنت ستزيد من عزلة الفرد عن

(٣٩) صحيفة الاتحاد الإماراتية ، العدد ١٢٧١٧ ، بتاريخ : ٣٠ إبريل ٢٠١٠ م ، د. عمار علي حسن ، مقال الإعلام الجديد... ثورة ناعمة.

المحيطين به مباشرة من أفراد الأسرة والأصدقاء والرفاق ، وتعيد دمجها في ” مجتمع افتراضي “ ، ليصبح له أصدقاء من شتى أرجاء المعمورة قد لا يرى وجوههم أبداً ، لكنه يتواصل معهم ويقضي بصحبته ساعات طويلة عبر ” البريد الإلكتروني “ أو ” الماسنجر “ أو ” الشات “ أو ” الفيس بوك “ أو ” اليوتيوب “. ومثل هذا الوضع قد يعيد في المستقبل تشكيل الهويات والانتماءات.

(٣) إعطاء دفعة قوية لاقتصادات المعرفة ، فإذا كان النفط قد لعب دوراً حيوياً في الثورة الصناعية ، فإن عالم الرقميات ستكون له اليد الطولى في الطفرات الاقتصادية الحديثة ، التي تسعى جاهدة إلى الاعتماد على بدائل جديدة للطاقة ، وإلى إنتاج سلع جديدة ، لم يعرفها العالم من قبل.

(٤) تحدي السلطة ، عبر منازعتها في امتلاك وسائل الإعلام ، والرد عليها حين تستخدم هذه الوسائل في التعبئة والحشد وتبرير السياسات القائمة ، وتزييف الوعي في شقه المناهض للاستبداد والفساد. وهنا يكسر الإعلام الجديد تسلطية وأحادية ورسمية وقدسية أهداف الإعلام القديم ، ويضغط على السلطة من أجل تحسين الأوضاع القائمة ، وتغييرها بما يؤدي إلى مزيد من الحرية والكفاية. وقد بلغ الإعلام في هذا حداً عالياً ، إلى درجة أنه بات يمثل الرقيب الحقيقي على أداء الحكومات.

يلاحظ أن الإعلام الجديد تتواضع قدرة السلطة على تتبعه وحصاره وتقويضه وإسكات صوته ، مما سيؤدي حتماً إلى تعزيز الحريات الثلاث حول التفكير والتعبير والتدبير ، إذ إنه يساعد الناس على الاطلاع على ما يجري في مختلف أرجاء المعمورة من عادات وطرق تفكير وتصرف ، ويفتح أمامهم باباً واسعاً ليعبروا عن آرائهم ، ثم يمنحهم وسيلة مهمة تعينهم على التواصل والتعبئة ضد أو مع ما يرونه صحيحاً ، لكن الإنترنت تظل هنا مجرد وسيلة وليست غاية ، فالدعوة إلى التظاهر والتغيير من خلال البريد الإلكتروني أو ” الفيس بوك “ ، إن لم تتبعها استجابة في الواقع فإنها تفقد معناها.

(٥) الإفراط في استخدام الإعلام كركيزة أساسية في السجال العقائدي الذي يدور في العالم أجمع ، لاسيما بعد أن صار الدين يشكل عاملاً بارزاً من عوامل الصراع الدولي الراهن ، بفعل إذكاء الولايات المتحدة لمسار ” الإسلاموفوبيا “ في سياق بحثها عن

عدو عقب انهيار الاتحاد السوفيتي ، من جهة ، وطرحها فكرة ” الفوضى الخلاقة “ التي تقوم على إشعال النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية ، من جهة ثانية. رغم هذه السمات فإن هناك جملة من التحديات تواجه الإعلام الجديد منها : المفهوم التقليدي للأمن القومي والمخاوف التي تتزايد بشأن تناول عدد من القضايا بصورة يعتبرها البعض إنتقاصاً من حق الدولة ، بالإضافة إلى ما يسمى ” فوبيا الغرب “ التي تبرز في التعامل بحساسية مع كل ما يصدره الغرب وخاصة أننا دائماً ما نتلقى فقط ولا نظور ، والتحدي الثالث هو كيفية وضع إطار تشريعي أو أخلاقي يتم التعامل مع وسائل الإعلام الجديد على أساسه.^(٤٠)

أهمية البعد القيمي في مناخ الإعلام الجديد :

كانت لجنة شون ماكبرايد التي وضعت تقريرها الصادر عن اليونسكو عام ١٩٨٠ ، قد حددت ثماني وظائف للاتصال الجماهيري ، هي : الإعلام ، التنشئة الاجتماعية ، الحفز ، المناقشة والحوار ، التعليم ، التثقيف ، الترفيه ، التقارب الاجتماعي.^(٤١) ولكن لاحظ بعض علماء الإعلام العرب أن الإعلام العربي تقل فيه الوظائف المهمة للإعلام ويركز على البرامج الترفيهية بنسبة عالية جداً ثم البرامج الإخبارية والتربوية والدينية بنسب أقل بكثير من الأولى.^(٤٢)

مع الإعلام الجديد ، صار المواطن العادي على استعداد لتقبل وجهة نظر الطرف الآخر ، سواء في فضائية عربية أو غير عربية ، ومناقشتها وربما تحديها ، وهذا يمثل بالتأكيد اتجاهاً جديداً في تفكير الإنسان العربي ، سببه بالدرجة الأولى قيام وسائل الاتصال الجماهيري العربية الجديدة بتقديم وظائف لم يكن الإعلام القديم يوليها العناية اللازمة على المستوى القومي ، من مثل الحوار والمناقشة والتثقيف ، والتقارب الاجتماعي القومي .

^(٤٠) تقرير عن ورشة عمل : تأثير الإعلام الجديد على الممارسة الديمقراطية في الشرق الأوسط ، موجود على الرابط : <http://www.tgmacs.com/pp/read/1899> .

^(٤١) MacBride, Sean, et al. Many Voices : One World. Paris : UNESCO, 1980, p.14.

^(٤٢) مصطفى المصمودي ، النظام الإعلامي الجديد (الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٥ ، ص : ٢٩٣ .

أسقطت وسائل الإعلام الجديدة الحواجز بين الشعوب واستعادت البشرية اتصالها المؤلف ببعضها وانهارت حواجز الاقتباس والاقتداء والانتقاء والانبهار وانطلقت ثورة المعلومات تؤثر في من يرغب ومن هو مستعد دون معوقات أو تعقيدات ليصبح هناك حوارات وتفاعلات لا تنتهي ولتصبح الثقافة الإنسانية بوتقة تصهر كافة الثقافات في تفاعل حضارى مستمر ، وشهدت المجتمعات العربية تغيرات هامة خلال فترة زمنية قصيرة على كافة المستويات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما كان له الكثير من الآثار على البنيان المجتمعي والبناء القيمي ، كما كان له الكثير من الآثار والتحويلات الثقافية في الحياة وفي أشكال السلوك.

لكن الخطورة تظل ماثلة بنوعية البرامج وبالمضامين التي تحملها والقيم التي تبشر بها ، وباب الخطورة الرئيس يأتي باعتبار ان وسائل الاتصال الإلكترونية تعزز السطحية والميل للبرامج الخفيفة والتسلية وترسخ التقاليد الشفاهية ، القائمة على القيل والقال والرواية الشفوية ، وليس القراءة المتأنية العميقة والتحليلية ، مع تدهور في اللغة ، حيث يستخدم الكثيرون اللغة المحكية وهي خليط من الفصحى والدارجة واللغات الأجنبية أحياناً. وعليه فان التأكيد على أهمية تطوير صناعة إعلامية ذات مستوى لائق ترقى بالثقافة الجماهيرية العربية وتواجه تحديات الغزو الثقافي والاستعمار الإلكتروني تكون خطوة مهمة ، لكنها بحاجة لجهود اخرى تدعمها.

تشير بعض الدراسات الحديثة في المنطقة العربية إلى تنامي ظاهرة ابتزاز الفتيات للشبان والعكس باستخدام التقنيات الحديثة ، سواء كانت من خلال الجوال أو عن طريق شبكة الإنترنت ، بالاستفادة من سهولة تكوين الصداقات الإلكترونية بين الجنسين.

في دراسة مصرية حول التعرض للإنترنت لدى شباب الريف جاءت المواقع الترفيهية في الترتيب الأول من حيث تفضيل أفراد العينة لها ، بينما جاءت المواقع الثقافية والسياسية في الترتيب الرابع والخامس ، وهذا يعني أن أكثرية الشباب تتردد على مواقع الإنترنت لأغراض غير مفيدة ، والخطورة هنا أن هؤلاء الشباب تقل أعمارهم عن ثلاثين عامًا الأمر الذي يؤدي إلى الإدمان السلبي للإنترنت **Negative Addiction** ، حيث يرتبط هذا النوع من الإدمان ، بانخفاض التفاعل الاجتماعي في المنزل وكذلك نقصان الوجود السيكولوجي

الأفضل وهذا يزيد من الاكتئاب والعزلة والعصبية ، ومن خلال إدمان الإنترنت ينفصل الفرد عن ذاته وعن الواقع الحقيقي.^(٤٣)

في ظل هذا التجاذب على المحتوى في الإعلام الجديد لابد من وضع رؤية تعين على تأطير مسار هذا النوع من الإعلام ليلعب دوره ورسالته السامية في تبصير الناس بأصول وأحكام الدين الإسلامي بأسلوب سهل مبسط يسهل على الرجل العادي فهمه ، ومحاربة البدع والخرافات والفرق الضالة التي تحاول النيل من الإسلام والتصدي لأعداء الإسلام فيما يثرونه من طعون وافتراءات وشبهات حول الإسلام وتدعيم القيم الدينية في المجتمعات الإسلامية.^(٤٤)

ينبغي لأي عمل إعلامي أن ينطلق من أخلاقيات وقيم تعبر عن قيم المرسل ، وأهم هذه الأبعاد القيمية : الصدق ، باعتباره الدافع لادبيات التعامل مع المادة الإعلامية ، فالحقيقة هي المحور المحرك للإعلامي والوصول إليها ليس عبر الطرق الملتوية ولا القصيرة المشوبة بما يחדش دفتها وصدقها وواقعيتها.

بجانب قيمة احترام الكرامة الانسانية ويقتضي ذلك عرض الأخبار و الصور بما لا يمس هذه الكرامة بجانب استعمال وسائل قانونية سليمة للحصول على المعلومات ، بحيث لا يجوز استعمال أساليب مثل الخداع و التوريط و الابتزاز و التلاعب بالأشخاص مثل التسجيل أو التصوير غير القانوني.

كما يجب على الإعلامي أو من يقوم مقامه أن يتحمل مسؤولية الصحة من أخباره بمعنى انه لا يجوز نقل أي خبر أو معلومة دون التحقق منها والتحري بشأنها والتزام الدقة في معالجتها والحذر في نشرها قبل الاستيثاق ، بجانب العدالة التي تقتضي توخي الحكمة في عرض الأخبار والصور والابتعاد ما امكن عن أساليب المبالغة والتهويل والإثارة الرخيصة.

^(٤٣) عبد الجواد سعيد ، التعرض للإنترنت وعلاقته ببعض الآثار النفسية لدى شباب الريف ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ١٩٤ .

^(٤٤) زاهر محمد البيك ، الصحافة الدينية ، بحث قدم لقسم الصحافة والإعلام ، الجامعة الإسلامية - غزة ، موجود علي موقع الجامعة ، ص : ٨ .

كما ينبغي للإعلام أن يتولى الرد على التساؤلات والاستفسارات التي لا يجد القراء حلولاً لها وذلك من خلال إجابة العلماء عليها ، ويسهم في تفسير الظواهر الطبيعية والعلمية تفسيراً دينياً صحيحاً يكشف عن حقيقة هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ويعمل لربط مشاعر المتلقين وإيجاد وجدان عام بالإحساس والانتماء إلى ثقافة واحدة وذلك بما تقدمه من موضوعات مختلفة وخاصة ما يتصل منها بالتاريخ الإسلامي إلى جانب غرس العقيدة الصحيحة في أذهان المتلقين بأسلوب عصري جذاب.

أنجع السبل لاستفادة مثلى من الإعلام الجديد في التصدي للتطرف وتعزيز الوسطية :

يقتضي الحديث عن حمى التطرف والغلو الإشارة إلى أنها ظاهرة ليست مختصة بالمسلمين وحدهم ، فقد وجد الغلو في التكفير عند كل من اليهود للنصارى والعكس ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة : ١١٣] ، حتى أدى بهم الأمر إلى استباحة دماء وأعراض كل منهما الآخر^(٥٠) فاليهود تُقرُّ مبدأ القتال لأنه مرتبط بوجودهم وبقائهم وأنهم أبناء الله وأحباؤه وما سواهم أميون يجوز أن يفعلوا بهم ما شاؤوا على مبدئهم الخبيث أنهم شعب الله المختار.

أما ظهور نابتة الغلو والتكفير في الإسلام فمثلاً غلو الخوارج وتشددهم وخاصة في تكفير أبناء ملتهم وموقفهم من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فكانت مظاهر تطرف الخوارج وإرهابهم تتمثل في غلوهم في دينهم من خلال أصولهم العقدية التي اشتهرت عنهم بعد هذه المرحلة التاريخية ، حيث تأصلت أصولهم ، وظهرت قواعدهم في عقيدتهم وفي تعاملهم مع المسلمين من خلال التكفير للمسلمين ولإهانة وعامة بمجرد حصول الذنب من أي منهم ، ومنه حكموا على علي بن أبي طالب وقبلة عثمان بن عفان وعلى معاوية ومن معهم رضي الله عنهم بالكفر في أعيانهم ، ثم أُفرد هذا عندهم إلى كل صاحب ذنب من المسلمين. فإنه بمجرد حصول الذنب منه يكفر عينا ويخرج من الملة إلا أن يتوب فعليه

^(٥٠) عبد الرحمن عبد المحسن ، التطرف الديني عند بني إسرائيل ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٤ ، شعبان ١٤٠٨ هـ ، ص ٨٧-٩١ .

الدخول في الدين مجدداً ، وترتب على التكفير الخروج على المكفرين بالسيف ، وبالقتال ، وهو استحلال دماء المكفرين وأعراضهم وأموالهم.^(٤٦)

لم تكن فرقة الخوارج ظاهرة تاريخية انقضى زمنها ؛ إذ لا يزال خطر أولئك الخوارج مستمراً ، حيث ظهرت في هذا الزمان طوائف تنادي بأفكارهم ، وتؤصل على ذات أصولهم ، مثل جماعة التكفير والهجرة وتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ”داعش“ وغيرها ، وترى هذه الجماعات تصفية وقتل كل من خالفهم أو رد عليهم ، وترى التكفير بالمعاصي والحكم على صاحبها بالخلود بها في نار جهنم. وهذا من أعظم المسوغات لحصول التكفير والتفجير والقتل واستباحة الدماء والأعراض والأموال والسعي في الأرض فساداً ، وتخويف الآمنين ، وإشاعة الفوضى والخوف بين المجتمعات الآمنة.^(٤٧)

من المؤكد أن ظاهرة الغلو بأبعادها هذه ؛ تقتضي التعامل معها بعلمية لاجتثاث جذورها من المجتمع المسلم ، ومن الواضح أن تقنيات الإعلام الجديد قد باتت سلاحاً مهماً وأداة ممتازة قليلة التكاليف وواسعة الانتشار لخلق حوار مجتمعي حول قضايا المجتمع المسلم وعلى رأسها تنامي ظاهرة التطرف والغلو ، في ظل ضعف للتوظيف الأمثل لهذا الإعلام الوليد من قبل الدولة ومؤسسات المجتمع وقوى التغيير والمؤسسات المعنية بالتوجيه والإرشاد.

للاستفادة القصوى من تقنيات الإعلام الجديد في تعزيز الوسطية والحد من غلواء التطرف والغلو في الدين ، لا بد أن نجد في التعرف على آليات تطوير الإعلام الجديد والتي من أهمها : التدريب على فن كتابة الخبر والمقال وآلية عرضها ، التصوير وفن عرض الصور ، الفيلم وآلية صناعته ، وسائل الأمان لحفظ المدونات من الاختراق ، الحماية القانونية للمدونين وآلية الإعلان عن المدونات والأخبار الجديدة.

يمكن لوسائل الإعلام الجديد أن تسهم في التصدي لظاهرة التطرف وما يتبعها من مظاهر الغلو في الدين ، والتجافي عن منهج العدل والوسطية عقيدةً وقولاً وعملاً ، وذلك بالمساهمة في نشر العلم الصحيح والقضاء على الجهل أو محاصرته ، وهو بيئة التطرف التي

^(٤٦) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل ، الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف ، بحث موجود على الإنترنت ، ص : ٢٣ .

^(٤٧) المرجع السابق ، ص : ٤٢ .

يتعرع فيها ، مع معالجة الظواهر الفردية بالحكمة والبصيرة اللاتقة بها زماناً وواقعاً وحالاً ، ويتأتى هذا بالعلماء الراسخين ، والحكماء ذوي العقل والفطنة.

خاتمة :

أصبح الإنترنت ووسائل الإعلام الجديدة في متناول اليد ، مما يجعل من السهل ملاحظة الاستخدام السلبي لها لأن المراهقين والشبان هم الفئة العمرية الغالبة في بلاد المسلمين وهم أكثر المستخدمين لهذه الوسائل ، فينبغي أن يوجه استخدام هذه الوسائل بشكل إيجابي ، ولكن الواقع يقول إن كل تقنيات الجوال والإنترنت تظهر في العالم لأسباب تجارية وتسويقية بحتة ويساء استخدامها في المجتمعات العربية خصوصا لأسباب اجتماعية وسياسية ونفسية.

يلاحظ أن الخلل في فهم العلاقات الاجتماعية بين أطراف المجتمع المسلم ، وإساءة استخدام وسائل الإعلام الجديد حالياً هو نتيجة حتمية في ظل الظروف التي تمر بها مجتمعاتنا ، والمشكلة أن المؤسسات البديلة التي يفترض أن تقوم بدور التوعية والتثقيف لا تزال تقف موقف المراقب والمنكّر ، والحل الأول لأي مشكلة هو الاعتراف بها والبدء بوضع حلول علمية لتطبيقها ، وهو ما لا نراه في مجال التعامل مع إساءة استخدام وسائل الإعلام الجديد في المجتمع.^(٤٨)

ينبغي لاستخدام أمثل للإعلام الجديد في التصدي لموضوع التطرف السعي لتكوين رؤية تساعد المسؤولين والمنظمين والممارسين على الاستخدام الأمثل لوسائل الإعلام الجديد منعاً للجنوح والتجاوز ، وتعبيد كل طرق التعبير التي تتيحها وسائل الإعلام الجديد مع التركيز على التحلي بالوطنية والموضوعية في تناول.

تبين من خلال البحث ضرورة التكامل بين مختلف الوسائل الإعلامية القديمة والجديدة لإحداث التغيير ؛ الذي يتطلب وسيلة مسموعة ومرئية ؛ ومن هنا فإحداث التكامل بين الوسائل المختلفة هو السبيل لنجاح التصدي لحمى التطرف ، مع دراسة الجوانب النفسية للجمهور المستهدف لضمان الوصول السلس للرسالة المطلوبة ؛ بجانب تكرار الرسالة.

^(٤٨) صحيفة الشرق الأوسط ، الثلاثاء ١٦ ربيع الاول ١٤٣١ هـ ٢ مارس ٢٠١٠ العدد ١١٤١٧ ، ويمكن مراجعة الرابط : <http://www.aawsat.com/details.asp>

تبين من خلال البحث كذلك الغياب الملحوظ لدراسات الاتصال المباشر والاتصال الشخصي بالجماعات والمؤسسات المرجعية التي ينتمى إليها الفرد وأسرته مثل المسجد والمدرسة والجامعة ومؤسسة العلماء والدعاة والمصلحين ومنظمات الدعوة والإرشاد والمنظمات الخيرية والإنسانية ، بجانب ضرورة تفعيل أدوار مؤسسات المجتمع الطوعية في حل مشكلات البطالة والإدمان وغيرها من المشكلات التي تعترض الشباب المسلم فيقع في حبال التطرف والغلو في الدين .

توصيات :

يمكن أن نوصي في ختام هذا البحث بجملة توصيات يمكن أن تسهم في الوصول لدور مقدر لوسائط الإعلام الجديد في التصدي للتطرف وما يتبعه من غلو وعنق بأنواعه ، وهي :

- (١) تشجيع البحث العلمي والدراسات الخاصة بالإعلام الجديد ، وسبل الاستفادة القصوى من إمكانياته وضرورة إحكام التنسيق بين الجهات المعنية في مجال الإعلام الجديد.
- (٢) زيادة وتعميق اهتمام وسائط الإعلام الجديد بالتوعية بأخطار التطرف والغلو ، والتنوير بشبهات أهله ودحضها.
- (٣) تكثيف الجهود التوعوية لمستخدمي الإنترنت حول مسائل الغلو في الدين والحذر عند التعامل مع مواقع الإنترنت ذات الصلة بالتطرف ومنظوماته.
- (٤) تدريب الكوادر العاملة في مجال الحواسيب والإنترنت على آليات وأساليب مكافحة توسع المواقع التي تبث فكر التطرف على الإنترنت.
- (٥) التوعية الأسرية بالمخاطر الاجتماعية والتربوية لاستخدام الشباب للإنترنت بدون رقابة الأسر ، وتنمية المفاهيم الدينية السليمة التي تقى الشباب من الوقوع في براثن التطرف وتوابعه.

المراجع :

- (١) أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين، ٢٠٠٩م.
- (٢) ساعد ساعد ، الشباب العربي والمضامين الإعلامية الإخبارية بين الاستهلاك والتفاعل ، ورقة قدمت في مؤتمر الشباب والاتصال والميديا بتونس ، ٣١-١٦ أبريل ٢٠١٠م.
- (٣) صفا محمود عثمان ، إدراك الجمهور والقائم بالاتصال لوسائل الاتصال الحديثة بالتطبيق على الخدمات الإعلامية المقدمة عبر الهاتف المحمول ، ورقة قدمت في المؤتمر الدولي السنوي الرابع عشر للجمعية العربية الأمريكية لأساتذة الاتصال AUSACE، ٧-١٠ نوفمبر ٢٠٠٩م.
- (٤) عمار علي حسن ، مقال بعنوان :الإعلام الجديد... ثورة ناعمة ، صحيفة الاتحاد الإماراتية ، العدد ١٢٧١٧ ، بتاريخ : ٣٠ إبريل ٢٠١٠م.
- (٥) عيسى عبد الباقي موسى ، انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد على تنمية وعي الشباب الجامعي بالقضايا السياسية ، ورقة قدمت في : مؤتمر تقنيات الاتصال والتغير الاجتماعي ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، من ١٨ الي ٢٠ / ٣ / ١٤٣٠هـ ، ١٥-١٧ / ٣ / ٢٠٠٩م.
- (٦) مصطفى المصمودي ، النظام الإعلامي الجديد ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٥ ، ص : ٢٩٣.
- (٧) عبد الرحمن عبد المحسن ، التطرف الديني عند بني إسرائيل ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٤ ، شعبان ١٤٠٨هـ.
- (٨) صحيفة الشرق الأوسط ، الثلاثاء ١٦ ربيع الأول ١٤٣١ هـ ٢ مارس ٢٠١٠ العدد ١١٤١٧.

مراجع إنجليزية :

- (1) Alan R. Dennis , susan T. Kinney , Testing Media richness theory, in : The New Media : The Effects of cues , Feed back , and task Equivocally , Information systems research.
- (2) M.EL-Shinnawy , and Mark us ,M ,Media Richness Theory and New Communication Media : A study of Voice mail and

- Electronic mail , proc. international conf. on Information systems, Dallas tx , 1992.
- (3) J. Habermes , the public sphere , in c. Mukerji and schudson. M(eds) Retching popular culture : contemporary perspectives in cultural studies , 1991.
- (4) Crosbie ,Vin, (1998). What is New Media?
([http ://www.digitaldeliverance.com/philosophydefinition-definition.Html](http://www.digitaldeliverance.com/philosophydefinition-definition.Html))
Accessed July. 2006.
- (5) Bleise, N. (1982), “Media in Rocking Chair : Media Uses and Fun- tions Among the Elderly”, in Gumpert, p. and Cathcart R. (eds) inter /Media : Interpersonal Communication in a Media world (2 nd ed.(New York : Oxford University.
- (6) Benoit Desavoie et Alii; Les Blogs :Nouveaux media pour tous ;M2 éditions;Paris, 2001;Francis Pisani,Internet saisi par la folie des weblogs; Le Monde Diplomatique; aout , 2003.
- (7) MacBride, Sean, et al. Many Voices : One World. Paris : UNESCO, 1980.

مواقع إنترنت :

- (١) روبي جراد ، الإعلام الجديد.. قوة الانتشار وضعف المصادقية ، شبكة الشاهد الدولي : [http ://arabic.alshahid.net/columnists/6348](http://arabic.alshahid.net/columnists/6348).
- (٢) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة ، ورقة منشورة على موقع البوابة العربية لعلوم الاتصال. تلخيص لرسالة دكتوراة حول الصحافة الإلكترونية العربية : الالتزام والانفلات في الخطاب والعرض ، موجودة على الرابط : www.diwanalarab.com/spip.php?page=contact
- (٣) تقرير عن ورشة عمل : تأثير الإعلام الجديد على الممارسة الديمقراطية في الشرق الأوسط ، موجود على الرابط : www.tgmacs.com/pp/read/1899
- (٤) زاهر محمد البيك ، الصحافة الدينية ، بحث قدم لقسم الصحافة والإعلام ، الجامعة الإسلامية - غزة ، موجود على موقع الجامعة الإسلامية في غزة.